نبع الآداب والثقافة المعاصرة

البلهاء

Looloo
www.looloolibrary.com

طيبة أحمد الإبراهيم

البلهاء

فى مستهل قدومى إلى المنزل الجديد ، قادتنى الخادمة إلى صالة الجلوس فى المنزل ، عجبت من خلو المكان . بيد أنه على الرغم من ذلك ، كنت أسمع ضجيجا يدل على الغبطة والسرور ، منذ أن نزلت من عربتى قرب الباب الخارجى .

فلم أتمكن من استكناه مايحدث ، فالتفت إلى الخادمة متسائلة .

ـ ولكن أين هم ؟ أين أختى وأبناؤها ؟ ومن أين تصدر هذه الأصوات المهللة ؟

ردت :

ـ الأبناء فى غرفتهم ، وربما هم نائمون ، أما السيدة (سارة) فهى فى السرداب مع ضيوفها .

فقلت :

ـ عجبًا ، متى حولت السرداب إلى غرفة للاستقبال ، فى هذا المدى القصير ؟

هل أصلحته ؟ لقد كان خاويًا خربًا ، هل فعلت به ما فعلت بالسرداب فى منزل جدتها ؟ ما هذه الضجة ؟ إنى أسمع موسيقى مطردة ، هل هى تصدر من السرداب ؟

ردت الخادمة متهربة من الإجابة .

Looloo
www.looloolibrary.com

– سوف أستدعى السيدة لك .

فقلت متعجلة ، وقد حزرت ماذا كان يحدث فى الأسفل :

– كلا سوف أذهب بنفسى إليها .

لم تذعن الخادمة ، فاعترضتنى قائلة :

– ولكن السيدة (سارة) نبهت على أن لا أدخل عليها أحدًا إلاَّ بعد إذنها .

أزحتها بيدى قائلة :

– إليك عنى ، ألا تعلمين بأنى أختها .

واندفعت بسرعة ناحية الممر الذى يؤدى إلى السرداب ، والخادمة تركض ورائى محتجة على تصرفى .

على الرغم من أن عملية شراء المنزل كانت قريبة ، وأختى لم يتجاوز سكنها إياه أقل من الشهرين ، وأنا لم أدخله سوى مرة واحدة مع أختى فى البدء ، عندما ذهبنا معا لكى تراه وتوافق عليه ، قبل أن أشتريه لها ، إلا أننى عرفت طريقى إلى السرداب سريعًا .

ما كدت أقف فوق أسفل درجة من سلم السرداب القصير ، حتى صعقت تماما ، فلم أكن أتوقع مطلقا أن أرى ما رأيت .

كانت أختى واقفة على أطراف أصابع قدميها مائلة بجذعها قليلا إلى الخلف ، وكانت تلف وشاحا أخضر اللون حول ردفيها

الذى كان أحدهما مرتفعا فوق مستوى الآخر ، وكان ذلك الوشاح معقودًا على جانبها الأيمن ، فوق ردائها الأحمر البالغ الضيق ، والذى يرتفع إلى ما فوق ركبتيها الناصعة البياض ، حتى يكاد يبين ردفيها العريضين .

لقد كانت واقفة على تلك الهيئة وسط حلقة من المدعوين يقارب عددهم خمسة عشر رجلاً وسيدتين ، فكانوا رابضين على ركبهم متخلين عن مقاعدهم التى كانت مصفوفة خلفهم على شكل دائرة مغلقة ، وخلفهم يقف ثلاثة من الموسيقيين وضارب الدف . وكان مما يبدو من سحنتهم أنهم مأخوذون بما هم فيه ، يحتويهم استحواذ كامل ناجم عما يشعرون به من طرب .

كان واضحًا لى فى جلاء تام أن أختى كانت فى وضعية الراقص ، فى ذلك الحيز الضيق وسط تلك الدائرة المغلقة .

وقد توقفت توقفا مفاجئًا على تلك الوضعية عندما رأتنى أمامها بغتة . ولكن الذى لم يكن واضحًا لى تلك القطعة من الشاش التى تلونت بمادة صفراء والتى تغطى جانبًا من جبينها ، ثم ذلك الاحمرار المزرق الدائر حول عينها اليسرى المنتفخة بورم شديد .

لقد تناهى إلى سمعى أنها ضربت ، لا بد أن ذلك حدث فى أثناء مشاجراتها ، فهى عادة تكون عصبية جدًا عندما تجرع الخمر . ولكن ممن ؟ هذا ما لم أعرفه .

Looloo
www.looloolibrary.com

عندما توقفت عند آخر عتبة للسرداب ، فى نطاق الرؤية . وعند مشاهدة الجميع لى ، تسمرت أختى على تلك الهيئة ، فى وضعيتها تلك بعد مفاجأتها بحضورى .

ثم توقف الجميع عن التصفيق وأكف البعض منهم ما زالت متقابلة على وضعيتها قبل أن أدخل .

وأيضًا من توقف أختى المفاجئ ، وظهور الغضب على وجهها ، الذى دلَّ عليه الاحمرار الذى كسا وجهها وجيدها الناصع البياض ، عرفت جوقة الموسيقى أن ثمة شيئًا غير مريح قد حدث . فتوقفت هى الأخرى عن العزف .

زعقت بى أختى بضراوة ، دون أن توجه لى أية تحية :

ـ لماذا أنت هنا ، من الذى دعاك ؟ ناهيك عن الدخول بدون إذن .

فقلت مثقلة بالسخرية :

ـ لا تخشى شيئًا لم آت للزيارة ، لقد كان باعثى إلى المجىء هنا ، ورقة هذا المنزل بعد أن تم تحويله إلى ملكيتك ، هاهى ، مصدقا عليها من وزارة العدل ، كما كان الاتفاق بيننا فى آخر مرة رأيتك بها ، ألم نتفق على ذلك فى مكتب المحامى الذى قام بتحرير العقود بينك وبين المالك القديم ، على أن أتم الإجراءات وآتى لك بمستند الملكية ، هل نسيت ؟ ، أم ترانى ارتكبت خطأً فادحًا لقيامى بهذه العملية نيابة عنك ، الأمر الذى حدا بك إلى هذا الغضب ؟!

قلت هذا ، ورميت بالورقة تحت قدميها العاريتين ، ذات الأظفار المصبوغة بطلاءٍ فاقع اللون يشبه لون فستانها .

فقالت وأنا أهم بإدارة ظهرى لها ، تهيؤًا للانصراف .

ـ كان بإمكانك إناطة أحد غيرك بهذه المهمة ، أو حتى إرسالها فى البريد ، ولكنك جئت للتجسس على . فأنا لا تَخْفَى على مزاعمك الواهية البتة .

كانت عبارتها الأخيرة صحيحة مائة بالمائة ، فأنا أردت أن أرى ما كان يتواتر إلى سمعى عن تصرفاتها فى أثناء ما كانت فى منزل جدَّتها ، والذى ما كانت تتهيأ لى الفرصة لرؤية ما تفعله عن كثب ، فعلى الرغم من كل ما مضى لى معها ، ومع كل ما رأيته منها من ضروب الطيش والاستهتار ، إلاَّ أنى كنت فى حاجة إلى أن أرى بأم عينى ما رأيته منها الآن ، لكى أصدق ما يقال عنها .

بيد أنه لم يكن يصل إلى مخيلتى البتة ، نطاق الدرك الذى وصلت إليه من سوء التصرف ، فى وقتها الراهن ، وقت أزماتها المالية وهى فى سنها هذه ، لقد بدت وكأنها مسكونة بقلق انفلات شبابها ، فأفلتت المعايير منها ، وهى تريد أن تمسك بآخر خيوط شمسها الغاربة .

كانت أختى (سارة) قد بلغت الثالثة والخمسين من عمرها . فبات وجهها الوضىء وهى فى هذا العمر مطفأ الصقال وقد

Looloo
www.looloolibrary.com

غارت وجنتاها ، وخددتهما الغضون واعترى الاصفرار لونها ، كما أصاب عنقها الترهل ، فبدت خطوط عميقة تحيط برقبتها ، كانت دومًا تحاول أن تخفيها بعدد لا يحصى من التلفيعات الملونة التى تتمشى مع ألوان ثيابها ، إلا أنه لم يكن فى مقدورها أن تخفى تدلى ذقنها ، كما لم تستطع أن تخفى تلك الانتفاخات التى تحت عينيها بما تذره من تلك المساحيق البيضاء .

ولكن على الرغم من كل ما كان يعتريها ، كان يمكن أن تحتفظ ببعض من إشراقة جمالها السابق ، وكان يمكن أن تحتفظ بقدر أكبر منه لو لم تسرف على نفسها هذا الإسراف ، لو أنها كفت عن السهر والسكر ، مصونة عن القلق .

ولكن إزاء هذه الحالة من الانحدار ، وبما تنطوى عليه تصرفاتها من نزق وخفة طائشة ، وبمثل ذلك التبرج ، فقد كانت تبدو بتلك الزينة كغانية عجوز .

ولا أظن إلا أنه لم يتبق لها إلا حيز ضيق من الزمن . وأن تجارتها سوف تبور قريبًا .

والأنكأ من ذلك أنها على الرغم من كل هذا ، فهى ما زالت غير مدركة لما هى عليه .

كان منزلها هذا الذى ساعدتها على ابتياعه مؤخرًا ، بعد نكبتها بخالها الذى طردها من منزل جدتها الذى عاشت به فترة طويلة من عمرها ـ سوف أذكر ذلك فيما بعد ـ فعلى

الرغم من قصر المدة على سكنها إياه ، إلا أنه قد أضحى لافتًا للنظر بعد أن بات مرتعًا للفساد أشبه ببيت للدعارة ، لكل من أراد أن يمارس الانحلال بشتى صوره ، فى تلك الحفلات الحمراء الماجنة ، التى كانت تقيمها لضيوفها ، والتى كانت ترقص بها شبه عارية حتى الصباح ، والجميع من حولها يصفق ، غير عالمين وغير عابئين بمعرفة ، هل ما كانوا يشعرون به من دوار من فعل تأثير تمايل خصرها اللدن ، أم أن الخمر التى كانت تسقيهم إياها ، قد فعلت فعلها بالرءوس .

لقد خالجنى الشك فيما سمعته من أقاويل حول ما يدور فى داخل هذا المنزل الجديد ، لو لم أر بأم عينى الآن .

وكنت أتوقع أن تعود عليها مغبة تهورها وما يمكن أن يحدث لها من اعتراضات جيرانها ، بعد أن باتت وحيدة ، بعد موت جدتها وتنكر خالها لها . بيد أنه فيما يبدو أن سمعة جدتها الطيبة ، حتى بعد وفاتها ، كانت بمثابة الحامى للحفيدة من أية مضايقات ، وحتى من مداهمة بوليس الآداب للمنزل ذى السمعة السيئة .

سمعتها تقول :

ـ ألم تسمعى ما قلت ، كان بإمكانك أن ترسليها مع أحد السعاة ، الذين يملئون مكتبك الفخم .

فتوقفت مستديرة وقد استثير غضبى إلى درجة الاحتقان ، فقد تداعى إلى ذهنى تغيير كل ما كان فى نيتى من خطط نحو

Looloo
www.looloolibrary.com

بذل ما فى وسعى لمساعدتها . لقد قرّعزمى فجأة أن أتركها لشأنها تتدبر أمر نفسها مع خالها ، فقلت :

ـ أجل ، كان فى إمكانى أن أبعث بها إليك ، ولكن جئت أيضًا لكى يتسنى لى إخبارك ، بأن خالك قد ربح القضية المقامة ضدك ، وعليك إن أردت استرداد أموالك أن تقومى بالتفاهم مع المحامى الموكل بقضيتك ، لكى يقوم بعملية الاستئناف .

فقالت بغضب تستوضح :

ـ ولماذا لا تقومى أنت بالتفاهم معه ؟ ألم تنصبى نفسك ولية على تصريف شئونى ؟

فقلت :

ـ أنت تعلمين ، أنى لم أنصب نفسى ، وجدتنى مرغمة ، بعد أن أنيط بى ذلك ، بعد أن رأت جدتك ما أنت عليه من سوء تقدير للأمور . على أية حال كونى مطمئنة ، سوف أتنحى عن كل ما يخصك ، منذ الآن لست متولية لك أى شأن . ها قد تركت لك أمرك ، لا أظن إلا أنك بلغت الرشد وأنت فى هذه السن .

ارتفعت حدة غضبها ، وقد تجلى ذلك من ازدياد احمرار وجهها وعنقها .

ـ أتسخرين منى ، إنك لست إلاّ خادمة لى ، ولست حارسة على أموالى ، كما قد تبادر إلى ظنك دوما ، ثم إن لدى المال الذى فى حوزتك ، ذلك الذى وهبته جدّتى لك .

رددت عليها بغضب أكثر ضراوة :

ـ مادامت هى هبة ممنوحة لى ، كما تعرفين ، ألا يدحض هذا مطالبتك بها ، عرفًا وقانونًا ، ثم إن هذه الأموال ، قام خالك بالحجر عليها أيضا ، إلى أن تنتهى القضية التى أقامها ضدى لاسترداد هذه المنحة .

فضحكت شامتة :

ـ أرأيت عاقبة طمعك ، لم يفدك تملقك لجدّتى ، حسنًا ، لدىّ أصدقائى الذين سوف أحظى بمساعدتهم ، سوف يقفون خلفى يعينوننى .

وأشارت بإصبعها حول دائرتهم وهى تلف على عقبيها متمايلة فى اختلال ، غير قادرة على مسك توازنها . وأتمت :

ـ أما أنت فليس لديك أصدقاء وسوف تتضورين جوعًا ، بعد أن يستولى خالى على ما لديك من أموال لجدتى .

على الرغم من معرفتى بأنها غير واعية تمامًا لما تقوله ، إلاّ أن ردها كان فوق مقدرتى على ما أتحمل من الصبر ، فقلت :

ـ كلا لن أموت من الجوع ، هذا ما سوف يحل بك أنت ، أما أنا فلن يعنينى أصدقاء أو أعداء ، لدى أموال زوجى ، لم أبددها مستنزفة كما فعلت أنت ، ثم إنك تفتقرين إلى أبسط معطيات التفكير المتزن ، انظرى إلى نفسك ، إنك تسقطينها فى هاوية العار ، بسبب هذا الخزى الذى كرست نفسك لممارسته ، أليس لديك وازع فكرى يردعك ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

لا شك أنك بغضبك هذا ، تحاولين إضفاء غطاء يخفى رعبك من النهاية الناجمة من تسطح أفكارك المتنابذة ، وهذه الطرائق فى التصرف الطائش ، التى ستنحو بك إلى الهلاك الذى سوف تؤولين إليه حتمًا .

وسريعًا شعرت بأننى قسوت عليها بفداحة ، وبأكثر مما يتعين على قوله ، فتداركت :

ـ حسنًا ، عندما تفيقين مما تعاطيته ، فكرى بما يتوجب عليك فعله ، وإن لم يكن فى ميسورك معالجة الأمر ، أخبرينى لعلنى أستطيع المساعدة .

وأردت أن أنحو إلى التقارب معها لعلى أمحو من نفسها بعضًا من قسوتى عليها ، فقلت بتعاطف :

ـ ولكن أخبرينى من الذى قام بضربك ؟

فضحكت وكأنى قلت لها نكتة نادرة ، ثم لم تلبث حتى كشرت عن أنيابها فى تنمر وقالت منفعلة :

ـ وما يولجك بشأنى ، ألم تقولى منذ لحظة إنك ما عدت تهتمين بى ؟ ليتك فعلت ذلك منذ أمد . كنت دائمًا تقحمين نفسك بما لا يعنيك من أمرى . لم ترعى أبدًا رغبتى فى التخلص من رعايتك المدعية لى ، كنت لا تنى دائمًا عن الادعاء بذلك خصوصًا أمام جدتّى ، والآن بعد أن زال غبن رعايتك لى ، لماذا تحاولين مجددا فرضها على ؟ انصرفى لست بحاجة إلى تدخلك بشأنى ،

ليضربنى من أراد ضربى ، وليقتلنى من أراد قتلى ، وحتى خالى ليأخذ ما يريد من أموالى . أما أنت فلست إلاّ غريبة مدعية القرابة ، وعليك إعادة كل فلس أخذته من جدتى .

والتفتت إلى أصدقائها الذين عادوا إلى الجلوس على مقاعدهم ، يرقبون سجال المناقشة الملتهبة بينى وبينها ، وهم صامتون كأنهم قدوا من حجر لا يكاد يسمع منهم سوى تردد أنفاسهم .

وأتممت مستشهدة بهم :

ـ أليس كذلك ، أليس ما قلته صحيحًا ؟

أجلت عينىّ فى الحضور آملة من أى واحد منهم أن يتبرع بالإجابة على تساؤلها ، ولكنهم جميعًا لفتوا أنظارهم بعيدًا عنى ، وعنها .

عندئذ استدرت أصعد السلم ، لقد كان واضحا لى أنها لم تكن فى وعيها ، فلم تدرك عمق المأساة التى سوف تتعرض لها بعد استيلاء خالها على أموالها التى تركتها لها جدتها ، كما لم تدرك قبل ذلك الكثير من معضلات الحياة التى تركت بها جرحًا لا يرأب .

ولكن الآن لندعها سادرة فى غيها لا يردعها رادع ، ولنبدأ من البداية البعيدة لهذه الحكاية ، عندما كانت هذه النهاية المحزنة مجهولة منا كل الجهل .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ١ ـ

كان من أحب الأماكن لدى ما تكاثر حوله الماء ، لذلك عشقت قرية (أم الجمال) ، تلك القرية الهادئة الجميلة ، التى يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها ، ويتشعب داخلها فى قنوات ، وبحيرات صغيرة صافية رقراقة .

وكان منظر أشجار النخيل وشجيرات القولف المتناثرة فى بقع متباعدة فى غير ترتيب متعمد ، يعطى رونق الطبيعة البكر ، وكان يعمق هذا الانطباع نبات الرمرام ، الذى ينمو دون أن يبذره أو يتعهده أحد ، كاسيًا الأرض المقفرة بخضرة باهتة ، لتباعد منابته ، ومع ذلك ففى مقدورك تنسم ضوعه الخاص ، وأنت على مبعدة يسيرة من القرية ، عبر صحاريها المندّاة .

كانت هذه القرية جديدة علىَ كل الجدة ، على الرغم من كونها مسقط رأس أبى ، إلا أنى لم أزرها قط ، قبل هذه المرة ، لعدة أسباب ، من أهمها أن والدتى تهوى حياة المدن ، ولأن أبى يمكن أن يقال عنه إنه من ذلك النوع من الرجال المسالمين ، الذين لا يمكن للمراقب إلا أن يدعو تسليمه ذاك صنوا للخنوع ، لذلك فقد كان منصاعًا بكليته إلى رغبات أمى . مما حدا بى وأنا ابنته إلى أن أرفض منه ذلك الاستسلام ، وأعيبه عليه .

ومن تلك الأسباب أيضًا انشغال أبى ، فمنذ أن فُتحت عيناى على الحياة ، وهو يعمل خارج حدود دولتنا .

ثم بُعد قرية (أم الجمال) عن العاصمة ، التى كنا نسكنها بعد عودتنا من الخارج ، حيث كان يعمل أبى وعمرى لا يزال بضعة أعوام .

كل ذلك ساعد فى عدم معرفتى بقرية أبى .

أما السبب الأهم ، من كل ما سبق ، أن والدتى ترفض فى إصرار وحزم ، أن تكون على مقربة من ذوى أبى ، فهى ترفض أى تزاور مع أسرة والدى كى لا يجدوا التشجيع اللازم لمبادلة تلك الزيارات ، كما همست لى ذات يوم :

ـ لا أريد أن أقيم معهم أى نوع من أنواع الصداقة ، أو أى نوع من العلاقة .

غير أن جدّتى لم تأبه كثيرًا ، لمحاولات القطيعة ، من أمى ، فكانت تأتى إلى زيارتنا ، بين آونة وأخرى ، يصحبها جدى ، وكان ذلك يتم فى أوقات متباعدة ، ربما مرة فى السنة أو مرة كل سنتين ، ولأيام قلائل ، وكان ذلك بعد عودتنا من الخارج بالطبع . بيد أن أبى دأب على الذهاب إلى زيارة أمه وأبيه ، كلما حصل على إجازة طويلة من عمله ، تمكنه من اقتسامها ما بين أمى وأمه . وكانت أمى ترفض رفضًا باتًا ، أن يصحب أبًا منا معه . ولأنه دومًا فى انقياد لها ، فلم يفعل .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولكن ، فى هذه المرة ، فقد خرج الأمر من يدها ، بعد مرض أبى العضال ، لقد نصح الأطباء والدى ، بالالتجاء إلى طقس قريته ، بعيدًا عن اختناق جو العاصمة ، الشديد التلوث الذى لايلائم رئتيه .

وذهب أبى إلى قريته ، ليعيش هناك قرب والدته ، وأنف أمى راغم ، وبقينا نحن الثلاثة أنا وأختى وأخى فى حوزة أمى .

وإذ لم يكن ، فى قدرة أبى الابتعاد عنا كثيرًا ، وقد مضت سنة كاملة ، على مفارقته لنا ، وهو لا يستطيع مغادرة قريته ، للقيام بزيارتنا ، وقد ثقلت وطأة المرض عليه ، لذا فقد أرسل إلى والدتى ، يرجوها اصطحابنا إلى زيارته ، فى أيام العطلة الدراسية ، معبرًا عن شدة ولهه وشوقه لرؤيتنا . وبما أنه على معرفة تامة ، بمدى كراهية والدتى لوالدته ، فقد قدم اقتراحا إضافيا ، فى آخر رسالته ، يقول فيه : (إن كانت لاترغب بالمجىء إليه ، فلتبعث بالولد والبنتين على الأقل) .

داهم الغضب أمى سريعًا ، كعادتها فى أى شأن يخص جدتى ، فأخذت من عبارته الأخيرة ذريعة ، تحتج بها ، كى لاتذهب إلى هناك . ولذا فقد قالت مرعدة :

« أنه لا يريد أن يرانى ، إنه فى غنى عنى بأمه ، فليهنأ بها » .

وعبثا حاولت التخفيف من غلوائها ، فكل ما قلته بهذا الخصوص جاء بغير طائل ، بل أفضى بها الأمر إلى التهديد ،

بأن تحجبنا عنه ، فيما لو استمر إلحاحى ، فى إقناعها بالذهاب معنا . فسكتّ على مضض .

وعندئذ فقط سمحت لى ، ولأخى بالذهاب إلى زيارة والدى ، ولكنها تمسكت ببقاء أختى معها .

عند ذاك ، ألغيت من جانبى الرحلة ، وأعلنتها بكل إصرار ، بأنى لن أتحرك قيد أنملة ، ما لم نصطحب أختى معنا .

وكنت أخال نفسى أملك عذرًا قويًا ، عندما ذكرتها بأنه ليس فى مقدورى خدمة أبى وجدتى بمفردى ، وأنى فى مسيس الحاجة إلى مساعدة أختى .

فقالت مفندة ذريعتى :

ـ ليس ثمة ما يدعونى إلى خدمة أحد ، ومعرفة كيف كانا يتدبران أمرهما ، كل هذه المدة ، ثم لا تنسى أن أباك استعان بخادمة ، لقد ذكر ذلك فى آخر رسالة له .

وعقبت فى غضب أكثر :

ـ جلب لجدتك خادمة ، وبخل على بمثلها ، لذا يجب أن تبقى أختك معى ، لإعانتى فى خدمة المنزل .

بيد أنى أصررت بكل ما أملك من قوة ، فى مجابهة والدتى . وصممت ، بأنى لن أتحرك خطوة واحدة ، ما لم تكن أختى معى ، ولم يُجْدِ معى أى إقناع ، محتجة بأن أبى مشتاق إلى رؤيتها ، كما هو الحال معه بالنسبة لنا ، أنا وأخى ، إنها ابنته الصغيرة ، ولا بد له من أن يراها .

Looloo
www.looloolibrary.com

وفى النهاية ، عندما رأت شدة إصرارى ، وأن كل ما تلفظت به من عبارات التهديد جاءت بغير طائل . سمحت لنا باصطحابها على مضض ، مشترطة على أن تكون زيارتها قصيرة . وذلك بأن تعود قبلى ، فيما لو رغبت وأخى البقاء هناك لأكثر من أسبوع ، أو إلى حين انتهاء الإجازة الدراسية ، وفتح أبواب المدارس .

بيد أنه على الرغم ، من موافقتى الظاهرة ، على ذلك الاشتراط من أمى ، إلا أنه فى حقيقة الأمر ، لم يكن فى نيتى تنفيذه ، بل كان همى الأكبر أن لا أدع أختى تعود معى إطلاقًا ، لقد كنت أنوى تركها عند أبى وجدّتى ، كنت أروم أن أجعل الصغيرة فى منأى عنا ، وبعد ذلك ليكن ما يكون من غضب والدتى .

قد لا أكون مغالية ، إذا إقلت أنى لم أشعر بالمتعة ، فى أى سفرةٍ من سفراتى العديدة ، مع والدى ، سواء كان ذلك خارج الوطن ، أو داخله ، بالقدر الذى استشعرته ، ونحن فى الطريق إلى قرية أبى ، قرية (أم الجمال) .

خرجنا من المنزل فى الخامسة صباحًا ، كى نلحق بقطار الساعة السادسة ، كان خالى الذى أقلنا بعربته إلى المحطة ، بات ليلته عندنا ، كى نلحق القطار فى الوقت المحدد ، أما والدتى فقد رفضت رفضًا قاطعًا مرافقتنا ، إلى المحطة لتوديعنا هناك ، كما لو كان ثمة من سيشدها ، ويجرها مجبرة على

ركوب القطار معنا ، قلت لها مازحة ، وأنا على أهبة الخروج من المنزل ، للحاق بأخوتى وخالى ، الجالسين فى العربة ، وكان خالى يضغط على (زمور) العربة ، فى مناداة لى . قلت لها :

- اربطى قدميك بسلسلة إلى عربة خالى ، كى لا تركبى القطار معنا .

ولكنها لم تتقبل دعابتى ، فزجرتنى آمرة إياى بالإسراع ، للحاق بالجميع ، وإلا فإنها ستغلق الباب دونى ، للحيلولة دون خروجى .

كانت أختى مذهولة من ركوب العربة ، التى تعتليها لأول مرة منذ أن وعَت الحياة ، على الرغم من أنها فى التاسعة من عمرها ، وعلى الرغم من أنها عربة خالى ، والمفترض أن تكون ركبتها عددًا من المرات ، بالقدر الذى نكون نحن ركبناها .

والأنكأ من ذلك ، أنها شدهت تمامًا ، وهى تركب عربة القطار ، وقد تعثرت مرتين ، فى حذائها الواسع ، الذى كان فى الأصل حذائى ، فى السنة الماضية .

فقال أخى زاجرًا ومهددًا ، ونحن نتلفت داخل القطار بحثًا عن أماكن لجلوسنا :

- لا تكونى بلهاء حقيقية ، انتبهى إلى خطواتك ، كى لا يضحك علينا الناس ، وإلا سوف أعيدك إلى المنزل .

Looloo
www.looloolibrary.com

سرنى أن ليس فى ميسوره أن يفعل ذلك ، بعد انصراف خالى من المحطة ، ولكنى مع هذا رمقته بغضب ، وقلت له :

ـ أجلس بعيدًا عنا ، إن كنت تستشعر عارًا .

وفعلاً ، اتخذ مكانًا له فى الجهة الموازية لجلوسنا ، وكان لاويًا شفتيه ، فيما يشبه التشنج الغاضب ، ملتفتا إلى الجهة المعاكسة لجهتنا من الطريق ، ينظر عبر النافذة إلى الحقول ، طوال ثلاث ساعات من الزمن ، الذى استغرقته الرحلة .

كان محقًا بعض الشىء ، فيما أبداه من تذمر ، لقد كانت الربكة والانشداه اللذان يكسوان ملامح أختى ، كانا ينمان بوضوح ، بأنها مبهورة ، بكل ما تراه ، وكأنها محررة لتوها من فوهة قمقم ، حالك الظلام . وكان هذا مدعاة لخجل الجميع .

وأختى أيضًا كانت محقة ، فيما اعتراها من انبهار ، إذ عرف أن خبرتها عن هذين الشيئين لا تتعدى حدود المشاهدة البعيدة ، من منافذ منزلنا المرتفعة التى كانت فى الطابق الخامس من عمارتنا الشاهقة ، لقد كانت ترى سيل العربات متقاطرة فى الشارع ، أو عندما يحدث لها ذلك ، وهى تنشر ثياب الغسيل على الحبل المعلق فى الشرفة ، أو وهى تتبع خطواتنا بنظريها من نافذة المطبخ ونحن ذاهبان إلى المدرسة أنا وأخى ، مشيرة لى بيدها مودعة عندما ألتفت إليها . أو وهى تجلب الخبز من الفرن القريب من المنزل ، أو أى شىء آخر مما نحتاج إليه من البقال المجاور لمنزلنا . بيد أنها لم تشاهد

قطارًا ، قبل هذه المرة ، أو تركب أية وسيلة مواصلات أخرى ، منذ وعَت الدنيا ، إذ لم يسبق لها أن ابتعدت عن منزلنا ، لأكثر من بضعة أمتار ، أجل لم يتعد حدود تجوالها خارج المنزل ، بأكثر من خمسين مترًا ، فى كل مرة تخرج بها . على الرغم من أنها ولدت فى الخارج ، إلا أن أبى أنهى عمله هناك ، فى نفس عام مولدها ، بعد نكبة البلد ، الذى كان يعمل به ، بعد تعرضه للغزو ، كما ذكر أبى ذلك مرارا ، ثم بعد هذا تم حرمانها من الخروج معنا ، بأوامر صارمة من والدتى ، إلى الدرجة التى كانت تلقى بفكرة الخروج من المنزل ، فيما لو أصر أبى أو أنا على اصطحابها معنا . لذلك كانت أختى المسكينة مقفرة الذهن تماما ، عن أيما فكرة خارج جدران منزلنا ، أو ما يحيط به من الخارج ، لأبعد من شارعنا الضيق .

ولذا كان كل أمر ، وكل شىء يبدو أمامها كامل الجدة ، وغريبًا على ما تفهمه من أمور الحياة المحيطة بها ، مما أفضى بها إلى ذلك الانبهار التام ، الأشبه بالانتشاء ، أو الانشداه ، بل هو الانشداه بعينه ، فى يوم سفرها الأول هذا .

ولكى أزيد من خبراتها فى هذا اليوم ، جعلت مكانها ونحن فى القطار لصيقًا بالنافذة ، ليتم لها الاستمتاع بالرحلة أيضًا .

استغرقتها المشاهدة طوال الطريق ، فلم تنبس بعد صمتها الطويل ذاك ، إلا ونحن على مشارف القرية ، إذ قالت ، وهى تنظر من خلال زجاج النافذة :

Looloo
www.looloolibrary.com

– لمن هذه الجمال ؟

كان من عادة أهالى قرية (أم الجمال) ، أن يتركوا حيواناتهم سائبة فى البرارى ، المحيطة بالقرية ، وكانت هذه هى المرة الأولى ، التى ترى بها أختى جمالاً وأبقارًا حية غير مرسومة أو مصورة على الورق ، مما فى كتبنا المدرسية ، التى تتفرج عليها ولا تستطيع قراءتها إلا بصعوبة ، بعدما أقعدتها أمى عن المدرسة قبل الصف الرابع الابتدائى ، لمساعدتها فى إدارة المنزل .

قلت لها :

– إنها لمن يملكها .

تساءلت :

– ولكنها ليست ملكا لأحد ، إنها سائبة !!

فقلت :

– كلا إنها ترعى ، وسوف يأتى من يعيدها إلى حظائرها ، فى المساء .

فسكتت بعد هاتين الجملتين ، اللتين هما كل ما نطقت به طوال الرحلة ، وعادت إلى اهتمامها الداخلى ، بما تراه .

وأنا أيضًا لم تكن بىَ رغبة فى إطالة الحديث ، فقد كنت أدوِّن ملاحظاتى الجديدة ، لأسجلها فيما أنوى كتابته ، فى روايتى

الأولى ، تلك الرواية التى بفضلها دخلت إلى عالم الأدب والشهرة ، من أوسع الأبواب ، فيما تلا ذلك من الأيام ، ولكن لن أتحدث عن ذلك الآن .

ولنعد إلى ما نحن فيه .

كان أمر منع أختى من الخروج من المنزل ، يبدو لى عجيبًا ، عندما أفكر به ، خصوصًا فى مدينتنا هذه ، التى تعد كبيرة وعظيمة بين المدن .

إذ تضم خمسة عشر مليونًا من البشر ، وهى أم العواصم كما يقول أبى ، ومهد التاريخ ، ومنبع الحضارة ، كما تقول مدرسة التاريخ فى مدرستنا ، يؤازرها فى قولها ذاك ، وعلى نحو موصول ، كل ما فى دولتنا ، من أبواق الإعلام الرسمية ، وغير الرسمية ، عبر البث الإذاعى والتلفازى ، وعبر النشر فى جميع المطبوعات ، مرددة ليل نهار أمجاد الماضى ، عارضة آثاره فى ألوان قشيبة ، متفاخرة به إلى أقصى حدود التفاخر ، حتى إنى بت لا أشعر أنِّى منتمية إلى زمنى الحاضر ، فى منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين .

وليس أنا وحدى من يحس ذلك ، بل بِتنا كلنا دولة وشعبًا ، جماعات وأفرادًا ، دونما استثناء ، وكأننا منفصلون عن واقعنا المعاش ، وأننا نلهث زاحفين على أعقابنا فى حقب التاريخ الممتد ، محاولين جهدنا إيقاف عجلة الزمن ، عند تلك الحقبة من تاريخنا اللامع ، وكأننا مستكفون بما كان لنا من أمجاد غابرة ، لذا لا تخالجنا أدنى رغبة فى السعى إلى تجديدها ، أو

Looloo
www.looloolibrary.com

حتى استبدال بأمجاد جديدة بها ، إن هوسنا فى محبة تاريخنا العريق ، هذا التاريخ الموغل فى القدم ، الذى كاد الناس أن ينسوه ، لولا ما نردده كل يوم ، بل كل ساعة كى لاننساه نحن ، أمسى كالمخدر ، الذى يفرحنا بما كان لدينا ، غير آبهين بما هو بين أيدينا ، أو متطلعين فى تحفز إلى ما يأتى به مستقبل الأيام . وكأننا فى ما نحن فيه ، معارضون قول الذى يملك رؤى خاصة ، حينما قال « إن الماضى ليس سوى كذبة ، وإن الذاكرة ليس فيها أى سبيل للعودة » .

* * *

فى هذه المدينة الكبيرة القديمة ، الآهلة بكثافة خانقة ، تكاد القدم تطأ القدم ، والصوت يتداخل مع الصوت ، فى صخب من الضجيج والزعيق ، المستمرين طوال اليوم فى ذلك التلوث السمعى ، الآتى من ضوضاء أبواق عربات الأجرة ، التى لاتهدأ طيلة النهار ، وجزء كبير من الليل ، غير عابئة بالنيام ، وكأن ليس فى المدينة الكبيرة ، سوى ذلك الزبون ، الذى تقله إلى مقره ، ربما بعد سكرة عربيدة ، أو صفقة تجارية محمومة ، يخشى انفلاتها ، أو ماخور استنفد كل طاقاته ، مضافًا إلى كل ذلك ، جلبة أول النهار ، من جراء أصوات الباعة الجائلين ، التى تزعق فى أصوات كالنباح ، فى مناداة محمومة ، على العسل والفجل والليمون والطماطم ، ومختلف أنواع الخضار الأخرى ، مبتدئين ذلك الزعيق من الساعة الخامسة صباحًا ،

وحتى قبيل الظهر بقليل ، عندما يدرك أولئك الباعة ، أن ربات البيوت قد أخذن كل ما يحتجن له ، عبر تلك السلال المربوطة بالحبال ، المدلاة خلال النوافذ أو الشرفات ، محتوية على النزر اليسير من النقود ، عائدة بالقليل من الخضار ، مسحوبة إلى فوق ، من مختلف طبقات البنايات المكللة بطبقات من الأتربة المتطايرة من أديم الأرض ، من سحق أقدام نصف عارية ، أو من دخان عوادم العربات ، مختلطًا مع ما يتطاير من رذاذ تفاف شخص ما ، مار فى الطريق ، أو جالس على مصطبة دكانه ، أو راكب عربة ، مادًّا رأسه عبر زجاجها المفتوح .

لقد قلت لنفسى مرارًا : إن خمسين مليونًا من أصل سبعين من مواطنى يقومون بهذه العملية القذرة ، وإن كل بصقة من فم مفتوح تزن مقدار جفنة صغيرة ، وإذا كان الجردل يزن خمسمائة جفنة ، على وجه التقدير ، إذن مائة ألف جردل من البصاق ، تنتشر على أرضنا ذات المحتد العريق ، كل يوم ، من فجره اللؤلئى ، ذى النسائم العبقة ، بأريج الأزاهير الذابلة ، إلى مسائه المعتم ، وقد انعقد فى سمائه الغبار المبلل بالرذاذ .

وأقول لنفسى هاتفة بها : كيف السبيل إلى التجديد ، مادمنا لانعرف كيف نقوم بهذه العملية اليسيرة ، كيف السبيل إلى التجديد ، ونحن نبصق على أرضنا الحبيبة ، وكأننا نلعن أمجادنا المفعمة بالعراقة ، كيف السبيل إلى التجديد ، ونحن لانعرف كيف نحجب أعمالنا القذرة ؟!

Looloo
www.looloolibrary.com

فى هذه المدينة الآهلة بكثافة ، لشتى أنواع البشر ، والقديم فيها أكثر من الجديد ، والقذر فيها أكثر من النظيف .

كل هذا وأختى فى موجة انشداه داهم ، من ركوب القطار ، بل وحتى من ركوب العربة .

ولكن يتعين على أن أقول : إنه ليس عليها أية ملامة ، إذ إن حرمانها القسرى من مخالطة هذه الأشياء ، وعدم معرفتها بها ، ليس ناجمًا من قصور فى ذهنها عن الاستيعاب ، وإن أدى ذلك إلى التأثير عليها فيما تلا من أيامها .

وكذلك ، لم يكن ، سببه قصورًا فى مواردنا المالية ، فعلى الرغم مما يشاع عن الفقر العام لدولتنا ، إلا أن وضعنا المالى أفضل كثيرًا ، من الكثيرين غيرنا . فهو لم يصل إلى حد من التردى ، الذى يقودنا إلى تضييق الخناق على أطفالنا من مثال أختى المسكينة .

لقد كنا نعيش أنا وهى وأخى و والدينا ، فى حىّ يعتبر من المناطق الراقية ، ومع هذا فنحن لا نسكن منزلاً قائمًا بذاته ، مخصصا لنا ، كما هو مفترض بمن يقطن فى مثل ذلك الحى الراقى ، الذى يعتبر كذلك فى ذلك الزمن ، وحتى يومنا هذا ، وإنما كنا نقطن فى (شقة) متوسطة من عمارة شاهقة تقع على مشارف الحى .

وكان منزلنا ذاك يحتوى على ثلاث غرف ، الكبرى لأمى وأبى ، والتى تليها فى السعة لى ولأختى ، أما الصغرى فلأخى ،

ثم هناك غرفة واسعة للجلوس ، أو الصالون كما تدعوها والدتى ، بالإضافة إلى مطبخ واسع ، ثم البهو المستطيل ، الذى ينقسم إلى قسمين ، قسم يضم مائدة الطعام ، والآخر للجلوس اليومى ، كما يوجد حمامان أحدهما كبير وواسع ، ومع ذلك محظور على أختى استعماله ، بأمر من والدتى ، والآخر صغير ، قرب المطبخ ، مخصص لاستعمال أختى ، بأمر من والدتى أيضًا ، مع أنه كان فى أصل البناء ، مخصصًا لمن يخدم العائلة ، وبما أنه ليس لدينا أى من الخدم ، وإنما من كان يقوم بالخدمة ، لا يعدو كونها أختى الصغيرة ، لذا فقد خصص لها ذلك الحمام ، كما لو كان الجرب سيصيبنا ، لو أنها شاركتنا فى حمامنا الواسع ، مع كونها ليست مجروبة .

ابتاع أبى هذه (الشقة) ، التى تعتبر فخمة ، لمن كان فى مستوى عائلته الفلاحة المدقعة فى الفقر ، بما حصل عليه من ثروة لا بأس بها ، فى أثناء عمله فى الخارج ، فى إحدى الدول النفطية الغنية ، حيث مكث هناك مدة لا تقل عن ثلاثة عشر عامًا ، وكان أبى مغرمًا بتلك الدولة ، مهووسًا بها ، حتى إنه تزوج هناك ، من ابنة أحد المغتربين مثله ، التى هى أمنا وأنجبتنا نحن الثلاثة هناك أيضا .

وعندما عدنا إلى موطننا ، بعد عملية الغزو لتلك الدولة الغنية ، من جارة لها طامعة بثروتها الطائلة ، منذ تسعة أعوام تقريبًا ، وكان معه هذا المقدار من المال ، الذى ابتاع

Looloo
www.looloolibrary.com

بوساطته هذه الدار الصغيرة، بسعر بخس، بالمقارنة مع أسعار هذه الأيام، وابتاع أيضًا لوالديه مزرعة، فى قرية (أم الجمال)، تحتوى على دار صغيرة قريبة من البحر الذى كان أبى مولعًا به مثلى، وقد سجل المزرعة والدار باسم جدى وجدتى، كى يضمن أن لا تستولى عليهما والدتى، وتطردهما منهما، فى حال وفاته قبلهما.

عدا ذلك فهو يقول: إن لديه مبلغًا من المال صغيرًا مودعًا فى أحد البنوك، يدر علينا ربحًا صغيرًا يكفى لإعالتنا، حتى إنهاء دراستنا أنا وأخى، ويكون فى ميسورنا حين ذاك، القيام بأود العائلة بعد تخرجنا وعملنا.

أجل هذا كل ما كان فى ميسور أبى توفيره، من عمله فى الخارج، وحال كهذه كما تبدو ليس بها ما يعوق أختى، عن معرفة كيفية ركوب العربة، وعدم تجربتها، كما هو الحال مع كل امرئ فى هذا العصر.

بيد أن ثمة أسبابًا أخرى، كانت تغمض على فى مبدأ الأمر، ولكن قبل الاسترسال فى الشرح، ووضع الأمور فى نصابها، يتعين على التعريف بنا.

اسمى (سعاد)، وهو معنى مرادف لاسمى، أما أخى فيدعى (سعيد) وهو مسمى مرادف لاسمه الحقيقى أيضًا، أما أختى فاسمها (عاتكة)، وهذا ما أسمتها به والدتى، فلم أستبدله إذ

لم أوفق إلى صياغة مرادف لاسمها، ومع هذا فأنا واثقة، بأنكم لن تعرفونا.

أما مدينتنا الكبيرة، ودولتنا الأكبر، فسوف أتجنب ذكر اسميهما صراحة، لأنى عجزت عن إيجاد ما يناسبهما، ويستحقهما غير اسميهما الحقيقيين، وأظن أنهما سوف يعرفان من أوصافهما.

فدولتنا بالإضافة إلى كبرها، واحتشادها بالبشر وعراقتها فى التاريخ، إلا أنها أميل إلى الفقر، بعد تعرضها إلى الكثير من النكبات والحروب، وحركات التمرد والثورات، فقد خرجت مثخنة بالجراح، وهى لا تكاد تسند قدميها، فى توازن يقيها من السقوط.

المهم فى منزلنا ذاك، وبعد عودتنا من تلك الغربة، عشنا نحن الخمسة لاسادس لنا، غير ما يطرأ علينا فى أوقات متباعدة من زيارات قصار لجدى، مصطحبًا معه جدتى، عند ذاك نطرد أنا وأختى من غرفتنا، لكى ننام فى غرفة أخى معه، وأنفه راغم، فكان بسبب من ذلك، أكثر ضيقًا، من زيارات جدتى وجدى من والدتى نفسها.

ثم لم تلبث الزيارات أن انقطعت، بعد وفاة جدى رحمه اللّه، وبقاء جدتى بمفردها لا تعرف كيفية تدبر أمر حضورها إلينا، فهى كما تقول، ليس فى مقدورها الاستدلال على الطريق، لاعتمادها كل تلك المدة الطويلة على جدى، وهى فى ذلك مثل

Looloo
www.looloolibrary.com

(عاتكة) . بيد أن ذلك ليس مفروضًا عليها قسرًا ، كما هو الحال مع أختى الصغيرة .

واكتفت ، أى جدتى ، بزيارات أبى لها ، بين آونة وأخرى ، زيارات خاطفة متباعدة ، سبب ندرتها تلك المعارك الضارية ، التى كانت تنشب بينه وبين والدتى ، وتكاد تعصف بمنزلنا الصغير ، كلما هم بالذهاب إلى زيارة أمه ، ولولا حكمة أبى وتنازله فى الكثير من الأحايين عن موقفه ، عاقدًا لواء النصر لأمى لما مرت الأمور بينهما على خير .

ولكنه الآن ، وبعد أن قر قراره ، أن يبقى هناك ما شاء له الأطباء البقاء ، فقد اطمأنت جدتى ، وكان من جراء ذلك القرار ، الذى اتخذه لفيف من الأطباء ، على الرغم من أنف والدتى ، التى لم تقتنع قط بتلك الزيارات القصار ، فكيف بالإقامة غير المحددة لدى أمه ، ولكن من جراء خوفها من أية ملامة ، قد توجه إليها فى المستقبل ، فيما لو استفحل مرضه .

لذا سمحت له بالذهاب إلى قريته ، على مضض ، وقد أسقط فى يدها .

أما أنا فقد انقضت مدة زيارتى سريعًا ، على الرغم من أنها استطالت إلى الشهر والنصف من الآخر ، غير أنى لم أحس بوقعها ، لانشغالى بالكتابة فى روايتى الأولى ، ولفرط البهجة التى استشعرتها ، فى قرية أبى الجميلة الهادئة ، ذات البحيرات الرقراقة ، وليس أكثر منى من يحب البحر .

وكما ذكرت ، فلأن والدى أيضًا من يهواه مثلى ، فقد جاء لحسن الحظ ، منزل جدى يقوم على حافته تمامًا ، بحيث تكاد قدمى تطأ المياه ، إذا ما خرجت من الباب الزجاجى ، المواجه للبحر .

فكنت أول ما أفيق صباحًا ، أطل من نافذة الغرفة المخصصة لى وأختى ، فأرى المياه الزرقاء الرقراقة . وعندما تشتد الرياح فى بعض الليالى ، ينقلب ذلك الهدوء إلى ما يعصف به ، فأسمع هدير الموج ، وهو يلطم حجر سور الحديقة ، المواجه للبحر .

وكأن جدى لم تكفه تلك المجاورة لذلك البحر ، فشق قناة منه ، وأدخلها إلى باحة الدار ، فكان ماؤها يرتفع مع مده ، وينحسر عند جزره . وقد رصف على جانبى تلك القناة ، الكثير من أشجار النخيل ، وأشجار الجوز ، والكثير من الأشجار الظليلة ، غير المثمرة . فازدان المكان بسحر خلاب منقطع النظير ، ولا سبيل إلى وصفه . لقد كان جدى رحمه الله ذواقًا للجمال مثل والدى .

عدت إلى والدتى ، بعد أن تمتعت بكل ذلك ، وقد ساعدنى المكان الساحر على إنجاز معظم مخطوط روايتى الأولى .

عدت تاركة أختى ، لدن أبى وجدتى ، ضاربة عرض الحائط بوصايا والدتى ، ووعودى بتنفيذها .

Looloo
www.looloolibrary.com

وكان أخى قد عاد قبلى ، منذ مدة ، فهو لم يطق الاصطبار على فراق المدينة الكبيرة ، بما فيها من المغريات ، التى لايوجد لها نظير ، فى القرية الهادئة .

ما كدت أطبع قدمى ، على أول موضع قدم فى منزلنا ، حتى بادرتنى والدتى ، بسؤال زاعق عن أختى ، وعندما كذبت عليها بقولى ، إنى عجزت عن إقناع أبى وجدتى ليسمحا لى بالعودة بها ، لم تصدقنى ، لما تعرف من الضعف الذى عليه أبى ، وتعرف أنه لا يمكن أن يعارض أية رغبة لها . ولذا فقد صرخت بى صرخة ، من تلك الأصوات التى تطلقها عادة ، مزلزلة جدران منزلنا الصغير . معنفة إياى ، بشتى ضروب التعنيف ، ومهددة إياى ، بأنها سوف تسلخ جلدى عن عظمى ، إن لم أعد حالاً إلى القرية ، وأحضرها معى ، متهمة إياى ، بأنى أحب أختى أكثر منها ، أى والدتى ، وأنى المخططة الوحيدة ، لهروب أختى ، وإبقائها بعيدة عنها ، من مبدأ الأمر ، كل ذلك كى لا تحظى بمساعدتها .

لم أخف من تهديدات والدتى تجاهى ، فأنا لست أبى ، ثم إنى كنت واثقة من محبتها لى ، ولكن على الرغم من كونى أبادلها ذلك الحب ، وعلى الرغم مما يتوجب على من طاعة تجاه والدتى ، وأن على أن لا أخطئها ، فيما تأتيه من أفعال أو أقوال ، وأن أبدى لها من صنوف المحبة والتوقير ، ما يكون جديرًا بصدوره من ابنة لا تتصف بالعقوق تجاه أمها ، إلا أننى وايم الحق لست

على قناعة بما تقوم به والدتى ، فيما يتصل بتصرفها نحو أختى ، تلك الطفلة المسكينة ، على الرغم مما تشكوه والدتى ، من أن أختى كثيرة العناد لها ، تعمل كل مالا يعجب والدتى عن تعمد ، إننى لا أصدق ذلك ولا أكذبه ، وعلى أية حال ، فلها من طفولتها العذر ، بل يمكننى قول أكثر من ذلك ، إن ممارستها تلك ضد أختى ، لاتعجبنى على الإطلاق . أن أحدًا لاينصفها فى هذا المنزل سوى أبى ، وأنا ، ومع هذا فكلانا غير ذى قدرة ، على تحريك ساكن تجاه والدتى ، خصوصًا أبى ، الذى كان كذلك وهو معافى ، فما بالك وقد انتابه هذا المرض العضال ، منذ أربعة من الأعوام .

أما أنا فقد كنت الأكثر مقاومة ، فى تحدى رغبات والدتى ، تجاه تصرفاتها مع أختى ، إلا أنه مهما كان ، فقدرتى محدودة ، بصفة أنها الأم وليست أنا ، ولذا لم أجد حيلة ، فى تسلطها على أختى ، سوى مساعدة هذه الطفلة خفية ، وقد هددتنى والدتى ، بأن الأمر سوف ينعكس علىّ ، فيما لو تدخلت بينهما ، وأنى معها سوف أحشر فى خانة واحدة ، ومع أنى كما ذكرت ، لا أصدق ذلك ، فأنا أعرف أن والدتى تكنُّ لى أعظم الحب ، إلا أننى مع ذلك مقيدة اليدين ، لكونى ابنة لها ، تدير شأنى مثل الآخرين .

وكان بعد ذلك أن ازداد هاجس القلق عندى ، عندما ازدادت وطأة أمى عليها ، منذ مفارقة أبى لنا ، منذ مايقارب العام .

Looloo
www.looloolibrary.com

حتى أخى (سعيد) ، كان يسومها العذاب ، مداريًا سلوكه وراء حماية والدتى له ، كلما هب أبى إلى نجدة الطفلة ، أو وقفت أنا بينه وبينها . أما الآن ها هو ذا قد تفرد بها ، بعد غياب أبى الاضطرارى ، فجعل يسومها بسياط عذابه أكثر من ذى قبل .

وكان أشد ما يؤرقنى فى ذلك الآن ، أنى لم أجد عذرًا لوالدتى ، لمثل هذه المعاملة القاسية ، التى تتعرض لها أختى ، غير ما تدعيه أمى ، بأنها تكيد لها أشد الكيد خفية عنا جميعًا . لا أرغب إلا أن أصدق والدتى ، بيد أنى لا أرى شيئًا ، مما تفعله أختى الطفلة ، يندرج تحت باب الكيد ، إنى لا أرى إلا أنها كالخادمة ، بل إن الخادمة أفضل منها حالا ، فهى على الأقل تنال أجرًا على ما تقوم به من خدمة ، ثم إنه فى ميسورها إبدال مخدوميها ، إن لم يرق لها الأمر معهم ، أما أختى فليس فى مقدورها فعل ذلك ، لأنه ليس لها من تلجأ إليه غيرنا ، ثم هى لم تتعد التاسعة من عمرها بعد . ومع هذا تقوم بكل أعمال المنزل ، من غسيل الثياب ، وتنظيف المنزل ، وطبخ الطعام ، وجلب الحاجيات من الخارج ، وتلبس من الثياب ما أستغنى عنه . وحتى لو ابتاع لها والدى ثوبًا جديدًا ، كما فعل عند حلول العيد فى السنة الماضية ، فإن والدتى تلبسها إياه ليوم واحد ، ثم تخبئه إلى يوم العيد الآخر ، ولكن المسكينة لا تستطيع استعماله فيما بعد ، لأنه قد أصبح قصيرًا على قدها النامى ، وعندئذ تقوم والدتى ببيعه إلى إحدى الجارات بثمن بخس . وزاد الأمر سوءًا

بعد أن أقعدتها والدتى مبكرة عن الدراسة ، على الرغم من أنها تصغرنى بستة من الأعوام ، وعلى الرغم من اعتراضات والدى ، التى أخذت صفة الاحتجاج فقط ، بعد أن فقد جزءًا كبيرًا من سيطرته على بيته كأب ، بعد مرضه ذاك . وهو مع ذلك ، حتى من قبل أن يمرض لا يملك من السيطرة على بيته ، ذلك القدر الذى يؤهله لتسيير دفة حياتنا بما يرضيه ، إذ إن والدتى من كان يمسك بالزمام بيد من حديد ، من بدء الأمر ، فيما بدا لى ، لما تتمتع به من شخصية قيادية .

وأنا لست من الذين يعترضون ، على من فيهم يجب عليه تسيير دفة الأسرة ، أو من فيهم يجب أن يمسك بزمام القيادة ، إلا أنى أرى أنه يتعين على من يفعل ذلك أن يكون هو الأكثر حكمة ، وليس ذلك الذى يملك قدرًا أكبر من حب التسلط ، مشرعا سلاطة اللسان ، وقسوة القلب سلاحا يؤازره .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

- ٢ -

دخلت على أختى المطبخ ، قبيل سفرنا بيوم واحد ، وكانت تنشج بحرقة ، وعلى الرغم مما هى عليه من البكاء ، فقد كانت تمسك بخرقتين ، بكلتا يديها الصغيرتين ، وتحمل بينهما إناء حارًا مليئًا بالأرز المفلفل ، لكى تضعه جانبا ، ريثما تأتى بقطعة من الصفيح ، تضعها فوق موقد الغاز ، لتطامن من وهج النار تحته ، ثم تعيد ذلك الإناء فوقه ، كى لا يحترق ، فهرعت إلى مساعدتها ، بأن وضعت قطعة الصفيح على الموقد قبلها .

عندئذ قالت محتجة :

ـ كلا ، كلا ، أرجوك ، إياك ومساعدتى .

فلما تساءلت

ـ لماذا ؟

أمسكت بيدى وقادتنى إلى صندوق القمامة ، ورفعت بأصابعها الدقيقة جديلتين من الشعر الأشقر واستعرضتهما أمام عينى وقالت بعينيها الضارعتين : (انظرى) .

لم أفطن إلى أنها حليقة الشعر ، عندما دخلت المطبخ ، لقد شغلنى نشيجها عن ملاحظة ذلك ، بالإضافة إلى أنها كانت تربط فوطة فوق رأسها .

فعدت إلى القول :

ـ لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

أجابت من خلال شهيقها :

ـ للتو أيضًا ضربتنى والدتى ، بعد أن قصت شعرى كان ذلك من أجلك ، لقد ضربتنى ، لأنى لم أقم بغسل ثوبك المدرسى ، وهددت بمنعى من السفر معكم ، إن لم أقم بذلك سريعًا ، وعندما أخبرت والدتى ، بأنك من طلب منى عدم مس أى شىء يخصك ، وأنك سوف تقومين بغسيل ثيابك بنفسك ، ثم إن أبواب المدارس قد أغلقت للعطلة الصيفية ، وأن هناك المزيد من الوقت لعمل ذلك ، فكان ردى هذا مدعاة إلى زيادة غضبها منى ، فضربتنى مرة أخرى ، بأقوى مما كانت تفعل .

وأظن زيادة قسوتها على بسبب من غيظها من ذهابى ، إلى زيارة أبى معكم يوم غد ، ولذا لم تدعنى حتى غسلته ونشرته فى الشرفة ، انظرى إليه إنه يهفهف .

أحسست بوخزة ألم فى صدرى . لماذا والدتى ظالمة لها إلى هذه الدرجة ؟

ربت على كتفها ، وقلت لها هامسة :

ـ لا عليك ، سوف أقوم بمساعدتك ، حتى لو كان ذلك سرًا ، حالما نعود من قرية أبى ، سوف أقوم بغسيل ثيابى فور انتزاعها ، وكذلك ثياب أخى ، وما عليك أنت سوى غسل ثيابك ، وثياب والدتى ، أما أبى وقد رحل ، فهناك من يتدبر أمره ،

Looloo
www.looloolibrary.com

ويرعى شئونه ، ثم إنى أهوى الأعمال المنزلية ، وسوف أبلغ والدتى بذلك ، وبهذا أتولى غسيل الصحاف ، وعليك أنت أن تقومى بعملية الطبخ ، لأنى فى الحقيقة لا أعرف ذلك ، فوالدتى لم تعلمنى إياه كما فعلت معك ، وكذلك بالنسبة لعملية التنظيف أيضا ، سأقوم بتنظيف غرفتنا ، وما عليك سوى غرفة أمى وأخى والبهو ، لأنها ستكون تحت بصرها ، وسوف أساعدك بتنظيف المطبخ ، وبهذا نكون قد اقتسمنا العمل تقريبًا ، ربما عليك عبء أكبر ، ولكن مع واجباتى الدراسية التى سوف أقوم بشرحها لك أيضًا يكون العمل مناصفة ، ما رأيك ؟

فقالت :

ـ لن أفهم ما تدرسين .

فقلت أطمئنها :

ـ لن تخضعى إلى أى امتحان ، أظن أن استماعك لى سوف يعمل بعض الإضاءات فى وعيك . آه ، نسيت سوف أطلب من والدتى بصراحة تامة أن تجعلك تقومين بمساعدتى ، فى ترتيب جدول دروسى ، ابتداء من العام القادم ، وبهذا تغطى على احتكاكك الدائم بى فى أثناء دراستى ، لكى تتعلمى منى ، سوف أطلب من والدتى ذلك ، هذا إذا لم نجد حلاً آخر ، فى العام القادم ، لإعادتك إلى المدرسة ، كما أنا مخططة لذلك . أيرضيك هذا ؟

وقبلتها وأنا أمسح دمعها ، فقالت من بين أصابعى ، التى وصلت إلى شفتيها .

ـ حلاً آخر ، أى حل ؟ ما هو مخططك ؟

وكنت أضمر ألا أعود بها ، بعد زيارة أبى فى قريته ، ولكن لم أصارحها بما كنت أنتويته ، فمن يدرى ، قد لا أفلح فى إقناع أبى ، فى إبقائها لديه ، أو قد لا يكون فى ميسورى تدبر ما اعتزمته لها ، ربما لما ألاقيه من اعتراض لجدتى ، من يدرى ؟

فقلت :

ـ سوف نرى ، ما تفعله الأيام بنا .

وتشجعت أختى من حنوى عليها ، فقالت شاكية :

ـ إنى أحس كما لو أنك أمى ، لولا فارق السن القليل ، الذى بيننا . أما والدتى فكثيرًا ما يساورنى الريب فى كونى ابنتها .

ثم وجهت لى سؤالا غريبا :

ـ ألا أخبرتنى ، إن كنت حقًا ابنة لها ؟

تساؤل أختى المستريب ، فجر فى مخيلتى رؤى ، مغرقة فى القدم بالنسبة لى ، أطيافا شبحية ليوم عصيب ، غير واضح المعالم بغير لبس ، ولكنى أجبتها :

ـ ما هذا الهراء ، طبعًا إنها أمك كما هى أمى ، فقط لكونك أصغرنا ، ولكون التعب والإجهاد نالا منها أشد منال من تربيتنا ، لذا ترينها عصبية المزاج نوعًا ما .

Looloo
www.looloolibrary.com

فردت ساخرة :

ـ نوعًا ما .

ولكنها لم تلبث ، وكأنها وجدت فى مواساتى لها بعضا من العزاء ، إذ إن دموعها توقفت عن الانسكاب ، فطوقت عنقى بذراعيها الدقيقين المعروقين ، اللذين لم يكتسيا باللحم ، كما يجب ، لنقص الغذاء ، إذ إن المسكينة لم تكن تنال من الطعام سوى النزر اليسير ، أى ما يكاد يسد الرمق .

لقد كانت والدتى تنظر إليها ، نظرة ذات مغزى ، بعد فترة قصيرة من جلوسنا ، إلى مائدة الطعام ، وأختى ما تكاد ترى تلك النظرة ، حتى تفهم مايراد منها . فتضع الملعقة عند ذاك ، وتنهض إلى غسل يديها ، ولا يجدى معها نفعًا ، أى مناداة من أبى ، وهو يحثها على تناول المزيد .

إذ تقول له فى امتنان ، متهللة بالابتسام .

ـ لقد شبعت يا أبى ، لقد شبعت .

لقد كانت شديدة الخوف ، من والدتى ، لا يجذبها أى مغر لمخالفتها .

عند ذلك تنبسط أسارير والدتى ، وتحثنا أنا وأخى ، على تناول المزيد من الطعام .

فكنت أحيانًا ، أنهض من المائدة ، بمجرد نهوض أختى ، كنوع من الاحتجاج الصامت .

وأحيانًا أخرى لا أستطيع مقاومة الجوع فأستمر فى تناول الطعام ، متجاهلة ما يحدث .

ثم لم تلبث والدتى أن استنبطت طريقة جديدة ، تمنع بها أختى ، من مجالستنا على المائدة ، ومشاطرتنا الطعام ، وذلك بتكليفها بعمل طعام جديد للمائدة ، فى أثناء ما نكون متحلقين حولها . غالبًا ما يحدث ذلك ، عندما يشرع أبى فى مناداتها ، لمجالستنا ، أو حتى حثها على تناول المزيد من الطعام .

وعندما كف أبى عن مناداته لها ، آلمنى ذلك ، فأخذت أقوم بعمل ذلك بدلاً عنه ، ولكن الغريب فى الأمر ، أن أخى ، وبنوع من العناد ، أو المناصرة لأمى ، أخذ يسارع بطلب طعام مغاير ، لما هو موجود على المائدة ، فيطلب بيضًا مسلوقًا ، إذا ما كان أمامه بيض مقلى ، أو لحمًا مشويًا ، إذا ماكان أمامه لحم مطبوخ بالصلصة ، ففهمت عند ذاك ، لماذا كف أبى عن مناداته لها ، وذلك لكى يجنبها المزيد من المهام ، التى يتفتق عنها ذهن والدتى . وكففت أنا الأخرى ، عندما رأيت أختى يحذو حذو أمى ، مقلدًا إياها فيما تفعل . ولكن ذلك لم ينفع أيضًا ، فقد أصرت والدتى على تأخيرها فى المطبخ بعمل ما ، لكى لاتجالسنا على المائدة ، ومشاركتنا تناول الطعام .

وهكذا بقيت المسكينة تتناول طعامها فى المطبخ ، بمفردها كل يوم حتى بات ذلك عادة لها .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

قبلتنى فى صدغى ، قبل أن تخرج من المطبخ ، بعد سماعها لصوت أمى ، مناديًا لها ، وقالت مسرعة :

ـ لو لم تكونى معى ، لما عرفت كيف أحيا .

إنها محقة ، يا لأختى الصغيرة المسكينة ، حتى جيرتنا من النسوة ، والأطفال ، يعاملونها معاملة حقيرة ، تتدنى عن معاملة أجير لديهم ، مقتدين بأمى ، وهم يرون على وجهها ، سيماء التشجيع لإذلالها ، وهى المسكينة لا تملك من وسائل الردع ، ما يدرأ عنها ، غائلة قسوتهم عليها .

يا للفطرة البشرية ، التى لا تزال محتفظة بهمجية الغابة ، على الرغم ، مما تسربل به نفسها ، من أقنعة حضارية ، ويا الطبيعة الإنسان القاسية ، التى لا يردعها سوى مقارعة القوة بالقوة .

* * *

أخذت طيلة يومى أفكر ، وأجتهد فى عصر ذاكرتى ، علنى أتبين ماهية تلك الأشياء الطيفية ، التى مرت بذهنى ، وأنا أحوم حولها فى المطبخ ، بعدما رشقت ذلك السؤال المبهم ، عما إذا كانت ابنة لوالدتى .

وعندما عجزت عن إيجاد حل لتلك الألغاز الشبحية ، قلت لنفسى ، إذن هكذا يعانى من فقد الذاكرة ، عندما يحاول التذكر فلا يستطيع .

ثم فزعت لقولى هذا ، لقد انتبهت إلى أنى أقرر حقيقة تخص أختى ، وليس احتمالاً أو ظنًا .

عند ذلك قرعزمى ، على استجلاء كنه الحقيقة من والدى ، لعلنى بذلك أعثر على حل لمعميات هذه الذكرى الشبحية . وربما بعدها أستدل على مغزى كراهية والدتى لأختى ، تلك الكراهية التى تبدو غريبة ، أن تصدر من أم تجاه ابنتها .

فى الحقيقة ، لو لم أسمع بالتواتر من أبى ، أنها أخت لى ، فى وقت ما من طفولتنا ، ولو لم أسمع من أخى ، نعته إياها أحيانا بهذه الصفة ، وهو يشتمها أمامى ، بقوله أختك البلهاء ، وما إلى ذلك من الألفاظ القاسية ، لما صدقت إطلاقا أنها أختى ، لأن والدتى لم تشر إلى ذلك قط ، حتى ولو بإشارة عابرة ، فقد كانت عندما تحتاج إلى شىء منها ، ولا تكون أختى بالقرب منها ، كانت تقول : (أرسلى هذه البلهاء إلى) ، أو (اذهبى لتسألى تلك البلهاء عن ..) ، وهكذا .

* * *

عندما خلوت إلى أبى ، فى قريته ، بعيدًا عن مرمى السمع ، من أى كان ، سألته ذلك السؤال المحير ، الذى صدر من أختى ، ونحن فى المطبخ قبل مجيئنا إلى قرية (أم الجمال) ، وأضفت إليه دليلاً من قسوة والدتى عليها ، ورجوته اعتماد الصراحة المطلقة ، وأقسمت له مؤكدة أنى لن أنبس ، لأى كائن ، بما سوف يخبرنى به ، وقلت له ؛ فقط أريد معرفة الحقيقة ،

Looloo
www.looloolibrary.com

لكى أتخلص من عذاب حيرتى ، لأننى أشك أيضًا أن والدتى هى أم لأختى ، وقلت : إن القسوة التى تعامل بها الصغيرة ، تنبئ بأن والدتى هى زوجة لأبيها لا أكثر .

ثم استعملت كل ما لدى ، من قوة الإلحاح ، لكى يخبرنى بالحقيقة كاملة ، وقد تساءلت ، إن كان تزوج فى فترة ما ، من امرأة أخرى ، ومن ثم أنجب هذه الصغيرة ؟

فضحك ، ضحكة ساخرة صفراء . تخيلتها بذلك اللون وأنا أنظر إليه ، وقال فى ألم ، لم أعرف مبعثه حين ذلك :

ـ أتزوج من أخرى ؟ وهل أجرؤ على الالتفات لمجرد النظر إلى امرأة أخرى ، فما بالك أن أجرؤ على الزواج منها ؟ ألا تعرفين والدتك ؟ حتى يخالجك مثل هذا الظن ، ألا يكفى هذا السبب ، كى ينتفى منك أى شك بمثل هذا الموضوع ؟ ثم ألم ترى شهادة ميلاد أختك ؟ ألم يذكر فيها اسم والدتك كأم لها ؟ كيف تشكين بذلك ؟ لعل لوالدتك بعض العذر ، بل يتعين عليك إيجاد العذر لها ، فهى كما ترين عصبية ، سوداوية المزاج ، خصوصًا فى هذه الأيام ، لكونى مريضًا ، عاطلاً عن العمل منذ سنين ، وما توفر لدى من نقود ، يكاد ينضب . وهى حائرة كيف تعولكم ، ولذا أقعدتْ أختك عن الدراسة ، توفيرًا للمصاريف ، واكتفت بتعليمك وأخيك ، وهى تنتظر بشغف شديد ، كما أفعل أنا أيضا ، ذلك اليوم الذى ينهى به أخوك دراسته ، كى يعولنا جميعًا ، وهى مع ذلك خائفة ، من أن ينفد

ما تبقى لدينا من مال مدخر ، قبل ذلك اليوم ، وأنت تعرفين يا بنيتى ، أن أخاك مازال فى الثامنة عشرة من العمر ، وأنت مازلت على مشارف السادسة عشرة ، وأمامكما على الأقل أربعة ، أو خمسة أعوام ، قبل أن تحصلا على شهادتكما الجامعية ، ومن ثم البحث عن عمل ، فاعذريها لقسوتها على أختك ، ثم إن أختك لئيمة صغيرة ، إنها شديدة المكر بارعة فى الكيد لوالدتك ، لا تدع فرصة تتاح لها ، دون أن تفعل عامدة ما يستفز والدتك ، ويثير غضبها .

وتابع بعد أن أخذ نفسًا قصيرًا :

ـ لم أكن أصدق ، ما كانت والدتك تشكوه منها ، حتى رأيت بأم عينى عظيم كيدها ، على الرغم من صغر سنها ، إنها شديدة الانتقام ، لا تغفر أبدا .

وسكت فجأة عن الاسترسال ، وكأنه ندم على تصريحه لى بذلك ، فقال معتذرًا عن الطفلة :

ـ لعل لها العذر ، فوالدتك شديدة عليها ، ثم إنها صغيرة وضعيفة ، وتجب علينا رعايتها ، ولعل الطفلة تكتفى بما تغدقينه عليها ، من عظيم حنانك ورأفتك بها . ثمة أمهات حتى فى الظروف العادية ، يفرقن فى المعاملة بين صغارهن ، ترين الواحدة منهن قد تفضل الكبرى على ما عداها ، وأخرى تدلل الصغرى ، أو تفضل الأولاد دون البنات ، أو العكس . وبما أنك مازلت صغيرة فى السن ، لم تصادفك بعد الكثير من الحالات ،

Looloo
www.looloolibrary.com

وكانت المصادفة الوحيدة ، التى تعرفتها هى أمك ، من يدرى قد تكونين فى المستقبل ، على غرارها .

وعندما فزعت من التشبيه ، محاولة إبداء استنكارى ، أشار بيده متفهمًا ، وهو يبتسم ، وحاول أن يتم ، ولكنى قاطعته ، قائلة ، فى تساؤل :

- إن (عاتكة) صغيرة على مثل هذه الأمور ، ماذا فى قدرتها أن تفعل لوالدتى ، وهى فى هذه السن الصغيرة ، كى تثير غضبها ، وتدفعها إلى أن تعاملها هذه المعاملة الرديئة ؟

فقال بعصبية غير متوقعة :

- أنا لا أريد أن أثير حفيظتك ، ضد أختك ، لقد أخبرتك ، كى لا توجهى لومًا شديدًا لوالدتك ، اعذريها فقط ، ولا تفكرى بما تفعله أختك لمعاندتها ، إنها صغيرة على أية حال ، ثم إن أختك ستبقى لدينا هنا بعد ذهابك .

لقد فكرت باقتراحك ورأيته عين الصواب . فى الحقيقة ، راودتنى فكرة اقتراحك طويلا ، حتى من قبل أن تبديه ، وكنت أنوى طرحه على والدتك ، ولكنى خشيت أن تغضب .

ولكن بما أنه طرح منك ، فلابد أنك ترين الأمور بوضوح ، أكثر من رجل مريض ، قد لا يعطى الأمور حق قدرها . لابد أنك قيمت ، ووازنت ردود الفعل لدى والدتك ، بهذا الخصوص ، سوف أحاول إدخالها المدرسة هنا ، فى العام القادم ، لعلها

تعوض بعض ما فاتها ، ولكن قبل ذلك ، يتعين علينا أن نرى ردود الفعل ، لدى والدتك بصورة أكيدة ، عندما تعودين إلى هناك بمفردك .

* * *

لم أكن قيمت ، ولم أكن وازنت ، ولم يخطر لى على بال ، ردود الفعل ، التى ستكون لوالدتى . كان جل همى ، أن أجعل والدتى أمام الأمر الواقع ، آملة بمؤازرة أبى ، ولذا فقد كنت محنقة من تخاذله وتقاعسه فى حماية أختى الصغيرة .

فقلت غاضبة :

- مهما تكن النتائج ، يتوجب أن لا تعود أختى إلى هناك ، أبدا ، أبدا ، أبى حرىّ بك مناصرتها ، والوقوف إلى جانبها ، لما هى عليه من طفولة وضعف ، لا تستطيع بهما الدفاع عن نفسها ، وإذا ما طال الأمر ، وهى على مثل هذه الحال ، فسوف يكون مؤدى ذلك إلى الانكسار فى شخصيتها ، وربما أفضى بها إلى الاستسلام ، طيلة عمرها . أما عن القول ، بأنها تثير غضب والدتى ، فهذا ليس عذرًا ، يجيز إذلالها للصغيرة ، وعلى أية حال ، ف (عاتكة) لم تفعل ما تفعله ، لو تلقت معاملة منصفه . ثم إنها مجرد طفلة ، مجرد طفلة .

ثم نهضت وأنا فى حميا غضبى ، أبحث عن جدتى ، كنت أريد أن أستطلع رأيها فى بقاء أختى لديهما ، ولعلى أجد بها السند المنشود ، لمؤازرتى فى مواجهة أبى فيما أراه بشأن أختى .

Looloo
www.looloolibrary.com

فجررتها إلى حيث أبى ، غير أنها لم تبد حماسًا لبقاء أختى منفردة معها ، لعلها رأت بها عبئًا إضافيًا عليها ، مع وجود أبى المريض . ولكنها قالت مقترحة :

ـ إن المنزل يسعنا جميعًا ، ليتكم كلكم تأتون للإقامة معنا ، بيعوا المنزل هناك ، أو استفيدوا من ثمن إيجاره ، وتعالوا للعيش هنا ، ليس أبدع من المعيشة فى الريف بين الخضرة والماء .

* * *

مسكينة جدتى ، إنها لا تعرف ولع أمى وأخى بالمدينة ، إنهما على أتم الاستعداد لمفارقة الحياة ، على مفارقة مكانهما فيها .

نظرتُ إلى أبى ، ونظر لى هو الآخر ، وتبادلنا ابتسامة ساخرة ، ثم قال ، وكأنه يقرر بقدر ما يملك من عزم :

ـ لنكتف الآن بالصغيرة .

فقفزت أقبله لقراره العسير ، عند ذاك نظرت إلى جدتى بحدة ، وقالت عاتبة :

ـ إلى هذه الدرجة ، أنت فرحة بمفارقة أختك لك ؟

وتولى أبى الاعتذار عنى ، ولكنى لم أتوقف لكى أسمعه ، إذ خرجت أنط ، وأقفز قفزات واسعة ، وأرقص فى الهواء ، وأنا ذاهبة لأزف البشرى إلى أختى .

عندما فهمت من خلال كلماتى المتقاطعة ، بأنها سوف تبقى هاهنا فى معية أبى ، وأنها ستعاود الذهاب إلى مدرسة القرية ، أول ما تفتح أبوابها ، فى الموسم القادم ، عندئذ بدت عليها فرحة غامرة لا سبيل إلى وصفها ، ونطت قافزة من جلستها متعلقة بعنقى . وكأنها كانت عبدًا يرسف بالأغلال ، وقد نال حريته للتو .

* * *

عندما فاجأتها بذلك الخبر ، كانت جالسة على حافة القناة التى شقها جدى من البحر داخل ذلك الفناء ، حتى أوصلها إلى حافة الدار ، وكانت ساهمة فى جلستها تلك . لعلها كانت تفكر بقرب عودتها معى ، بعد انصرام الشهر والنصف من الآخر .

مدة قضتها فى حرية تامة ، تتذوقها لأول مرة فى حياتها ، متمشية معى فى الأحراش على جانبى منزل جدى المنعزل ، أو وأنا أعلمها السباحة فى القناة ، أو ونحن نتعهد الزهور الذابلة فى الحديقة التى تحيط بالدار من كافة الجهات حتى تلك الموازية للبحر ، والتى تنبئ عن ولع جدى بزراعتها ، والتى بقيت كالآثار فى الحديقة المهملة بعد رحيله . ثم عاد إليها بعض من حيويتها ، فى خلال هذه المدة القصيرة التى بقينا بها .

* * *

فى هذه العطلة القصيرة ، التى بقينا فيها بالقرب من أبى ، لم تدخل أختى المطبخ فى هذه الفترة قط ، عدا اليوم الأول

Looloo
www.looloolibrary.com

لوصولنا . إذ ما إن أفاقت فى صبيحة اليوم التالى مبكرة كعادتها ، حتى ذهبت مهرولة إليه ، تبحث عن قنينة الحليب ، وإناء غليه ، لكى تعد الإفطار ، متوهمة أن هذا ما يجب أن تفعله فى أى مكان تتواجد فيه ، إلا أنها توقفت مرتعبة ، عندما نهرتها الخادمة عما تريد فعله ، آمرة إياها بالعودة إلى فراشها . لقد فوجئت الخادمة بدخول الطفلة ، وعبثها بالأوانى ، ظانة أن الصغيرة تريد أن تعيث فحسب .

قالت لى الخادمة ، وهى تعتذر :

ـ إن الطفلة المسكينة وقفت مبهوتة ، لا تحر جوابًا ، وعندما زجرتها مرة أخرى ، انصرفت تبحث عنك باكية .

وكانت أختى قد قالت ، وهى تشكو :

ـ إنها لا تعرف ماذا يجب عليها فعله ، وهى لا تعرف كيف تجد إناء الحليب ، مع وجود تلك المرأة الشرسة فى المطبخ .

فقلت لها ، وأنا أربت على شعرها ، وأمسح دمعها :

ـ لن تدخلى المطبخ طيلة حياتك ، مادمت أنا موجودة على أديم هذه الأرض ، وليست تحتها ، إلاَّ إذا كان ذلك بمحض إرادتك ، وبعد أن تتزوجى .

بيد أنه سرعان ما تبينت ، أنى غير أهل لذلك الوعد ، عندما أعادتها والدتى بنفسها من القرية ، بعد أسبوع واحد فقط ، من عودتى منها .

وكان ذلك بعد معركة عنيفة خضتها معها ، أى مع والدتى ، عندما طلبت منى العودة إلى القرية والإتيان بأختى منها . وبالطبع فقد رفضت ذلك رفضًا قاطعًا ، كما أسلفت ، ولكن هذا لم يفل من عضد أمى ، لقد ذهبت بنفسها إلى هناك ، متذرعة بقولها :

ـ على أية حال إنى مشتاقة إلى رؤية أبيك ، ولذلك سأكره نفسى على زيارة الجدة .

قالت ذلك وكأنى لا أعرف مرماها .

وهكذا تركتنى مع أخى فى المنزل ، وعادت بعد يوم واحد فقط ، من تلك الزيارة تصحبها أختى .

وهكذا أيضا عادت أختى المسكينة ، إلى خدمتنا ، وذهب وعدى لها أدراج الرياح .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٣ ـ

قبل ذهاب والدتى بيوم واحد ، إلى قرية (أم الجمال) ، لزيارة أبى كما ادعت ، أو لكى تجلب أختى ، كما هو فى الواقع ، وكانت تعد العدة فى المطبخ ، تجهيزًا لبعض مما يحبه أبى من الطعام .

كنت يوم ذاك جالسة أمام التلفاز ، أتابع برنامجًا مملاً ، وكنت مقطبة الجبين ، لاوية لشفتى بمقدار الشبر ، كما جاء فى الوصف المبالغ به ، من والدتى وهى تتحدث عنى لإحدى الجارات ، واصفة لها شدة غضبى منها ، أى من والدتى ، وكانت تلك الجارة غادرت منزلنا للتو ، بعد مساعدة لوالدتى فى إعداد الكيك ، الذى كانت والدتى تزمع أخذه إلى والدى صباح اليوم التالى كى تجلب أختى .

عندما سمعت طرقًا خفيفًا على الباب ، ظننت معه أن تلك الجارة عادت ، لنسيانها شيئًا ما ، فتثاقلت عن القيام لفتحه ، لشدة ما أعانيه من مشاعر الضيق والغضب . وعندما رأى أخى تباطئى ، نهض لذلك .

بيد أن التى دخلت فى ذلك الوقت من العصر ، كانت امرأة أخرى ، فى غاية الهندام والأناقة ، ذات جمال هادئ وشعر حالك السواد متموج بلمعان باهر ، تتجلى بها أناقة ظاهرة ،

لقد كانت تتحلى بساعة ثمينة ، وعقد رقيق من الذهب الخالص ، على شكل سلسال ، يربط فى أسفله ثلاث حبات من اللؤلؤ الكبير ، يحيط بعنقها الزرافى .

كان كل ما فى تلك المرأة يعطى لمعانًا شديدًا ، وبريقًا أخاذ ، بدءًا من حدقتى عينيها المائلتين إلى الضيق ، إلى شعرها المقصوص إلى الحافة العليا من رقبتها الطويلة ، إلى كل جلدها الظاهر ، الذى يبدو مصقولاً وبلون البرونز .

ومع هذا فالمرأة ليست فى مقتبل العمر ، فربما تكون قد تجاوزت منتصف العقد الخامس من عمرها ، إلا أن كل ما فيها يبدو جذابًا ورائعًا .

أهملت المرأة الغريبة أخى ، الذى فتح لها الباب ، وانصب اهتمامها علىّ ، بمجرد أن رأتنى فى مجلسى ذاك . اندفعت ناحيتى ، وقبل أن توجّه التحية إلى أحد ، تساءلت :

ـ ما اسمك ؟

فلما ذكرته لها ، وفمى فاغر من الدهشة ، أردفت بسؤال آخر :

ـ وعمرك ؟

وعلى الرغم من دهشتى التى ازدادت ، إلا أنى وجدت نفسى ، أجيب عن تساؤلاتها ، دون تردد ، ودون أن أوجه إليها سؤالاً عما تريد ، أو من تكون . فقلت :

Looloo
www.looloolibrary.com

– ستة عشر عامًا .

وبغتة فقدت اهتمامها بى، وكأن عبارة ستة عشر عاما صدتها عنى فجأة ، أو كأنها استعادت رشدها على الفور ، فقالت :

– آه ، حسنًا ، أليس هذا هو منزل المهندس (نبيل) ؟

وكان هذا اسم أبى ، وعندئذ أجابتها والدتى ، التى كانت قد خرجت من المطبخ على الفور ، وهى تمسح يديها فى (الفوطة) ، التى تربطها حول خصرها العريض ، لكى تمنع عن ثيابها التلوث .

كان خروج والدتى من المطبخ عاجلاً فور سماعها صوت المرأة الغريبة ، وقد عقدت ما بين حاجبيها ، مما مكنها أن تجيب عنى بسرعة وتعجل :

– أجل ، إنه منزل المهندس (نبيل) .

قالت المرأة المجهولة :

– إذن ، أين هو ؟

فردت والدتى بغضب ، كمن يعرف محدثه :

– ماذا تريدين منه بعد ؟

شدت انتباهى كلمة (بعد) التى صدرت عن والدتى بتحفز متنمر . قلت لنفسى ، إذن ثمة قبل .

فقالت المرأة ضارعة :

– إن لدى وديعة عنده ، أحب أن أستردها منه .

واهتاجت أمى قائلة :

– انظرى فى المنزل هذا هو أمامك ، هذه ابنتى ، وهذا هو ابنى ، وأنا زوجة المهندس (نبيل) ، وهو مات وشبع موتًا ، وليس ثمة أحد غيرنا . وأرجو أن تنصرفى حالاً ، فنحن لانعرفك ، ولا نرغب بمعرفتك .

فقالت المرأة بصوت عذب حنون :

– ولِمَ أنت غاضبة ياسيدتى ، لا أظنك إلا تعرفيننى ، وغضبك هذا يدل على أنك تعرفيننى معرفة جيدة ، على أية حال ، سأعرفك بنفسى ، إنى (سارة) صاحبة المؤسسة التى كان زوجك يعمل بها عندما كان مغتربًا ، وقد أتيت لتوى ، لقد استغرق بحثى عنكم مدة طويلة ، لكى أهتدى إليكم .

إن حفيدتى (سارة) الصغيرة ، إن اسمها على مسماى ، هى وديعة لديكم ، كما جاء فى (مذكرات خادم) ، التى كتبها زوجى ، قبل وفاته .

فردت أمى بعنف ، كالذى يريد أن يفرغ من محدثه بسرعة :

– إنى لا أعرف عن هذه المذكرات شيئًا ، ولا أدرى ما يربط حديثنا بها ، كانت ثمة طفلة ، ولكنها ماتت فى الطريق الوعر ، قبل أن نصل إلى هنا ، ومات زوجى بعدها . أرجوك نحن لاينقصنا

Looloo
www.looloolibrary.com

الإزعاج ، فإذا كانت ثمة مشاكل تعترض حياتك ، أتوسل إليك ، حاولى أن تحليها بعيدًا عنًا .

فقالت المرأة برجاء :

ـ عفوك سيدتى ، لم يكن فى نيتى بتاتًا ، أن أسبب لكم أيما إزعاج ، ولكنى كنت أود الاستعلام عن حفيدتى ليس غير .

بدا على والدتى التذمر الشديد وقد أوشكت على فقد أعصابها ، إذ صرخت بغيظ :

ـ حفيدتك ، حفيدتك ، قلت لك إنه لا أحد هاهنا غيرنا ، أنا وأبنائى ، انظرى إليهما ، هل ترغبين بتفتيش الدار ؟

فردت السيدة :

ـ كلا ، عفوك ، إنى أصدقك .

عندئذ أسرعت والدتى إلى الباب تفتحه ، قائلة بكل فظاظة وصلف :

ـ إذن مع السلامة ، أرجو أن يعوضك اللّه عنها خيرًا .

وقبل أن تخرج المرأة ، قالت لوالدتى وهى على عتبة الباب :

ـ فهمت أيضًا من قراءتى (مذكرات خادم)[1] ، أنك كنت تغارين منى على زوجك ، ولكن لم أعرف أنك لم تنسىْ هذه الغيرة بعد كل هذه المدة وحتى بعد وفاة زوجك .

(١) تفصيل ذلك فى رواية مذكرات خادم للمؤلفة .

ولكن أفضل قبل أن أغادر ، أن أخبرك ، أن كل ما ظننته بى نحو زوجك ، كان مبنيًا على غير أساس من الصحة ، ولم يتخذ ذرة واحدة من الحقيقة .

كادت والدتى تدفعها بيدها لتلقى بها فى الخارج ، ولكن المرأة أسرعت خطوها تجنبًا ليد أمى الممدودة .

عندما صفقت أمى الباب بعنف ، وأغلقته خلفها بالمفتاح ، وكأنها كانت تخشى عودتها ، قالت فى زمجرة :

ـ امرأة مجنونة ، تأتى للبحث عن حفيدتها عندنا .

تناسيت أنى كنت غضبى منذ برهة ، بسبب عزم والدتى السفر لجلب أختى ، وكنت لا أكلمها منذ يوم أمس ، ولكن الآن أرانى مجبرة على فعل ذلك . فقلت بهدوء مخافة استفزازها :

ـ لماذا أخبرت المرأة كذبًا عن وفاة والدى ، كيف واتتك الجراءة على الادعاء بموته ، ناهيك وهو مريض ؟ لماذا هذا الفأل السيىء عليه ؟ كان فى إمكانك أن تدليها أين هو ، وهو يدلها على حفيدتها ، إن كانت ما تزال عائشة ، أو يخبرها بتفاصيل موتها .

فصرخت بى :

ـ إنك أنت الأخرى ، لا تقلى جنونًا عنها ، لماذا أصدع رأسه بمثل هذه السخافات ، وقد مضت تسعة أعوام على تلك الحادثة ، أخبرتها بموته لكى أجعلها تيئس ، فلا تبحث عنه

Looloo
www.looloolibrary.com

مرة أخرى ، ستعود إلى بلدها بعيدًا عن هنا وتنسى كل شىء ، لتذهب إلى الجحيم ، هى وحفيدتها .

انتبهت ، فقلت مبهوتة :

ـ تسعة أعوام ؟ إنها بعمر (عاتكة) ، لو كانت تلك الحفيدة عائشة ، أجل لأصبحت بعمر (عاتكة) ، لهذا السبب سألتنى عن عمرى ، ظنًا منها أنى حفيدتها ؟

فالتفت أخى ناحيتى ، وتدخل فى الحديث :

ـ (سعاد) ، ماذا تعنين بهذا القول ؟

ثم ضحك ، وتابع :

ـ أقسم إنى كنت أخمن ، ولكن لم يكن فهمى واضحًا ، يبدو أنى فهمت الآن ، كان عمرى ثمان سنوات تقريبًا ، حين ذاك ، لا يزيد عنه عندما .

ففقدت والدتى أعصابها تمامًا واحتدمت بالغيظ ، وصرخت بصوت هز جدران شقتنا بوابل من الألفاظ المتصادمة ، لم أستطع أن تبين منها إلا :

ـ اسكت أيها الغبى ، إن أختك لن يهدأ لها بال ، بعد سماعها حديثك هذا ، إلاّ حين تهد السقف على رءوسنا .

ثم انهالت بالشتائم تصبها على رأس الجميع أنا وأخى وتلك السيدة وحتى أبى .

ولكن أخى كانت على شفتيه كلمة فأطلقها متسائلاً :

ـ لماذا ؟

ثم سريعا استطرد مغيرًا موضوع الحديث ، إرضاء لوالدتى فيما يبدو :

ـ ماذا تعرفان عن (مذكرات خادم) ، تلك العبارة التى تفوهت بها تلك العجوز الغبية ؟

كان دائمًا فى ذهنى شىء غير محدد ، لقد كان غائما ، والآن استدعته عبارات المرأة الغريبة ، عن غيرة أمى على أبى من هذه المرأة ، لماذا ؟ هل هى زوجة سابقة لأبى ؟ إذن والحال هذه ، يجب أن تكون أما لأختى ، وبذلك يحل لغز كراهية أمى لها ، ولكن المرأة قالت ، إنها تبحث عن حفيدتها ، وليس عن ابنتها ، يا للغز الذى لا يحل .

ولكى أستفز والدتى أكثر مما هى عليه ، علنى أعرف المزيد من خلال ثورتها إلى ما يقودنى إلى معرفة الحقيقة ، رددت على أخى بقولى :

ـ أنا لا أرى فى المرأة الغريبة عجوزا ، كما أنها ليست بالمرأة الغبية ، إنها تبحث عن حفيدتها ، التى تسلمها والدك منذ تسعة أعوام ، كما أنى لا أعرف عن ظروف تسلمها ، أخبرنى أنت إن كنت تتذكر كما يبدو عليك ، حتما أن تلك (المذكرات) تشرح كل شىء ، ثم ما هو سبب تضليل تلك المرأة ، والتعتيم

Looloo
www.looloolibrary.com

على وجود أبى ، لا أدرى لماذا لا ندل هذه المرأة المسكينة عليه ، وهو يخبرها بالحقيقة ، والأنكأ من ذلك ، لماذا يموت أبى ، وهو حى يرزق ؟!

عند ذلك شرعت والدتى أصبعها ، فى وجهى ، ولكنها قالت بهدوء من يملك زمام الموقف :

ـ اسمعى يا (سعاد) إن لم تسكتى عن مثل هذا الهراء ، لسوف أقطع لسانك إربًا إربا .

ثم أردفت هامسة ملينة من لهجتها ، كما لو كان هناك من يتجسس على ما تقول :

ـ إن أباك سوف يدخل السجن ، لو عرفت هذه العجوز الشمطاء ، أنه تصرف بحفيدتها دون علمها ، أظن أنك لاتريدين لأبيك هذا المصير ، وهو فى حالته ومرضه هذين .

ثم تصاعدت حدة غضبها مرة أخرى فاستأنفت بحدة أكثر :

ـ لتذهب هذه المرأة إلى الجحيم ، إنى واثقة من أن هذه المرأة اللعينة ، ستجلب لنا مصيبة ما ، وربما يكون ذلك بمساعدتك ، انتبهى أيتها الفتاة ، واعرفى أن مصلحة أبيك ، هى ما يجب أن يأخذ هذا الحيز من اهتمامك ، ثم إن الطفلة ماتت وانتهى الأمر . فهل هناك من داع لتكرار الحديث عن هذا الموضوع ، انسيه ، وإلا .

* * *

ما ترتب على ذلك فى نهاية الأمر ، كان أشد وقعًا لكل ما مضى ، بشأن أختى المسكينة ، فقد رزئت بمحنة حقيقية ، إذ ما إن عادت بها والدتى من القرية فى مساء اليوم التالى لتلك الأحداث ، حتى منعتها منعًا باتًا من النزول إلى الشارع ، لجلب الحاجيات كالعادة قبل زيارة تلك المرأة الغريبة .

ففقدت الصغيرة إحدى متعها البريئة من رؤية الشارع ومن فيه . والأكثر فداحة مما لا يضاهى أن والدتى منعت أختى من فتح الباب الخارجى لأى طارق مهما كان ، ومما زاد فى وابل المصائب المتتالية على هامة المسكينة ، أنها ، أى والدتى ، أخذت تأمر أختى بالذهاب إلى المطبخ ، بمجرّد أن يطرق الباب ، وقبل أن يفتح .

فحرمت الطفلة تمامًا من مخالطة الناس عامة ، عدا نحن بالطبع .

كل هذه الإجراءات الاحترازية ، فيما يبدو لى ، كان مبعثها الخوف من عودة المرأة الغريبة إلى زيارتنا . وقد دام هذا الحجر على الفتاة الصغيرة ، لأكثر من ثمانية شهور متواصلة ، ومن ثم خففت والدتى من غلوائها ، ولكن بعد أن بات من عادة أختى ، أن تدخل المطبخ بمجرّد طرق الباب ، وحتى بدون إشارة من والدتى .

كان الشك يعذبنى ، وقد أمسى لدى ما يشبه اليقين ، أن ثمة سرًا يغلف حياة أختى ، وأن مفتاح ذلك اللغز يوجد فى (مذكرات

Looloo
www.looloolibrary.com

خادم) ، كما ورد اسم ذلك الكتاب على لسان المرأة الغريبة ، ولكن أين أجد تلك المذكرات ؟

بعد ذلك أضحى من دأبى التوقف والسؤال عن تلك (المذكرات) ، أمام أى بائع كتب يصادفنى فى طريقى ، أو عندما أدخل أى مكتبة أمرّ بها ، ولكن الرد دائمًا كان سلبًا ، ثم رأيت أن أكثف زمن البحث عنها ، فأخذت بالادعاء أمام والدتى ، أن بعضًا من الدروس تقتضى منى مراجع أعود إليها فى بحثى ، وعليه يتعين على الذهاب إلى وسط المدينة ، حيث المكتبات زاخرة بالكتب والشوارع تعج (بالبسطات) المفروشة على مساحات واسعة وسط الأرصفة .

فبات من دأبى الذهاب كل مساء للتلكؤ ، متوقفة عند كل كتبى ، والدخول فى كل مكتبة . ولكن أبدًا لم أجد بغيتى فيها .

ولطبعى العنيد لم أيئس ، فأعود فى اليوم التالى ، مكررة البحث فى أمكنة أخرى حتى تشككت والدتى فى غرضى ، من الخروج كل مساء ، لعلها ظنت أن ذلك الكتاب المرجع ، الذى أدعى البحث عنه ، ليس إلا ذريعة لتغطية غرض آخر خفى ، ربما ظنت أنى أسعى إلى لقاء أحد الشباب ، فأخذت ترسل معى أخى . وعندما سألت عن المرجع الذى كان لدى نسخة منه مخبأة بين كتبى المدرسية ، سألت أيضًا عن رواية (مذكرات خادم) ، وعند تكرار هذا الفعل فطن أخى إلى غرضى فى النهاية ، فقال :

ـ أظنك تبحثين عن هذه المذكرات ، أكثر مما تبحثين عن المرجع المطلوب ، بل لعلك لا تبحثين إلا عنها ، إلى هذه الدرجة تهمك أقوال تلك المرأة ، التى أتت على ذكرها عند الحديث عن حفيدتها .

فقلت بغضب :

ـ ولماذا لا ؟ لقد أثارت فضولى .

فضحك وقال :

ـ إذن فأنت لديك شك مثلما هو لدى ، هيا تكلمى لن يسمعنا أحد ، أتظنين أننا سنعثر على (عاتكة) فى تلك (المذكرات) .

فصرخت به :

ـ لابد أنك مجنون ، لا تظن بى أنى أظن شيئًا ، دع ظنونك لنفسك فقط .

فقال متحديًا :

ـ تظنين نفسك الأوفر ذكاء فى المنزل ، وأنك وحدك من يستطيع تحليل الأمور ، سوف أخبر أمى بأنك تبحثين عن (مذكرات خادم) وليس عن المرجع المزعوم .

فخفق قلبى خوفًا من ثورة والدتى ، ولكنى قلت مشاكسة :

ـ افعل ما بدا لك .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولكن عندما عدنا إلى المنزل مساء ، خاليى الوفاض ، لم يقل لأمى شيئًا ، فأزيح عن كاهلى ، ولكن كان ذلك مدعاة إلى لجم لسانى عن السؤال عن بغيتى ، وهو مصاحب لى . لذا فقد اختصرت رفقته ، بأن ابتعت كتابًا صادفنى ، مدعية أن ذلك ، ما كنت أحتاج إليه كمرجع لدراستى .

وهكذا جاء بحثى عن تلك (المذكرات) بغير طائل ، بعد كل تلك المدة .

كل هذا الذى جرى ، وأختى لا تعرف عن الأمر شيئًا ، ولم أشأ أن أخبرها ، كى لا أبلبل خاطرها ، وقلت لنفسى ، يكفيها ما تعرضت له من انتكاسة فى آمالها ، بعد عودتها من القرية مجبرة . ولذا فقد قررت أن أفهم الأمر وألم بالموضوع ، فربما لا يعدو أن يكون ما أفكر فيه سوى وهم من الأوهام ضخمته مخيلتى . لأتريث ، وبعد ذلك لكل موقف ما يناسبه .

وكان لدى أمل طفيف فى بداية الأمر بعودة المرأة الغريبة إلى زيارتنا لسبب من الأسباب ، وكان القرار الذى اتخذته ، ألا أتركها تفلت من يدى هذه المرة ، إلا بعد معرفة كل شىء ، كل ما يتعلق بحفيدتها . ولكن هل ستعاود زيارتنا حقًا ؟ فمما يبدو ، وبعد مضى هذه المدة ، أن الأمل بات أكثر ضعفًا ، وواقع الأمر ينبئ ، بأنها اقتنعت بموت حفيدتها ، وموت أبى ، فعادت إلى موطنها تجر أذيال الخيبة .

يا ترى حفيدتها ماتت حقًا ؟

لو لم تكذب أمى بشأن موت أبى ، ربما خالجنى الصدق بموت الحفيدة ، على الرغم من كل الملابسات .

وكثيرًا ما تعرضت إلى الندم بعد ذلك ، عندما أفكر ، كيف جعلت الفرصة تفلت منى ، فلم أسأل تلك المرأة الغريبة أيما سؤال عن نفسها ، أو عنوانها ، لو فعلت ، لربما قادنى ذلك إلى إجلاء الحقيقة ، فلم أبق فى حيرتى والقلق يساورنى ، والشك يحيط بى من كل جانب ، لكل تصرف تقوم به والدتى تجاه أختى ، كما هو الحال معى الآن .

وأظن مبعث عدم تدخلى فى الحديث ، ما بين المرأة وأمى فى ذلك اليوم ، كان بسبب الطريقة التى انتهجتها والدتى فى التدخل السريع بينى وبين تلك المرأة . فقد كانت حاسمة فى أخذ المبادرة فى الرد على أسئلتها ، فلم تدع لنا مجالاً للتدخل للمناقشة معها سواء منى ، أو من أخى ، ثم صرفت تلك المرأة سريعًا ، وكأنها كانت تخشى إفاقتنا من الدهشة المباغتة التى كانت تلفنا .

على كل فقد بت أنتظر بفارغ الصبر انتهاء السنة الدراسية هذه ، وأعد العدة داخل نفسى ، بأنى سأذهب لزيارة أبى من أول يوم من أيام الإجازة المدرسية . إنى والحق يقال لم أشعر فى إىّ من السنوات الماضية بطول السنة الدراسية ، كما شعرت بها فى هذا العام .

Looloo
www.looloolibrary.com

لقد كنت فيما مضى شغوفة بالتحصيل الدراسى ، وكانت الأيام تمر على سراعًا دون أن أشعر بوقعها ، إلا فى هذا العام ، يا لله ، ما أطوله .

لقد كنت أسررت فى نفسى ، أن ألحف بالسؤال على أبى حتى يقر لى بكل شىء ، بل إنى على تأكيد وفى يقين تام بأن ما سوف أحصل عليه من معلومات لدى أبى فيما يخص أختى سيجلو غموض هذه المسألة ، وحتمًا سأعرف منه ما أريد ، بعد مواجهته بالذى عندى عن المرأة المجهولة وحفيدتها الغامضة ، ولكن فقط لينته هذا العام .

* * *

- ٤ -

كنت فى عجلة من أمرى ، بيد أن الزمن كان أكثر تعجلاً منا ، فلم أر إلا وأنا فى قرية أبى فى منتصف العام التالى ، وفى نهاية السنة الدراسية التى كنت أتلهف شوقًا إليها ، وما كاد يستقر بى المقام ، وكنت بمفردى ، لأن أخى رفض الذهاب إلى القرية بعد تجربة السنة الماضية ، وأختى منعتها أمى .

قلت ما كاد يستقر بى المقام ، حتى أخذت أتحين الفرص للانفراد بأبى بعيدًا عن مرمى السمع من جدتى ، فطلبت منه القيام بنزهة معه ، خارج حدود منزل جدى المنعزل ، وعندما تركنا وراءنا ما يحيط به من أحراش مخضرة ، متجهين ناحية البحر ، حيث بناء كبير مجلو بالجص الأبيض ، قال عنه أبى إنه سوق صغير لبيع السمك الطازج فى سلال الصيادين ، والخارج لتوه من البحر . مبديًا رغبته بشراء بعضٍ منه للغداء .

وكنا ونحن فى سيرنا الهوينى ، نتحدّث بصوت أقرب إلى الهمس ، مع أنه ليس هنا أدنى احتمال إلى أن يسمعنا أحد .

ذكرت له زيارة السيدة (سارة) . فتوقف فجأة فى منتصف الطريق ملتفتًا إلى ، ثم ارتفعت طبقة صوته بصرخة مباغتة :

- أهى حية ترزق ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

بادر أبى بصرخته هذه ، وهو فى حال من الانتشاء ما بين الفرح والدهشة ، ثم قال مبهورًا :

ـ السيدة (سارة) ألم تمت ؟ كل هذه المدة وهى حية ترزق ؟ كل هذه السنوات العشر الماضية ، وأنا فى يقين تام بأنها ميتة لا محالة ، بعد ذلك الموقف العصيب ، إذن كان فى مقدورى إيجادها ، لو أنى فقط حاولت البحث عنها ، لست أدرى كيف جزمت بموتها هذا الجزم الذى لاينقض ، لست أدرى كيف استولت علىّ هذه الفكرة الرديئة عن يقينى بموتها ، آه .. لقد كان منظرها ذاك وهى ذاهلة عما حولها ، جالسة على الرمال المتقدة كالجمر ، وأشعة الشمس الحارقة عمودية على هامتها ، وسط تلك الصحراء الملتهبة كالأتون ، ثم عدم وعيها بكل ما يحيط بها ، غير شاعرة لا بحرارة الرمال تحتها ، ولا بالطفلة الجوعى التى تصرخ فى حجرها ، وهى بلون القرمز المبلول ، وغير منتبهة إلى وقوفنا إلى جوارها ، ونحن نحاول مساعدتها ، كل ذلك ركز فى ذهنى فكرة أن موتها محتم ، وأنها لن تخرج سالمة من ذلك الموقف العصيب ، أجل لقد اعتقدت اعتقادًا راسخًا أنها مائتة لامحالة ، وأنه يستحيل صمودها طويلاً فى وجه ذلك الوابل من الويل ، ولن تخرج منه سالمة أبدًا ، وأنه إن لم تقتلها الأحداث الدامية سوف تقتلها الصدمة المروعة ، وهى ترى ابنتها وزوج ابنتها يقتلان أمامها ، من أولئك الجند الغلاظ . يا للعجب من الحياة ومن تصريفها لأمورنا .

حديث أبى على تلك الصورة ، قام بتشتيت ذهنى أكثر فأكثر ، فهو يعنى أن أم حفيدة المرأة الغريبة ماتت مقتولة ، وكذلك أبوها . إذن أبى ليس والدًا لتلك الحفيدة .

وأن أبى وجد الحفيدة على حجر جدتها بمحض الصدفة ، على تلك الصورة التى رسمها بحديثه ، وعلى قارعة الطريق ، إذن لا يمكن أن يكون أبى تزوج من ابنة الجدة ، ولا من الجدة نفسها ، إذن لماذا والدتى تغار منها ، مادام أنه لم يرها إلا فى ذلك الموقف العصيب ؟!

وقررت الاقتراب فى الحديث عما فى ذهنى ، كنت حريصة على مبادرته بتساؤلاتى ، فقد كنت أخشى ضياع أية فرصة تمر ، دون الاقتراب مما فى بالى ، ولكنه فوت على الفرصة ، مضيفًا المزيد من الدهشة فوق ما لدى ، عندما تبدت لى معرفته بالجدة عندما تساءل :

ـ أهى بصحة جيدة ، هل هى سليمة تمامًا ؟

فلما أخبرته بما تكون لدى من انطباع عنها . حدث ما كنت أخشاه ، لقد توقف عن المسير هنيهة ليغير اتجاه خطواته ، فقد قرر العودة إلى المنزل ، متخليًا عن رغبته فى شراء السمك ، وكأن المفاجأة أنهكته ، فأمسكت عما لدى .

بيد أنى اقترحت عليه الجلوس على حافة البحر لتأمل الأفق البعيد حتى يزايله التعب ، ثم نواصل المشى فى طريق العودة ،

Looloo
www.looloolibrary.com

غير أنى كنت حريصة على أن لا نعود إلى المنزل ، حتى ألم بما أريد معرفته .

وجلسنا على صخرتين متجاورتين ، يلفنا الصمت ، مع كل ما يحيط بنا ، فلا سابلة تمر فى ذلك المكان المنعزل ، لقلة الساكنين فى تلك القرية ، ولا نامة تهمس ، حتى مع وجود الأغنام والأبقار تسرح حولنا حرة مما يعتقلها ، فلا ثغاء ولا خوار يعلو . فكان كل ما كنا نشعر به رفرفة نسيم خفيف ، يصفع وجوهنا برقة ، ومحركًا لشعر أبى الخفيف ، أما شعرى فقد كان معقوصًا إلى الوراء ، بجديلة ثقيلة تعجز تلك النسيمات الرقيقة عن حملها .

ومضت فترة ليست بالقصيرة ، قبل أن أسأله ، إن كان الآن عاد إلى وضعه الطبيعى من الهدوء واستعاد نشاطه ، بعد رجفة تلك الدهشة التى ألمت به ، فضحك بخفوت ، وقال :

ـ لا عليك .

عند ذاك انتهزت الفرصة وأخبرته عما تكون لدى من تخمين عن علاقة موضوع أختى (عاتكة) بالمرأة الغريبة ، وأردفت متسائلة عن (مذكرات خادم) ، التى جاء ذكرها على لسان السيدة (سارة) ، والتى كتبها زوجها كما قالت فى أثناء زيارتها لنا .

وبعد أن استمع أبى إلى شرحى المفصل ، لذلك الموضوع ، كما جاء تمامًا على لسان السيدة (سارة) ، علته دهشة مباغتة أخرى . وأجاب :

ـ ليس لدى أدنى فكرة بخصوص (هذه المذكرات) .

وبعد سكتة قصيرة أردف شارحًا :

ـ إن ما لا تعرفينه ، هو أننى كنت أعمل لدى السيدة (سارة) ، فى المؤسسة التى تملكها فى دولتها الغنية ، قبل تعرضها لذلك الغزو الغاشم . ولم تكن السيدة (سارة) متزوجة ، أعنى أنها لم تكن متزوجة للمرة الثانية ، إذ كان زوجها الأول متوفيًا ، منذ عدة سنوات ، فلم أتعرفه أيضًا . بيد أنى كنت أعرف أن لديها ابنة شابة وولد يكبرها بقليل ، كل منهما متزوج ولديه طفل .

وتوقف برهة وجيزة أخرى ، ريثما يتخلص من سعلة مباغتة واستطرد :

ـ إذن فقد استعادت صحتها ، وتزوجت للمرة الثانية ، يا لتصاريف القدر ، أظن أن ابنتها القتيل ، كانت العقبة الكأداء أمام زواجها للمرة الثانية ، لم تصرح لى قط بمشاكلها المنزلية ، ولكن كنت أشتم تلميحًا منها حول ذلك الموضوع . يا لتصاريف الأيام وما تفعله بالإنسان . ليتنى كنت أعرف أنها كانت حية ترزق ، كم كان من الأمور سيتغير ، لو كنت أعلم فحسب ، لم أتخيل ذلك أبدًا بعد تلك النكبة والحالة التى كانت عليها بعد مقتل ابنتها .

وسكت للمرة الثانية يلفه الانبهار ، ثم نهض قائلاً فى تسليم :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ لنذهب إلى المنزل ، فقد بدأت أشعر بالتعب حقًا .

وسرنا جنبًا إلى جنب ، ممسكة بيده . وكنت مصممة فى قرارة نفسى ، أن لا أدع الفرصة تفلت من يدى ، ولذا عندما رأيت أنه لاجدوى من محاولة استنتاج أى شىء من المداورة فى الحديث معه ، اختصرت الموقف ، موجهة إليه سؤالاً مباشرًا وصريحًا ، وأنا أضغط أصابعه بيدى :

ـ هل (عاتكة) هى (سارة) الصغيرة ؟

فنزع يده من يدى ، وتوقف ناظرًا لى ، ثم قال مراوغًا :

ـ لا تحاولى أن تجربى ذكاءك على يا بنية ، لست إلا أبًا مريضًا ، إن (عاتكة) ابنة لى ، ثم أردف باستسلام سريع مباغت :

ـ هذا هو قدرها أن تكون ابنة لى ، على الرغم من كل شىء ، ألم ترى شهادة ميلادها ، لماذا لم تقتنعى ؟

فعاودت الإلحاح ، بعد ما رأيت من بداية استسلامه المعتاد :

ـ أليست هى (سارة) الصغيرة ؟ كما أسمت تلك المرأة حفيدتها الضائعة أو تلك التى كانت أمانة لديك ، لقد قالت المرأة الغريبة ذلك أمامى ، وأمى لم تنكر الواقعة ، فلم تكذبها ، بل ادعت بموتها ربما ادعاء ، قل يا أبى ، كى أجد ما يبرر قسوة والدتى على أختى (عاتكة) .

فتنهد وقال :

ـ والدتك لا تقسو عليها لكونها (سارة) الصغيرة ، إن قسوة والدتك نابعة من كراهيتها لـ (سارة) الكبيرة .. (سارة) الجدة .

فقلت بتعجب :

ـ كيف ؟ اشرح لى ، فى الحقيقة لقد سمعت ذلك من السيدة (سارة) عندما زارتنا . لقد قالت لأمى ، إنه ليس من داع لغيرتها ، وقالت إنه لم يكن بينكما ، أى أنت والسيدة (سارة) ، ما يدعو والدتى إلى تلك الغيرة منها .

فقال أبى جزعًا :

ـ أوه يا للهول ، أكانت السيدة (سارة) تعرف بغيرة والدتك منها ، يا للأمور التى تنكشف .

ثم استأنف نتيجة لإلحاحى فى طلب الشرح .

ـ لا مبرر للشرح يا بنيتى ، يمكن أن أختصر فأقول ، إن والدتك كانت تمتلك من الغيرة المجنونة ، ما يدمر حالات زواج بلد بكامله . لقد كانت تغار على غيرة قاتلة من خيال الظل لأى امرأة ، كانت والدتك مقيدة لى متملكة إياى ، تريد السيطرة حتى على وجدانى ، لو كان ذلك فى مقدورها ، كانت لا تطيق لأى امرأة أن تقترب منى ، وعندما كنت أعمل لدن هذه السيدة ، سامتنى بسياط غيرتها عذابًا متعدد الأشكال . ويبدو أنها حملت

www.looloolibrary.com

حقدها من الجدة إلى الحفيدة ، واللّه وحده العليم ، إنه لم يكن بينى وبين هذه السيدة أى شىء ، غير علاقة العمل ، حقًا كنت معجبًا بها ، ولكن ليس أكثر من ذلك ، حتى إن السيدة (سارة) لا تعلم بذلك ، ولكن والدتك اشتمت رائحة ذلك الإعجاب ، وفسرته على هواها ، بل فصلته وخاطته بما يلائم أهواءها ، مغذية بذلك غيرتها السوداء ، التى كانت تزداد يومًا بعد يوم ، ولو لم يحدث ذلك الغزو لتلك الدولة ، وافتراقنا عن السيدة (سارة) ، ربما أدى الأمر إلى تدمير كل شىء معها ، بل ربما معى أيضًا ، ومع ذلك أقسم بما تبقى لدى من صحة وعافية ، إنه لم يكن بينى وبين تلك السيدة الفاضلة أى شىء ، يتعدى علاقة العمل التى تربطنا معًا ، صدقينى يا بنيتى .

يبدو أن غيرة أمى على أبى من لا شىء ، كانت تحز فى قلبه ، غير أنى لم ألتفت إلى تضرعه ، بطلب البراءة من علاقته بتلك المرأة ، فلم يكن ذلك ليهمنى معرفته ، بقدر ما كنت أريد أن أعرف عن أختى ما لم أكن أعرفه . فقلت منتهزة فرصة بادرة الاعتراف منه ، قاطعة عليه الحديث :

ـ هأنت يا أبى قد اعترفت بأن (عاتكة) هى (سارة) الصغيرة .

فقال بتسليم متناقض :

ـ لنقل ذلك فرضًا ، ماذا بعد ذلك ؟ لقد ذكرت أن (عاتكة) دفعها قدرها إلى أن تكون ابنة لى ، ولتلك المرأة التى تكره

جدتها كراهيتها للعمى . إن (عاتكة) مسجلة فى شهادة ميلادها باسمينا أنا وأمك . هل بعد ذلك ما يقال بهذا الخصوص ؟

فقلت بتأن :

ـ لابد أن ثمة لبسًا ما ، حدثًا ما ، وقد تكون عملية تزوير ؟

فأمسك بكلتا يدى ، وهو يقف فى مواجهتى ، واعتصرهما فى عصبية شديدة ، ثم قال برمًا ، وهو يجرنى إلى صخرة أخرى ويسحبنى للجلوس بجانبه :

ـ إنك لن تدعينى أهدأ ، إنك تريدين المعرفة التامة . إذن فاعلمى أنه بعد عودتنا إلى دولتنا مجبرين ، فى أثناء عملية هروب كبيرة ، نحن وغيرنا ، وبعد تلك الأحداث الدامية الأليمة التى حدثت فى أثناء غزو تلك الدولة ، التى كنت أعمل بها ، ما يزيد على الخمسة عشر عامًا ، وكنت لولا تلك الأحداث لبقيت بها مدى العمر الذى سأعيشه ، إذ كنت رتبت أمرى على المكوث فى تلك الدولة ما حييت ، ومادام بى رمق يتنفس وعرق يرف ، لقد كنت أحبها ، بل أعشقها واعتبرها موطنى الثانى ، وقد تتعجبين لتركى موطنى الأصلى ، ولكن يا بنيتى إن بلد المرء هو الذى يرزق فيه ويعيش به ، وليس ذلك الذى يولد به ، ومن ثم لا تعرف عنه شيئًا ، هكذا كنت أنظر إلى الأمر ، ولكن ما فى اليد حيلة مع تصاريف القدر ، كيف يكون فى مقدور الإنسان معاندة الأيام ، لقد فرضت الأحداث العودة علينا فرضًا ، فكانت أيام عودتنا من أصعب الأيام ، التى مرت بحياتنا أنا وأمك ،

Looloo
www.looloolibrary.com

ومع ذلك كانت مبتهجة أشد الابتهاج بالخلاص من تلك الدولة الغنية الرائعة الجمال ، فرحة بالخلاص منها ومن فيها ، وكانت فيها السيدة (سارة) ، أجل لم يكن يهمها سوى الخلاص من تلك السيدة ، أما فقدنا لمصدر رزقنا فلم يكن ذلك بذى شأن لها .

أما أنت وأخوك فلم تكونا سوى طفلين آنذاك ، غير شاعرين بالمخاطر التى كانت تهددنا جميعًا ونحن فى عملية ذلك الهروب الكبير نحن وغيرنا من الناس ، فى الطريق إلى الدولة المجاورة ، حيث سنقلع من مطارها إلى بلادنا ، وأنت كما ولابد تعرفين أنه فى عملية الحروب الحديثة يتعطل الطيران المدنى .

وفى ذلك الطريق الرملى ، بل فى ذلك التيه الرملى ، وجدنا السيدة (سارة) جالسة على الرمال ، وكان ثمة من سبقنا إليها من جند الدولة الغازية ، فقتلوا ابنتها وزوج ابنتها .

كانت السيدة (سارة) جالسة فى ذلك الطريق المنقطع ، ولكنه كان المسرب الوحيد للهرب من ذلك الأتون المشتعل فى بلدها ، ومن ضرب المدافع ، ومن انفجار القنابل ، إنها الحرب ، الحرب التى لا تعرف التقدير ، ولا منطق التعقل ، ويعدم بها الحس الإنسانى ، فلا يبقى منه إلا بقدر ما يملك مشعلوها من غلظة وحشية .

أفلت يدى ونهض ، وأحاط كتفى بذراعه اليمين ، دافعًا بى إلى مواصلة السير ، واستطرد :

— هربنا جميعًا ، كل من أراد الهروب من أتون الحرب ، هرب من خلال ذلك المسرب الرملى ، بعد أن سدت كافة الطرق المعبدة فى وجوهنا ، ثم إنه ليس مسربًا إلا تجاوزًا بالمعنى ، إنه تيه رملى كما ذكرت ، سهب مترامى الأطراف ، ومن يقوده سوء حظه فيضل موقعه منه ، وتخطئ قدماه ، فيتيه فيه ، تدفنه سفاف الرمال ، وقد سمعت أنها دفنت أناسًا كثيرين من الهاربين مثلنا من أتون الحرب ، وكنا من الناجين أنا وأمكما وأنتما معنا ، هربنا من جيوش الغزاة ، من خلال ذلك التيه ، بعد أن سدت كافة الطرق الأخرى ، بالدبابات المدرعة والمدافع الثقيلة ، فما كان الأمر سهلاً معنا ، فقد تعرضنا لمخاطر جمة ، وللموت لأكثر من مرة ، وكاد أن ينفد منا الماء ، وأنتما معنا لقد كنتما مربوطين فى المقعد الخلفى بالأحزمة ، ومع ذلك كنت أصرخ بكما فى كل لحظة ، أن تتشبثا جيدًا بالمقعد كى لا تضرب سقفية العربة رأسيكما الصغيرين ، كنا نرتج ، ونكاد نطير من فوق مقاعدنا من شدة السرعة ، التى كنا نسير بها ، وكى لا تغرز عجلات العربة بالرمال ، وقد حدث لنا ذلك مرارًا ، فكان بين كل ساعة وأخرى تغرز عربتنا فى الرمال ، فننزل منها ليساعدنا غيرنا من الهاربين ، الذين هم فى حاجة إلى مساعدتنا أيضًا ، وهكذا كانت تتضافر كل الجهود لاستخراج ما يغرز من عجلات .

ولكن بقدرة قادر تيسر لنا اجتياز ذلك الطريق الرملى . وقد عرفت ، ونحن فى الرمق الأخير من قوة الاحتمال ، عرفت أن المخاطر تعطى المرء قوة إضافية لا تظهر عنده إلا فى الملمات .

Looloo
www.looloolibrary.com

وهكذا كانت لدينا تلك القوة التى أخرجتنا من ذلك الطريق الجهنمى ، آه ، إنه يوم لا ينسى ، ولا سبيل إلى وصف عذابه رعبه ، وشدة النصب الذى كنا فيه .

وقد ساقتنا الأقدار إلى السيدة (سارة) ، ونحن نتعثر فى الاستدلال على معالم الطريق المؤدى إلى تلك الدولة المتاخمة لحدود الدولة المغزوة .

وكان قبل أن نصطدم بالسيدة (سارة) ، كان القدر متربصًا بالسيدة ومن معها ، ولم يكن معها سوى ابنتها وزوج ابنتها وحفيدتها .

وكانت المسكينة مذهولة عما حولها ، لقد فقدت اللب ، وهى ترى ابنتها الشابة التى لم تتجاوز العشرين بعد ، والدة (عاتكة) الصغيرة قتيلة ، ممددة على ظهرها ، وقد اخترقت رصاصة قلبها الفتى ، وإلى جوار الجثة ، جثة أخرى منكبة على وجهها فاقدة للحياة ، كانت جثة زوج الابنة القتيل ، أى والد الصغيرة (عاتكة) ، ولم يكن لدينا متسع من الوقت ، ونحن فى عجالتنا وفى حالتنا من الرعب ، ومن خوف عثور الجند علينا فتركنا الجثتين ، دون إهالة التراب عليهما . وكان ثمة من سبقنا إليها . أجل ، لقد اصطدم بها وهى على تلك الحال رجال أربعة ، كانوا مثلنا ومثل الجميع على ذلك الطريق ، مشتركين فى عملية الهروب الكبير إلى تلك الدولة المجاورة . كان أولئك الرجال الأربعة الذين كانت تضمهم عربة واحدة ،

تصادف مرورهم معنا فى ذلك الطريق الرملى ، حول المرأة المذهولة وتلك الطفلة فى حجرها . اقترحوا علينا أن نحملهما معنا ، وكان ذلك الاقتراح ناجمًا من وجود والدتك معى ، كى تعتنى بالطفلة ، ولكن والدتك رفضت رفضًا قاطعًا حمل المرأة التى تكرهها كراهيتها للشيطان ، والمرأة المذهولة ، لا تعرف عن هذه الكراهية شيئًا ، حتى من قبل أن تفقد لبها ، بل هى لا تعرف أمك من قبل ، وأمك أيضًا لم تكن تعرفها ولم ترها إلا فى ذلك الموقف ، ولكن كيف تيسرت لها تلك المعرفة ؟ ونحن فى ذلك الموقف العصيب فى ذلك اليوم الجهنمى .

ثم تنهد واستطرد قائلاً :

- دائمًا عند حدوث المفاجأة المباغتة ، يفقد المرء قدرته على مراقبة أقواله ، أو حتى مجرّد ترتيبها ، فتخرج منه بتلقائية سلسلة ، وكأنه لا محاذير تردعها . وهذا ما حدث معى عندما وقع بصرى على السيدة (سارة) ، وهى على ما هى عليه ، فى ذلك الموقف المأساوى ، لقد صرخت من داخل عربتى منفعلاً ، وأنا أطل برأسى منها :

- آواه السيدة (سارة) ، ماذا حل بك ؟

عند ذلك عرفت والدتك أن هذه المرأة هى غريمتها ، التى سلبت لب زوجها كما قد ظنت ، أجل كانت تكرهها وتغار منها دون أن تتعرفها أو تراها ، كان ذلك من تكرار حديثى عنها ،

Looloo
www.looloolibrary.com

وكان هذا خطأ منى ، إنى أعترف بذلك ، ولكن ماذا كان على أن أفعل ، إنها امرأتى ، والدتك امرأتى ، ومن ذا الذى أتحدث معه غيرها ؟ وكان أن أطلت فى الحديث إليها عن تلك السيدة الفاضلة ، التى كنت أعمل فى مؤسستها التجارية ، أثناء مكوثى هناك ، قبل أن يحدث ذلك الغزو الغاشم ، بسنة ونيف فقط ، كسبت فيها من المال ما لم أكسبه فى سنوات طويلة من عملى فى هذه الدولة ، وعندما فاض بيدى المال قررت أن أحوله إلى البنك الذى أتعامل معه فى بلدى ، وكنت أنوى شراء منزل لوالدى ، فقمت قبل أيام من ذلك الغزو ، بذلك التحويل ، وكأن اللّه ألهمنى ذلك الفعل ، ولولا ذلك لضاعت مدخراتى ، ولمتنا من الجوع ، ونحن لا نملك شيئًا ، لقد أغرانى بذلك ارتفاع قيمة العملة فى الدولة الغنية وانخفاضها فى بلدى إلى أدنى سعر ، لقد أراد اللّه إنقاذنا من التردى فى هوة الجوع ، المهم ، ولو استمرت الحال على ما كانت عليه لأصبحت من الأثرياء ، لأنها كانت امرأة منصفة ، وكانت تنوى أن تجعلنى شريكًا فى مؤسستها ، فيما لو نجحت فى إدارتها وقد نجحت ، ولكن الأحداث لم تمهلنا .

أجل كنت أحدث والدتك عن تلك السيدة ، أحاديث ملؤها الإعجاب والتقدير والاحترام ، ووالدتك لم يبد عليها أىٌّ من علامات الضيق أو البرم من تلك الأحاديث ، لم تشعرنى بأنها كانت تغار منها . أجادت إخفاء انفعالاتها جيدًا ، كل ذلك لكى

أكون صريحًا معها إلى أبعد الحدود ، وحتى يتبين لها اتجاه مشاعرى ، التى كانت تقيسها بالترمومتر الحساس ، وأنا لا أعلم ، ولكن جاءت اللحظة المناسبة ، لإبداء كل ذلك الحقد الدفين ، عندما رفضت حمل المرأة المذهولة معنا ، وقررت تركها إلى مصيرها ، تموت عطشى أو قتيلاً كابنتها الملقاة إلى جانبها على الرمال المحرقة ، أو أى ميتة يختارها لها قدرها .

بيد أنه كنوع من التعويض عن قسوتها على المرأة المذهولة ، أو لعله الشعور بالحرج أمام أولئك الرجال الأربعة ، الضارعين لها أن تحمل الطفلة على الأقل ، وبما أنها لم تجد ما يبرر رفض الطفلة ، وقد رفضت المرأة لضيق المكان ، أما هذه فهى طفلة تجلس على الحجر ، فقد وافقت مكرهة .

وتولى الرجال الأربعة حمل السيدة معهم ، ولكن الغريب أنه فى ذلك الوقت العصيب لم ينتبه أى منا بأننا نفرق بين الطفلة وجدتها .

وسكت سكتة قصيرة وأردف بإيجاز :

ـ هذه أصل الحكاية .

فقلت :

ـ والآن وبعد أن عرفنا أصل الحكاية ، كما تقول ، لم لا تعيد الطفلة إلى جدتها ، وقد جاءت للسؤال عنها بعد عملية بحث مضن ، وبذلك نخلّص الطفلة من العذاب الذى هى فيه ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فرد بيأس :

ـ من سخرية القدر أن والدتك التى ترى بها عبئًا كبيرًا تهفو إلى إزاحته عن كاهلها بأسرع ما يمكن ، فهى أول من سيرفض إعادتها إلى جدتها ، ألم تذكرى أنها صرفت السيدة (سارة) بجفاف وخشونة ، لعلها تريد أن تتم انتقامها من المرأة المنكودة .

فقلت غاضبة ودهشة من تخاذله ، فى حماية أختى :

ـ ولماذا تدعها تفعل ذلك ؟ أبى أرجوك يجب إيقاف هذه المهزلة المأساوية .

فرد فى مرارة وصراحة أكثر ، وقد أسقط بيده ، فقال :

ـ على أية حال ، ليس فى ميسورنا إعادة الطفلة إلى ذويها ، إن فى ذلك خطرًا عظيمًا علينا ، أنا ووالدتك ، إنها شريكتى فى كل شىء .

وبعد سكتة قصيرة ، وأنا أنظر إليه أحثه على التتمة ، قال :

ـ عندما اتجهنا إلى تلك الدولة المجاورة ، كى ننفذ عبرها إلى دولتنا ، إذ كانت المطارات مخربة ، والطيران متوقفًا فى تلك الدولة المغزوة ، كما ذكرت لك ، مثل كل شىء فى تلك الأيام العصيبة ، خشينا أن يتهمنا رجال الحدود التابعين للدولة التى نحن بصدد الالتجاء إليها ، بسرقة الطفلة ، ولم يكن أسهل من السرقة فى تلك الأيام ، وليس أسهل من الاتهام فى تلك

الظروف ، وكانت تلك الدولة الغنية المرفهة فى تلك الفترة من تاريخها مباحة للسلب والنهب ، والفوضى ضاربة فى أركانها ، وفى مقدور الكل أن يسرق ما يشاء ، والكل فى ميسوره اتهام من يشاء ، ومن الصعب إثبات أى نوايا حسنة أو رديئة ، فالكل يكذب ، أو يصدق ، بوحى من قناعته فقط ، دونما حاجة إلى أدلة أو براهين ، وقد سقط القانون ، وذابت معه هيئات الانضباط ، أو الردع .

وخوفًا من مثل هذه الملابسات ، رغبت فى تجنب أى نوع من الإبهام فى الإجراءات ، كى يتسارع مرورنا من ذلك المنفذ ، فادعيت أمام رجال الحدود فى الدولة المجاورة ، المتاخمة للدولة المغزوة ، أن الطفلة طفلتى ، وأنه لفرط عجالتنا فى سبيل الهرب تركنا أغراضنا ، وأضفت ادعاء بأنى فقدت شهادة ميلاد الطفلة فى حميا الخوف والفزع مع الكثير مما أضعته من أوراقنا وأغراضنا ، وكان ذلك الذى ادعيته لا يعدو الحقيقة ما عدا شهادة ميلاد الطفلة بالطبع . ولأن الظرف كان ظرف حرب ، وحدود تلك الدولة المجاورة مفتوحة للاجئين ، وكانت الجموع النازحة تعد بالآلاف يوميًا ، والتدقيق ليس شديدًا على الإجراء المرورى ، فقد عبرت بالطفلة ، بعد أن استكتبت تعهدًا يقضى بإضافتها إلى وثيقة السفر التى أملكها ، أو التى تملكها زوجتى من قنصلية دولتنا فى هذه الدولة المجاورة ، فى مدى لا يتجاوز الأسبوع الواحد ، وجرنى ذلك إلى الادعاء أمام الرجال العاملين فى (سفارة) دولتنا إلى ترديد نفس الأقوال .

Looloo
www.looloolibrary.com

وأيضًا اضطررت إلى كتابة إقرار آخر بصدق ما أدعيه ، أو أتحمل مسئولية ما ينتج عن ذلك فيما لو ثبت العكس . واستخرجت بموجب ذلك الإقرار شهادة ميلاد جديدة للطفلة بدلاً من تلك الضائعة حسب ما ادعيت ، وكان عمرها آنذاك لايزيد على الأربعة من الأشهر ، وبذلك أضيف اسم (عاتكة) وصورتها إلى وثيقة سفر والدتك ، بجوار اسمك وأخيك وصورتيكما .

وسكت لحظة لكى يستريح ، وكنا وصلنا إلى المنزل ، وأصبحنا على عتبة باب غرفته فى منزل جدى .

ولكنى لم أدعه ينال ما يريد من الراحة قبل التتمة ، فعاجلته بطلبها قبل أن تحضر جدتى لا أدرى من أى أنحاء المنزل .

فاستأنف وهو يستعد للجلوس على فراشه يروم الراحة ، وقد أنهكه السير مستنفدًا جل طاقته مع تلك الذكريات المؤلمة ، فقال :

ـ ليتنا لم نفعل ذلك ، لكان فى مقدورنا إعادتها إلى ذويها ، كانت والدتك هى التى اقترحت اسمها ، ومع ذلك لو لم تفعل ما فعلناه لم نكن نستطيع اجتياز الحدود بها .

فقاطعته :

ـ أبى هل تظن أن والدتى عندما غيرت اسمها كانت ترمى إلى تربيتها كخادمة مستقبلية لها .

فقال جزعًا :

ـ كلا يا (سعاد) لاتسيئى الظن بوالدتك ، إلى هذه الدرجة ، إن الظروف تضافرت على والدتك لتكون على ما هى عليه من بعض القسوة ، أظن أنها تكره مسمى (سارة) ، لو كانت تعرف اسم الطفلة مسبقًا ، فهى تغيره لهذا السبب فحسب ، ولكنها لم تكن تعرف اسمها ، لا أنا ولا هى ، ولهذا السبب أطلقنا عليها اسمًا جديدًا عوضًا عن ذلك الذى كنا نجهله ، لقد كانت علاقتى بالسيدة (سارة) ، مقتصرة على العمل ، ولم تتعد إلى العلاقات الأسرية ، فقد حاولت تجنب ذلك ، بسبب من غيرة والدتك ، خشيت أن يبدر منها ما لايصح من تصرفات ، فينعكس ذلك على عملى ، وكان عملاً مربحًا يدر على رزقًا وفيرًا ، ما زلت أعيش منه ، برغم مضى كل هذه المدة . لقد كنت شريكًا لها ، فى كل شىء ، فى الأرباح والخسارة ، وضعت هى المال ووضعت أنا جهودى ، ولم نخسر إطلاقًا .

ولهذا السبب جعلت العلاقة بيننا بمنأى عن الترابط الأسرى ، علاقة عمل ، عمل فقط .

ولذا لم يكن يهمنى معرفة أسماء أولادها ، أو أحفادها .

ولم أنتبه إلى باقى حديثه ، كان فى بالى شىء أود قوله ، فقلت :

ـ تقول إن والدتى على ما هى عليه من بعض القسوة ، هل تعتبر أن ما تفعله بهذه الطفلة المسكينة بعضٌ من القسوة ،

Looloo
www.looloolibrary.com

إنها القسوة الكاملة المدمرة للشخصية ، ولكن لكى تجعل هذه الطفلة المسكينة بمنأى عما هى فيه ، فى وسعك الآن أن تبلغ السلطات المعنية بالحقيقة الكاملة ، وتعترف بأهل الطفلة ، بما أنه ظهر لها أهل وجدة .

فقعد منتصبًا بعدما كان يهم بالاضطجاع ، وقال جزعًا :

ـ اسمعى يا بنيتى ، إن كل من يكون على مثل ما أنت عليه من يفاعة فى السن ينزع إلى أن يسم كافة تصرفاته بالنبل ، متبعًا أرقى أنواع السمو ، وهو فى مثاليته تلك ، لا يرى من الحياة إلا جانبها المضىء ، كأيام عمره الفتى ، والسبب أنه بعد لم تصقله تجارب الأيام ، ولم تضعه على محك الاختبار ، وأنت كذلك ، فلأنك لم تتعرضى إلى ما تعرض له الكبار ، وصفحة أيامك ناصعة البياض ، مختلفة عن صفحات أيامهم السوداء ، ولذا فأنت لستِ بمنجاة من الخطأ فى تقديرك للأمور . أما نحن فقد أعددنا عدتنا للطفو على السطح ، بمحاذاة ما يريده الناس منا ، لا نرى ما ترونه أنتم يا صغار السن ، فكلما تقدم العمر بالإنسان يغلف فكره الإعتام فلم يعد يرى الحقيقة ، لا يرى إلا ما هو فى مصلحته ، ولذلك تعشى عيناه بدلاً من وضوح الرؤية ، ولذلك ترينا نوعًا من البشر معتمى الرؤية ، غير مصقولى الفكر ، نهتم بالشكل ونضحى بالجوهر ، غير قادرين على تمييز الشعرة ، التى تفصل بين الخير والشر ، ولذلك ترينا أيضًا مأخوذين بعمانا ، فتختلط علينا الأمور ، ويتعين علينا كى ننجو

بأنفسنا ، أن نكون على غرار أناس الكوكب (سيم) ، ولكن لكى نصل إلى ما وصلوا إليه من التطور نحتاج إلى تعاقب ملايين من السنين الضوئية .

فقاطعته بدهشة :

ـ أناس الكوكب (سيم) ، وهل نستطيع السفر إليهم ؟

ضحك والدى مغرقًا ، وقد علا البشر محياه ، لأول مرة فى جلسة الاعتراف تلك ، بل إنها أول مرة أراه هكذا منذ عدة سنين .

قال :

ـ أناس الكوكب (سيم) مجبولون على ارتكاب ما سما من الأفعال ، فطرة فى نفوسهم لقد وصلوا إلى أقصى حدود التطور إلى درجة أن الإنسان منهم فى ميسوره التفرقة بين أقصى حدود الخير فيرتكبه ، وأقصى حدود الشر فيتجنبه ، إمعانًا فى النقاء الوجدانى ، أى إلى درجة حساب النيات ، ولكنا لا نستطيع السفر إلى ذلك الكوكب الذى يعيشون فوقه ، إلا بفكرنا لأنه نتاج خيال روائى .

فقلت وقد خيب أملى :

ـ ظننت أن ذلك حقيقة ، ففرحت بها ، ولكن ما اسم هذه الرواية ؟

رد :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ (ظلال الحقيقة)[٢]، هذا هو العنوان التى تتحلى به ، من الممكن أن يكون ما تبشر به هذه الرواية حقيقة ، لو كل منا .. أتيح له من قوة ضبط النفس ما يؤدى إلى كبح جماحها ، عن كل ما يقوده إلى الشر .

ولكن كما قلت لك إن ذلك يحتاج إلى ملايين السنين فى عملية التطور ، لكى نصل إلى مثل هذه القوة من وعى الإرادة .

ومع هذا فأنت ، ومن هم فى مثل عمرك ، أقرب إليهم منا نحن الشيوخ ، الذين أظلمت وادلهمّت نفوسنا فاسودت بإعتام أطماعنا ، التى تزداد كلما تقدم بنا العمر ، وكأن نقاءنا يشيخ معنا ، ويقترب من الفناء مثل ما لنا من مادة جسدية .

وصمت ، وقد فاض البشر من وجهه ، وعلته سيماء المرض مجددًا ، وأردف وقد نسى تفاؤله تمامًا :

ـ يابنيتى إن مثاليتك الحادة هذه قد تدمر حياة ذويك وأحبائك ، أو تعرضهم لخطر داهم ، وياحبذا على قلبى ، أجل ليس أحب على نفسى ، من أن يكون فى مقدورى تنفيذ رغبتك ، ولكن تعرفين أن ذلك سوف يسوقنا أنا ووالدتك إلى دخول السجن ، لمدة لاتقل عن خمسة عشر عامًا على الأقل ، إن لم تزد ، وذلك بمعدل خمسة أعوام عن كل جناية تزوير بمحررات رسمية ،

(٢) تفصيل ذلك فى رواية : (ظلال الحقيقة) للمؤلفة .

فمنا بها أنا ووالدتك ، ابتداء من شهادة ميلاد الطفلة ، ومرورًا بوثيقة السفر ووصولاً إلى شهادات إثبات الجنسية ، وغير ذلك من الأوراق التى احتاجت إليها أختك ، على مدى السنوات الماضية ، مثال بطاقة إثبات الشخصية والأوراق المدرسية ، كلها يا بنيتى شهادات مزورة ، جرت بعضها تباعًا على الرغم منا ، عندما قررت وادعيت أنها ابنة لى ، واستخرجت لها شهادة ميلاد بناء على ذلك الموقف المؤلم . وكان كل غرضى منصبًا على حمايتها من مصير مظلم ، خاصة وأنا أعرف ذويها ، وإمكانية العيش المرفه المتاح لها ، لولا ذلك الغزو الهمجى ، الذى جرها إلى هذا الوضع الذى رأيناها فيه ، وأنظمة البشر يا بنيتى لاتحاسب على النيات ، فالشكل الوضعى أهم لديهم من لبه ، ثم هم غير ملامين كل الملامة ، إذا التمسنا لهم العذر فى ذلك . فهذا أقصى ما يستطيعون إدراكه ، وهكذا تربننا مقيدين بإرادة الجميع .

واستطرد بعد وقفة قصيرة أخرى :

ـ أما ماترينه من وضع لأختك ، فهى مهما عانت من قسوة أمك ، فلابأس عليها منها ، فهى لاتزال صغيرة ، وحتمًا سوف تنسى كل معاناتها عندما تكبر وتتزوج ، وتكوّن أسرة وبيتًا ، وسوف تعيش سعيدة حينذاك ، ثم إن اللوم لا يقع على والدتك بمفردها ، إنها طفلة عنيدة ، وفى طبعها لؤم ، قد لاتبديه أمامك لأنها تتمتع بمحبتك ، ولا تريد أن تفقدك ، صدقينى إنها

Looloo
www.looloolibrary.com

أخبث مما تظهره ، أقول هذا ، على الرغم من شدّة محبتى لها ، حتى إننى فى أحيان كثيرة أنسى أنها ليست ابنة لى .

لقد رأيت عدة مواقف منها ، كانت تعمل كل ما من شأنه أن ينغص على والدتك عيشها ، كانت والدتك تشكو لى منها مر الشكوى ، ولم أكن أصدق ، حتى رأيت ما رأيت بأم عينى واستغربت كثيرًا أن يصدر من صبية صغيرة فى مثل سنها ، مثل تلك الأفعال الدالة على قدر ما تملكه من حقد على المرأة التى ربتها ، أجل ، إنها بالغة القسوة فى معاملتها للمرأة التى ربتها ، وكانت تحنو عليها وهى رضيعة ، حتى رأت منها ما ينفرها . قد لا تصدقينى ولكن الطفلة تحمل حقدًا كبيرًا ، لكل الناس وربما للحياة نفسها ، ووالدتك تعرف عنها هذا ، ولذا فقد كرهتها ، فوق ما لديها من أسباب خاصة بجدتها .

أنا لا أقول هذا اعتذارًا عن والدتك ، إنها أيضًا بالغة القسوة مثلها ، والفرق أن هذه امرأة ، وتلك طفلة لها عذرها من طفولتها .

فقلت :

ـ إنى أصدق كل ما تقول يا أبى ، لأنه نابع من قناعتك ، ولكنها ليست الحقيقة ، فأنا أجدك متأثرًا بكلام أمى عن الطفلة ، فهى لم تعاملها بقسوة فقط ، بل هى جعلتك تعتقد أنها حقودة

صغيرة ، أنا لا أصدق شيئًا مثل هذا عن أختى المسكينة ، ولذا لن أفكر فيه إطلاقًا .

ـ حسنًا تفعلين أنا لا أريد أن أثير بك حقدًا على الطفلة ، ولكن كنت أنشد عذرًا لوالدتك ، فى معاملتها لها .

ولفنا الصمت بعد أن اختتم أبى حديثه على ذلك النحو ، وشعرت وكأن رأسى بين قطبى رحى ، لقد ضاع منى مفتاح الحل ، وانغلق فى وجهى باب كنت أرى من خلاله بصيصًا من الأمل ، والآن لم أعد أعرف السبيل إلى أى مخرج من المأزق ، الذى فرض على أختى المسكينة ، وأنا أرى أبى لضعفه وتخاذله ، يعيش التناقض بين مثاليته الفكرية ، واستسلامه لواقع تعس ، لا يريد أن يمد إصبعًا واحدًا لتغييره .

نهض أبى من على فراشه ليجلس على الكرسى القريب منه ، ونهضت أنا الأخرى من مجلسى المجاور له ، على حافة الفراش متكاسلة ، تاركة أبى لاستسلامه ، وانسللت كشبح مريض ، أجر أذيال خيبة الرجاء إلى خارج الدار .

جلست على حافة قناة جدى وحدى ، وقد تركت قدمى اليسرى مدلاة فى مياهها الباردة ، أحركها يمنة ويسرة ، ضاربة صفحته الراكدة ، وقدمى اليمنى مطوية تحتى ، وبقيت مدة طويلة ساهمة لا أفكر ، أو أنى أفكر فى لا شىء ، لقد شعرت أن كل ما حولى بات غائمًا .

Looloo
www.looloolibrary.com

وبعد بضع دقائق ، أحسست بخدر فى ساقى المطوية ، ومع ذلك الإدراك ، انتبهت إلى أن أبى كان يقف خلفى .

هل هو خائف من تهورى ، بعد أن عرفت السر .. التفت إليه قائلة :

ـ أبى اطمئن ، لن أجرؤ على إيذائك ، ولن تمس شعرة من رأسك ، أنى أفديك بروحى إن اقتضى الأمر ، ولكن لابد أن تجد حلاً لهذه الطفلة المسكينة ، لا بد أن تجد حلاً لها ينقذها ، مما هى فيه ، يتعين عليك أن تأتى بها إلى هنا تحت رعايتك ، قم بتربيتها أنت يا أبى وحدك ، لن تكلفك عناية كبيرة ، إنها تعرف كيف ترعى شئونها ، أبى اعلم أنى لن أسكت عن وضعها ذاك أبدًا ، يجب علينا تحسين معاملتها .

ضحك ليخفف من توترى ، أو ليبدى أن الأمر لايستدعى كل هذه العصبية منى ، بيد أنها كانت ضحكة طافحة بالمرارة .

وقال وهو يجلس إلى جوارى ، على الحافة الباردة :

ـ ماذا ترينا فاعلين ، أنا وأنت تجاه والدتك ، إن هى رفضت عنايتى بها . لقد جئت بها فى العام الماضى ، وجاءت والدتك بعدك فأخذتها ، وقد يتكرّر الفعل مرّة أخرى ، وقد يصاعد ذلك فى حنق والدتك وغضبها منك . اسمعى يا بنيتى إنى أعتمد عليك فى رعايتها ، فى مقدورك غمرها بحنوك وعطفك ، كونى أمًّا لها ، على الرغم من كونكما متقاربتين فى السن ، أعطيها العوض عن كل ما تعانيه .

فقلت ضارعة :

ـ أبى ، ليس حلاً للموضوع مراضاة الطفلة بقليل من القليل ، أو تمسيدًا حانيًا على الشعر ، إنها فى محنة حقيقية ، إنها سجينة المطبخ لا تخرج من المنزل أبدًا ، بعد مجىء المرأة الغريبة إلى دارنا ، وهى حتى لا تقابل الضيوف ، لقد منعتها والدتى من ذلك ، وأيضًا فقد منعتها من فتح الباب لأى طارق ، وقد مضى عام كامل ، والطفلة المسكينة هكذا ، وأفكارها تتدنى وعقلها ينحط ، إن هذا سوف يؤثر على مستقبلها الفكرى ، إنها منذ الآن تنسى الأشكال والألوان ، ولا تفهم دلالات الأشياء ، إنها تعانى هذا التأثير منذ الآن . خذ مثالاً عندما تأتى جارتنا لزيارتنا ، وتكون مرتدية ثوبًا ذا لون معين ، وبعد ذهابها بقليل ، أسأل أختى عما كانت ترتديه تلك الجارة ، وغالبًا ما تكون ردودها غير دقيقة ، فإن كان اللون أحمر قالت عنه أصفر ، وإن كان ذا فتحة أمامية ذكرت ، إنها خلفية لمجرّد الاعتياد على مثل هذا النوع من الفتحات فى الثياب ، بل إنها أحيانًا ترى الوجوه ولا تتذكر الأسماء ، وإن تذكرت الأسماء تنسى لمن كانت من الشخصيات ، حتى جدائلها الطويلة الشقراء قصت ، ورميت مع المخلفات ، أتعلم أنها لم تنم ليلتها من فرط البكاء ، فما كان من والدتى إلا أن أحمت سيخًا وكوت به قدميها البضتين البيضاوين ، أواه ، أبى أرجوك أنقذها قبل أن يتدهور عقلها ، يتوجب علينا فعل شىء من أجلها ، إنك يا أبى سيد المنزل وراعيه .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقال مسرعًا لإسكاتى عن الاسترسال فى التوسل :

ـ حسنًا ، حسنًا ، لا تهتاجى هكذا ، سأبعث بطلب إلى والدتك وأختك ، سأدعوها إلى زيارتى ، وسنبحث الأمر معها ، لعلها تخفف من غلوائها تجاه الفتاة الصغيرة .

فقلت :

ـ شريطة أن تخبر والدتى ، بأنى على علم بسرّ أختى .

فقال جزعًا :

ـ ولماذا ؟

أجبت :

ـ لكى يكون موقفى قويًا ، تجاه والدتى ، عندما أتولى الدفاع عن أختى ، كانت والدتى تردّد دائمًا (دعية تلك التى تدعى حنان الأم ، أكثر من الأم نفسها) ، إنها بذلك تضعنى فى منزلة أقل منها ، تجاه مسئوليتها عن أختى ، أريد أن نكون متساويتين فى هذا الأمر .

فقال ضاحكًا ، وهو يربت خدى :

ـ إن محبتك قوية لأختك ، يالك من طفلة نبيلة ، حسنًا سأخبرها ، سأخبر والدتك بأنك على علم بموضوع أختك ، ولو أن هذا الأمر سوف يثير ثائرتها على ، ولن تسكت عن تبكيتها لى الليل مع النهار ، مدة بقائها هاهنا ، حسنًا لن يضيرنى ذلك ، وسوف أتحمل من أجل أختك المسكينة .

ومدّ ذراعه مطوقًا كتفى ، وتابع :

ـ أظن أن الأمر سوف يحل بما يرضيك ، ابتسمى ، لا أريد أن أراك مهمومة .

ثم عاد إلى القول :

ـ هه ، بيد أن ثمة أمرًا يحيرنى ، كيف عرفت السيدة (سارة) أن حفيدتها عندنا ، كانت فى ذلك الموقف فاقدة لبها ، لا تعرف شيئًا مما يدور حولها ، ولو قلنا إن الرجال الأربعة الذين حملوها معهم ، هم من أخبرها بالأمر ، بعد أن أفاقت واستعادت رشدها ، لكان من الممكن تبرير ذلك . ولكنهم أيضًا أغراب عنا وعنها ، لا يعرفوننا ، ونحن أيضًا لا نعرفهم ، كيف تسنى لها معرفة أن حفيدتها لدينا ؟ شىء محير حقًا .

وأردف :

ـ إنى أذكر أنه لم يكن فى ذلك الموقف متسع ، حتى لتبادل الحديث مع الرجال الأربعة ، فضلاً عن التعارف ، لقد كان حديثنا فى ذلك الموقف العصيب مقتضبًا ، أشبه بالحديث البرقى ، وكان منصبًا على ما يتعلّق بالظرف ، الذى وجدنا أنفسنا به ، وكان كل همنا أن ننجو مما نحن فيه بالفرار .

أجل كان من الممكن أن تكون الطفلة معنا ، دون أن يعرف سرها سوى خالق هذه الأكوان ، ونحن ، أى أنا ووالدتك فحسب ، ولكن هاهى رءوس المشاكل تبرز كالأقاعى ،

Looloo
www.looloolibrary.com
[م ٧ ـ اديبات (البهاء)]

وتتحسسنا بأطراف ألسنتها المسمومة ، بعد كل تلك السنين التى مرت ، بعد تسعة من الأعوام مضت ، غفرانك يا رب ، فأنت العالم أنه لم يكن لى من هدف ، سوى حماية تلك الصغيرة المسكينة .

فقلت لأبدد شيئًا من حيرته :

ـ أظن أنها عرفت بأمر حفيدتها من (مذكرات خادم) ، التى كتبها زوجها ، فقد أشارت السيدة (سارة) إلى ذلك ، فى أثناء مجيئها إلينا .

فرد وهو لا يزال غارقًا فى لجج من أفكاره :

ـ بما أنى لا أعرف كاتب تلك المذكرات ، وهى لم تتزوج للمرة الثانية ، فى أثناء ما كنت أعمل لديها ، وهو مع ذلك لم يكن هناك عندما وجدناها فى ذلك الموقف العصيب ، على تلك الشاكلة من فقد اللب ، كما وصفتها لك . إذن كيف عرف بوجودها ، أجل كيف عرف أن الطفلة معى ؟ أتعلمين يا بنية يتعين علينا البحث عن هذه المذكرات المزعومة ، حتى نحصل على تفسير لذلك ، مذكرات ماذا ؟

أجبت :

ـ (مذكرات خادم) ، لقد بحثت عنها حتى كلت قدماى ، فلم أدع مكتبة إلا وسألت فيها ، ولكنى لم أحصل على أى أثر لها .

قال :

ـ أواه ، إنك لم تنسى شيئًا ، سأبحث عنها أيضًا معك ، ولكن لا تلفتى نظر والدتك إلى ذلك .

ثم أردف بما يشبه الهمس :

ـ ما شكل السيدة (سارة) ؟ هل شاخت ؟

تفجّرت فى أعماقى ضحكة كبيرة ، شعرت بها لأول مرة منذ وطئت قدمى هذا المكان ، وقلت له من خلال شهقاتى :

ـ أبى ، إذن ، إن أمى محقة فى غيرتها .

كاد أبى يسقط داخل قناة جدى ، من عنفوان قهقهته ، ثم أمسك بخناقه سعال شديد ممض ، خرجت جدتى على أثر سماعها له ، مهرولة من داخل المنزل ، على الرغم من مرضها وثقل خطواتها . كانت تحمل بيدها قدحًا مملوءًا إلى نصفه ماء أسود عكرًا ، من تأثير ما ألقى به من مساحيق لأعشاب محوجة ، وكان يترجرج بيدها المعروقة .

وصاحت بى قائلة :

ـ خذى ، اسقيه ، اسقيه .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٥ ـ

قالت لى (عاتكة) همسًا ، ونحن راقدتان جنبًا إلى جنب ، على سريرنا الواسع :

ـ ليس أجمل منه ، إنه كل يوم ، ومنذ الشهر تقريبًا ، وهو يقف هكذا أمام نافذته ، يطيل النظر إلى نافذتى ، لا تبدر منه نامة وكأنه يؤدى لى عبادة صامتة ، قبل أن ينصرف حاملاً كتبه ، لا أعرف الجهة التى يوجد بها باب منزله ، كى أراه وهو خارج ، لقد حاولت أن أعرف ، وأنا أطل من كافة النوافذ التى فى منزلنا ، ليتنى أعرف اسمه .

كانت أختى قد بلغت الرابعة عشرة فى هذا العام ، ونما عودها ، فازدادت طولاً ، ولكنها بقيت نحيلة ، فذراعاها وساقاها أشبه بعيدان القصب ، وكانت طيلة السنوات الخمس الماضية رهينة المطبخ ، بعد أن رفضت والدتى كل توسلات أبى ، لضم أختى إليه فى قريته .

لقد برّ أبى بوعده لى ، فاستدعى والدتى وخاض معها معركة كلامية شرسة ، لكى تسمح للطفلة بالبقاء معه فى القرية ، وبعد أن أصابه اليأس ، توسل إليها ثم حاول بمختلف طرق الإقناع أن يجعلها ترضخ لضراعته ، لكى تخفف من غلوائها فى معاملتها للطفلة ، بيد أنها لم تلن ، فقد استطاعت

احتواء غضبه كما استطاعت رفض توسلاته ، وهكذا عقد لواء النصر فى النهاية لوالدتى .

وعندما لم يجد مع أمى شىء من كل ذلك ، عاد أبى إلى تخاذله ، أكثر مما كان يفعل ، ثم تناسى الأمر برمته ، بل الأنكأ من ذلك أنها أتت بوالدى إلى منزلنا فى العاصمة ، بعد وفاة جدتى منذ العام المنصرم ، رافضة رفضًا قاطعًا انتقالنا إلى هناك ، حيث أبى لايزال فى حاجة إلى هواء القرية النقى ، متعللة بقولها :

ـ لو كان ذلك الهواء سيبرؤ ، لتم ذلك منذ زمن .

ثم سدّت أذنيها عن كل احتجاج أبديته لمناصرة أبى بحقه بالبقاء فى قريته ، وكذلك فعلت تجاه أى دفاع عن أى حق من حقوق أختى المهضومة ، بل لم تكتف بصم أذنيها عن سماع توسلاتى ، فقد كادت أن تودى بى مرة ، وهى فى عنفوان غضبها منى ، وأنا فى موقف دفاع عن أختى ، خصوصًا بعد معرفتها بعلمى بسرّ أختى الدفين .

وكان دفاعها فى ذلك أن أختى تستحق كل ما يفعل بها ، فهى لا تعدو لئيمة بالوراثة ، فلا يستبعد أنها ورثت اللؤم من أحد ذويها ، ثم قالت :

ـ لا يغرك تظاهرها بالمسكنة أمامكَ ، فهى لا تدع وسيلة تجلب الغضب لى إلا وفعلتها ، بدءًا بحرق الطعام مختارة

Looloo
www.looloolibrary.com

الوقت الذى لاتكونان به فى المنزل ـ تعنى أنا وأبى ـ وانتهاء بغسل ثيابى ، أى ثياب أمى ، فى أرضية الحمام ، بدلاً من استعمال آلة الغسيل ، كل ذلك نكاية بى ، أى نكاية بأمى .

بالطبع ، لم أصدق أو فى الحقيقة كنت لا أريد أن أصدق أن ذلك يمكن أن يحدث من أختى المسكينة ، فكنت أردّد لنفسى : إذا كانت والدتى استطاعت التأثير بمثل هذه المقولات على أبى ، فهى لن يكون فى مقدورها التأثير فى ، ومن ثم جعلى أكره أختى ، ولو فرضنا جدلاً أنها فعلت ذلك ، فهى لا تلام ، فقد تكون هذه إحدى طرائقها فى الدفاع عن نفسها .

هكذا كنت أكذب كل ما يقال عن أختى ، غير عالمة بعمق المأساة إلا بعد وقت طويل .

ولذلك فقد استمرت العلاقة بينى وبين أمى فى شد وجذب ، طيلة حياة أمى المسكينة ، وليتنى كنت أعلم ما تسفر عنه الأيام ، لكان لى موقف آخر تجاه أختى ، غير ذلك الذى اتخذته . ولكن ما يدرينى فقد كان لى من شبابى الباكر عصمة من التردى فى مهاوى الظنون ، كما كان يردّد أبى .

ولكن لندع كل شىء لأوانه ، وسوف أروى انفعالاتى المتعاطفة مع أختى ، كما كنت أشعر بها فى ذلك الوقت .

كان ذلك الجدل يجرى بينى وبين أمى ، وأختى لاتعلم ، ولا تحاول أن تلحظ شيئًا مما كان يدور حولها ، كانت تعيش

فى عالم من صنعها ، نسجه خيالها ، تعوض به واقعًا مؤلمًا مفروضًا عليها .

أو هذا ما كنت أظنه .

* * *

كانت (عاتكة) طيلة هذه الفترة قد ألفت المطبخ ألفة غريبة ، أمست لا ترغب فى مغادرته ، كان ذلك التقوقع بمحض إرادتها ، بعد أن كفت والدتى عن أمرها بالذهاب إليه ، وقد اطمأنت إلى أن المرأة الغريبة لن تأتى ، أو هى اطمأنت إلى أن أختى باتت ترغب فى الانزواء مدفوعة بذات نفسها ، وكان ذلك فعلاً ما ترغب به أختى ، ولولا ساعات النوم ، التى كنت أسحبها منه إلى غرفتنا سحبًا ، كى تأوى إلى الفراش ، لفضلت النوم حيث هى وكثيرًا ما فاجأتها تفترش حصيرة على أرضية المطبخ متوسدة ذراعها ، وكان ذلك ما تفضله والدتى لها .

لقد كانت هذه الرغبة هى التجانس الوحيد فى الرأى ، الذى أجمعتا عليه هما الاثنتان ، أمى وأختى ، دون تبادل حديث بشأنه ، فقد كانتا لايجمعان على أية فكرة ، طيلة حياتهما معًا ، أو يتفقان على أى موضوع حتى لو كانتا تتبادلان الحديث جدلاً بأى شأن ، وهذا لم يحدث إطلاقًا .

ولكنهما عندما اتفقتا على هدف ، كان ذلك نوم أختى فى المطبخ ، ويا له من اتفاق مختلف الأغراض ، ولكنى لم أدعهما

Looloo
www.looloolibrary.com

يهنآن به ، فقد كنت أسحب أختى منه سحبًا ، على الرغم من اعتراضات والدتى وزعيقها المستمر ، مردّدة مرة بعد الأخرى (دعيها وشأنها ، لتبيت لياليها فيه) ، وأحيانًا أخرى ، كانت تسخر منى بقولها :

ـ يا للجنون التى أنت عليه ، ألا يريحك استقلالك بغرفة منفردة .

حتى صرخت ذات ليلة :

ـ كلا ، لا يريحنى ، إنى أخاف النوم وحيدة .

ولم أكن كذلك ، ولكن والدتى صدقت ، فلم تعد إلى ملامتى بعد ذلك .

أما أختى المسكينة ما كانت تبحث عن شىء ، قدر بحثها عن الأمان ، والمطبخ بات مأمنها الوحيد ، وقد أضحت لا تعرف كيف تجالسنا دون خوف من ملاحظات أمى العديدة .

فتتلعثم عند كل بدء أى حديث بحضور والدتى ، وكانت لا تعرف كيف تسير أمامنا دون تعثر ، وهى تستمع إلى السخرية تنثال عليها ، فى كل خطوة .

لماذا تميلين برأسك فى أثناء المشى اجعليه مستقيمًا ، عندئذ لا تعرف أختى كيف تفعل ذلك ، إلا بتصلب رقبتها ، وحينئذ تفاجأ بصرخة أخرى ، لماذا تطوحى قدميك فى أثناء السير ؟ ثبتيها

على الأرض ، فتحاول المسكينة بقدر ما يسعها أن تثبت قدميها ، ووقتئذ تفقد سيطرتها على حركتها ، فتهتز وهى تثبت وتسير فى نفس الآن ، فتبدو وكأنها ترقص متعثرة ، وعند ذاك تنفجر أمى ضاحكة فى سخرية أشد ، ثم يتبعها أخى بقهقهة مجلجلة .

يحدث لها كل ذلك وأكثر منه ، إن كانت خارج مطبخها العتيد ، ولا يعاودها الهدوء ، ولا تنبسط أساريرها إلا إذا كانت داخله ، عند ذلك يريم على ملامحها طيف من السكينة وراحة البال .

يا للعجب لخلقة الإنسان ، إنه سريع التأقلم ، فطباعه تمتد أو تنكمش وفقًا لظروف واقعه المعاش ، فها هى أختى تسعد فى أضيق حيز ، يسعه جسدها الضئيل ، ما دام يوفر لها الأمان الذى تنشده .

إنها سجينة دون قيد ، سوى من صراخ أمى ، الذى يجعلها راعبة تدور على عقبيها ، كديك ذبح لتوه ، مهرولة إلى مأمنها ، حيث لا تراها عين ولا تسمعها أذن ، ومن ثم تنسى من عين والدتى الواخزة ، ومن ثم صوتها الراعد الآمر الناهى ، وهى لائذة فى عقرها الضيق .

كان ذلك التصرف من والدتى يثير حفيظتى ويكاد يخرجنى من طورى .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل ؟

لم يكن أمامى سوى أخى أفرغ به شحنة الغضب التى تعترينى ، ولكن بما أنه الأكبر منى سنًا والأقوى عضلاً ، لذا فقد كنت أتراجع فى الكثير من الأحيان عن تصعيد الموقف معه ، حتى أرهقت تمامًا ، فلذت بالهروب من مشكلة أختى ، مبتعدة قدر طاقتى عن المواجهة مع أى من الاثنين ، أمى وأخى .

يا للمسكينة كنت أحاول تناسيها ، حتى أنى كدت إنساها حقًا ، خاصة فى أثناء النهار وهى متوارية فى مطبخها .

بت أرى فى ملاذها راحة لأعصابى المشدودة دومًا ، من جراء المراقبة الصارمة ، التى كنت أتخذها لكل حركة أو ساكنة تبدر من والدتى ، فى خشيتى المرعوبة من عمليات الضرب بالكف ، التى كانت تمارس على الصغيرة لأقل هفوة تصدر منها ، أو حتى أحيانًا بدون حاجة لأية هفوة .

وأخيرًا ، وبعد أن بلغت الرابعة عشرة من عمرها أوجدت لنفسها ملهاة تسعدها ، وتشدها إلى مطبخها أكثر بكثير عن ذى قبل .

إنه ذلك الفتى الذى ليس أجمل منه ، كما وصفته فى عبارتها تلك ، والذى كان يطل عليها لثوان معدودة ، عبر نافذته على نافذة مطبخنا ، صباح مساء ، فى ساعات موقوتة ، فى الثامنة صباحًا ، قبل خروجه إلى المدرسة أو الكلية ، فهو كما

تقول ، يصعب تقدير عمره ، قد يكون فى المرحلة النهائية من دراسته الثانوية ، أو على أول أعتاب الجامعة .

قالت لى ذلك ، فى محاولة منها لتقدير سنه ، واستأنفت :

- وثوان أخرى ، فى الساعة السادسة مساء .

وهى تظن ، أنه يفعل ذلك وهو يتأهب للذهاب لتلقى درس ما ، أو مقابلة صديق ما .

قالت لى :

- إنه فى الثوانى الأولى من هاتين الساعتين ، لا يمكن لأى قوة أن تحملها على التزحزح عن مقعدها أمام طاولة المطبخ ، حتى لو كان ذلك النداء صادرًا من أمى ، لقد كانت على استعداد لمخالفتها ، حتى لو اضطرت إلى التظاهر بالمغص الشديد ، وحتى لو أفضى بها الأمر بعد ذلك إلى تلقى الضرب المبرح ، على عصيانها .

وكان هذا الحديث يدور بيننا عندما أخبرتنى فى إحدى الليالى ، وبعد تلجلج كثير فى لسانها ، وارتعاشات عصبية فى يديها ، بأن ثمة ما تود إخبارى عنه ، ثم قالت أخيرًا :

- أريد أن ، أريد أن تريه .

وعندما سألتها .. أرى من ؟

قالت :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ليس أجمل منه .

عندئذ فهمت أنها تعنى أحد الفتيان .

بيد أنى بهرت ، من هذا الذى يبدو أنه حدث لأختى ، إنها سجينة المطبخ كيف عثرت عليه ؟ كيف عثرت على هذا الفتى ، الذى ليس أجمل منه ؟ ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى فهمت كل الملابسات ، بعد أن زال خجلها ، قالت :

ـ يمكنك رؤيته كل يوم ، فى الساعة الثامنة صباحًا ، أو السادسة من مساء اليوم نفسه .

* * *

ترصدت حركات أختى فى اليوم التالى ، رأيتها تبكر فى إعداد الفطور ، محاولة جهدها أن لاينقصه شىء ، كى لا يؤدى ذلك إلى عمل شىء آخر ، وكنت لم أفطن إلى هذه الدقة فى الإعداد من قبل .

وفى الساعة المحدّدة ، أخرت نفسى عن الخروج عامدة ، ضاربة عرض الحائط بموعد المحاضرة الأولى ، التى سأتلقاها فى الكلية فى الساعة الثامنة ، ودخلت عليها المطبخ ، كانت معلقة البصر إلى النافذة ، عبر الشارع الفاصل بين البناءين ، بنظرة أقرب ماتكون إلى نظرة الأبله ، أو المفجوع ، أو المشدوه ، أو أية صفة أخرى ، عدا أن تكون نظرة جمالية محبة .

وكان يعوق هذا الانطباع ، فمها المفتوح وبصرها الشاخص ، كان ذلك حتمًا ماسيظنه الرأى غير العارف ، وهى فى جلستها تلك .

وقفت خلفها ضامة كتبى إلى صدرى ، شادة بصرى أنا الأخرى إلى فوق ، حيث ألقت بنظرها إلى نافذة بطلها فى انتظار إطلالة القمر .

فلم ألبث سوى ثوان ، عندها أهل بطلعته ، بل لنقل بسحنته ، ثم أبدى تكشيرة زريه ، أظن أنها تنم عن ابتسامة ، برزت من خلالها أسنان كنوى البلح الناضج ، وكان كما بدا من الجزء الظاهر من جسمه ، وراء النافذة ، قصيرًا وبدينًا ذا بشرة وردية ، وشعر أكرت ، ليس به مايغرى بالالتفات إليه ، فضلاً عن الهيام به .

أطل بسحنته على تلك الهيئة هنيهة ، وبعد ذلك أحنى رأسه محييًا فى ابتسامة واسعة ، وغادر النافذة على أثر سماعه لصوت يناديه من الداخل .

قالت أختى بلهفة مفعمة :

ـ كل يوم أصغى إلى هذا الصوت المنادى ، بيد أن سمعى يسد فجأة ، فيقصر عن فهم مايقال ، ليتنى أعرف اسمه .

فقلت :

ـ كلا ، الصوت المنادى غير واضح ، لا تنسى أن بيننا وبينهم شارعًا كثير الضجيج ، على الرغم من ضيقه .

Looloo
www.looloolibrary.com

وأردفت هى متسائلة :

– أليس جميلاً ؟ ألم أقل لك ذلك ؟ إنه كل يوم يقف هكذا أمام النافذة حاملاً كتبه ، حتى يسمع مناداته ، وكأنه يودعنى قبل الخروج ، ليتنى أعرف اسمه ، لقد زاد اليوم من طقوس محبته لى ، لقد ابتسم وحياتى محنيًا رأسه ، ألم تريه وهو يفعل ذلك ؟

عجبت فسألتها :

– ألم يبتسم لك قبل اليوم ويحييك ؟

أجابت :

– كلا ، اليوم يوم السعد ، فقد ابتسم لى ، سوف أكتب تاريخ هذا اليوم ، إن وجودك سعد على .

عجبت من قولها ، وتبادر إلى ذهنى معان أخرى للتفسير ، فقلت لها :

– إذن ما يدريك ، أن هذه الابتسامة لك ، قد تكون بدرت عنه عندما رآنى .

بان الانزعاج على ملامحها ، قبل أن يبدو عليها الغضب ، وصاحت بى فى موجة ذعر داهمة ، وهى تكاد تبكى :

– (سعاد) ، لا تكونى قاسية فظة ، لم أعتد على القسوة منك ولم أعهدك عليها .

فقلت لها وأنا أربت على كتفها القريب :

– لم ولن يخطر لى على بال ، أن أقسو عليك ، أو على أى كائن بيد أنه لا يستحقك ، وهو فوق ذلك ليس جميلاً ، كما بدا لك ، فضلاً عن أنه منحط ، لأن كل همه أن يتفرج عليك فحسب ، كان يتخذك ملهاة يتفرج عليها ، راق له هيامك به ، وقد أحس منك هذه العاطفة المشبوبة واللهفة عليه ، فاستمرأ هذه الملهاة .

فصرخت بى ناسية نفسها ، وقد بانت براعتها فى الكلام ، فلم تتلجلج :

– إنك تغارين منى ، لأن أحدًا لا يلتفت إليك ، لا أحد ينظر إليك ، إنك غيورة حقودة مثل أمى .

استغربت أن يبدر من أختى الخائفة دومًا الوديعة أبدًا ، مثل هذا السيل من العبارات الغاضبة ، التى تبين كم هى حاقدة على أمى ، أترى والدتى محقة فيما تدعيه من معاناتها منها ؟

ثم تبادرت إلى ذهنى أشياء أخرى ، جعلتنى أعذرها لأقول لنفسى :

مسكينة أختى ، لا تعلم كم هم الشباب الذين ألتقيهم كل يوم فى الشارع ، أو فى الكلية ، أو فى أى مكان ، لقد اعتقدت أن الدنيا كلها خلو ومقصورة على هذه النافذة ، التى يطل منها هذا الشاب القبيح ، فإن لم ينظر لها ، فلا أمل لها بغيره .

Looloo
www.looloolibrary.com

ومع هذا فقد قلت لها متظاهرة بالغضب :

ـ ما كان عليك أن تذكرى أمك بسوء ، وهى التى ربتك واعتنت بك ، وعلى أية حال فقد نصحتك ، وأنت أدرى بشأنك ، ولكن فكرى جيدًا ، قبل أن تدعى قلبك يتعلق بهذا الشاب الذى يبدو أنه كالمراوغ .

لم تجب حول الشاب ، إنما قصدت والدتى بحديثها ، فقالت بعصبية شديدة :

ـ كأنك تجهلين ما تفعله بى ، أو أنك لا تأبهين بى ؟

ثم ضحكت بسخرية ، وازورت بوجهها عنى .

قلت لنفسى ، وأنا أحاول أن أجد لها العذر :

ـ ربما كانت تملك الحق فيما تفكر به ، تجاه المعاملة السيئة التى تجدها من أمى ، ولكن الغريب ، أنه لم أكن أفطن إلى أنها كانت تحس بذلك ، أو أن نفسها أفعمت بالحقد على والدتى .

ثم عدت وخشيت أن أكون قسوت عليها بخصوص هذا الشاب ، إضافة إلى ما تشعر به من ظلم ، ولكن فى النهاية ، فضلت أن أكون صادمة لها بالحقيقة ، خيرًا لها من أن تعيش الوهم من جديد .

* * *

وفى الليلة التالية ، قالت لى باكية :

ـ أنت محقة ، لقد كان يبتسم لك ، لقد سألنى عنك هذا اليوم ، أول ما أشار لى سأل عنك ، وأول ما ابتسم كانت ابتسامته لك ، إنه لم يبتسم لى اليوم ، لكونك غير موجودة معى فى المطبخ ، بل هو لم يبتسم لى فى أيما يوم ، قبل يوم أمس .

وانخرطت فى البكاء على نحو موصول ، لقد أثارت فى نفسى إشفاقًا شديدًا ، فمسدت شعرها ، وأنا أقول :

ـ وكيف عرفت من إشارته أنه كان يسأل عنى ؟

قالت من خلال شهيقها المتقطع :

ـ أمسك بشعر رأسه ، ومن ثم جعل يده مدلاة على صدره بطول شعرك ، وضم الكتب على صدره بنفس الوضعية ، التى كنت تضمينها يوم كنت معى ، وأنت كما ترين شعرى حليق ، أشبه بشعره ، ولا كتب بيدى ، بعد أن أقعدتنى أمى عن المدرسة .

ثم أردفت بأسى مفعم :

ـ لست أدرى لماذا أمى تحلق شعرى دومًا ، وكأنى صبى ، مع أنه أصفر وجميل ، إنه أجمل من شعرك ، لماذا لا تحلق لك ، أمن أجل أنها تحبك ، وتكرهنى ؟ أليس كلتانا ابنتيها ؟ وبدا بكاؤها بحرقة أكبر ، لست أدرى فيم كانت دموعها هذه المرة ، أهى على الفتى ، أم على شعرها الأشقر ، الذى طالما حاولت

Looloo
www.looloolibrary.com

إنقاذه ، من مقص والدتى دون جدوى ، أم على تفضيل والدتى لى ؟

فقلت فى محاولة لتعزيتها ، وأنا أمسح دموعها بيدى :

ـ إنك أجمل منى ، أنا أعترف لك بالتفوق من هذه الناحية ، أنت شقراء وجلدك أبيض مصقول ، على العكس منى ، فشعرى أسود أجعد ولونى قمحى ، ألا يكفى تفوقك على من هذه الناحية ؟ حسنًا ، كفى عن البكاء ، على أية حال فإن شعرك سوف ينمو ، وسوف تستمتعين بجماله ، حالما تكبرين وتستقلين بأمرك ، أما هو ، ذلك الفتى فإنه سافل لا يستحق نظرة واحدة منك ، وكان من الأفضل ، أنك اكتشفت أمره مبكرة ، لقد حدست ذلك من النظرة الأولى إليه ، ثم يتوجب عليك أن تثقى بى ، لا يمكن أن أخطف منك رجلاً تريدينه لنفسك ، حتى لو كان ذلك الأمر تتوقف عليه حياتى ، وروحى معلقة به .

قلت لها هذا الكلام ، وليس لدى أدنى فكرة ، عما يخطه القدر لكلتينا ، وأنى سأكون محنة حياتها الكبرى ، التى تقصم عرى ظهرها فيما تلا من أيامنا .

تساءلت ، وقد استكانت إلى حدبى عليها :

ـ أواه ، كيف تحسنين رؤية معادن الناس ، ومعرفة ما هم مجبولون عليه ، لم ليست لدى قدرة على مثل هذه الرؤية ؟

كيف يكون فى ميسورى الحدس ، والتمييز بين ما هو طيب أو رديء فى الآخرين ؟

فقلت لها فى حميا ، وقد فرحت بأنها استعادت هدوءها :

ـ ليست ثمة قاعدة ثابتة يمكننى أن أعلمها لك يا حبيبتى ، حتى أنا أحيانًا كثيرة أتعرض بعفوية لمن يحاول أن يغشنى ، إذا كانوا ممن يحسنون تغطية نفوسهم ، ويجيدون اتخاذ مواقف يحيدون بها عن كشف أغراضهم ، ولكن هذا الفتى ، فوق أنه سافل فهو لا يحسن المناورة .

منذ ذلك اليوم أغلقت أختى نافذة المطبخ ، ولم تفتحها بعد ذلك الصباح ، إلا للتهوية وفى الأوقات التى لا تحتمل أن يكون الفتى فى منزله .

فقلت لها مشجعة :

ـ حسنًا تفعلين ، وإياك أن تضعفى ، ولن تعدمى من يتزوجك ، بعد أن تكبرى ، ولعله يكون الأفضل حين ذاك .

كنت أقول ذلك ، تحت وطأة هاجس ، بأن ما أقوله على غير طائل ، وبغير اقتناع منى عن فكرة زواجها ، إنه تعزية لها ليس أكثر ، متذكرة حديثى مع أبى منذ ستة أعوام ، لقد نسيها الناس ، ونستهم هى الأخرى ، ثم من ذى الذى سيراها ، ومن أين يتأتى لها الظرف لتلتقى به ، وهى سجينة المطبخ ، ولو حدث المستحيل غير المتوقع ، من ذا الذى سيوافق على

Looloo
www.looloolibrary.com

زواجه منها ، على الرغم من جمالها ، وهى بهذه الشخصية المسحوقة المهزوزة ، بل من ذا الذى سيسعى إلى تزويجها ؟ أبى الذى كلما ازداد مرضه ، ازداد معه تخاذله ، أما أمى التى استبدت بالأمر كله ، وأضحت وهى ترى خادمة نشطة مطواعة رهن الإشارة ، ولا أحد يذود عنها الأذى مهما بلغ .

أما أنا ، التى لا أتمايز عن أختى المقهورة ، إلا بكونى دمية مدللة ، لارأى لها ولا قرار ، حتى فيما يتعلق بشأنها ، فما بالك بشأن الآخرين .

* * *

- ٦ -

عندما حاولت أمى إحضار أبى من قريته ، بعد وفاة والدته ، فقد تم تسفيه كل رأى معترض على ذلك القرار ، سواء كان صادرًا منى أو من أبى ، وهكذا اقتيد والدى ، كالنعامة إلى العيش فى العاصمة ، وهو راغم منذ ما يقارب العام .

وها هو منذ ذلك الحين ، يرى ابنته ، التى ادعاها لنفسه تذوى فى المطبخ كزهرة طرية حرمت من الماء ، وهو لا يحرك ساكنًا ، فهو لا يقل عنى سلبًا لإرادته فى هذا الشأن ، بل كثيرًا ما انضم إلى جانب والدتى ، فى أثناء مشاحناتى معها ، دفاعًا عن حق من حقوق أختى المصادرة ، ثم بعد ذلك يتسلل إلى غرفتى معتذرًا ، عن مناصرته الباطلة لأمى ضد الحق ، الذى يرى أنى مطالبة به من أجل أختى ، قائلاً فى كل مرة :

- معك حق فى ما قلته ، ولكن اعذرينى يا بنيتى ، لم تعد لى تلك الأعصاب المتينة ، التى تتحمل المزيد من شغب والدتك ، إنه اتقاء للشر ، إننى أبحث عن السلام ، وأقدم ثمنه خنوعًا لها ، إنك لعلى حق فى كل ما جاء على لسانك ، ولكن كل الحقوق مهدرة فى هذا الزمن الردىء ، وهى آخر ما يؤازرها الانتصار ، وأول ما يحاد عنها .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

لقد كان أشد ما يغضبنى ، ما يأتى من تناقض بين أفكار والدى وأفعاله ، وكنت على يقين من أن أبى كما يفكر ، وليس كما يفعل ، ولذا كنت أحاول جاهدة إيقاظ همته للإفصاح عن نفسه ، وإبداء ما يعتمل بها من أفكار ، وتطبيقها على واقعه المعاش ، ولكن عبثًا حاولت ، فكما لو كنت أنفخ فى الرماد .

قلت له ذات يوم ، وقد جاء إلى غرفتى ، وهو يهدئ من ثائرتى ، بعد شجار مع أمى ، خاصٍّ بأختى ، وكان فيه مناصرًا لأمى كالعادة . قلت له :

- أبى ، حرىٌ بك أن تفصح عن نفسك الحقة ، لماذا أرى من أفعالك يناقض ما تدين به من أفكار عظيمة ؟ ألست القائل لو طوَّر الإنسان أفعاله ، برصد نياته ، لأفضى به الأمر إلى رقيه بالحياة ، ورقى الحياة به ؟ ألست من دلنى على رواية (ظلال الحقيقة) ، لكى أفهم منها ما ينتج من تطور للإنسانية لو اتخذ البشر ، ما يفعله أناس ذلك الكوكب نهجًا يعتنقونه ، وخطة درب يسيرون عليها ؟ لماذا أراك الآن ، وقد استسلمت إلى ما تدنى من أفعال ، وكأنك لا تفكر بما تفكر به ؟

جلس بوهن على حافة الفراش ، وهو يقول ساخرًا :

- أتظنين أن كل ما يفكر به المرء يكون قادرًا على فعله ؟ كلاَّ يا بنيتى ، وحتى لو كان ذلك ممكنًا ، لست المفكر الوحيد ، الذى لا تتطابق أقواله مع أفعاله ، فثمة الملايين من البشر ، من ذوى الأفكار النيرة ، أو حتى المهلكة ، جلها لا ينفذ ، ولو تيسر

لكل جانب أن ينفذ ما يدين به من أفكار ، كما هو فى قياسك ، لأدى الأمر إلى صراع شديد ، وفى النهاية تكون المحصلة واحدة ، أى كما هى عليه الآن ، أى أن يفضى الأمر بتلك الأفكار إلى نسخ بعضها بعضًا ، وعندئذ نعود مُجددًا إلى ما نحن عليه ، أرايت يا بنيتى أن الأفكار وحدها لا تكفى ، وأنه لا بد من تطور للخلقة الإنسانية ذاتها ، كى نحصل على ما نصبو إليه من رقى فى ممارسة الحياة ، حقًا أن الأفكار الجيدة تساهم فى دفع عملية التطور ، ولكن سيرها بطىء ، لما تلاقيه من أفكار مضادة أخرى تصادمها ، معاكسة لاتجاهاتها ، فنقف حيث نحن مراوحين فى خطواتنا ، وقد نتقدم خطوتين ولكننا حتمًا بخلقتنا المتدنية ننكص على أعقابنا خطوة على الأقل ، ولذا ترين سيرنا بطيئًا نحو الرقى ، وها نحن فى انتظار تلك المرحلة التطورية للخلقة البشرية ، وحتى ذلك الحين ، نتصرف بما نحن مؤهلين له فى وقتنا الحاضر .

كنت أعلم بمقدرة أبى على التلاعب بالألفاظ ، وليس أبرع منه فى نضد الكلمات ، كل ذلك ، لكى يهرب من مواجهته بضعفه .

فقلت ردًا على حججه :

- كلا ، لا يبدو لى منطقيًا هذا الذى تقوله ، فإن لم نطابق ما بين أفكارنا وأفعالنا ، بقينا منشقين على أنفسنا ، وفى حالة انفصام دائم مع ذواتنا ، ولن نرتقى أبدًا ، أما عن تلك الأفكار

Looloo
www.looloolibrary.com

المهلكة ، ولماذا لا تنفذ ؟ ذلك لما فيها من دواعى الهلاك ، الذى أول ما تجره على أصحابها ، ومن أجل ذلك يأتى إحجام من يفكر بها عن التنفيذ ، أما تلك الأفكار التى تبنى بها الحياة ، والتى لا يخشى أن تأتى من ورائها العواقب السيئة ، فلا مخافة من تنفيذها إطلاقًا .

فقال فى استسلام ، وكأنه لا يريد إطالة النقاش :

ـ للّه درك يا بنيتى ، قد يكون ما أقوله مقتصرًا على فقط ، وعلى أية حال ، فإنى أعلن استسلامى ، لست على مقدرة لمواجهة معترك الحياة من جديد ، الذى أراك وكأنك تدعيننى إليه ، عليك أنت بالكفاح ، فأنت شابة قوية الشكيمة ، وقد ورثت أفكار أبيك وقوة مراس أمك ، وبك وأمثالك ترتقى الحياة ، أما أنا ..

ثم لزم الصمت فجأة ، عندما أقبلت والدتى مقتحمة الغرفة ، وفى إحدى يديها زجاجة الدواء ، وفى الأخرى ملعقة طعام ، أفرغت فيها سائلاً قانى اللون ، وأخذت تزقه فى فم أبى بيدها زقًا ، غير تاركة له فرصة لتحريك يديه ، والإمساك بالملعقة ، ثم خرجت مسرعة ، دون أن تنبس حرفًا .

وكان دخولها على تلك الشاكلة ، كافيًا لصدنا عن مواصلة النقاش ، فنهض أبى إلى الجلوس فى الصالة لمشاهدة التلفاز ، وبقيت فى فراشى يلفنى غضب صامت .

* * *

ـ ٧ ـ

مللت المشاكسات مع أمى ، فيما تلا ذلك من أيام ، فى سبيل الدفاع عن أى حق من حقوق أختى ، واستسلمت للأمر الواقع .

ومضت سنة أخرى ، وكان أبى فى تلك الأثناء تتدهور صحته يومًا بعد يوم .

بيد أن عاديات الزمن ، التى لا تأبه للمقاييس ، ولا تقيم وزنًا لأى ميزان نستخدمه نحن البشر ، كانت أكثر إمعانًا فى مفارقاتها .

كان ذلك واضحًا ، عندما اختطف الموت أمى على حين غرة ، تاركًا أبى المريض ، الذى كان يعد أهبته للرحيل ، يعيش بعدها عدة أعوام أخر .

ليس عجبًا أن تفرح أختى للحدث الأليم ، وشعور يراودها بالانعتاق والتحرر ، بانت عليها الفرحة واضحة منذ الأيام الأولى للعزاء فلم تذرف دمعة واحدة ، ولم تلبس ثياب الحداد ، وعندما أبصرتها بما يتوجب عليها ، من إظهار للحزن أمام الناس على الأقل ، كى لا تنتقد تصرفاتها ، لم تأبه لكلامى ، متجاهلة كل نصيحة توجهت لها بها .

Looloo
www.looloolibrary.com

وعندما شددت عليها على نحو موصول ، بما يتعين علينا من واجب ، بدا عليها الملل من إلحاحى ، فقالت بتنمر ، لم أعهدها عليه :

ـ ولماذا أكذب ، ألم تنهياتى عنه ؟ ثم إن الدموع نضبت من عينى ، لكثرة ما ذرفتها فى حياتها ، فلماذا أذرفها فى مماتها أيضًا ؟

وكان الأنكأ من ذلك ، ما اجترحت عليه من مصارحة فجة ، عندما أخبرتنى عما يعتمل فى صدرها من السرور الغامر من أول عشية لنا بعد دفن والدتى .

ففى أول رقدة لنا فى السرير ، بعد ذلك الرحيل المفاجىء ، قالت لى :

ـ إنها فرحة لموت العجوز .

فلما زجرتها بقولى :

ـ لا تنسى أنها أمى .

ردّت مكابرة :

ـ وهى أمى أيضًا ، ولكنى لا أحبها . وقد أذقتها من العذاب بقدر ما أذاقتنى ، فلست بلهاء كما كان يطيب لها أن تنادينى ، إنها من كان يتصف بذلك ، تلك العجوز الحمقاء .

تنبهت ، متذكرة بصورة مفاجأة ، ما قاله لى أبى منذ سنين ، عما تفعله أختى بوالدتى ، فقلت متحدية كى تفصح عما فى نفسها :

ـ ما كان فى وسعك أن تفعلى شيئًا معها .

فردت بسخرية :

ـ دائمًا تظنين بنفسك الذكاء ، وأنت لا تفقهين شيئًا ، ولا ترين ما يدور حولك .

وأردفت بعد ضحكة صغيرة :

ـ كنت وتلك اللعينة ، فى مباراة مستمرة ، من منا تؤذى أكثر من الأخرى ، وكنت أنا المتفوقة دائمًا ، وكانت هى من غبائها تعلن كراهيتها لى ، ولكم وللجيران والناس أجمعين ، أما أنا فقد كنت أخفيها كى لا تحصل على تعاطفكم وكى لا تنال المناصرة من أحد .

لقد كانت شديدة الغباء تلك اللعينة العجوز ، حتى إن أبى كان يسر ، عندما يحس بما أسببه لها من إيذاء ، لقد كنت أنتقم لى وله منها . أنت الوحيدة التى ما كنت لأدعك تلاحظين شيئًا ، لقد انتصرت عليها دائمًا . أتذكرين عندما قصت جذائلى قبل يوم السفر إلى قرية جدى ، لقد كذبت عليك عندما أخبرتك بأنها فعلت ذلك بسبب من غضبها لسفرى معكما أنت وأخى . لقد تعمدت أن ترانى عندما كنت أغسل ثيابها فى المرحاض

Looloo
www.looloolibrary.com

نكاية بها ، فتبدو رائحتها نتنة أكثر مما وهى متسخة عليها ، لقد تعمدت أن ترى ذلك فى ذلك اليوم عندما اعترضت على سفرى معكما ، أردت أن أضطرها إلى الصراخ حتى تتعب ، أنا أريد لها التعب ، يقال إن الصراخ يضخم القلب مما يؤدى إلى انفجاره ، لقد سمعت بهذا من التلفاز ، الذى تحرم على مشاهدته فلا يكون فى ميسورى التفرج عليه إلا فى الوقت الذى أقوم فيه بتنظيف الصالة ، أو عندما تكون خارج المنزل للتسوق أو عند الجيران .

تلك الفاجرة أظنها ماتت نتيجة لصراخها ، وكنت أضطرها فى كل مرة ، إلى الوقوف معى فى الحمام ، إذا أرادت ثيابًا نظيفة ، وغير ذلك كثير ، تبًّا لها ، لقد أقعمت نفسى كرها لها ، أجل لكم حرمتها من طعام كانت تشتهيه ، ما إن تذهبا مع أبى إلى الخارج ، حتى أحرق غذاءها ، فلم أدعها يومًا تهنأ به وهى بمفردها ، ما لم تكن واقفة معى فى المطبخ لا تحيد عنى قيد أنملة ، وكنت أكسر لها الصحاف ، وكل ما فى المطبخ مما يكسر ، حتى وهى واقفة أمامى ، ما أن أفتح يدى حتى تسقط متصدعة ، أو متناثرة فتصرخ وتصرخ حتى يعتريها التعب .

والغريب أنك تدافعين عنى ، عندما تسمعين صراخها القذر دون أن تدرى ، أنى من سبب لها الأذى ، وأظن أن أبى كان يسر فى دخيلة نفسه مما أفعله بها ، أظن ذلك فهو لم يوجه لى لومًا أبدًا . لا أحد يحبها فى المنزل ، سواك وأخى ، أنا

وأبى نكرهها ، لم يقل ذلك مطلقًا ، ولكنى أعرف . كان يخافها ، وحسنًا فعلت بموتها ، سوف نتحرر أنا وأبى ، ليتها ماتت من زمان ، من أول يوم أنجبتنى به .

وأصبت بموجة غضب داهمة ، بعد سماعى لاعترافاتها تلك . فقلت زاجرة لها :

- يا للوم الذى أنت مفطورة عليه ، لماذا تفعلين بها ذلك ، أليست أمك ألم تقم بتربيتك ؟ لم أظنك بمثل هذه الخساسة .

وانهلت عليها تقريعًا ، وقد انبجس العرق غزيرًا من ظهرى ، حتى أحسست به يبلل ثيابى .

فقالت مبرّرة ، ولكن بحقد :

- لماذا تحبك أكثر منى وتفضلك على ، لقد لاحظت ذلك ، منذ كنت طفلة أحبو ، كانت تمطرك بالقبلات ، أما أنا فلم أكن أحظى بقبلة واحدة قط .

ثم صعدت لهجتها لتبدو أكثر حدة وهى تقول :

- لقد انتقمت منها من أول ما وعيت ، أنت ليس فى مقدورك تخيل ما كنت أفعله بها ، ودون كلام ، ودون حديث ، دون جدل ، بل ما كنت قادرة على الحديث فى مواجهتها ، ولكنى استطعت الانتقام منها . وزدت فى ذلك بعد أن أقعدتنى عن المدرسة . إنها امرأة لعينة ، لتلعن أبد الدهر .

Looloo
www.looloolibrary.com

كان حريابى أن أضربها ، وأنا أسمعها تتحدث عن والدتى بمثل تلك الطريقة ، وترابها لم يجف بعد ، ولست أدرى ما أوقفنى عن ذلك ، لماذا لم أفعل ؟ لعل ما صدنى عن ذلك ، أنى لم أنس بعد المواقف التى كنت أتصدى بها للدفاع عنها .

بيد أنى خاصمتها ثلاثة أيام ، لا أحدثها ، وكان من شدّة حنقى منها ، كاد يفلت لسانى بذكر الحقيقة ، غير أنى تذكّرت أبى والورطة التى سيقع بها ، فصمت على مضض .

ولكن فى النهاية ، لم يدم غيظى منها أطول من ذلك ، قلت لنفسى لعل لها من طفولتها ومن قسوة والدتى عليها عذرًا ، ولم أدر أن ما بدر منها ، لم يكن إلا طبعًا متأصلاً فى تركيبها النفسى ، إلا بعد ذلك بوقت طويل . ولكن لندع ذلك إلى حينه .

المهم أننا تصالحنا بعد العزاء ، وطلبت منها فى رجاء أن تغفر لوالدتى ، وتمنحها الصفح ، كى تقر هادئة فى رقدتها الأخيرة .

فتساءلت :

ـ أهى ستتعذب إن لم أغفر لها ؟

وكنت أظن أنى سوف أحصل على غفرانها لوالدتى ، إن أكدت لها ذلك ، وأنها ارتدعت لما نالها من تقريع على ما فعلت بأمى ، فقلت :

ـ حتمًا سوف تتعذب .

فصرخت جذلة :

ـ إذن لن أغفر لها ، لتتعذب على نحو ما طالنى من عذاب .

وعندما رأت اشتداد صخب ثورتى مرة أخرى ، عدلت موقفها ، فقالت :

ـ حسنًا ، إنى أغفر لها ، ولكن بعد مضى ستة عشر عامًا .

ولما سألتها ، وأنا ما أزال أهدر غاضبة ، ولماذا بعد هذه المدة ؟ قالت فى مرارة :

ـ إنها عمرى الذى مضى ، وقد قضيته متجرعة كأس الهوان حتى الثمالة ، فلم أنعم بطفولة هانئة ، كما ينعم الأطفال السعداء ..

فرفستها بقدمى ، وقد انتابنى اليأس منها ، وأدرت لها ظهرى كى أنام ، ولكن لم يكن فى مقدورى فعل ذلك سريعًا ، فقد كانت دموعى تنثال على وسادتى كشلال منهمر ، وشعورًا بالأسى يعتصرنى . كم كنت ظالمة لوالدتى .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٨ ـ

كانت هذه الفتاة القميئة المهزوزة ، والمهزومة الشخصية ، المرتجفة الأوصال واللسان ، قد استعادت إشراقة شبابها ، بعد بضعة أشهر قليلة من وفاة والدتى . فقد طال شعرها الذهبى اللون ، واسترسلت ذوائبه بنعومة كخيوط الحرير ، وبدا بريق عينيها البنيتين أكثر لمعانًا ، وكذلك لون جلدها الأبيض أكثر صقالا ، فأضحت ذات إهاب جذاب .

جرى لها هذا التغير السريع ، بعد شعورها بالأمان ، وزوال مصدر التهديد المسلط على هامتها فى استمرارية لا تريم ، وأمسى لسانها جارحًا فى قول الحقيقة العارية ، دون مراعاة لمشاعر الذين يحيطون بها ، أو حتى لقواعد السلوك القويم .

كان لسانها يفصح عما يعتلج به صدرها بصراحة فجة خشنة ، وكان اجتراحها على قول الحقيقة عارية تمامًا ، يثير كل من حولها .

لقد تخمر الحقد دفينًا لمدة طويلة فى وجدانها ، الذى أقسر قسرًا على الصمت وعدم الإفصاح ، فانفجر فجأة كالبركان المضغوط ، الذى وجد له مسربًا صغيرًا ، فأخذت تطلق حممًا من مدافع قذائفها اللفظية ، شاتمة أمى وشامتة بها ، سابة يوم مولدها ويوم مماتها .

وكانت تفعل ذلك بكل صلف ووقاحة . ثائرة فى وجهى وفى وجه أبى ، وفى وجه كل من يحاول إسكاتها من الجيران ، غير عابئة بغضب أحد وغيظه منها . كانت تقول مستخدمة مثلاً قديمًا للدفاع عن نفسها ، سمعته من والدتى نفسها :

ـ (إن الذى يده فى الماء ، ليس كالذى يده فى النار) .

ثم تردف لى ولوالدى :

ـ إنكما مهما أحببتمانى ، إلا أنكما لم تكتويا بنارى .

وكان عذرها فى كل مرة ، أثور عليها وأنا أسمعها تشتم والدتى المتوفاة :

إنها أمها كما هى أمى ، وإنه لها الحق بها مثلما لى ، ولذا ليس من حقى الدفاع عن والدتى ، فى الجزء الذى تملكه منها .

بيد أنها كانت تصاب بالخرس تمامًا ، عن أى حديث يمس والدتى ، عندما تفاجأ بحضور أخى ، الذى كاد أن يزهق روحها ، فى مرة من المرات ، عندما شتمت أمى بمحضره .

وهكذا لم يتبق أمامها سوى نحن الاثنان ، أنا وأبى ، لكى تفرغ كل ما لديها من مخزون حقدها الدفين على والدتى ، يشاركنا فى ذلك من يحضر لزيارتنا من الجيران .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٩ ـ

أردت فى السنة التالية لوفاة والدتى ، إدخال أختى إلى المدرسة ، علها تنسى ذلك الحقد الأسود ، وتجد ما يلهيها ، عن اجترار مأساة حياتها الماضية . بيد أنه وللمرة الثانية ، أجدنى عاجزة عن تنفيذ ما أرغب به لهذه الفتاة المسكينة . لقد اصطدمت بمعرقلين شديدى الصلابة ، وكل واحد منهما أقوى حجة من الآخر ، لثنيى عما اعتزمته فى شأنها ، الأول : تقدم أختى فى السن ، عن السنة الدراسية الواجب الالتحاق بها ، كان ذلك عائقًا عسيرًا يصعب تذليله ، والثانى : موقف أخى المعارض ، الذى بات أشبه برجل البيت بعد وفاة أمى . قال :

ـ إن الأوان قد فات ، ثم إن أبى بحاجة إلى من يرعاه ، وبدلاً من أن نتركه تحت رعاية خادمة نستجلبها له ، وهى لا تحنو عليه ، لدينا خادمة جاهزة تفى بالغرضين معًا ، انظرى إليها وهى تدلك قدمى أبى .

قال أخى عبارته الأخيرة هامسًا ، فى محاولة منه لإغاظتى ، لاجتراحى على تقديم ذلك الاقتراح الذى يعتبره تحديًا لرغبات أمى فيما لو كانت عائشة ، وعندما ثرت عليه ، طالبة منه أن يقلع عن مثل هذا المنحى من التفكير ، أو الحديث فيه ، لم يرد بغير ضحكة متسامحة .

ولم يفهم لا أبى الذى كان بعيدًا عن مجلسنا ، حيث كان يرقد مستلقيًا فوق فراشه داخل غرفته ، ولا هى التى كانت قابعة قرب قدميه منغمسة فى تمسيدهما فى حنو بالغ .

غير أنهما نظرا إلينا عبر الباب المفتوح ، وبدون أن يفهما سبب ثورتى ، بادرا إلى تهدئتنا من موقعهما .

رأيت بعد إمعان الفكر ، أن أخى كان على حق فى معارضته بالنسبة للعناية بأبى ، ولكنه بعيد كل البعد عن الحق بالنسبة لأختى المسكينة . بيد أنه ساءنى الانصياع إلى رأيه مرغمة ، عندما رأيت أن عزمى على إعادة أختى إلى المدرسة ، لن يقدم أو يؤخر شيئًا ، بعد أن رفض الطلب الذى تقدمت به إلى إحدى المدارس ، بحجة تقدم أختى فى السن .

وهكذا لم تستأنف المسكينة الدراسة إطلاقًا ، وبقيت على نصف أميتها طيلة حياتها مما أثر على حياتها تأثيرًا سلبيًا فيما بعد .

كان السبب فى موقف أخى ذاك ، يعود إلى أنه لا يكن لها عاطفة حقيقية كأخت له بما يكفى ، فقد كان متأثرًا بموقف والدتى منها ، إلا أنه على أية حال أخف وطأة منها على أختى ، ومن علامات ذلك أنها أخذت تجلس معنا على مائدة الطعام ، بعد موت والدتى مباشرة دون دعوة أحد منا ، بل كانت تتخذ طريقة يفهم منها ، أنها تمارس حقًا مشروعًا لها ، دونما حاجة إلى مناداة من أحد ، وعلى الرغم مما كان يبدو من غيظ

www.looloolibrary.com

أخى المكبوت ، إلا أنه أبدى امتعاضًا غير معلن ، فقد اكتفى بتقطيب وجهه كلما أقبلت ، بيد أنه لم ينبس . كل ذلك كان فى مبدأ الأمر ، أما فى الآخر ، فقد عود نفسه على تواجدها معنا ، ولم يعد يحاول استعمال طريقته الصبيانية ، بطلب طعامٍ مختلفٍ ، لقد كبر ، أو ربما داخله الخوف من عدم مناصرتنا له ، كما كانت تفعل والدتى ، وبالتالى عدم إنفاذ طلبه .

فضلاً عن ذلك ، فقد كان من التغيرات التى طرأت على سلوك أختى ، أنها باتت أكثر جرأة فى تعاملها مع أبى ، فقد أخذت فى محاسبته حسابًا عسيرًا ، عن كل ما يعطيه لى من مصروف وتطالب بمثله ، بل وتصر على أن تبتاع من الثياب ، ما يساوى ما اشتريه منها لنفسى ، وحتى بعد أن باتت المبالغ التى تدفع لى جزءًا من الراتب الشهرى ، الذى استحصل عليه من عملى كمحاسبة لدى إحدى الشركات الأهلية ، والذى أسلمه إلى والدى كاملاً ، كل أول شهر ، غير شاعرة بما تتسبب به من عناء لأبيها المريض . وعبثًا حاول أبى إفهامها ، أنى أعمل خارج المنزل وأنى فى حاجة إلى المزيد من الثياب من أجل ذلك ، أما هى فداخله ، ولا تحتاج إلى الكثير .

لقد كانت تفعل ذلك وكأنها تقتص من تلك الأيام السالفة ، التى كانت بها لا ترتدى من الثياب إلا ما أستغنى عنه .

هذا ما كان يحدث فى بيتنا فى تلك الأيام ، ومع ذلك ما كنت أملك أن أحقد عليها ، فقد كنت أكن لها أعظم الحب ، وكأنها

أخت حقيقية لى ، ولذا فقد كنت دائمًا ، أجد لها ما تعذر به ، حتى لو كان ذلك اختلاقًا .

وما كان ينتقص من طمأنينتى إلا الشعور بتبكيت الضمير من جراء قسوتى على والدتى ، ووقوفى باستمرار إلى جانب أختى ، دون تمحيص من منهما كانت تنغص على إحداهما ، بأسوأ مما تفعله الأخرى . خصوصًا بعد أن استمعت إلى بعض من اعترافات أختى ، ومما كان يلمح به أبى فى السابق ، وكان عندما يشتد فى ذلك التبكيت . يزداد لدى ذلك التوتر ، وعندئذ تراودنى الرغبة فى إعادتها إلى ما كانت عليه قبل وفاة أمى ، تلبية إلى ما كنت أتصوره من رغبتها فى ذلك ودرأ لما أظنه من غضب والدتى على لرأفتى بأختى على الرغم مما أبدته من سوءتها . وعند ذاك ، أفزع إلى والدى شارحة له وساوسى ، فيربت رأسى قائلاً :

ـ إنك حائرة يا بنيتى بما يمليه عليك ضميرك الحى ، تجاه أختك الضعيفة واليتيمة ، التى لا حول لها ولا قوة ، والتى فرض عليها أن تكون ربيبتنا ، وبين محبتك وإعزازك لوالدتك ، ثقى أنها ستجد ربًّا عفوًا غفورًا ، وستنال من الرحمة ما تستحق ، إذا صفحت عنها هذه الطفلة البريئة ، بيد أنه يا بنيتى ومهما يكن من أمر ، سيرى على هدى من فطرتك الطيبة ، وبما يوحى به وجدانك النقى ، دعى نفسك على طهارتها ، وارعى أختك يرعك الله .

Looloo
www.looloolibrary.com

بعد حديث أبى ذاك ، أوحى لى بأن ما ارتكبته والدتى تجاه أختى ، أفدح من ذلك الذى قامت به أختى تجاهها . وما إن راودتنى هذه الأفكار حتى انتابنى القلق على والدتى ، فى رقدتها الأخيرة ، فأخذت ألاحقُ أختى الليل مع النهار ، متوسلة راجية أن تغفر لوالدتنا وتصفح عنها ، وأخذت أحدثها أحاديث دينية مطولة ، وأشرح لها من أمور حول العفو والثواب عليه ، وأشرح لها كل ما غمض عليها من الواجب الأخلاقى تجاه والدينا ، ومع هذا فقد بدا لى أن كل ما تلفظت به جاء بغير طائل ، فهى لا تعرف شيئًا ، مما تحدثت عنه من أمور الدين والأخلاق ، بعد تركها المدرسة مبكرة وإهمال تربيتها فى المنزل ، وقد عمق هذا الجهل ما تتصف به من عناد خفى ، لم يلحظه أحد عنها ، لو لم تعترف ذات مرة بمعاندتها لوالدتى ، لقد قالت :

- إنها فى حياة أمى لم تقم الصلاة قط ، وأنه عندما يتم قسرها على ذلك فإنها كثيرًا ما كانت تقف على سجادة الصلاة تغنى وترقص نكاية بها ، أى بوالدتى .

فقلت لها معنفة :

- إنك لا تتعبدى من أجلها .

ولكن وايم الحق كنت فى داخلى لست أدرى إن كنت أضحك من سذاجة هذه الطفلة ، أم أبكى من أجلها .

بيد أنها الآن ، وبعد جهد جهيد ، وبعد الكثير من العناء ، الذى بذلته معها فى المناقشات ، وكذلك ما حاولته معها فى المران ، أضحت منصاعة لتعليمى إياها ، وكأن روحها كانت شجرة ضمأى ، قطع عنها مورد الماء ، ثم بدأت أوراقها تخضر ، بعد كل رخة منه . هذا ما خيل لى حينها ..

لقد دأبت بعد ذلك على الصلاة فى أوقاتها ، كما بدا لى ، وبدأت أراها تقرأ ، كل ما أجلبه لها من كتيبات دينية ، أو قصص ذات مغاز أخلاقية ، وكثيرًا ما كنت أدهمها فأراها تبكى وهى تقرؤها ، فكنت أسر لنجاحى ، بأنه بات فى وسعى التأثير عليها ، كنت أسر ، على الرغم من أن أخى كان يسخر منى لتصديقى إياها ، قائلاً لى ، بأنها تفعل ذلك تمثيلاً ، لكسب عطفى عليها بعد أن كادت تفقده .

ولكن على الرغم من بعض الشكوك التى كانت تساورنى بإخلاصها ، فى كل ما كانت تفعل ، بسبب تلفتها فى أثناء قيامها بأداء الصلاة ، بحثًا عن موقعى منها ، وكأنها تقول لى ، انظرى ها أنا أنفذ ما تطلبين ، إلا أننى لم أدع نفسى تنساق إلى وساوسها ، فأخذت أمورها البادية على علاتها . وعلى الرغم أيضًا من أنى أجعلها ترانى فى مكانى المتوازى ، وكأنى لا أعلم بأنها ترانى ، وعندئذ أراها تزيد من طقوس تعبدها مبالغة فى إظهار تأثرها ، ساكبة كل ما فى ماقيها من دموع ، ومع ما كان يشوب ظنى بأنها لم تكن سوى دموعًا معتصرة ، إلا أنى

Looloo
www.looloolibrary.com

كنت آمل أنها سوف تغسل كل ما فى نفسها المفعمة بأدران الضغينة والحقد .

فكنت أقول لنفسى ، إنه أحيانًا عندما يتظاهر المرء بمشاعر مستجلبة ، قد يأتى عليه يوم فيصدقها .

هذا ما كنت أظنه فى تلك الأيام .

وكم كانت فرحتى عندما ظننت أن ما توقعته قد صدق . فذات ليلة غير بعيدة عما كنا فيه ، قفزت فوق السرير وطوقتنى ، وأخذت فى تقبيلى ، كما كانت تفعل فى الأيام السالفة ، عندما كانت طفلة صغيرة . قالت :

ـ لقد صفحت عنها .

وبدون أن تذكر اسمها ، عرفت من تعنى ، وعانقتها وبكيت . دافعة بتلك الشكوك التى كانت تراودنى إلى أبعد ما يكون عن مجال تفكيرى . وبكت معى ، وأردفت :

ـ لا تظنى أنى لم أفتقدها ، حتى وأنا أظهر سورة الغضب ، لم أكن صادقة فى كرهها ، إنما كنت أظهر ما أظهره تنفيسًا عن غيظى وغضبى .

أما فى حقيقة الأمر ، فقد كنت أفتقدها بصورة رهيبة ، ليتها كانت عائشة معنا ، حتى لو حبستنى مائة عام .

قد أكون غبية ، أو قد أكون سليمة الطوية إلى حد كبير ، لا أدرى ، فقد بدا لى حينها أن أختى كانت صادقة ، فيما أبدته

فى تلك اللحظة . غير أن ما أقبل من أيامها ، دلل بما لا يقبل الشك ، أنها لم تعف عن والدتى إطلاقًا ، وأن انعكاسات نفسها المسودة بضباب من الحقد الأصيل المجبولة عليه لا يقبل الإجلاء أو الصقل ، فقد ألقى بظلال قاتمة ، على كل ما صدر منها ، من تصرفات فيما بعد

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ١٠ ـ

لم يمض وقت طويل على وفاة والدتى ، حتى عرفت بقصة أختى كاملة .

كان ذلك فى أول أيام التحاقى بالعمل ، بوظيفة مدرسة لمادة الرياضيات ، بعد ظهور اسمى فى كشوف قبول المعينين فى القوى العاملة ، فقد كنت ضمن المعينين ، حسبما يقتضيه دورى عن سنة التخرج . وكان ذلك بعد نيلى شهادة التخرج بمدة تزيد قليلاً عن العامين .

فقدمت استقالتى إلى الشركة الأهلية ، التى كنت أعمل بها كمحاسبة ، والتحقت بعملى الجديد فى المؤسسة الحكومية .

وبما أنى جديدة فى مهنة التدريس ، كما أنى جئت متأخرة حوالى الشهرين عن بدء الدراسة ، لذا قلم أتسلم كامل الحصص ، حتى ينظر فى جدول الدروس من جديد .

هذا ما قاله مدير المدرسة .

واكتفى بأن سلمنى عددًا من حصص الاحتياط ، عوضًا عن المدرسات الغائبات .

وبما أنى مستجدة ، فأنا أيضًا لا أعرف أيًّا من العاملين فى المدرسة . فأمضيت طيلة الضحى فى يومى الأول ، أجول فى

باحة المدرسة ، أو أطل فى المختبرات ، بعد أن مللت الجلوس فى غرفة استراحة المدرسات ، ثم خطر لى أن أصعد إلى المكتبة ، حيث كانت فى الدور الثالث ، مجاورة لغرفة تعليم الموسيقى .

قلت لنفسى ، وأنا أطأ أعتاب المكتبة ، يالسوء التخطيط الجغرافى ، ما يتطلبه الهدوء فى المكتبة ، تجاوره ضجة الموسيقى ، وليتها كانت موسيقى بالمعنى الذى يدل عليه المسمى ، إنها لا تعدو نشازًا مما يحاوله تلاميذ لا يملكون أية موهبة فيها .

وبينما كنت أقوم بالتفرج على ما فوق الرفوف من كتب ، إذ اصطدم بصرى بكعب لكتاب أسود متوسط الحجم ، كتب داخل مربع على كعبه ، بخطوط من ماء الذهب (مذكرات خادم) ، وفجأة أخذ قلبى يدق بعنف ، لقد وجدته ، وجدته ، بعد أن خمدت حميا البحث عنه .

اختطفته من على الرف ، وأنا أقول لأمينة المكتبة :

ـ سأستعير هذا الكتاب .

فقالت وهى تنظر إلى ساعة يدها ، ثم تمدها لتتناول حقيبتها الصغيرة ، تأهبًا للانصراف :

ـ حسنًا ، ليكن ذلك غدًا ، إننا على أهبة الانصراف .

فقلت متوسلة :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ كلا ، كلا ، أرجوك ، أريده الآن .

ضحكت قائلة :

ـ كأنك عثرت على كنز ، حسنًا هات قيمة التأمين .

دفعت لها ما أرادت ، ولم يتبق فى حقيبتى ما يوفر أجرة (التاكسى) للعودة إلى المنزل ، ولكنى لم أبال بغير الحصول على الكتاب .

دسسته فى حقيبة يدى ، إذ لم يعد ثمة متسع من الوقت لتقليب صفحاته . فقد دق الجرس المدرسى معلنًا انتهاء دوام العمل لذلك اليوم .

عندما عدت إلى المنزل ، كان همى أن لا يرى أحد الكتاب معى ، خصوصًا أبى أو أخى ، إلا بعد أن أفرغ من قراءته .

اعتكفت بغرفتى مدعية أن صداعًا ألم بى ، وطلبت من أختى عدم إزعاجى ، واستأذنتها بقفل باب غرفتنا من الداخل .

كان ما يحويه الكتاب موضوعًا روائيًا ، على نمط المذكرات لأحد خدم المنازل ، أتى من أواسط آسيا إلى تلك الدولة الغنية التى جاء وصفها على لسان أبى ، وكانت تلك المذكرات مكتوبة بأسلوب أدبى راق . وكان كاتبها يشرح فيها علاقته بأهل المنزل ، الذى يعمل به خادمًا لهم ، وكانت تلك المذكرات ، تبين بشكل مؤثر وقوع ذلك الخادم بغرام سيدة المنزل ، المدعوة (سارة) ـ بات واضحًا لى ، أنها جدة أختى ـ مما أدى به إلى

التضحية بكل شىء عزيز عليه : زوجته التى كانت تعمل معه فى نفس المنزل ، وولديه أيضًا اللذين ينتظرانهما فى بلدهما البعيد . كل ذلك فى سبيل سيدته ، التى لا تعرف عن ذلك الغرام المشوب شيئًا . وشرح تفاصيل الكيفية التى يتعامل بها معها ، وكيف أنه تبعها فى أثناء عملية هروبها ، عند نكبة بلدها من أجل حمايتها ، وخوفًا عليها مما قد تتعرض له فى الطريق ، من قبل الجنود الغزاة ، ولكنه أضاعها فى تيه من ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر .

ثم شرح بعد ذلك فى فرحة غامرة ، كيف أنه وجدها مصادفة ، مع أحد الرجال الأربعة الذين أنقذوها من ذلك التيه الرملى ، وهى فاقدة لبّها بعد مقتل ابنتها الشابة بيد الغزاة ، فتسلمها منهم للعناية بها ، وعلم من ذلك الرجل أيضًا ، بخبر حفيدتها الطفلة الذى تسلمها رجل يدعى (نبيل) ، الذى تعرّف السيدة (سارة) وكان مارًا فى عملية هروب من نفس ذلك التيه . وكيف أن السيدة زوجة (نبيل) كانت رافضة حمل السيدة (سارة) ، وتقبلت فقط حمل الطفلة على مضض .

كان كل ذلك مسجلاً فى مذكرات ذلك الخادم ، بالإضافة إلى تسجيله لمشاعر الغبطة والفرح ، عنما تحقق له الزواج من سيدته ، وهى فاقدة للبها .

هذا مجمل ومختصر ما جاء فى ذلك الكتاب ، وقد كان كافيًا لى ، لكى أفهم منه ، كيف عرف ذلك الخادم بمن تسلم الطفلة ،

Looloo
www.looloolibrary.com

أى أختى ، الذى هو أبى ، ومن ثم معرفة السيدة (سارة) ، بمكان حفيدتها التى فقدتها وهى فاقدة للبها ، من هذه المذكرات التى وجدتها بعد وفاة زوجها الخادم .

عندما خرجت عصرًا ، حيث كانوا يتحلقون حول مائدة الشاى ، كان على وجه أبى وأختى سيماء الانزعاج ، لقد ظنا أنى لم أوفق فى عملى ، من يومه الأول .

ابتسمت فى وجهيهما ، وأخبرتهما ، أن الصداع قد زال ، وأن شهيتى الآن مفتوحة لتناول الغداء ، فنهضت أختى مسرورة لتعده لى .

كنت أحمل مغلفًا احتفظ فى داخله بالكتاب . إذ كنت أنوى إعطاءه لأبى ، ولكن لوجود أخى حول المائدة ، أمسكت عن ذلك .

سألنى أخى عما يحويه المغلف ، وكنت أستند عليه بمرفقى على مائدة الشاى .

أجبته :

ـ بعضًا من أوراق التلاميذ لتصويبها .

ضحك معلقًا :

ـ ليتنى أراك بعد سنة واحدة ، واحدة فقط تتأبطين مثل هذه الرزمة ، وتأتين بها إلى المنزل ، وليس فى أول يوم من العمل فقط .

فنظرت إليه ساخرة ، ورددت :

ـ من تأويل كلامك ، يبدو أنك مللت عملك ، ولذا تقيس الناس بمقاسك .

أراد أبى أن يفك الاشتباك ، الذى كان على وشك البداية ، فقال :

ـ ألا ترغبين بتناول غدائك ، اذهبى لمساعدة أختك للتعجيل فى إعداده .

فقلت :

ـ نعم ، إنى جائعة .

ولكن أختى ، رفعت عقيرتها من بعيد مردّدة :

ـ لست بحاجة للمساعدة ، إنى أعده .

فقلت لها :

ـ كلا ، إنى أعرف ما أريد أن أطعم أكثر منك ، سوف آتى للمساعدة .

وقبل أن أنهض ، نهض أخى إلى غرفته ، ليستبدل ثيابه المنزلية ، استعدادًا للخروج ، فدسست المظروف الذى يحوى الكتاب بيد أبى ، وأنا أقول له همسًا :

ـ (مذكرات خادم) .

Looloo
www.looloolibrary.com

فزع أبى ، وهو ينظر إلى أختى ، التى أقبلت تحمل صينية الطعام بين يديها ، وقد سمعت ما همست به لوالدى .

ولكن أبى فيما يبدو سرعان ما تذكر ، أنها لا تعرف شيئًا عن الكتاب ، وليس لديها أدنى فكرة عن موضوعه . فأسرع إلى تناوله من يدى ودسه بين بطنه وسروال بيجامته ، ثم توجه إلى غرفته مغلقًا بابها عليه ، وطالبًا عدم إزعاجه .

تضاحكت أختى وقد فهمت ، أن موضوع الكتاب يحوى سرًا ، لا نريد أنا وأبى أن يعرف به أخى ، فقالت فى همس ، وهى تضع الصينية أمامى على المنضدة :

ـ ماذا يحتوى هذا المغلف أهو الصداع الذى انتابك ، هل موضوعه سرًا لا تريدين لأخى أن يعرفه ؟

فقلت :

ـ كلا ، كل ما فى الأمر أنى أردت لأبى أن يقرأه قبله .

ثم غمزتها فى إشارة منى ، طلبًا للسكوت ، عندما بدا أخى على عتبة غرفته ، يلبس حذاءه ، ويزر قميصه .

سأل أخى عن والدى ، فقلت له :

ـ لقد شعر ببعض الصداع ، فذهب إلى فراشه ، طالبًا عدم إزعاجه .

ضحك هو الآخر ، وعلق :

ـ ما حكاية الصداع فى هذا اليوم ، هل سيخدمنا بالتناوب ؟

فقالت أختى ملغزة :

ـ كلنا سوف ينتابنا ، وربما حتى أنت .

ولكن أخى لم يأخذ لهجتها الملغزة ، على محمل الجد ، فقال :

ـ كلا ، إنى محصن ضد الأمراض ، سأموت وأنا واقفًا .

ران الوجوم علينا ، لقد آلمتنا كلنا عبارته الأخيرة ، لقد جاءت وصفًا للوضعية التى ماتت بها والدتنا .

لقد ماتت ، وهى واقفة مستندة إلى ظلفة باب غرفتها ، وكانت تهم بالخروج منها ، وكان أن تلقفناها ، أنا وأبى بين أذرعنا ، وهى تخر على وجهها .

بدأت سيماء الاصفرار فى وجه أخى ، لقد امتقع لونه بشدة ، بعد قوله ذاك ، وحفلت عيناى بالدموع ، ونكست أختى رأسها .

وحينما خرج أخى مسرعًا ، وكأنه يهرب من شىء يلاحقه . قالت أختى باهتمام ، وكأنها نسيت سريعًا كل شىء يخص والدتى :

ـ ماذا فى هذا الكتاب ، ولماذا أنت وأبى مهتمان به هكذا ؟ ولماذا تخفيانه عن أخى ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت ، وأنا أمسح دمعى الذى تساقط على خدى :

ـ أبدًا ، إننا لانخفيه ، لأنه فى نيتى إعطاؤه له ، عند عودته فى المساء ، وكل مافى الأمر أنى حرصت على أن أقرأه قبل الجميع ، وأردت أن يقرأه أبى قبل أخى ، وهو على أية حال رواية شيقة جدًا ، ونوع جديد من الأدب .

قلت ذلك مسرعة ، خشية أن تشك ، وأردفت :

ـ أنا وأبى نهوى قراءة المذكرات والسير ، إنه يستسيغها وأظنك تعرفين ذلك .

لقد قلت عبارتى الأخيرة ، وأنا أعرف أن ليس لديها أدنى فكرة عما نرغب به أنا أو أبى . وإنما فحسب لسد فراغ لمعان قد تتبادر إلى ذهنها .

بيد أنها لم تعلق ، فقد قالت متسائلة :

ـ وأنا ، هل أستطيع قراءتها ؟

فقلت :

ـ بالطبع ، ولِمَ لا ، يمكنك قراءتها فى المساء ، فى السابعة على وجه التقريب ، أبى سوف يفرغ منها فى هذه الفترة تقريبًا ، إنه كما رأيت كتابًا ليس ضخمًا . أما أخى فله أن يقرأه فى الليل عند عودته ، لأنه يتعين على إعادته إلى مكتبة المدرسة غدًا .

فقالت :

ـ آه ، من أجل ذلك أنتم مستعجلون .

فأجبتها :

ـ هو ذاك بالضبط .

وكان فى نيتى أن أبادر إلى إخفائه عن العيون قبل عودة أخى ليلاً ، فأنا لا أثق بما سيبدر منه عند معرفته بالأمر معرفة يقينية ، فالذى أعرفه قبل أى شىء ، أنه لا يحب أختى بما يكفى لمراعاة مشاعرها . لذا كان فى نيتى إخفاؤه ، ثم أتدبر مبررًا لذلك مع أختى .

* * *

عندما خرج أبى من غرفته ، قبيل الغروب بقليل ، وعلى محياه سيماء غريبة لانفعالات شتى . جلس على كرسيه أمام مائدة الشاى سادرًا فى أفكاره .

كان فيما بدا لى أنه يود سريعًا التعبير عنها ، وكنت أيضًا فى حاجة ماسة لمبادلته الحديث ، بعيدًا عن مرمى السمع من أختى .

لذا فقد تناولت منه الكتاب ، ودفعت به إليها ، قائلة لها مازحة :

ـ أغلقى باب الغرفة عليك ، لقد جاء دورك فى الصداع .

Looloo
www.looloolibrary.com

ودخلت أختى الغرفة ، مغلقة الباب وراءها ، كما طلبت منها ، وبوحى مما فعلنا .

عند ذلك سحبت أبى من يده ، إلى الشرفة بعيدًا ، آمنة من أن أى حديث يدور بيننا لن تطاله أذنا أختى ، وقلت له متسائلة :

ـ هل تعرف الخادم ، الذى كتب هذه المذكرات ؟

أجاب ، هو ما زال يرين فى وجومه :

ـ أجل ، إنه ذلك الرجل ، الذى تشوب بشرته سمرة أواسط آسيا ، لقد كان يقوم على خدمتنا . لقد جلبته السيدة (سارة) ، من بلده المدقع بالفقر ، ليقوم بأداء ما نحتاج إليه من خدمات ، فى مكتبها التجارى ، ولكن الذى لا أعرفه أنها تزوجت منه فى النهاية .. لقد تزوجت منه بعد النكبة التى حلت ببلدها .

ثم استأنف بعد برهة وجيزة ، وهو يرنو إلى غير اتجاه .

ـ يا لغرابة الأيام ، لقد تزوجت من خادم مكتبها التجارى ، على الرغم مما تتصف به من الكبرياء .

والتزم الصمت برهة أخرى ، وكأنه يمعن التفكير ، ثم التفت إلى واستتبع :

ـ لقد كانت شديدة الطيبة ، ولكنها مثل كل أناس تلك الدولة الغنية شديدة الاعتزاز بنفسها ، أجل عندما كنت أعمل لديها مهندسًا ، وشريكًا فى الأرباح ، كان ذلك الخادم يقدم الشاى

لموظفى المكتب ، ويبتاع لنا السجائر ، ويقوم بتنظيف المكتب ، ذلك الوغد .

عجبًا من كان يصدق ، أنها سوف تتزوج منه ، كيف تأتت له تلك الجراءة ، يتزوج من سيدته مستغلاً عدم وعيها بالأحداث ، لم أكن أعرف عنه ، لم ألاحظ أنه إنسان مخاتل .

إذن كان يحبها سرًا حتى عنها نفسها ، ولكنه استطاع الظفر بها أخيرًا ، يا له من رجل ليس من المقدور تخمين دخيلته .

ثم عاد ناحيًا باللائمة على والدتى :

ـ كانت غيرتها قاتلة ، من السيدة (سارة) ، من أجل لاشىء ، ليت كان ثمة شىء بيننا ، لكى تغار منها ، لقد كانت مجنونة بغيرتها ، والدتك هذه ، هل تأكدت من حديثى ، عندما أخبرتك عن غيرتها القاتلة تجاه السيدة (سارة) ، أرأيت كم كان حديثى عنها حقيقيًا ، عندما كنا هناك فى القرية ، قبل وفاتها .

فقلت :

ـ إنى أصدقك دائمًا .

ولكنه لم ينتبه إلى حديثى ، فقد كان فى واد آخر ، بعيدًا عنى .

وعندما تكلم مرة أخرى كان حديثه مضمنًا بالغضب الشديد .

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ إذن ، فقد كانت والدتك تهاتف ذلك الخادم من وراء ظهرى ، كان بينها وبينه ما يشبه اتفاق الجنتلمان ، كما يقول ذلك الخادم فى مذكراته ، هى تتجسس له فى منزلى ، وهو يتجسس لها فى المكتب ، كلا فى موقعه ، يالى من مغفل كبير . كانت تستغل فترة مرورى فى الطريق ، من منزلنا إلى عملى فى مكتب السيدة (سارة) كى تهاتف ذلك الخادم ، يا لها من ماكرة لئيمة تلك المرأة ، ويا له من وغد ذلك الخادم ، استطاع بأساليبه الملتوية الزواج من سيدته ، يا له من وقح ، استطاع استخدام والدتك ، التى لم يرها قط ، لتحقيق أغراضه ، كان يزودها بتقرير هاتفى ، عن كل تحركاتى وسكناتى فى مقر عملى ، كانت تريد معرفة إن كنت تحدثت مع السيدة (سارة) فى غير مواضيع العمل ، أو إن كنت ابتسمت لها ، وهل رنوت بنظرة إليها ذات مغزى ، كان يحدثها بكل تفاصيل ما يجرى فى مقر عملى ، كان يريد أن يزيد فى عنفوان غيرتها على ، لكى تبعدنى عن السيدة (سارة) ، الذى يموت غرامًا بها ، كان يفعل ذلك كل يوم ، كل يوم ، يا له من رجل لم أفهم طويته أبدًا ، أبدًا .

وهى كذلك قامت دون حياء ودون أدنى ذرة من الخجل بالتجسس على زوجها ، فى بيته لحساب ذلك الخادم . إذن هو أيضًا كان يغار منى على سيدته . كان يريد أن يعرف طبيعة العلاقة التى كانت تربطنى بزوجتى ، وهل هى جيدة أم لا ، يا له من اتفاق ذاك الذى كان بينهما .

وصمت للحظة قصيرة ، ثم تنهد من قلب حرى ، وردّد كما لو كان الندم يخالجه ، على فوات فرصة ما .

ـ وأخيرًا استطاع الظفر بسيدته ، وتزوج منها رغمًا عنها ، ومع ذلك ، فقد كانت السيدة (سارة) ، من الوفاء والنبل ، إنها لم تتخل عنه بعد أن شفيت من مرضها ، يا لها من سيدة نبيلة تلك السيدة ، لم تتخل عن زوجها الخادم . إنه لمن أشد الأشياء عجبًا ، من الغرابة بمكان أن تحدث مثل هذه الأمور ، إنى أكاد لا أصدق ، يرفض عقلى هذه المطابقة فى الأحداث ، لو لم تأت السيدة (سارة) بنفسها ، إلى منزلنا هذا منذ سبعة من الأعوام ، وتقرر هذه الحقيقة ، إطلاقًا لما كان بوسعى التصديق ، ولاعتقدت جازمًا ، بأن هذه المذكرات ما هى إلا من وحى خيال كاتبها ، ليس غير .

هممت أن أقول شيئًا ، ولكنه سبقنى إلى الكلام :

ـ عجبًا ! أن تتزوج خادمًا لها ، تتزوج خادم مكتبها التجارى ، على الرغم مما هى عليه من الثراء والجمال ، وأكثر من ذلك ، على الرغم من تلك الكبرياء ، التى يتصف بها أناس تلك الدولة الغنية . ولكن من أين لنا أن نعرف ما تنطوى عليه نفسها القوية من شديد التواضع ، على الرغم من كبريائها البادية للعيان . إن هذا الضرب من النساء ، هذا الضرب من النساء ، ذوات النفوس الوضاءة ، هن ..

Looloo
www.looloolibrary.com

ثم سكت فجأة عن التتمة ، وكأنه تنبه إلى أن من يلقى إليه بالحديث ، لا تعدو أن تكون ابنته ، فلزم الصمت عن التعبير بما يختلج داخل نفسه من ألم وندم على شيء غال فاته الحصول عليه ..

ولكنه ظل طوال فترة ذلك المساء ، وهو يردّد مثل تلك العبارات المتقطعة ، فى انشداه تام ، وكأنه كان يشعر بالغيرة ، لحدوث ذلك الأمر لذلك الخادم وليس له . وهو يرى نفسه أكثر جدارة ، للزواج من السيدة (سارة) ، على الرغم من أن الخادم الذى كتب تلك المذكرات قد مات .

ثم يعود منحنيًا باللائمة على والدتى ، لتواطئها مع ذلك الخادم للتجسس عليه وعلى السيدة (سارة) كل من طرفه لحساب الطرف الآخر .

وحتى أجعله يفيق مما هو فيه ، قلت له :

ـ أبى ، أرجوك اغفر لوالدتى ، إياك والحقد عليها ، إنك تعلم أنها لم تفعل ما فعلت إلا لعظيم محبتها لك لقد كان دافعها لما فعلته تلك المعزّة الشديدة التى تكنها لك ولعظيم تعلقها بك ، وغيرتها عليك ، ثم إنها لم تعمل ما يسيء إليك مع ذلك الخادم ، حتى إنها لم تره فى حياتها إطلاقًا .

فقال بسخرية مريرة :

ـ لم تفعل ما يسيء لى . وهل ثمة إساءة أشد مما فعلت ؟ تنصب من يتتبع حركاتى وسكناتى ، فى مقر عملى ، وهى تقوم بنفس العملية فى منزلى ، لصالح ذلك الوغد ، ثم ليس ثمة إساءة ، وهل هناك ما هو أكبر منها ؟ إنها جناية يا بنيتى ، جناية فى نظر القانون ، وفى نظر العرف والناس ، وأنا لن أحاكمها بضميرى ، إلا على هذا الأساس ، أجل سأصفح عنها ، كما كنت أصفح دائمًا ، عن كل ما كان يؤلمنى منها . أجل ليرحمها اللّه .

وأضاف بعد سكتة قصيرة وبهزء شديد :

ـ لقد أضافت إلى حسناتها الكثيرة ، حسنة جديدة .

ثم استتبع جادًا ، وقد تخلى عن السخرية والهزء :

ـ ليغفر لها اللّه ، أجل إنى أصفح عنها . لقد ظنت أنها ستفلت بفعلها دون علم أحد ، ولكن ها هى المسألة تتكشف أمامى ، بل تتفشى أمام جمع من الناس ، أمام كل من قرأ هذه المذكرات ، رحم اللّه زهير بن أبى سلمى ، أتعرفين بيت الشعر الذى تلفظ به ذلك الشاعر الفذ ، لقد قال حكمة ، حكمة ترجمت على لسانه شعرًا ، علموكم شيئًا من أشعاره فى المدرسة كما يفعلون فى أيامنا ؟ لقد قال ذلك الشاعر الحكيم :

مهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

Looloo
www.looloolibrary.com

رحمه اللّه ، لقد كان قولاً معبرًا عن حقيقة الأسرار ، فى كل الأزمنة . ها أنت ترين ، بعد مضى أكثر من سبعة عشر عامًا ، على تلك الأحداث السرية ، تأتى بعلانيتها الفجة ، آه ، لو كنت عثرت على هذه المذكرات ، وهى بعد لا تزال عائشة ، ما كنت أعدم موقفًا آخر يكون لى معها ، أجل لجثمت فوق صدرها ، وخلصت إلى كيفية التصرف عندئذ .

وضحكت فى سرى ، وأنا أتذكر كيف كانت كل رغبات والدتى واجبة النفاذ ، وأنه ليس فى مقدوره أن يرفع إصبعًا واحدًا فى وجهها ، بل إنه كان يفعل كل ما تريده ، بمجرّد ما يرتفع صراخها ، ما لم تكن فى ذلك اليوم متناولة حبوبها المهدئة ، والأنكأ أنه كان يفعل ذلك ، وهو كمن يؤدى لها طقوسًا مقدسة ، أما الآن ، فهو يعرف كيف يخلص إلى التصرف معها .

وكأنه حدس ما أفكر به ، إذ قال :

ـ أنت تعرفين والدتك جيدًا ، كانت شديدة العصبية ، تريد تحقيق كل ما ترغب به باستعمال القوة النافذة ، وقد كنت طائعًا لها فى كل ما تطلب ، ولم أكن لأجرؤ على مناقشتها فى أمر من الأمور ، ما لم يكن لها ذلك المزاج الهادئ ، بعد ابتلاعها لتلك الحبوب ، بيد أن ذلك ليس مرده إلى ضعف منى ، كان ذلك بمحض اختيارى ، كنت أقايض الحرب بالسلام ، لقد ابتغيت الهدوء أن يسود منزلى . حقًا أن ثمة ثمنًا دفع ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة ، ليس فيما يمس بالكرامة أمام الناس ، يا ترى ،

ماذا كان يفكّر ذلك الخادم ، وأنا آمره بإعداد الشاى ، وكلى ثقة بفوقيتى عليه ، لم أكن أعرف أنه يطوّنى بقدمه كل يوم ، كل يوم .

فقلت أخفف عنه :

ـ أبى .. يتعين عليك أن لا تسرف على نفسك ، ليس ثمة ما يستوجب كل هذا الغضب ، فمن توليها تقريعك قد توفيت ، وحتى ذلك الخادم الذى قام بهذه الفعلة متوفى هو الآخر .

ثم كن متيقنًا أن خصمك ليس قليل الشأن كما قد تبادر إلى ظنك للوهلة الأولى ، حتى وإن كان يزاول أعمالاً دنيا ، إلا أنه امرؤ مفكر ، ألم تر إنتاجه الفكرى ، ألا يستحق الاحترام بعد ذلك ؟

فقال بلهجة امتلأت هزءًا وسخرية مريرة :

ـ يستحق الاحترام ، يا له من احترام ابتاعه بمقايضة شرف الآخرين ، تقولين إنه مات ، وإن مات ، والكتاب ألا يقرؤه الناس ، والسيدة (سارة) ، ألا تعرف من المعنى بما جاء بذلك الكتاب ، ماذا تكهنت به عنى ، بل ماذا ظنت بى ، عندما قرأت تلك المذكرات اللعينة ، أما زالت تحترمنى ؟ ماذا يحملها على الاعتقاد بأنى أمرؤ محترم ، كما كانت تفعل فى السابق ، بعد أن عرفت عن ذوى بيتى ما عرفت ؟ أرأيت أن ثمة من يعرف

Looloo
www.looloolibrary.com

الموضوع ، حتى أنت ما كان يجب أن تعرفى مثل هذه الأمور عن والديك .

فقلت أهدئ من ثائرته :

ـ ليقرأه الناس أجمعون ، إنه لا يعدو فى نظرهم سوى رواية من نسج الخيال ، أما السيدة (سارة) فلابد أنها سوف تقدر مشاعر والدتى تجاه زوجها ، الذى تحبه كل الحب ، والمرأة تفهم المرأة يا أبى ، كن متيقنًا من ذلك ، ثم إنها امرأة رصينة كما فهمت من حديثك عنها ، ومبلغ الاحترام الذى تكنه لها . وامرأة كهذه لن يفوتها تقدير الأمور حق قدرها ، وأخيرًا وهذا فيه ما يكفى أنها لم ترفى زواجها من خادمها ، الذى كان جاسوسًا عليها ، ما يعيبها . فهل بعد هذا تعيب على والدتى ماصدر منها ، إذا كان الغرض منه المحافظة على من تحب ويهواه قلبها ؟ أما أنا فما يؤلمك يؤلمنى ، فلا داعى للخجل منى ، ثم إنى لا أرى ثمة ما يُخجل منه ، إنما المهم فى الأمر كله ، أننا استطعنا أخيرًا فهم كل شىء ، فقد انجلى الغموض بخصوص الكيفية ، التى عرفت بها السيدة (سارة) بوجود حفيدتها لديك .

ولبثت معه فى محاورة ، حتى هجم الظلام وأعتمت الشرفة ، إلا من إضاءات ضئيلة كانت ترسلها مصابيح الشارع القليلة العدد . وخرجت أختى من الغرفة فى تلك الأثناء ، واضعة الرواية على سطح التلفاز ، وهى تقول خالية البال مما كان يشغلنا :

ـ لم ، كل هذا الاهتمام ؟ إنه قصة عادية مثل كل القصص .

فقلت إجابة لها بأول كلمة تبادرت إلى ذهنى :

ـ أذواق ، إن الأذواق تتباين ، ولولا تباينها لبارت السلع كما يقال ، إنى وأبى شديدا الإعجاب بهذه المذكرات .

قلت لها ذلك وأنا أتجه إلى مكان التلفاز لتناول الرواية من على سطحه ، قبل مجىء أخى .

فقالت فى عجب :

ـ حتى من قبل أن تقرأها .

وتلافيًا لأى ريبة ، أجبت :

ـ أجل ، لقد سمعنا عنها الكثير ، إنها رائعة أدبية ، لقد طالت شهرتها الآفاق .

وتجدّدت دهشة أختى وعجبها ، فى اللحظة التى مددت يدى لأخذ الرواية ظهر أخى فى فتحة الدهليز ، وكأن الأرض شقت عنه دون أن أنتبه لدخوله وهو آت من الخارج ، فنحن لم نسمع حتى وقع خطواته ، ثم صرخ ، بآهة طويلة بمجرّد أن وقع بصره عليها . ثم أرفق اختطافه لها صرخة فرح لاسبيل إلى وصفها .

ـ مذكرات خادم ، مذكرات خادم .

Looloo
www.looloolibrary.com

لم أفقد سرعة بديهتى على الرغم من مفاجأته لنا ، فأسرعت إلى القول ، منبهة إياه إلى نفسه ، كى أمنع إفلات أى تعبير آخر قد يوشك على التفوه به ، ومن ثم يلفت نظر أختى .

قلت له غامزة بعينى :

ـ خذها ، جاء دورك فى الصداع ، ألم أذكر لك عصرًا أن دورك فى الصداع سيحل ليلاً .

ضحك مقهقهًا :

ـ لم تذكرى لى شيئًا عن دورى ، إنما من قال ذلك هى عاتكة ، لعلك أردت إخفاءها عنى ، على كل أنا رهن الإشارة .

وغمز لى بعينه هو الآخر ، ثم التفت إلى أبى الذى كان جالسًا على المقعد الطويل يتظاهر بمتابعة المسلسل المعروض ، ولكن عبوسه ينبئ بشروده ، وقال له ضاحكًا بجذل :

ـ حقًا ، لقد أغلقتما عليكما الباب ، أنت وهى ، وسوف أقلدكما .

ولكن أبى لم يرد عليه ، فقد كان سابحًا فى لجج من أفكاره ، عندئذ التفت إلى وتابع :

ـ أريد عشاء فاخرًا ، بعد الانتهاء من قراءة هذه المذكرات اللعينة ، التى أضناك البحث عنها ، يجب أن تحتفلى بالحصول عليها .

ثم خفض صوته وهمس فى أذنى ضاحكًا :

ـ سوف أكتشف سرها .

كنت أساعد أختى فى إعداد المائدة للعشاء ، عندما همست لى :

ـ ما خطب هذه المذكرات ؟ هل أطلت البحث عنها كما يقول أخى ، لماذا ؟ أريد أن أقرأها مرة ثانية ، لعلنى أجد بها ما تجدون ، أظن أن فهمى قاصر عنكم ، ولذا لم أنبهر بها مثلكم ، إنكم مثقفون ، أما أنا فلا أكاد أفك الخط .

غلبتنى الحيرة ، بماذا أرد ، سوى أن قلت :

ـ كما قلت لك ، لقد سمعنا بها طويلاً ، كانت شهرتها طالت الآفاق ، حسنًا ، اقرئيها مرة أخرى ، وثالثة حتى تحفظيها .

فتساءلت :

ـ أحفظها ؟

قلت بعجلة كى أمنع عنها الارتياب :

ـ أجل ، عندما يحفظ القول يفهم . ألم تقولى إنك لم ترى بها شيئًا يثير الإعجاب ، إنك بحاجة إلى فهمها كى يثار إعجابك بها .

خرج أخى من غرفته ، فى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، حاملاً الرواية بيده ، كان يريد أن يقول لى شيئًا ، ولكن فيما يبدو كان خائفًا من أن يسمعه أبى فتساءل :

ـ أين أبى ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فلما أنبأته بأنه قد أوى إلى فراشه ، التفت إلى أختى طالبًا عشاءه ،وفى عينيه لمعة غريبة ،وهو ينظر إليها ،شعرت بالرغبة فى الهروب من مجالسته كى لا أتعرض إلى أسئلة لا أعرف كيف أجيب عنها ،ولكن عندما تحركت كى أساعدها فى إعداد العشاء كالعادة ، متجاهلة أنه طلبه من أختى . أمسك بيدى ، قائلاً :

– هى التى ستعده بمفردها هذه الليلة .

وجرنى إلى الجلوس إلى جانبه ، وعاود القول همسًا ، بمجرد أن ابتعدت أختى ، متجهة إلى المطبخ :

– لم أتوقع أنها طفلة ثرية ، لم أتوقع ذلك قط . يا له من اكتشاف مذهل .

تساءلت متجاهلة :

– من تعنى ؟

– هل تظنين بى الغباء ؟ إنها (عاتكة) تلك الوليدة التى أخذها أبى ونحن على قارعة الطريق .

فقلت :

– آه ، إذن فقد فهمت كل شىء .

فكرّر حانقًا :

– هل ترينني غبيًّا ؟ إننى أتذكّر منذ أن جاءت لنا تلك المرأة ، والآن عرفت بالتفاصيل ، ولكن لم أتوقع أنها طفلة ثرية ، يا له من اكتشاف مذهل .

أجبته ساخرة :

– وهى لاتزال كذلك . غير أنه لافائدة تعود عليها من ثرائها ، أجل لن تستفيد المسكينة من ثروة أهلها ، ولن تغنيها فتيلاً عما هى فيه ، فكأن لعنة الفقر تلاحقها منذ مولدها .

فقال بجدية صارمة :

– ولماذا لانحاول إيصالها إلى جدتها ، سنكون نحن المقربين لديها ، وربما رحلنا إلى هناك ، إلى ذلك البلد الغنى ، وربما استعاد أبى عمله لدى تلك السيدة ، وربما تزوج منها أيضًا . ألم تتزوج من خادمها . إن أبى أفضل منه ، فهو مهندس وليس خادمًا ، وربما ساعده هذا على الشفاء من مرضه .

فقلت زاجرة بصوت منخفض :

– لابد أنك معتوه ، أبعد كل هذه المعاناة الحافلة بالعذاب ، التى تعرضت لها حفيدتها ، وبعد ما فعلته والدتنا بالسيدة (سارة) نفسها ، أنسيت أن أمى طردتها ؟ ثم لاتنس مرض أبى العضال . أتراها ترضى بالزواج من رجل مسلول ، ثم هناك عملية تزوير موسومة ، سوف تتكشف ، وسيقع أبى تحت طائلة القانون الذى لايعرف الرحمة ، أتريد لأبى أن يعترف بنفسه لتلك السيدة بما فعله ، لكى ينسب حفيدتها إليه .

فقال مبررًا :

– إنه لم يفعل ذلك ، إلا لحماية تلك الحفيدة . فهل كانت ترضى ، أن تترك حفيدتها فى ذلك التيه ، فى حضنها وهى المعتوهة فاقدة اللب ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت :

ـ من يدرى كيف تفكر تلك السيدة ، ربما كانت ترى لو أنه حملهما معًا أو تركهما معًا يكون أجدى من التفريق بينهما ، وما كان يصح ذلك حقًا ، حتى من وجهة نظرى أنا البعيدة عن الانتماء إليهما ، بل لابد أنها ستكون وجهة نظر أى امرئ آخر ، ما كان يصح التفريق بين الجدة وحفيدتها ، لو لم تتدخل أمس ذلك التدخل المزرى فى تقرير مصيرهما ، ماضرها لو أنها حملت المرأة مع الحفيدة ، شىء مضى ، ولافائدة تغرى بالندم ، لكن نحن فى الوقت الحاضر ، ماذا لو أن السيدة (مبارة) ، أصرت على تصحيح نسب حفيدتها . ماذا سوف يحدث عندئذ ؟ سوف تنكشف كل الأمور ، وهى ليست فى مصلحة أبيك إطلاقًا .

وقصصت عليه ما قصه على أبى منذ ستة أعوام مضت ، ونحن جلوس على حافة قناة جدى فى قرية (أم الجمال) الرائعة .

وردّدت قول أبى ، الذى كان مطبوعًا فى ذهنى منذ ذلك اليوم ، قلت :

ـ لافائدة ترجى ، من وراء محاولة إعادة الطفلة إلى ذويها . أما أنت فانس أحلامك بالثروة والجاه ، واكتف بأنك علمت من باب العلم بالشىء لا غير ، انس كل شىء يتعلق بمنبت أختك وأصلها ، ولكن المطلوب منك أن تترفق بها ، وتحسن من

معاملتك لها ، ويكفيها أننا نضحى بها للمرة الثانية ، من أجل سلامتنا ، سلامة أبينا .

فعاد إلى القول مبهورًا واجف القلب ، وكأنه لم يكن يصغى إلى كل ما قلته .

ـ إنها ذات ثراء ومال ، (عاتكة) الصغيرة هذه ، ذات حسب ومال ، الخادمة المهملة فى منزلنا ، ذات ثراء ومال ، يكاد عقلى يشت .

فلكزته فى خاصرته :

ـ إنها ليست خادمة ، لماذا لا تكف عن نعتها بهذه الصفة ، إنها أختنا الصغيرة المعذبة ، التى أتعبناها بما لا يبرّر من أعمال . أرجوك انس .. صه ، ها هى ذى آتية ، لاتدعها تشعر بما يعتمل فى داخلك .

ولكنها لاحظت ارتباك أخى فقالت :

ـ عجبًا كلكم بعد قراءة هذه المذكرات ينتابكم ما يشبه الدوار ، عداى ، لابد أنكم أكثر ذكاء منى ، إذ تفهمون ما لا أفهم ، ولكن لابأس ، سأعاود قراءتها مرات ومرات ، حتى أحفظها .

فقال أخى ساخرًا وملغزًا :

ـ حتى لو قرأتها للمرة المليون ، لن تجعلك مداومة قراءتها تفهمين شيئًا ، ما لم نقم نحن بالشرح لك

Looloo
www.looloolibrary.com

فقالت بغضب مكبوت ، خوفًا من ثورته عليها ، كما كان يفعل فى السابق ، دون أن تعلم أن شيئًا ما لا بد أن انقلب فى وجدان أخى رأسًا على عقب ، قالت :

ـ إلى هذه الدرجة ترى أنى غبية ؟

فأسرعت إلى القول ، وأنا أتمايز من الغيظ :

ـ لا عليك منه ، إنه يعتبر نفسه الذكى الأوحد ، فى هذا المنزل ، وإنما ليس فى ميسورك قراءتها لأكثر من مرة ثانية ، لأنى سوف أعيدها غدًا .

ردت بتحد :

ـ حسنًا ، سأقرؤها للمرة الثانية ، سوف أسهر عليها هذه الليلة ، وسوف أفهمها .

والتفتت تركّز نظراتها فى أخى بتحدٍ وهى تردّد :

ـ أجل سوف أفهمها تمامًا .

وقهقه أخى .

ولكنا لم نر أية مناسبة لقهقهته ، وهو ينكب على عشائه يلتهمه بشهية كبيرة .

* * *

ـ ١١ ـ

ندمت أشد الندم على اطلاع أخى على رواية (مذكرات خادم) على الرغم من أن ذلك لم يكن بإرادتى ، فالحدث لم يمر بسلام ، كما كنت أتوقع ، فمما لاح لى ، أنه من شدة تأثر أخى بما جاء فى (مذكرات خادم) ، عن وصفها لوضعية الثراء التى كانت عليها أسرة أختى الحقيقية ، أفضت به إلى تنحية كل فكرة عاقلة كانت تدور فى لبه . لقد تفاقم ما كان يدور فى داخله من مشاعر الكراهية لفقر الموارد المالية فى أسرتنا ، بل فى دولتنا ، لقد أهاله الإدقاع العام ، ذلك الذى أخرجه عن طوره ، بالمقارنة لما لتلك الدولة التى تنتمى إليها أختى من غناء فاحش ، فلم يعد يعى سوى هدف واحد ، وضعه فى ذهنه ، وشرع فى بدء خطوه المستميت فى سبيل تحقيقه . ولعل ما حمله على الاعتقاد بنيل هدفه على تلك الصورة البشعة ، التى انبثقت فى ذهنه فجأة فأدت إلى إغفاله الشديد عن التفكير بأى شىء آخر ، عدا الوصول إلى هدفه الوضىء كما يراه ، ألا وهو امتلاك الثروة .

ولعله ظن أيضًا ، أن ما قام به من دناءة تجاه أخته ، هو السبيل الوحيد ، أو هو أقرب السبل إلى نيل مرامه .

لقد جرنى هذا الحديث بسبب ما أنبأتنى به أختى ، عن بشاعة ما ارتكبه أخوها بحقها ، لقد استقبلتنى أختى ظهر اليوم

Looloo
www.looloolibrary.com

التالى لقراءتنا لتلك المذكرات ، تذرف الدمع مدرارًا كشلال منهمر ، وهى تشهق شهقات حرّى ، وتحاول جاهدة كبتها داخل صدرها ، من خشيتها لئلا يلحظها أبى ، ولكن لم يكن فى مقدورها ذلك ، فيحدث أن تهتز بها على الرغم منها .

بهرت لما هى عليه من أسى ، يكاد ينطق به كل ملمح من ملامحها ، ولكن لم يدر فى خلدى أبدًا ، أن أتمثل فى خاطرى سببًا كالسبب الذى حدا بها إلى ذلك النحيب .

قدتها من يدها إلى غرفتنا ، وأغلقت الباب ، وهناك سألتها فى همس ، عما بها ، بعد ما لاحظت من حرصها على أن تكتم بكاءها عن أبى .. قلت :

ـ ما بك ؟ ماذا جرى ؟

فقالت بصوت خافت ، تقطعه الشهقات ، فتخرج الكلمات مبتورة ، من بين شفتيها المبللتين بالدموع :

ـ أخى ، أخى .

فقلت منزعجة ، وقد خلت أن مصابًا ألم به :

ـ ما به ، أصابه مصاب ؟

فقالت من خلال شهيقها :

ـ ليته كان ذلك ، إنه يستحق كل شر .

فلما رميت بيديها التى كنت ممسكة بهما ، وقد أزعجتنى عبارتها الأخيرة ، قالت وهى تغطى وجهها بكلتا يديها خزيًا :

ـ لقد حاصرنى بغرفته صباح اليوم ، بعد خروجك للعمل ، وكأنه تعمد أن يبقى متأخرًا ، وكان ذلك فى أثناء قيامى بعملية تنظيفها ، أظنه عرض على الزواج ، كان يتفوه بعبارات فى مثل هذا المعنى ، لم أفهم منه شيئًا ، كان يتفوه عن احتمالية زواجنا ، ثم أخذ فى تقبيلى قبلات محمومة ، بطريقة أفزعتنى ، صرخت به : إنى أختك ، أختك ، ولكنه لم يأبه لصراخى ، ولم يرتدع إلا حين هددته بمناداة أبى ، عند ذلك فقط أفلتّ من قبضته .

وأردفت باستنكار :

ـ كيف يجرؤ على مسى ، وأنا أخته ؟ هل يفعل ذلك معك ؟ أعنى هل طلب الزواج منك ؟ أما أنه استغل ضعفى ؟

فثارت كل ما فى عروقى من دماء :

ـ تبًّا للوغد اللئيم ، إنى أعرف كيف أربيه ، سوف أدق عنقه .

فقالت جزعة :

ـ ولكنه أكبر منك سنًا وحجمًا ، ليس فى مقدورك تربيته ، لماذا لاتخبرين أبى ، وهو يتصرف معه ؟ أرجوك أبلغى والدى .

وعادت إلى شهيقها .

ليس فى مقدورى إخبار أبى ، ففيه من العلل ، التى لاتحتمل الإضافة ، ولكن لم أبلغها برأيى ، وإنما قلت أطمئنها ، وكأنى قادرة على كل شىء :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ لا تخافى ، إنى أعرف كيف أجعله يلتزم الأدب فى تصرفه معى ، وإن كان أكبر منى ، أما أبى فسوف ندخره لما هو أعظم ، إنه مريض ، وقد يقضى عليه خبر كهذا ، لا عليك ، أنا أعرف كيف أتصرف معه ، إنما عليك أن تثقى بى .

كانت الأرض تدور تحت قدمى ، ولكن بما أعرفه عنى من عزيمة ، استطعت الصمود ، بل وقررت أن ألقن ذلك السافل درسًا لن ينساه .

تركت أبى وأخى يتناولان طعام الغداء بمفردهما ، حين حان وقت الغداء ، واعتكفت مع أختى فى غرفتنا تحاشيًا ، لقد خشيت ما قد ينتج فيما لو ظهرت على سجيتى معهما على المائدة مما يفضح غضبى أمام والدى ، وإن أنا تماسكت وأبديت شيئًا من الملاينة فى الحديث معهما ، أفقد جزءًا من هياجى وغيظى قبل مواجهة أخى ، لذا فقد فضلت الاعتصام مع أختى داخل غرفتنا ، وقد قامت أختى بسكب الطعام لهما ، واعتذرت لأبى بعدم شهيتها لتناول الغداء ، ودخلت الغرفة موصدة الباب خلفها ، لقد أحس أخى بنذر الشر ، فلم يأكل جيدًا .

تساءل أبى :

ـ ما بكم ؟ أختاك رفضتا الغداء ، وأنت لا تطعم إلا النذر اليسير ، ماذا حدث ؟ هل تعاركتم أنتم الثلاثة ؟

كنت وأختى نتناوب النظر إليهما ، عبر ثقب قفل باب غرفتنا ، رأيت أخى يضحك ضحكة صغيرة ، وهو يصعر خده :

ـ بتاتًا ، لاشىء ، أنا عائد على الفور من عملى ، كما ترى ، وهانحن الثلاثة كلنا أمامك . هل حدث أى عراك ؟

فقال أبى حائرًا :

ـ لا أدرى ، ربما تكون أغضبت أختيك .

وردّ أخى بصلف هذه المرة :

ـ كيف ؟ ألم ترنى عائدًا من عملى لتوى ، قبل لحظات فحسب ، ألم يكن ذلك أمامك ، كنت تجلس أمام التلفاز عندما دخلت مارًا بك ، متى أغضبتهما ؟!

ـ يا للوقاحة التى عليها أخى .

قلت هذا لأختى ، ولكنها وضعت إصبعها على شفتيها إشارة للصمت لئلا يسمعونا ، وعاودنا تناوب النظر من الثقب .

نهض أبى ليغسل يديه ، وهو يقول :

ـ حسنًا ، سأدخل غرفتى لأغفو قليلاً ، ولكن قبل أن تذهب لكى ترتاح ارفع هذه الصحاف إلى المطبخ ، ليس عيبًا يا بنى مساعدة أختيك .

إن الخوف من نيل العقاب ، أثقل وطأة على النفس من تلقيه . فكرت بهذا عندما رأيت لأول مرة ، ويا للعجب ، أخى ينزل من عليائه ، ويخضع لأداء مثل هذه المهمة . فقد أخذ يروح غاديًا وعائدًا حاملاً الصحاف ببقايا الطعام إلى المطبخ ، حتى خلت المائدة .

Looloo
www.looloolibrary.com

ثم غسل يديه ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه . بيد أنى لم أدع له الفرصة ، كما أمل ليهنأ براحته . فقد هجمت على غرفته ، بمجرّد ما أمنت نظرة أبى .

حتمًا ، كان لدى أخى توقع ، بما سوف أقوله ، منذ أن رآنى رافضة للغداء معه ، معتصمة وأختى داخل غرفتنا ، ولذا فقد بادرنى بمجرّد أن رآنى وسط غرفته ، وقبل أن أفتح فمى .

ـ حسنًا ، ستقولين إنها أختى ، وأنت أول من يعلم أنها ليست كذلك ، ثم إنى لم أفعل خطأ كبيرًا ، إنها مجرّد قبلات ، إذا كانت تريد ترضية فأنا على استعداد للزواج منها ، إنها فتاة ثرية ، ولابد لها من استعادة ثروتها فى يوم من الأيام ، ثم أنت نفسك من كنت تداومين على نصحى بتحسين معاملتى لها .

عدت إلى الباب فأوصدته جيدًا ، كى لا يتسرب إلى أبى صوت الشجار ، وقلت بخفوت ما أمكننى مع ثورتى العارمة التى كانت تملؤنى :

ـ عرفتك شريرًا عندما كنت تسومها العذاب فى طفولتها ، وعرفتك داعرًا وأنت تحاول الاعتداء على فتاة كانت ومازالت بمثابة أختٍ لك ، وهى فوق ذلك فى أعناقنا كلنا .

بيد أنى لم أعرفك غبيًا وجاهلاً لأبسط معطيات القانون ، وأنك لا تأبه للعرف بهذه الطريقة الفظة السمجة إلا الآن .

واستطردت :

ـ اسمع ، أصغِ لى جيدًا ، إذا كنت تتجاهل المعرفة بالقانون ، أو أنك تجهله حقًا ، فخليق بك أن تطلع عليه ، قبل الإقدام على ما فكرت بأنه ينيلك مرامك من الثراء . واعلم أن ما فكّرت به من وسيلة ، لن تقربك من هدفك قيد أنملة ، وأن ما فعلت ما هو إلا سماجة تتعدى حدود منطق الأمور ، فإن لم يرتق فكرك إلى تبين ما فى تصرفك مما يستهجن ، أو لم تكن لك القدرة على المتابعة والاطلاع مما يستعصى تذليله قانونيًا ، ففى وسعى أن أبلغك ، أنه من تمام الاستحالة أن يكون فى ميسورك الزواج من هذه الفتاة . بسبب أنها أخت لك بقوة القانون ، وإن لم تكن أختًا لك فى الدم ، فأرجو ألا تراودك أية أحلام بهذا الخصوص ، إنها أخت لك فى شهادة الميلاد ، وفى كل أوراقها التى تثبت نسبها إلى أبيك ، فلا تجعل من هذه الذريعة ، التى ابتدعتها لتوك ، عذرًا لتحقيق التملص من جرمك ، لمجرد اعتقادك أنها قد تنال غنى ، هو فى الحقيقة ، وكما يبدو من المستحيلات . وخذه قسمًا عظيمًا ، لو أنك حاولت مرة أخرى المساس بها ، وأكرّر لو حاولت مرة أخرى المساس بأختك ، فسوف أبلغ عنك السلطات بدعوى المساس بالمحرمات ، وثق جيدًا أنى لن أتورع إطلاقًا عن إدخالك السجن بهذه التهمة ، أقسم لك على ذلك ، وسوف أعمل على بقائك فيه ، إلى أن تتزوج هى وتبتعد عن أن تطالها يدك القذرة .

وهناك داخل السجن ، قل ما بدا لك إن كنت تجرؤ ، قل إنها ليست أختًا لك ، أنكر أخوتها ، واحك سيرتها ، إن كنت تجرؤ ،

Looloo
www.looloolibrary.com

افعل ذلك ، ودع أباك يدخل السجن مكانك ، وعوضًا عنك لو استطعت . أخبر عنه أنه مزور ، واعمل على تبرئة نفسك بهذه الذريعة . وخذ فى علمك ، أنه لأهون علىّ مائة مرة ، أن تسجن مدى الحياة ، على أن يتعرض أبى إلى الخطر ليوم واحد فقط . إنى أحذرك ، وإياك واللعب معى مرة أخرى . وأصغ إلى قرارى الأول ، وربما أضطر إلى اتخاذ قرارات أخرى أقسى منه فيما بعد .

إن (عاتكة) لن تدخل غرفتك بعد اليوم ، أنت وحدك المكلف بتنظيفها ، أو إهمالها فى قذارتها ، فهذا شأن منوط بك وحدك ، إنه يخصك بمفردك أيها الوغد ، الذى أول ما يريد أن يكون ذئبًا يحاول التهام أخت له .

* * *

لم يكن فى مقدور أخى النبس ببنت شفة ، ربما لشعوره بفداحة جرمه ، لقد كان خزيًا منكس الرأس ، طيلة ثورتى عليه . فتركته على تلك الحالة الزرية ، وعدت أدراجى إلى أختى مظفرة .

ولم أكتف بما حزت عليه من انتصار ، متمثل فى تلك الاستكانة الخجلى التى كان عليها أخى . بل قلت بمزيد من المبالغة ، لكى أشعرها بالطمأنينة ، إنه يعتذر ، وذكرت لها بمزيد من التهويل ، أنى رفضت اعتذاره ، ونهيتها عن دخول غرفته ، أو العناية بأمره ، درءًا لأى خطر قد يأتى من جانبه .

ومنذ ذلك اليوم و (عائكة) تتحاشى التحدث معه ، إلا للضرورة ، كما تتحاشى الالتقاء به منفردة ، فإن لم أكن بالمنزل تلجأ إلى والدى تعتنى بأمره أو تحادثه ، لكى تكون بالقرب منه ، متباعدة عن أخى ما وسعها التباعد ، وبات اجتماعهما لا يكون إلا على مائدة الطعام . التى تضمنا جميعًا . لا يكادان يتبادلان الحديث إلا لمامًا .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ١٢ ـ

سارت بنا أمور الحياة على وتيرتها المعتادة ، ومضت عدة أشهر على ما كنا عليه آخر مرة .

وذات يوم ، وبينما كنت فى العمل ، استدعيت من الفصل ، فى أثناء قيامى بأداء مهمتى التدريسية .

قالت لى الخادمة :

ـ إن مدير المدرسة يود التحدث إليك .

ذهبت إليه على عجل ، وذهنى خال تمامًا عن أية فكرة فيما يتصل بموضوع الحديث ، الذى يود أن يوجهه لى ، فأنا واثقة تمامًا ، أنى لم أقصر فى أى يوم منذ بدء عملى ، وليس فى حسبانى أن يوجه لى لومًا من أى نوع ، حتى وإن كان من أحد أولياء أمور التلاميذ ، الذى قد يكون اشتكى لى تصرفًا ، تجاه أحد أبنائه لأى سبب من الأسباب .

عندما دخلت غرفة المدير ، وجدته جالسًا أمام مكتبه ، ممسكًا بسماعة الهاتف بيده ، متعجلاً مجيئى ، وبمجرّد رؤيته لى ، قال :

ـ آنسة (سعاد) ، إن أختك على الهاتف ، تقول إن أباك مريض جدًا ، وحالته سيئة للغاية ، تحدثى معها ، وإن احتاج الأمر ، فانصرفى إلى المنزل ، وسأدعو إحدى المدرسات لأخذ مكانك .

* * *

ـ ١٣ ـ

لقد مات أبى المسكين بعد صراع طويل مع المرض ، دام أكثر من ثمان سنوات .

وبمجرّد انتهاء فترة العزاء ، ما كان من أخى ، إلا أن نبهنى بحذر شديد ، وكأنه كان يخاف غضبى ، قال :

ـ (سعاد) ، أود أن أقول لك شيئًا ، ولكنى أخشى ما قد تظنينه بى ، أو ماذا يكون تأويله فى نفسك ، مما قد يؤدى إلى غضبك منى .

وسكت برهة قصيرة ، وأنا أنظر إليه منتظرة إتمامه لحديثه . ثم استأنف :

ـ على كل سوف أقول .

وعاد إلى الصمت ، وكأنه يفكّر كيف يشرع بالحديث ، ثم عاد إلى استئناف ما بدأ به بتعجل وبألفاظ تزحم بعضها بعضًا ، وكأنه يود الانتهاء من حديثه ، قبل أن تبدر منى بادرة اعتراض ، قال :

ـ ألا ترين أنه خليق بنا ، أن نعيد أختى (عاتكة) إلى ذويها ؟ خاصة أن الأسباب المانعة التى كانت تحول دون تسليم أختى (عاتكة) إلى جدتها قد زالت ، ولن يقع أى منا تحت طائلة القانون ، لو قمنا بتسليمها إليهم ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

إن فى ذلك خدمة لها ، لإخراجها من حالة الفقر التى تعيشها . ما رأيك ؟ أم أنك تفضلين لها البقاء كما هى الحال من قبل ؟

ووضع كأس الشاى الذى كان ممسكًا به قرب شفتيه على المائدة ، التى كانت تضمنا بمفردنا . إذ كانت أختى فى الشرفة تنشر بعض الثياب ، ونهض قائمًا ، وهو يردّد دون أن يحاول سماع ردى :

ـ على أية حال ، إنى أعتذر ، وإذا كنت ترين أن الظرف غير ملائم لخوض مثل هذا الحديث ، اعملى أنت ما ترينه مناسبًا بخصوصها .

لاحظت أنه وهو يتحدّث بشأن (عاتكة) ، يشدّد على مخارج لفظة (أختى) ، التى ردّدها مرتين ، وكأنه يلفت نظرى إلى أنه لم يعد يفكّر بما كان يفكّر به سابقًا .

دون ريب ، كان معه كل الحق ، عندما قدم ذلك الاقتراح . بيد أنى كنت أعلم أن الحق المطلق لم يكن ما يرمى إليه ، إنه كان يهدف إلى غرض ما فى نفسه لم أتبينه بعد ، وإن كان لن يخرج عن نطاق الحلم بالثروة ، ومع هذا فقد صادف قوله هوى فى نفسى ، فلم أر أنه يستحق لومًا عليه ، أجل لقد توارى القصد الخفى ، وراء المعنى الظاهر .

فقلت له وهو يبتعد :

ـ سوف أتدبر الأمر .

كان أخى قد فقد كل حق له فى إدارة شئون أختى بعد فعلته الدنيئة تلك ، وحتى بعد وفاة أبى ألفى نفسه ، أنه ليس فى مكنته أن ينصب نفسه وليًّا لها ، بحكم تخليه عن ذلك الدور منذ فعلته الشنعاء ، منذ كان أبى على قيد الحياة ، الذى كان أسلم القياد بعد وفاة أمى فى تولى شئون المنزل لى ولأخى ، وقد أصبحت العناية بأختى من خاصة شئونى منذ ذلك الحين . وقد عزز ذلك فقده دالته عليها بتباعدها عنه . فأسلم القياد لى فى كل ما يتعلق بشأنها ، دون منازع .

وكما أشرت ، فإن ما قدمه من اقتراح فيما يتصل بأختى لاقى هوى فى نفسى ، غير أنه مضت فترة ليست بالقصيرة دون أن تبدر منى بادرة على تفاعلى بذلك الحديث ، فلم أقم بأية خطوة بهذا المنحى ، لانشغالنا بالأحزان على أبى ، فكان مؤدى ذلك باعثًا على نسيان الموضوع ، أو أنى حاولت أن أدخل على نفسى تناسيه ، لما رأيت من صعوبة طرقه مع أختى ، أو مع السلطات لتصحيح نسبها ، وقد اتخذت من أحزاننا على وفاة أبى ، ذلك الوالد الطيب ، الذى ترك فراغًا فى حياتنا ، ذريعة أبرر بها لنفسى ذلك التسويف .

ولا أعدو الحقيقة إذ قلت ، إن مفارقة والدى تركت إحساسًا بالخواء ملأ نفسى حتى أترعها ، فلم يعد بها شىء سوى تفقده والحسرة عليه ، فلم يكن ذلك الفراغ الذى تركه بالأمر الهين

Looloo
www.looloolibrary.com

علينا جميعًا ، وحرىّ به أن ينسينا أى شىء عداه ، وما أظنه من أمرى ، وهذا حال الجميع منا ، لقد كانت صورته لا تفارق مخيلتى ، فى معظم ساعات يومى ، فأتذكره فى كل مكان يحل به ، وحتى عندما أكون خارج المنزل ، يتولد فى داخلى ذلك الإحساس بأنى سأجده لدى عودتى من عملى ، إما جالسًا فى الشرفة يشرب القهوة ، التى تعدها أختى له ، فى كل مساء كعادته ، أو يقرأ كتيبًا ، أو يتصفح صحيفة ما ، أو أنى سأجده مستلقيًا على سريره ، عند اشتداد وطأة المرض عليه ، أو جالسًا على مقعده داخل البهو المستطيل ، محملقًا فى التلفاز متتبعًا لأحداث مسلسل تمثيلى ما .

لقد كنت ـ فى نيتى ـ مصرة ، قبل قليل من وفاته ، أنه لا معدى لى من تقديم طلب لرؤسائى ، لنقل مقر عملى إلى قرية (أم الجمال) ، قرية أبى الجميلة ، ومن ثم أصطحبه مع أختى إلى هناك ، حيث الهواء النقى المفيد لرئتيه المريضتين ، أما أخى ـ بما أنه يرفض رفضًا باتًا أى فكرة تبعده عن المدينة ـ فقد كان من المقرر فى نفسى ، أن نتركه بمفرده فى بيتنا هذا ، وكنت ناقشت أبى أن ننزل له عنه ، كى يكون فى مقدوره الزواج فيه ، متى أراد ذلك ، وكان أبى فرحًا وممتنًا للفكرة التى أبديتها له ، ولكن ها هى ذى المنية عاجلت أبى ، فحالت بينى وبين مشروعى ذاك .

رحل سريعًا ، تاركًا لى عبئًا ينوء به كاهلى ، عبء رعاية أختى وحمايتها ، وما كان أحوجنى آنذاك إلى الرعاية والحماية ،

وأنا بعد لم أكد أتخطى العشرين من عمرى ، إلا قليلاً ، وليت الأمر آل إلى ذلك فحسب ، لقد كان الواجب يحتم علىّ إعادتها إلى ذويها ، بعد زوال المعوقات من أمامها ، أجل كان يتعين علىّ ذلك ، حتى لو لم يقدم أخى ذلك الاقتراح .

ولا أُخفى سرًا ، كى لا ينوء ضميرى مثقلاً به ، فأقول إنى حاولت مرات عديدة ، تجنب التفكير فى موضوع إعادتها إلى أهلها ، فكنت أقسر نفسى على التناسى على الرغم من صرخات ضميرى ، التى كانت تقلقنى فى أشد الليالى حلكة ، فتجعلنى أجلس على سريرى أنظر إليها ، وهى تغط فى نومها الهادئ ، خالية البال مما كان يعتمل داخل نفسى من صراع حولها ، خوفًا مما قد يطرأ على مجرى حياتها من تغير ، قد لا يكون فى مصلحتها ، فيما لو أقدمت على إنجاز أرى أنه لابد مما ليس منه بد ، فيما بدا لى وقتها ، وكان ينتابنى الفزع ، من مجرّد تخيلى السوء الذى سوف يصيبها ، فيما لو لم يكن فى ميسورى حمايتها على المدى الطويل ، وعندنا الخطر الداهم ، القابع فى منزلنا ، متمثلاً فى أخى الذى لو صمد يومًا ، أو عامًا كاملاً ، قد لا يصمد أكثر من ذلك ، ما يدرينى أنه لن يخبرها بالحقيقة الكاملة ، ولكن بطريقة فجة تصدمها ، وكان من جراء ذلك أن حيرتى كانت شديدة .

وفكّرت أنه لا معدى لى من المبادرة إلى السرعة فى مصارحتها قبله ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولكن هل فى ميسورى إعادتها

Looloo
www.looloolibrary.com

إلى أهلها حقًا ، وأنا حتى لا أعرف تلمس الطريق إليهم ، ولا أدرى من أين تكون البداية ؟

ولبثت حينا تتقاذفنى أمواج من القلق ، قاذفة بى إلى صراع شديد . ثم خطر لى بإلحاح أشد ، أن البدء بمصارحتها ما يتعين علىَّ القيام به ، بغض النظر عما إذا كانت هذه هى الطريقة المثلى أم لا . ولكن ما إن خطر لى هذا الخاطر حتى عدت متشككة من جديد .

لو فعلت ، ثم لا يكون فى وسعى إعادتها إلى ذويها ، ألا يتعمق لديها الشعور بالغربة ، وعدم الانتماء إلينا ، فتبتعد روحها ، وتعيش أبد عمرها وهى نائية عنا ؟

إن البحث عن ذويها هو ما يجب أن تكون عليه البداية ، وإطلاعها على الحقيقة يأتى بعد الوصول إليه ، ولكن كيف تلمس الطريق إلى ذلك ، وأنا لا أعرف أى شىء عنهم ؟

إنها لمعضلة حقًا ، أقر بعجزى عن إيجاد معادلة تقودنى إلى الحل الأمثل .

وهكذا ، أرجأت التفكير فى الموضوع إلى أجل غير مسمى .

ومضت سنة على وفاة والدى ، وقد نسيت موضوع أختى ، بصورة حقيقية لا رياء فيها ، بعد أن وطنت النفس منذ العام المنصرم على الرضا بالأمر الواقع ، وعدم مجاوزته إلى محاولة ما هو مستحيل ، كما تراءى لى فى وقته .

وهكذا فقد اتخذت قرارًا ، بأن لا أكون البادئة فى نبش ماضى أختى ، فتركت الأمر برمته ، إلى ما تسفر عنه الأيام ، من تلقاء نفسها ، وقد قلت لنفسى حينذاك إنها سعيدة معى ، فلأترك الأمر إلى ما يقيض له ، فلماذا أعرضها إلى هزة عصبية ، قد تطيح بها فيما لو فشلت فى العثور على ذويها ، ثم ما يدرينى ، ألا تكون جدتها قد ماتت ، فى خلال هذه التسعة أعوام الماضية ، منذ أتت إلينا للبحث عنها ، فهذا احتمال يتعين على ألا أهمله ، وإذا كانت الجدة متوفاة ، فلا مجال إطلاقًا إلى أن يتعرفها أحد ، وعندئذ أكون المتسببة فى إيذائها ، بدلاً من تقديم العون لها ، فيما يفيد فى حياتها المقبلة .

وازددت عزمًا على أن لا تكون البداية منى ، إنى أحبها كأخت حقيقية لى ، وسوف أقوم على رعايتها إلى أن تتزوج ، وسوف أزوجها قبلى ، كى أضمن حمايتها وأطمئن عليها ، وبذا قد أكون أفلحت فى ترتيب مصيرها .

* * *

فى العادة ، أنه ليس كل ما يخطط له المرء ، أو يأمله يتحقق له كما يريد ، ولكن فيما يبدو أنه قد يقع ما تأمله بشدة ، لقد كان الله مطلعًا على سريرتى فى تلك اللحظة ، التى كانت تراودنى بها تلك الأفكار ، إذ ما لبثت أن تحققت تلك الأمنية ، وإن كانت على البعد من الأيام ، ولكن على الرغم من أنها

Looloo
www.looloolibrary.com

ليست على ما كنت أرغب به وأشتهى، إذ قد جعلها تتزوج قبلى، غير أنه أى زواج كان ؟

ولكن لنرجئ الأمور الآن ، ولندعها إلى ما يرتهن بها من أحداث . أو لندعها تسير فى أعنتها ، حسب مسارها الطبيعى ، دون محاولة القفز على تيار الزمن ، سابقين الأحداث ، ويكفى أن أقول إننا نتدبر أمرًا ، والقدر فى شأنه لا يقيم وزنًا إلى تدابيرنا ولو بمقدار أنملة . لقد حسم الأمر فجأة بشأن عودة أختى إلى ذويها ، فى منتصف العام الثانى لوفاة أبى .

بدأ الأمر فى أوله ، بانعكاس انطباع أولى حين ذاك ، لا يكاد يلحظ ، فى بعض التصرفات من أخى ، لو لم آخذ نفسى بشدة الحذر . لقد خيل لى أن نظرات أخى جائعة إلى جسد أختى اللدن ، الذى أتم استدارته ، وهى على مشارف العشرين من عمرها ، وقد ركز بنيانه كقد ممشوق ، وصدر ناهد وخصر نحيل ، فى صحبة بشرة بيضاء وضاءة ، لقد اتقدت وجنتاها بالحمرة القانية ، مع تلكما الشفتين اللتين أخذتا صبغة الكرز الناضج ، وقد لمع بياض جبينها ، وبدت نصاعة جيدها أكثر إشراقة فى أى من سنى عمرها ، ثم ذلك البريق الأخاذ فى عينيها اللوزيتين فى لمعان متوهج ، وقد اشرأبت رقبتها واستطالت كرقبة زرافة فتية ، وكانت فى ذلك أقرب ما تكون شبهًا برقبة جدتها السيدة (سارة) ، عندما رأيتها للمرة الأولى ، بالإضافة إلى ذلك اللون الذى كان يكسو كامل جسدها ، فيبدو

كبياض البيض المسلوق ، كل هذا مع ذلك الشعر البنى الأثيث ، الذى كان يتوج هامتها والذى جعلته أشقر كلون الذهب بما تلقى فوقه من مواد صابغة ، فيما تلا من أيامها التى شطت بها . ولكن لندع ذلك إلى حينه أيضًا .

فكانت مع تلك الملامح التى تكسو وجهها ، ومظهرها العام آية من آيات الجمال الأخاذ . إنها لا تشبهنا كعائلة لها قطعًا ، فنحن جميعًا سود الشعر ، ذوو ألوان تميل إلى لون القمح قبل سحقه ، إضافة إلى ما فى ملامحنا من اختلاف بين .

أما هى فبعد أن تخلصت تمامًا ، من كل ما كان يربطها (بعائكة) ، الفتاة الصغيرة الخائفة المرعوبة ، والمهزومة الشخصية المرتجّة الكيان . صارت فتاة ذات إهاب لدن ، تتيه بجمالها دلالاً ، وتمضى وقتًا لا بأس به تتأمله أمام المرآة . الأمر الذى ما كانت تجرؤ على فعله ، لو كانت والدتى لا تزال على قيد الحياة .

ولذا فقد كانت تلك الأمارات المعبرة عن الوله الشديد ، التى أخذت تظهر على سيماء أخى ، وهو يرنو إليها طويلاً فى أثناء غدوها وإيابها داخل المنزل تكاد تقصم ظهرى خوفًا عليها وخشية ، وأول بادرة لردة الفعل التى اعترتنى ، من جراء تلك الملاحظات ، جعلتنى أوصى أختى بألا تفتح الباب الخارجى لأى كائن ، خصوصًا لو كان الطارق أخى ، فيما لو عاد بغير ميعاد خروجه من العمل .

Looloo
www.looloolibrary.com

وكان ذلك الموعد فى الخامسة مساء ، أى بعد ميعاد عودتى بثلاث ساعات ، وكان من جراء ذلك الخوف أن ابتعت (درباسًا) لغلق الباب الخارجى من الداخل ، تحسبًا لأى خطر ، كأن يكون مفتاح الباب الخارجى مع أخى .

وشدّدت عليها أن لاتدعه دون إغلاق ، مذكرة إياها بما كان منه فى السابق ، وأنه قد يعود إلى دناءة طبعه ، خصوصًا وليس لديه ما يخشى إطالته بالكدر بعد وفاة والدى ، فهو حتمًا لن يردعه تصور مدى ما سوف يصيبنا من إيذاء المشاعر ، فمحبته لنا لن تصل إلى ما كان يكنه لوالدى . وقلت لها أيضًا : إنه يتعين علينا أخذ الاحتياط ، كى لا يتم له إنفاذ ما يرغب به ، أجل يتعين علينا الحذر حتى وإن كان ماقد نفكر به لايعدو مجرّد تصور خيالى لا يستند إلى احتمالية التحقيق .

لقد كان المقطع الأخير من حديثى بغرض إزالة بوادر الفزع الذى رأيت أن نظراتها تكاد تشرع ناطقة بها ، وفوق ذلك أنا نفسى لم أكن أكيدة مما اعترانى من شك .

كانت أختى منصاعة ، منذ طفولتها الباكرة إلى الطاعة ، فلم يكن أمامها إلا أن تطيع الأوامر ، التى تصدر إليها من أى كائن ، وكان ذلك يتم قسرًا عنها أو برحابة صدر منها .

غير أن طاعتها لى ليست من ذلك النوع الخانع ، النابع من شدّة الخوف ، كما كانت حالتها مع والدتى رحمها اللّه ، لقد كانت تثق بى .

بيد أن ما كان يزعجنى ، ويزيد فى توترى عدم معرفة المدى ، الذى يستدعى منى فرض ذلك الحصار عليها ، وفرض على نفسى تلك المراقبة الصارمة ، على كل حركة وسكنة تبدر من أخى ، إنه يشاركنا المنزل ، ومن العسير على تحسب لكل خطوة يخطوها داخله ، ومعرفة كل هدف وراء كل تصرف يبدر منه ، وكنت فى حالة تساؤل دائمة ، أيكون فى مقدورى حمايتها حقًا ؟

وفيما أنا تحت وطأة هذا الثقل من الهموم ، التى يكاد ينوء بها كاهلى ، على شدّة ما فى قدرتى على التحمل ، حسم الأمر فجأة كما قلت ، وعند ذلك آمنت بصدق الحدس لدىّ ، إذ إنه فى هذه الأيام القلائل التى اتخذت بها تلك الاحترازات الوقائية ، فأوصيت أختى بتلك الوصايا ، رأيت أخى فى أثناء عودته فى مساء أحد الأيام ، يتأبط مظروفًا تحت إبطه ، ويحرص على أن لا أراه .

وبما أنى كنت فى الفترة الأخيرة شديدة التركيز ، على كل تحركاته ، لذا لم يفتنى ذلك الحرص ، ومع هذا فقد كان ذهنى بعيدًا عما سأجده فى داخل ذلك المظروف ، ولكن بدافع من زيادة الحرص ، غافلته فى اليوم التالى ، وتطلعت إلى ما فى داخله ، وقد فوجئت مفاجأة شديدة أصابتنى منها موجة ذعر داهمة ، عندما فكرت بما يهدف إليه ، لقد وجدت أن ما يحتويه ذلك المظروف لا يعدو كونه رواية (مذكرات خادم) .

Looloo
www.looloolibrary.com

لست أدرى ، كيفية حصوله على ذلك الكتاب ، ومن أين أمكنه الإتيان به مع ندرة نسخه ، ولكنى بت على دراية بما ينتويه ، إذن فقد قر قراره على خوض المعترك مع أختى ، وحرضه على أن لا أرى ما معه ، يدلل بوضوح تام على ما فى نيته القيام به .

إذن سيقدم على مكاشفتها ، ليبرهن لها على أنها ليست أختًا له .

وعندئذ قررت أنا بدورى أن أسبقه إلى ذلك ، قبل أن تتهيأ له الفرصة .

ومما زادنى عزمًا ، ظننى أن رؤيتى للكتاب مرة أخرى ، جاءت بمثابة دعوة تدعونى إلى البدء بإعادة الفتاة إلى ذويها ، بعد زوال المعوقات من أمامها ، وقد أطلت فى تجاهل ذلك الأمر ، مما قد يضر بمصلحة الفتاة ولست أدرى ما إذا كان تفسيرى ذاك حقيقة للأمر ، أم أنه محض خيال ملتهب ، أملاه شدة القلق الذى كان يتلبسنى خوفًا على أختى .

على أية حال ، فقد آمنت فى ذلك الوقت بهذا المنطق ، الذى حدا بى إلى شدة الرعب الذى اعترانى على المسكينة ، مع خوفى من عدم قدرتى على حمايتها ، ومن ثم فقد عزمت بصورة أكيدة على السعى إلى إعادتها إلى ذويها ، وليكن ما يكون من شأن النجاح فى مسعاى من عدمه .

حتى إنى قد فكّرت أن من الأفضل لأختى علمها بعدم انتمائها لنا ، الأمر الذى من شأنه أن يوجد لها تفسيرًا لكل دناءة أخى التى سوف يحاول ارتكابها ، أو تلك التى ارتكبها ، فهذا أدعى إلى صيانة ما تؤمن به من قيم من التعرض إلى أى اختلال أو تردّ .

وهكذا كانت البداية .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ١٤ ـ

قلت لأمينة المكتبة فى المدرسة ، التى أعمل بها :

ـ أريد أن أستعير هذا الكتاب .

وأشرت إلى رواية (مذكرات خادم) على الرف .

فردت بتعجب :

ـ لقد قرأته منذ عامين تقريبًا ، أذكر شدّة لهفتك عليه عندما رأيته أول مرة ، هل نسيت ؟

وضحكت وهى تتابع :

ـ فى المرتين اللتين تدخلين فيهما المكتبة ، تطلبين استعارة هذه الرواية .

كنت فى الحقيقة لم تطأ قدمى أعتاب مكتبة المدرسة ، سوى فى هاتين المرتين ، لأن ممارسة تدريس مادة الرياضيات لاتدع لى مقدار دقائق من الفراغ ، مادامت أنا فى المدرسة ، فأنا إما أن أقوم بالتدريس ، أو التصحيح ، أو الإعداد لحصص اليوم التالى .

فقلت ردًا عليها :

ـ لم أنس ، ولكن أريد قراءتها مرة أخرى .

وعندما دخلت بها إلى المنزل ظهرًا ، ضحكت أختى بمجرد أن رأتها وعلقت :

ـ جاءت بالصداع مرة أخرى ، ما حكاية هذا الكتاب ، ألم تقرئيه منذ فترة ؟ فلماذا أنت مهتمة به هكذا ؟

فقلت :

ـ لأنه يحوى موضوعًا يتعلق بنا .

دهشت ، وفتحت عينيها على سعتهما ، وقد توقفت عن نفض الغبار عن مقاعد الصالة وهى لا تزال ممسكة بمقشة الخوص من طرفها ، ثم قالت :

ـ أى موضوع يتعلق بنا ؟ إن مؤلفه لا ينتمى إلى بلدنا ، ثم إنه يقول إنه كان يعيش فى دولة بعيدة عن بلده ، فى أثناء تأليفه لهذه الرواية ، وأين نحن منها ؟

فتنهدت وأجبتها بجد أكثر :

ـ ليس مهمًا أين يعيش مؤلف هذه الرواية ، إن موضوعها يتعلق بنا ، أو على الأقل فى جزء منها ، ثم لا تنسى أن أبى كان يعمل فى نفس الدولة التى عاش بها ذلك الخادم فترة من عمره ، وكان أبى بالإضافة إلى ذلك يعمل مع مؤلف هذه الرواية ، وفى نفس المؤسسة التجارية ، التى تملكها تلك المرأة المدعوة (سارة) بطلة رواية (مذكرات خادم) ، وهذه حقيقة لن أستمر فى إخفائها طويلاً ، ونحن الثلاثة قد ولدنا

Looloo
www.looloolibrary.com

هناك ، وكانت والدتى تزوجت من أبى هناك ، اقرئيها مرة أخرى ، ولكن قبل ذلك ، دعينا نتناول غداءنا أولاً ، فثمة حديث طويل سوف يعقب ذلك ، وربما لا نستطيع تناول شىء بعده .

ودفعت بالكتاب إليها ، فردت يدى القابضة عليه ، وهى تقول :

ـ لقد مللته ، لا أريد قراءته ، أخبرينى أنت ماذا به يتعلق بنا ، عندما قرأته فى المرة الأولى لم تذكرى أن أبى يعرف مؤلفه ، ولم تذكرى أية علاقة لنا بهذه الرواية .

كانت أمعائى تتلوى من الجوع لاقتراب موعد الغداء ، ولذا أجبت :

ـ حسنًا ، سوف أقول لك كل ما يتعلق بنا ، فى هذه الرواية ، وسوف نقرؤها مع بعضنا ، ولكن بعد تناول الغداء ، فأنا جائعة .

فردت بضيق :

ـ دعك من الغداء الآن ، أتظنين أنى لم أفهم فحوى هذه الرواية ، أتريدين أن أقص عليك حكايتها ، على الرغم من مضى تلك المدة على قراءتى لها ، لقد ركزت أحداثها فى ذهنى ، لما رأيت من شدّة اهتمامكم بها حينذاك . الآن فقط فهمت ، إذن ، لقد كان ذلك الاهتمام نابعًا من كون أبى يعرف مؤلفها ، ولكن لماذا لم تذكرى لى ذلك ؟ لماذا لم يذكر لى أبى ذلك ؟ لقد كنتما دائمًا تعتبرانى غير كفء لمشاركتكما أية معرفة ، لماذا ؟

فقلت مسرعة :

ـ كلا ، ليس الأمر كما تظنين ، حسنًا لا لزوم لأن تقرئيها . فى الحقيقة لست أدرى لماذا جلبتها معى ، لقد ظننت أنها تسهل علىّ الأمر .

فرددت قولى :

ـ تسهل عليك الأمر ؟ أى أمر ؟

فقلت :

ـ حسنًا ، لنتناول الغداء ، أولاً .

فقالت معترضة بعناد أكبر وقد حفز فضولها :

ـ كلا ، لن نطعم حتى أعرف ماذا يخصنا ، وأى أمر من أجله أتيت بهذا الكتاب لكى يسهل عليك ، لقد زدتنى شوقًا إلى معرفة ذلك الأمر .

ثم ألقت من يدها أداة التنفيض على الأرض ، وأمسكت بيدى تقودنى إلى المقعد الكبير ، الذى كان يستلقى عليه أبى (رحمه الله) ، فى أثناء تواجده فى البهو ، فانقدت معها إلى الجلوس على المقعد الطويل ، وجلست هى مولية وجهها قبالتى ، وطاوية قدميها فى تربيعتها الخاصة ، وكأنها كانت تجلس على الأرض ، وقد أسندت ظهرها إلى ذراع المقعد الخشبية ، فعلت ذلك بسرعة وتحفز ، وهى تنتصب بظهرها ، وتشرئب بعنقها الطويل ، والدهشة تغلف ملامحها .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت :

ـ حسنًا ، سوف أقص عليك قصة ما .

فقالت بتشوف :

ـ هه ، ما هى ؟

قلت :

ـ أتذكرين ، عندما وجهت لى ذلك السؤال الغريب ، قبل ذهابنا إلى قرية (أم الجمال) لزيارة أبى ، عن كونك ابنة لأمى حقًا .

فأجابت ، وقد شدّ انتباهها تمامًا :

ـ كلا ، لا أذكر أنى وجهت إليك سؤالاً مثل هذا ، ولكن شكوكًا غير جادة كانت تراودنى ، حول ما إذا كنت ابنة لأمى ، وكانت تنتابنى عندما أتعرض إلى قسوتها ، ليصفح عنها الله .

كان من الواضح لى ، أن جملتها الأخيرة كانت لترضيتى ، ثم استتبعت :

ـ ولكن لماذا تريدين منى أن أتذكّر ؟ هل المعنى من ذلك أن تقولى إن أمى ليست أمى ، وأنها زوجة أبى ، إذا كان ذلك ، فأين أمى الحقيقية ، هل ماتت ؟

وأردفت بعد برهة وجيزة :

ـ هل أنا أخت غير شقيقة لك ؟

قلت فى نفسى ، ليت الأمر كان كذلك ، وبقيت صامتة لا أعرف كيف أجيب على ذلك الزخم من التساؤلات ، دون أن أسبب لها ألماً ، وبعسر قررت خوض المعترك بكل آلامه .

فقلت أخيرًا :

ـ ولكنى أذكر ذلك السؤال منك ، وأذكر أيضًا أنه أثار فى ذهنى أطيافًا شبحية لحادثة ما ، تعرضنا لها ، عندما كنت فى السادسة من عمرى تقريبًا ، وكنت أنت فى الأشهر الأولى من عامك الأول ، أجل كان لك من العمر قرابة الأربع من الشهور . بيد أنى عجزت عن تذكر تلك الحادثة حين ذاك ، وبقيت طيلة يومى بعد سؤالك ذاك أعصر ذهنى فى محاولة لتذكرها ، وفى النهاية عجزت ، حتى قرأت هذه المذكرات ، فأوضحت كل ما كان غامضًا لى .

واستطردت :

ـ وربما لم تكن تلك (المذكرات) لتدلنى إلى ما تشير إليه من تلك الحادثة ، التى عصرت ذهنى طويلاً من أجل تذكرها ، لو لم تأت امرأة غريبة إلى منزلنا هذا ، منذ ما يقرب من التسعة أعوام مضت ، ومن سوء الحظ ، أنك كنت عند أبى فى قرية (أم الجمال) ، فى أول زيارة لك لقريته .

أتذكرين تلك الزيارة :

فردت بآلية :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ أجل أذكر أنى ذهبت إلى هناك ، وكان مقررًا أن أبقى بها ، وأن ألتحق بالمدرسة ، لو لم تأت أمى وتعيدنى إلى هنا قسرًا عنى وعنكم ، وماذا بعد ؟ ما شأن تلك المرأة ؟ وما علاقتها بالمذكرات ، وما علاقتى أنا بكل هذا ؟

قلت :

ـ تلك المرأة الغريبة التى أتت إلى منزلنا ، فى تلك الأثناء ، كانت تريد أن تسأل أبى عن حفيدتها ، التى ضاعت منها فى أثناء تلك الحادثة ، التى كنت أحاول تذكرها فلا أستطيع ، لقد قالت لنا تلك المرأة ، إنها علمت بأن حفيدتها لدى المهندس (نبيل) ، الذى هو أبى كما تعلمين .

فقاطعتنى :

ـ وأبى أيضًا .

ولكنى تجاهلت وأكملت :

ـ إنها أى المرأة الغريبة ، علمت بهذا الأمر من (مذكرات خادم) ، ذلك الخادم الذى كان يعمل لديها ، ثم تزوجها .

وسكت لبرهة ، لكى أرى تأثير ما قلته على أختى ، ولكنها ظلت صامتة ، فى انشداه كامل ، فلم تنبس منتظرة التتمة .

فاستأنفت :

ـ والحادثة التى مرت بى ، وكان طيفها يراودنى ، موجودة فى هذا الكتاب ، ضمن أحداث تلك المذكرات ، التى كتبت على شكل رواية .

قالت بتحفز :

ـ لم أعد أفهم ، ماذا تريدين أن تقولى ؟

ثم خطفت الكتاب من بين يدى ، وأخذت فى تصفحه فى عجالة ، وهى تردد :

ـ أين الحادثة المشابهة ، لما مرت بك ؟

واستمرت تتحدث ، وهى تقلب الصفحات بسرعة :

ـ كنت مهتمة بهذا الكتاب ، كلكم كنتم مهتمين به ، حتى أبى رحمه الله ، أين الحادثة المشابهة ، لقد ظننت نفسى بلهاء كما تصفنى والدتى ، وأنى لا أفهم ما تفهمون .

فقلت بأناة :

ـ أصغى لى جيدًا ، إن الحادثة الموجودة فى الكتاب ، هى الحادثة بعينها ، التى مررت بها ، ولم أقل إنها حادثة مشابهة .

فقالت متشككة :

ـ ما هذا الهراء يا (سعاد) ، كيف تعرفين ذلك الخادم ، أتعرفينه ؟ من أين لك تلك المعرفة به ، كى يكتب عنك ؟

فأجبت :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ كلا ، لا أعرفه ، ولا هو يعرفنى ، ولم أره ولا هو رآنى ، وفوق ذلك ، كان عمرى لا يزيد على الستة أعوام حين ذاك ، وعمرك بضعة أشهر لا غير ، ولم أقل إنه كتب عنى ، ولكنه كتب عن الحادثة ، التى مررنا بها جميعًا .

فصرخت نافذة الصبر :

ـ عجبًا ، أهى فزورة ؟

رددت :

ـ وهى ليست فزورة أيضًا ، سأريك الصفحات ، وأدلك أين أنا ، وأين أخى ، وأين أمى وأبى . وسوف ترين بنفسك أين أنت ، وأين تلك المرأة الغريبة ، التى زارتنا تبحث عن حفيدتها .

ثم قرأت معها الصفحات القليلة ، التى تشير إلى تلك الحادثة المؤلمة ، فسحبت منى الكتاب فطبقته ، وبقيت صامتة فترة وجيزة لا تريم ، ثم عاودت فتحه ، وعاودت القراءة من جديد ، وأنا أنظر إليها صامتة ، وقلبى يخفق بشدّة خوفًا عليها من هول المفاجأة .

قالت أخيرًا ، وهى تطبق الكتاب بجمود :

ـ أين أنا ؟ إنى أكاد لا أصدق ، هل أنا ابنة تلك المرأة القتيل ؟! وذلك الرجل المنكب على وجهه ، فاقدًا للحياة ؟

واستأنفت بألم خلته يعتصر قلبى قبل قلبها . قالت :

ـ إذن فأنت لست بأخت لى ، وأبى ليس بأبى ، وأمى ليست بأمى ، لقد كان حدسى صائبًا نحوها ، ولكنه لم يكن حدسًا واضحًا ، لم أبلغ الحد الكامل من تصور الحقائق ، لأنى بلهاء كما كانت تقول لى دائمًا . أجل لم يقدنى حدسى إلى هذا المنحى من الظن . كان كل ما فكّرت به أنه ربما أمى ليست بأمى ، وأنها قد تكون زوجة لأبى لا غير . لقد فهمت الآن أمورًا أخرى .

ونكست رأسها كما لو كانت تشعر بألم لاطاقة لها به ، إذ أخذت تعتصر صدغيها بين راحتى يديها بشدّة ، ثم قالت بصوت مخنوق :

ـ كان أخى يعلم بأنى لست أختًا له عندما حاول الاعتداء على . أجل لقد جاءت محاولته بعد قراءته لهذه (المذكرات) المشئومة . أجل كنت وحدى البلهاء بينكم ، البلهاء التى لا تدرى عن حالها ، فما بالك بحال الآخرين .

وانسابت دموعها كسحابة منهمرة ، وقد انخرطت فى بكاء عاصف وشهيق ، خلته يقطع نياط قلبها ، وتابعت من خلال نشيجها :

ـ أنا الوحيدة التى لا تعرف ، أنا البلهاء حقًا ، لماذا لم يخبرنى أحد ؟ حتى أبى ، ذلك الأب الذى كان عطوفًا رحيمًا دومًا ، لم أشك ولو للحظة ، أنه ليس أبًا لى ، لماذا أخفى عنى الحقيقة ، وأنت أختى ، إنى أعلم كم أنت مغرمة بى ، لا تطيقى للألم أن يقترب منى قيد أنملة ، لما لم تخبرينى ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت ، وأنا أربت على ذراعها بحنو بالغ :

ـ لم نكن لنسمح لأنفسنا ، أن نجعل ولو لجزء يسير من مشاعرك ، أن ينأى بك بعيدًا عنا ، لم نرغب إلا أن تكون أحاسيسك لصيقة بنا ، أردناك ابنة وأختًا ، بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ، وأنت مازلت كذلك ، ومازلت أختًا لى فى التربية ، وفى القانون أيضًا ، ذلك القانون الذى وقف حجر عثرة ، لكل محاولة لإعادتك إلى ذويك ، ليس لأننا لانريد بقاءك معنا وبيننا ، وإنما لأنه كان من حقك ومازال ، أن تعرفى من أنت ، خصوصًا بعد معرفتنا بجدتك ، وعن رغبتها فى إيجادك ، ولكن كما ذكرت لك ، إن ذلك القانون الذى انتصب فى مواجهتنا بصرامة لا تعرف الرحمة كان السبب .

أما الآن وبعد زوال الخطر عن أبى بعد وفاته ، فقد بات من حقك أن تعرفى أهلك الذين أنجبوك ، قررت ذلك على الرغم من الصراع الذى قام بداخلى يتقاذفنى خوفًا من فقدك ، لقد ترددت كثيرًا ، قبل القيام بهذه المصارحة ، لقد مر أكثر من عام ، وأنا فى عذاب نفسى شديد ، يجاذبنى سلبًا وإيجابًا .

كان الصراع فى داخلى يؤرقنى ، فيما إذا كان يتعين على أن أصمت بقية عمرى ، أو أن ما يجب على هو التكلم ، وكانت مصلحتك وحدها ، التى كانت فى الميزان ، عند مناقشة هذا الأمر مع نفسى ، ومع كل خوفى من فقدك ، فقد انتصرت على نفسى وناصرت حقك فى المعرفة أخيرًا ، وجعلت ذلك الحق

فوق كل اعتبار لمشاعرى ، وكان لابد لحقك أن ينتصر ، فى أى صراع نفسى أتعرض له من أجلك ، فكرت أنه لابد أن تعرفى من أنت ، وأنه لابد من أن تعودى إلى ذويك .

فقالت جزعة :

ـ ذوى ؟ ومن هم ذوى ؟ أمى وقد ماتت بيد الغزاة ، وأبى كذلك ، بحسب ما ترويه هذه المذكرات ، وجدتى كانت مجنونة عندما فقدتنى ، وعلى الرغم من أنها ليست كذلك الآن ، وقد جاءت للبحث عنى ، كما تقولين ، إلا أنه ماذا نعرف عن حالتها الصحية ؟ هذا إن لم تكن ماتت هى الأخرى ، خلال هذه المدة الطويلة . أين أذهب ، أين أذهب ؟

فقلت وأنا أزحف على المقعد لكى أطوقها :

ـ لم يطلب منك الذهاب إلى أى مكان ، فهذا بيتك ، وأنت أختى ، وستبقين كذلك إلى الأبد ، حتى وإن وجدنا ذويك ، وإنما عزمت على إخبارك بالحقيقة ، لأنى لا أريد أن تظلمى ، بعدم معرفة من أنت ، أجل يجب أن تعرفى من أنت ، لأن ذلك من حقك ، ثم إن جدتك حتى قبل تسعة أعوام كانت حية ترزق ، وهى فى صحة جيدة ، بعد أن استعادت ذاكرتها بعد تعرضها لصدمة مقتل ابنتها ـ أمك ـ لم تكن جدتك مجنونة كما تقدرين ، لقد كانت فاقدة للذاكرة فحسب ، وقد استعادت صحتها ، كما تروى هذه المذكرات ، وكما رأيتها أنا ، ثم إنها ثرية جدًا ، كأى فرد فى تلك البلاد الغنية ، كما ذكر أبى فى أحاديثه عنها ،

Looloo
www.looloolibrary.com

وقد جاءت جدتك تبحث عنك ، ولكن لسوء الحظ لم تكونى فى المنزل آنذاك ، مما ساعد على التعتيم على جدتك ، كى لا تراك ، لقد كنت فى القرية عند أبى ، ولم يكن من الميسور إعادتك إلى ذويك فى ذلك الوقت ، قد ترين أن فى ذلك أنانية شديدة من جانبنا ، إلا أن أبى كان مريضًا جدًا كما تعرفين ، قبل أن نكتشف أهلك ، وإذا هو سعى إلى إعادتك إلى ذويك لابد أنه سوف يتعرض إلى الخطر والمساءلة ، وقد يدخل السجن لمدة لا تقل عن خمسة عشر عامًا ، لقد نسبك إلى نفسه زورًا فى كافة الأوراق المتعلقة بك ، وهو فى حميا حرصه على سلامتك .

أما الآن فلا يوجد ما نخشاه ، وقد أضحى الواجب يحتم علينا إخبارك ، وسوف نبحث عن جدتك معًا ، فإن كانت عائشة ، ترين أنت بنفسك حين ذاك ما يتوجب عليك اتخاذه من قرار ، أجل ، أنت وحدك من يتخذ القرار حين ذاك ، ولكن بقى شىء واحد أريد منك أن تثقى به ، أنى لن أتركك بمفردك ، فأين ما تكونين سأكون معك ، وأين ما تعيشين سأعيش معك ، هنا فى بلدك الذى رباك ، أو فى بلدك الآخر ، الذى أنجبك ، وأنه لن يفرق بيننا إلا الموت .

وكنت أقول هذا غافلة عما يخطه القدر لكلتينا ، فما كنت قط ، أخمن آنذاك ، أن الذى سيفرق بيننا ، لهو أقوى من الموت ، إن الموت وإن فرق بين جسدينا ، إلا أنه لن ينال روح من كانت عائشة منا بعد الأخرى . بيد أن الذى فرق بيننا كان (رجلاً) .

بعد فترة من البكاء العاصف ، الذى انتابها وقد نال العناء منها أشد منال ، هدها التعب ، فأسندت رأسها إلى ظهر المقعد ، وأغمضت عينيها ، ثم شملها الهدوء ، ثم قالت فى ضعف شديد ، ضعف من استنفد كل قواه :

ـ لو أنكم أخبرتمونى ، حتمًا سأبقى على نسبى إلى أبى ، إذ يستحيل على تغييره ، وأنا أرى فيه إضرارًا به ، بعد كل هذه التربية ، التى ربانى إياها ، وبعد كل تلك المحبة التى أشعرنى بها ، وذلك الحنان الدافق الذى أغدقه على ، ولكنت فى الوقت ذاته ، أرى جدتى وأعرف أهلى .

فقلت معتذرة :

ـ من ناحيتك لا تعوزنا الثقة بك ، كلنا نعرف مسبقًا ، بأنك لن تتصرفى بما يجلب الضرر إلى أبى . ولكن لسنا واثقين من أمر جدتك ، ولا نعرف كيفية التصرف الذى ستقدم عليه ، هل سنكتفى برؤيتها لك ، ورؤيتك لها دون محاولة لاستعادة نسبك إليها ، وإلى أمك وأبيك الحقيقيين .

ثم لا تنسى ، أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، مهما حاولنا استعجالها ، وأن تبدل الأحوال ، شىء قدرى لا مفر منه ، وأظن أن الأوان قد حان ، إلى أن تعرفى جدتك وذويك .

هأنذا أتملص من مسئولية ما كان يجب على ، وعلى والدىّ من قبلى ، بأن أرمى كل شىء على القدر ، كأى إنسان بسيط

Looloo
www.looloolibrary.com

أو مراوغ ، وكان الأحرى بى أن أعترف بالدوافع الأنانية التى خلصت بنا إلى ذلك الموقف منها ، ولكنى خشيت أن لا تفهمنى .

فقالت بلهجة من استنفد طاقته ، وأبان الضعف مدى ما تعانيه من إرهاق ، بسبب تلك المفاجأة ، التى ما كانت تتوجسها أبدًا :

ـ كيف ؟ ونحن لا نعرف مكانها ، هل تعرفينه ؟

أجبت :

ـ كلا ، لا أعرفه ، ولكن فكّرت ، أنه ربما نستدل عليه من دار النشر التى أصدرت تلك المذكرات ، قد نستطيع الاستدلال على صديق العائلة ، الذى قام بنشرها .

وكأنها كانت ترغب برؤية ذويها حالاً ، فقد رفعت رأسها تنظر إلى وجهى ، وهى تقول بجزع :

ـ ولكنه مات ، كما تقول المذكرات .

فقلت أطمئنها :

ـ كلا .. إن الذى مات ، هو مؤلفها ، أما ذلك الصديق الذى فيما يبدو أنه كان صديقًا لجدك لأمك ، هو من قام بنشرها ، وقد يكون حيًّا يرزق ، أو فى أتعس الأحوال نستدل على أحد من ذويه ، وعن طريقهم يمكن الاستدلال على جدتك .

فاعترضت متخوفة :

ـ إن تاريخ النشر قديم ، لا يقل عن خمسة عشر عامًا .

فقلت أهدئ من روعها :

ـ اطمئنى ، دعى الأمر لى ، لا تخشى العقبات ، ولا تحملى همًّا ، سوف نصل إلى جدتك حتمًا ، لكن علينا أولاً أن نحاول الاستدلال على صديق جدك ، من دار النشر ، فهذا أول الخيط الذى نملكه الآن .

فقالت مستعجلة الأمر :

ـ لماذا لا نذهب إلى (سفارة) الدولة التى تنتمى لها تلك الجدة ونقص عليهم الحكاية ، ونطلعهم على هذه المذكرات ، ونطلب منهم إيصالنا إلى جدتى .

ضحكت على الرغم منى ، للسذاجة التى ينطوى عليها تفكير أختى المسكينة ، وأنا أرد :

ـ ليت الأمر كان بمثل هذه السهولة ، فى التعامل مع (السفارات) ، أيًّا كانت ، فأمر بهذه الجسامة يستدعى إثباتات رسمية ، وإلا وصمنا بالكذب ، ولن يصدقنا أحد ، وقد يصار إلى الظن ، أننا مجرّد فتاتين دعيتين ، جئنا لننتسب إلى دولة غنية ، وأهل أغنياء ، حيث يكثر النصابون المدعون بمثل هذه الأمور ، بعد نكبة تلك الدولة ، قبل تسعة عشر عامًا ، خاصة وليس لدينا ما يثبت أقوالنا ، سوى كتاب معروض فى المكتبات العامة والخاصة ، وكل من يقرؤه لن يتعدى ظنه فى موضوعه ، سوى أنه من وحى خيال كاتب مبدع .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقالت فى حيرة :

ـ إذن ماذا نفعل ؟

أجبت :

ـ نسعى إلى أن نصل إلى جدتك أولاً ، ونترك لها إثبات نسبك إليها ، وشهادتى وأخى ، تفيد بمثل هذا الأمر . ثم إن جدتك سوف تتعرف عليك من صورك ، وأنت بعد طفلة فى سنتك الأولى ، كان أبى رحمه الله ، كما تعرفين مولعًا بأخذ الصور لك ، وكان لا يترك شهورًا قليلة تمر ، دون أن تحظى منه بعدة صور ، وألبوم صورك حافل بقص مراحل نموك ، لعل أبى كان يحتاط لمثل هذا اليوم . ثم إن هناك وثيقة سفر والدتى ، وصورتك ملصقة بها ، وسنك لا تزيد على الأربعة شهور ، عند أول انضمامك لنا ، وأنت فى الثياب التى فقدت بها ، فمما يبدو أن والدىّ لم يتمكنا من تجهيزك بثياب أخرى ، وهم فى عجالة الهروب ذاك ، أو أن والدى تعمد أن يدعك فى تلك الصورة التى تحملها وثيقة سفر والدتى فى ثيابك تلك ، كى يسهل التعرف عليك فيما بعد ، ثم لم يستطع تتمة مخططه لتعسر الظروف . وأيضًا هناك ملامحك فأنت لا تشبهين أيًا منا ، فلا بد أنك الأقرب شبهًا بذويك ، ألم تلاحظى أنك لا تمتين بأية صلة شبه لأى منا ؟ فأنت ناصعة البياض شقراء ، ونحن ذوو لون قمحى وشعر أسود .

فقالت تقاطعنى :

ـ أجل ، لقد لاحظت ، وسألت أبى مرة عن اختلاف ملامحى عنكم ، فقال إن جدته لأمه كردية الأصل ، وأنه لذلك فيما يبدو ، أخذت ملامحى منها .

ما كدت أسمع منها هذا ، حتى كدت أستلقى من شدة القهقهة ، وكانت هذه الضحكة الوحيدة ، التى تخللت تلك الجلسة المتسمة بالجد ، والتى يشوبها بعض من الحزن ، فقلت :

ـ يا لأبى الماكر ، جدته لأمه كردية الأصل ؟ وهل فى بلدنا أكراد ، لو قال تركية الأصل لكان ذلك أقرب إلى أن يصدق ، لقد كنا تحت نير الاستعمار التركى فترة من تاريخنا ، أما كردية الأصل فهذا ما لا يهضم ، يا لأبى الماكر . أتعرفين أن جدته لأمه كانت نوبية شديدة السمرة . يا لأبى الماكر ، لقد عرف كيف يضللك ، إنه شديد المحبة لك ، لذلك جعلك تطمئنين لكل شىء ، لقد كانت والدتى تخشى خشية شديدة ، أن يكتسب أحد من أطفالها ملامح جدته لأمه ، كانت تقول لى إنها كلما حملت بأحد منا ، تدعو الله الليل مع النهار ، ألا نأخذ شيئًا من ملامح ذوى أبى . ولكنه مع ذلك لم يبتعد عن الحقيقة بالنسبة لك ، أن جدك لأبيك كردى الأصل ، لقد سمعت من أبى ذلك عندما سألته عن سبب شقرتك التى لا تشبه شقرة عرب الخليج بأية حال ، يا لأبى الماكر ، لم يبتعد عن الحقيقة ابتعادًا كاملاً ، ولكنه أجاد إلباسها ثوبًا يقنعك .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

وعدت إلى الضحك مرة أخرى ، ولكنها قالت بحزن أسكتنى :

ـ مايدرينى ، لقد صدقته ، فلم يكن لى أدنى تصور ، باحتمال ألا أكون ابنة له ، وأنا أشعر بحنوه الكبير على .

فقلت :

ـ حسنًا فعل ، لقد كان يعزك إعزازًا شديدًا ، ولا يريد لأى شك أن يراودك ، وعلى أية حال آمل أن نرى جدتك قريبًا ، وسوف تتعرفك حتمًا .

فقالت بحزن يسبق الأحداث :

ـ هذا فيما لو التقينا بها ، أو لو كانت عائشة حتى الآن . أجل يمكنها التعرف على وفق الملابسات ، التى ذكرتها ، أما بدونها ، فلن أعرف كيف أثبت نسبى إلى أهلى .

فقلت :

ـ هناك خالك الذى أشارت إليه المذكرات ، ربما تعرفك ، فى حال وفاة جدتك ، لا تخافى لن نعدم وسيلة ما .

فتساءلت :

ـ وأخى هل يرضى بالشهادة لصالحى ؟

فقلت ضاحكة ، للتسرية عنها :

ـ ولِمَ لا ، إنه يطمح إلى الزواج منك .

فقفزت على قدميها ، كمن لدغتها عقرب ، وقالت منزعجة :

ـ كيف ؟ إنه أخى !

فقلت مسرعة :

ـ لا عليك إنى أمزح ، مجرّد مزاح فحسب . جيد أنك ذكرتنى إياه ، أريد أن أوصيك ، خذى حذرك ، وإياك أن تشعريه بأنك عرفت بموضوع نسبك ، كى لانفتح بابًا مغلقًا أمامه ، حتى نجد جدتك ، أو أحدًا من ذويك ، سنتعاون فى البحث بسرية تامة ، وسوف نناقش الموضوع قبل البدء بالبحث ، ولكن الآن لنتناول الغداء ، سوف أذهب إلى المطبخ لسكب الطعام .

قلت ذلك على الرغم ، من زوال الشعور بالجوع .

فقالت وقد قطبت حاجبيها عزوفًا من ذكر الطعام :

ـ لا أريد أن أطعم ، ليس لدى رغبة بالطعام . كل شىء معد وجاهز فى المطبخ ، بإمكانك تناول الطعام بمفردك .

ونهضت لترقد فى فراشها ، فما كان منى إلا أن ذهبت إلى الرقاد معها ، وعندما مددت ذراعى لكى أطوقها ، دفعت بها بعيدًا ، ثم لم تلبث حتى انخرطت فى بكاء مكتوم ، مما جعل الدمع يتساقط من مآقى أنا الأخرى .

وبعد يومين فقط ، من التحدث مع أختى ، وكما كنت أتوقع ، حدث ما كنت أخشاه ، إذ إن أخى لم يترك الحدث ، يمر دون مساهمة منه ، فعلى الرغم من الحصار المضروب حول أختى ، للحيلولة دون الانفراد بها ، إلا أنه وجد وسيلة لم تخطر لنا على

Looloo
www.looloolibrary.com

بال ، إذ ما إن غبت عن أنظاره بضع دقائق لأستجم فى إحدى الأمسيات ، إلا وقد قام عاجلاً منتهزًا الفرصة ليخرج الرواية من جعبته ، ملوحًا بها فى وجه أختى ، عارضًا العنوان أمام عينيها ، ثم ابتدأ يقص عليها الحكاية فى عجالة شديدة ، كما ذكرت لى بعد ذاك ، بادئًا بعبارة صريحة :

ـ أنت لست أختًا لى ، أنت لست ابنة حقيقية لأبى وأمى ، و ...

بيد أنها لشدة الفزع الذى انتابها لتخمينها ما ينتويه ، لم تدع له الفرصة ، لكى يسترسل ، فقد جابهته على الفور بأنها تعرف الأمر ، منذ أن كان أبى على قيد الحياة ، وأنه لم يأت بجديد .

ثم نهضت من مقعدها فى الصالة ، حيث كانا يتبادلان ذلك الحديث ، ودخلت الغرفة ، صافقة الباب خلفها بعنف .

لقد تصرفت بذكاء ، مبعثه الخوف من سفالة أخيها ، فكان لذلك الادعاء بأنها تعرف بالأمر من أبى قوة رادعة فوتت عليه فرصة المفاجأة الأولى ، التى كان يتوقعها منها .

وأنا فى الحقيقة لست أدرى من أين واتتها تلك السرعة فى البديهة ، دون أن تهيئ نفسها لذلك الموقف ، الذى كان أخى يعده لها . أظن مجابهة الخوف الشديد الذى يبدو أنه لاطاقة لنا باحتماله ، يحفز على المبادرة فى اتخاذ المواقف المناسبة

لصده ، مهما كان الإنسان بليدًا فى تعامله مع الحياة الاعتيادية .

وهكذا كان فى ميسور أختى أن تنجح فى تجريد أخى من سلاحه ، جعلته يتلقى ردود فعل لهول المفاجأة التى أعدها لها ، غير تلك التى كان يتوقعها منها .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

- ١٥ -

بعد أن كنت مضرب المثل لغيرى من العاملين فى مهنتى فى المواظبة على عملى بكل إخلاص ، على مدى ثلاثة من الأعوام الماضية ، إذ لم أتغيب خلالها حتى لدقائق قليلة ، ولم أطلب أى نوع من الإجازات المرضية ، أو الاضطرارية ، كما يفعل الكثير من زملائى . وقد كان من جراء ذلك أنه لم تمر على فرصة دون أن أجد الثناء ينهال علىّ من رؤسائى ، أو مدير المنطقة التعليمية ، ولاتمر مناسبة دون أن أكرم ، أو يشاد بتفوق ونشاط الطلاب فى الفصول ، التى كنت أتولى التدريس فيها .

أمسيت بعد كل تلك الجهود من الجد والمثابرة أجد من يخطئنى ، ومن يرسل لى من خطابات التأنيب ما يقرعنى . إذ لايكاد يمر أسبوع واحد دون أن أجد أوراقًا على مكتبى تنذرنى ، بالحد من أذونات الخروج ، وتنبهنى بأن ما أعمله من دأب على الاستئذان ، بات من غير المحتمل ، وأن هذا الإهمال الذى أوليه إلى عملى ، أخذ يهدد مستقبلى الوظيفى ، وأنه لن يقبل لى عذر إلا عند المرض .

والخلاصة أن تلك المذكرات المنذرة ، كانت تشدّد على المطالبة بالانتباه إلى عملى وتوصينى به .

ومع هذا لم يكن فى الأمر ظلم أو تعسف واقع على ، فقد كان ذلك ما كنت أستحقه عن جدارة ، نتيجة لدأبى فى الآونة

الأخيرة على الإكثار من أيام التغيب بأعذار واهية ، أو حتى بدونها . وكان السبب فى كل ذلك الإرباك فى عملى نتيجة لدأبى على البحث عن ذوى أختى ، وكنت بعد تلك الإنذارات المهددة بفصلى ، محددة لى نوع الأعذار التى يجب على توفيرها لتبرير غيابى المستمر هو المرض وحده .

وعند ذاك كما لو كنت وجدت انفراجًا ، فدأبت على استحضار إجازات مرضية لمعالجتى من أمراض وهمية من أحد الأطباء الأصدقاء ، أو من الذين يقبلون الهدايا ، مما أفضى بى إلى إهمال عملى تمامًا .

عندئذ اضطرت المنطقة التعليمية بناء على التقارير المقدمة من المدرسة التى أعمل بها إلى أخذ موقف أكثر حزمًا معى ، وما أسرع أن تلقيت كتبًا تحمل إنذارات بالخصم وتحذرنى ، بأنه لن يقبل لى من الإجازات المرضية ، إلا ما كانت صادرة من طبيب الصحة المدرسية ، وما عدا ذلك فهى غير معترف بها ، وأنه لن يقبل لى أى عذر آخر لغيابى المتواصل فيما عدا ذلك . وفى حال الإصرار على ما أنا فيه ، فإنها سوف تلجأ إلى الخصم من مرتبى ، فإن لم أرتدع فسوف تتخذ إجراء أكثر صرامة .

فأسقط بيدى ، فأنا ما زلت فى مسيس الحاجة إلى مزيد من الوقت ، للبحث عن ذوى أختى ، وها هو ذا الباب يسد فى وجهى ، بمزيد من التعقيدات ، بعد أن اقتصر الأمر على طبيب الصحة

Looloo
www.looloolibrary.com

المدرسية فحسب ، وأنه يتعين على أن أخضع لفحصه ، وهو الذى يقرر ما إذا كنت فى حاجة للإجازة من عدمها .

ومن الطبيعى أن لا ألجأ إلى طبيب الصحة المدرسية ، فليس لدى ما أشكو منه .

عند ذلك قادنى ذلك الاضطرار إلى الانقطاع عن العمل لبضعة أيام ، ووافقت على الخصومات من مرتبى الشهرى ، بسبب من غيابى غير المعذور ، وكنت أحتال كى لا أطرد من عملى نهائيًا ، بأن لا أجعل مدة غيابى تتجاوز المدة المسموح بها للغياب غير المعذور ، والتى مدتها خمسة عشر يومًا متواصلة ، فأخذت أرتب فترات الغياب بطريقة متقطعة ، لمدة يومين أو ثلاثة ، ثم أعود بعدها إلى العمل لنفس المدة .

وهكذا جعلت أوالى الغياب والحضور ، وأتحمل الخصومات ، حتى جاءنى إنذار نهائى يأمرنى بالالتزام ، وإلا حولت إلى مجلس تأديب ، لاستهتارى بأداء مهام عملى .

عجبًا كل هذا يجرى لى ، بعد ما كان يشاد بى ، قلت لنفسى وقد أفعمت بالغيظ ، لو كان لدى ما أتعيش منه ، لم أقبل هذه العبودية .

إن ما يتبقى من نقود أبى بعد خصم نصيب أخى منها ، لن يقوم بأودنا أنا وأختى لأكثر من عام واحد . خاصة أن ذلك

يترتب عليه إلغاء عملية الإيداع ، ولذا فقد كنت أتجنب المساس بهذه النقود ، أو اقتسامها ، وفوق ذلك حتى لو قمت بإيداع نصيبى منها فإن الأرباح لن تكفينا نحن الاثنتين ، وكنت قد طلبت من أخى تجميدها إلى حين البت فى أمر أختى ، وكان مادعانى إلى هذا الإجراء اعتراض أخى ، على مشاركة أختى لنا فى الميراث ، وبما أنه لكل منا أنا وأخى عمله ومرتبه ، فلا داعى للاستعجال ، هذا ما أقنع أخى بالتأجيل ، وكنت أخشى أن تعلم أختى بموقف أخى منها ، فتزداد حيرتها ويزداد عذابها وريكتها ، إلا أنها الآن وقد عرفت بالحقيقة كاملة ، فلن يضيرها أن تعرف موقف أخى من الميراث ، فهذا حقه الشرعى . وفى هذه الحالة يمكننا ببعض التدابير السحب من نقود أبى ، واقتسامها بينى وبين أخى ، كل حسب ما يناله من الميراث ، الذى هو الثلث لى والثلثين لأخى ، ويمكننى وأختى العيش بما يخصنى من الميراث ، ولكن إلى متى لو فقدت عملى ؟ إذن لن أغير موقفى الآن مادام أنه لا جدوى .

ثمة خطر آخر يترصدنى ويملؤنى بالرعب ، لو اكتشف أخى أمر تغيبى المتواصل عن عملى ، وعندما يعرف السبب ، ربما يفلت زمام الأمر من يدى ، ويستعيد هو سلطته كرب للمنزل ، أواه ، لا أرغب فى التفكير فيما قد يحدث . هذا ما يجعل الهلع يهرع إلى نفسى ، وعندئذ يتلبسنى القلق كشيطان مريد ، ويا لطول الليالى التى جافانى بها النوم ، بسبب ذلك التفكير .

Looloo
www.looloolibrary.com

أعود مرة أخرى إلى القول ، إن كل هذه الربكة التى تعرضت لها فى خلال تلك المدة ، كانت بسبب البحث عن ذوى أختى ، لقد كنت أجد فى البحث عنهم ، فى نوبة محمومة ، أروم الوصول إليهم بأية طريقة كانت قبل أن أفصل من عملى ، وكنت آمل الانضباط فيه مرة أخرى ؛ لذلك لم أدع بابًا إلا وطرقته ، ولا سبيلاً إلا وسلكته . وكنت أصطحب معى أختى فى تجوالى على الدوام ، وذلك لنفاد صبرها ، وحتى تطلع بنفسها على تطورات عملية البحث ، فلا توجه لى لومًا ، أو عتبًا فيما لو لم نجدهم ، بعد كل هذه المشقة .

وكما توقعت ، فبعد فترة وقعنا فى حيرة تامة ، حين اكتشفنا أنا وهى ، أننا نسير فى طرق مسدودة ، بعد أن جردنا دور النشر دارًا بعد دار ، فى طول المدينة وعرضها ، ولقلة خبرتنا لم نفكر أن الدار التى نشرت رواية (مذكرات خادم) ، قد تكون فى بلد آخر غير بلدنا ، حتى قال لنا أحد الناشرين ناصحًا ، بعد أن أحس بشدة اهتمامنا فى عملية البحث والتحرى عن تلك الدار ، دون أن يعرف السبب من وراء ذلك .

قال :

ـ لا تجهدا نفسيكما أكثر من ذلك ، إن هذه الدار التى تجدّان فى البحث عنها غير موجودة هنا ، إنى أتعامل منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا ، مع العديد من دور النشر ، ولم أسمع باسم هذه الدار ، فلا تجهدا نفسيكما أكثر من ذلك ، ولو بحثتما

عنها فى دليل الهاتف ، فلن تجدا لها أثرًا ، ربما تكون فى الدولة نفسها التى يعيش بها مؤلف الرواية بعيدًا عن هنا . فانتابنا الإحساس بالفرحة الغامرة ، وكأن طاقة من الضوء فتحت فى مواجهتنا ، لترشدنا إلى المسار الصحيح ، فشكرنا الرجل على نصيحته الغالية .

ودون أن نبحث فى دليل الهاتف ، جاء قرارنا بوجوب البحث عن تلك الدار فى الدولة التى عاش ذلك الخادم فترة من عمره إلى أن مات بها .

وفى حميا عنيفة من الحماس لهذه الفكرة الجديدة ، قمت بتقديم طلب إجازة من عملى لمدة ثلاثة شهور ، ونفذتها من قبل أن يأتى الرد بالموافقة أو الرفض ، على الرغم من تأزم الأمور بينى وبين إدارة المدرسة ، والمنطقة التعليمية على الأخص . وقد استنزفت جزءًا من أيامها فى عمل وثيقة سفر لى وأختى ، وقد اعترضتنى صعوبات جمة استلزمت إثبات وفاة أمى وأبى لكى تتم إجراءات فصلنا عن وثيقة سفر والدتى المتوفاة ، وبعد أن قدمت شهادتى الوفاة لوالدى ووالدتى ، حصلت على تلك الموافقة بعد لأى شديد .

كل هذا وأخى لا يعلم بتدابيرنا . والأنكاء من ذلك أنه عندما وجه إلينا السؤال ، عما إذا كان لنا أقرباء مسئولون عنا ، أنكرنا ذلك ، كى لا يعوقنا أى عائق ، لقد خشينا أن يطلب منا إحضار موافقة من أولئك الأقرباء على سفرنا ، كما هو متبع فى بلدنا ، خصوصًا لكوننا فتاتين صغيرتين .

Looloo
www.looloolibrary.com

وكم كانت فرحتنا غامرة ، عندما حصلنا على وثيقة السفر لكلتينا دون تعقيدات تذكر غير تلك التى مرّت ، ولكن فجأة برزت لنا عقبة كأداء اعترضتنا بقوة أشد ، لم نكن نحسب لها حسابًا ، لأننا لم نكن نعرفها حين ذاك ، فأطفأت الفرحة فى قلبينا ، وجعلتنى أهدر المزيد من أيام الإجازة بما لا يجدى .

لقد قيل لنا فى (سفارة) تلك الدولة الغنية ، فى أثناء تقديم طلب بمنحنا الإذن (فيزا) ، لدخولها ، قيل لنا ، إنه يتعين علينا الحصول على ذلك الإذن ، من داخل البلد نفسها . فبهذه الطريقة فقط ، يسمح لنا بدخول أرض الذهب الأسود ، وأيضًا قيل لنا ، أنه ليس كل امرئ يريد الذهاب إلى تلك الدولة الواسعة الثراء يكون فى مقدوره الحصول على الإذن ، بسبب من أن التكالب شديد على دخولها ، ولذلك يتوجب علينا إن كنا مهتمتين وراغبتين بشدّة ، أن نسعى إلى أن نأتى بهذا (الإذن) ، من داخل الدولة نفسها ، وليس من إحدى (سفاراتها) فى دول أخرى ، وأنه يلزمنا لذلك ، أن نكون على معرفة بأحد الناس هناك ، لكى يدعونا إليهم .

فأسرعت ، وقد غمرتنى الفرحة ، وثقتى تامة بما أقول :

ـ حسنًا ، إننا نعرف السيدة (سارة) ، وأنا واثقة من رغبتها بأن ترانا ، بل هى فى مسيس الحاجة إلى أن ترانا ، لقد سبق وبحثت عنا ، ونحن فى الحقيقة ذاهبتان إليها ، ونرجو فقط تزويدنا بعنوانها ، وسوف نخاطبها لترسل لنا ذلك (الإذن) .

وعندما سئلت عن بقية اسمها ، اكتشفت أنى لا أعرفه .

فعدنا فى ذلك اليوم بخفى حنين ، نكاد أنا وأختى نفلق الحجر ، لشدّة ما انتابنا من الغم .

وأهدرت أيضًا مزيدًا من أيام الإجازة ، وأنا وأختى ننبش بدون طائل ، فى كل قصاصة من الورق تركها أبى ، علنا نتوصل إلى ما يهدينا إلى الاسم الكامل لجدة أختى ، ولكن عبثًا حاولنا .

فاقتنعنا أخيرًا ، بأننا لن نجد ما يرشدنا فى ما تركه لنا أبى ، من قصاصات ورقية ، تدلنا على الاسم الكامل لجدة أختى ، بعد كل هذه السنين الطويلة ، التى مرت منذ عودته ، خاصة وأن أبى ترك كل متعلقات له فى تلك الدولة البعيدة ، ولم يحمل معه سوى القليل من الملابس ، فى أثناء عملية هروبه ، عندما تعرضت تلك الدولة لتلك النكبة .

قلت لأختى ، وقد دب اليأس إلى قلبى :

ـ لم لا ندع الموضوع برمته ، ونرضى بما نحن فيه ؟

كنا متقابلتين حول مائدة الإفطار فى أحد الصباحات ، ولم يكن لنا ثالث ، بعد خروج أخى إلى عمله .

وليتنى لم أنطق بتلك العبارة ، إذ ما إن سمعتها منى ، حتى انفجرت باكية ، كما لم تبك من قبل .

حدقت مليًّا فى وجهها ، فرأيت أن كبدها تكاد تنفطر .

Looloo
www.looloolibrary.com

نهضت من فورى ، وأنا أقول :

ـ انهضى إلى ارتداء ثيابك ، سنذهب إلى محام ما ، أسرعى هيّا .

فوجئت بقرارى ، بعد ما بدر منى من حديث يأس ، فتوقفت دموعها عن الانسكاب فى الحال لتلك المفاجأة ، وكأنها نسيت أحزانها ، وعندما استوعبت معنى كلامى ، قالت مشفقة :

ـ ولكنك سوف تخسرين المزيد من المال ، وعندئذ نتعرض إلى مذلة أخى .

فقلت بعزم وإصرار :

ـ حتى لو تسولته ، لابد من أن نصل إلى ذويك . ثم لاتخافى لن يصيبك سوء وأنا معك ، فى قدرتى أن أحميك .

قلت لها ذلك ، وكلى ثقة بأنى أعجز عن أن أحمى نفسى مما أنا فيه ، فضلاً عن حمايتها .

قبل الولوج إلى مكتب المحامى ، طلبت من أختى أن تترك لى إيضاح الموضوع ، دون تدخل بالحديث ، لقد كنت أخشى أن يفضى تعجلها إلى إفساد الأمور ، كما خشيت أن تذكر أمورًا أخرى لاداعى لذكرها .

وكنت عازمة أن لا أذكر للمحامى الحقيقة كاملة ، ولكن فى النهاية اضطررت إلى ذلك ، عندما جررت إليها جرًا .

قلت له :

ـ نريد البحث عن امرأة فى بلد آخر ، يهمنا أمرها جدًا ، بيد أننا لا نعرف سوى اسمها الأول .

وذكرت له الاسم ، وأضفت :

ـ هى تعرفنا جيدًا ، وتريد الوصول إلينا ، ولكنها فيما يبدو أضاعت عنواننا ، ونحن لا نعرف عنوانها هناك . فكيف نتوصل إليها ؟

ثم شرحت له بمزيد من التفصيل ، أن ضالتنا ليس من بلدنا ، ونحن لا نستطيع الذهاب إليها ، لوجود تعقيدات كثيرة .

وقد شعرت بخيبة أمل مريرة ، لا سبيل إلى وصفها ، عندما انفجر رجل القانون فى ضحكة طويلة ، لقد ظن أننا فتاتان حالمتان ، تبحثان عن مغامرة ما .

بيد أنه لزم السكينة فورًا ، عندما بدأت أختى تتوسل إليه فى طلب المساعدة ، والدموع تقفز من مآقيها بعيدة عن خديها ، وقد ضربت عرض الحائط بما أوصيتها به من التزام الهدوء والصمت ، وعندما رأيت علامات الدهشة والاستغراب مرسومتين على ملامحه ، أخبرته أن التى نبحث عنها هى جدتها ، التى أضاعتها وهى صغيرة ، وأن تلك الجدة تسكن خارج دولتنا ، ومن ثم قصصت عليه القصة كاملة .

Looloo
www.looloolibrary.com

وعزّز من جدية موقفنا ، أنى أخرجت رزمة من النقود ، التى تحويها حقيبة يدى ، ووضعتها على المكتب أمامه .

عندئذ أضحى جادًا فى تعامله ، ولكنه قال معتذرًا عن عدم استطاعته مساعدتنا :

ـ أنا لست رجل مباحث ، ولا مخبرًا سريًا ، إنى رجل قانون ، ولا أظن أن بوسعى مساعدتكما بهذا الشأن ، بيد أنه من الممكن أن أشير لكما على طريقة ربما تنفعكما .

اكتبا إعلانات فى كافة الصحف فى الدولة ، التى تتواجد بها تلك السيدة التى تبحثان عنها ، وأوضحا مطلبكما مع العنوان ، وادفعا ثمن الإعلانات مقدمًا ، كما هو فى طبيعة الحال ، وبما أنكما معروفتان لدى السيدة الجدة معرفة تامة ، وإنما أنتما اللتان لا تعرفان منها سوى الاسم الأول ، فاكتبا البيانات التى تخصكما ، فإذا كانت مهتمة بكما كما تذكران ، فإنها هى التى تسعى إليكما .

فصرخت أختى جذلة :

ـ إنها فكرة رائعة ، ليس حقيقيًا أنه لم يكن فى مقدورك مساعدتنا ، شكرًا لك ، شكرًا لك .

* * *

دفعت بيدى المبلغ الذى كان على المكتب ناحيته ، ودعوت أختى إلى النهوض ، وأنا وأختى نردّد عبارات الشكر ، ولكن

قبل أن أصل إلى عتبة المكتب ، نادانى ، وهو بادى السرور من الفرحة التى اعترتنا ، وقال :

ـ آنسة .. آنسة .. لقد نسيت نقودك .

فقلت :

ـ كلا ، إنها ثمن أتعابك .

فرد ضاحكًا ، باستنكار خفيف :

ـ ثمن أتعابى ؟ لم أقم بأيما عمل يتعبنى ، وهى لا تعدو كونها نصيحة بسيطة ، كان من الممكن أن تكتشفيها بمفردك ، أو يسديها لكما أى إنسان ، وإن لم يكن رجل قانون ، خذى نقودك من فضلك ، فأنا لا أتقاضى أجرًا عن لا شىء .

واستدار خلف مكتبه ، ووقف يعترضنى محاولاً فتح حقيبة يدى ، التى كنت أعلقها على كتفى ، لإلقاء النقود بها ، فتباعدت قليلاً ، ومددت يدى أتناولها منه ، وأنا أزجى له مزيدًا من الشكر .

وكأنه يريد إطالة أمد مكوثنا لديه ، فقد قال :

ـ هل تعرفان صياغة الإعلان ؟

ولما أجبت بأننا سوف نحاول .

أردف مبتسمًا :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ حسنًا ، دعينى أساعدكما فى كتابته ـ ضحك ـ ولكن تذكرى أنه عمل صحفى وليس قانونى ، حذار من مد نقودك ثانية .

وكتب على قصاصة من الورق ، بمساعدة ما أعطيته من معلومات الصيغة التالية :

ـ « إلى السيدة (سارة) التى تبحث عن حفيدتها الطفلة (سارة) إنها توجد فى نفس المكان الذى سألت فيه عنها ، منذ أكثر من تسعة أعوام ، احضرى حالاً إلى منزل المهندس (نبيل) ، واعلمى أن حفيدتك حية ترزق » .

وأصر المحامى على كتابة عنوان منزلنا كاملاً ، وعندما بينت له أنى لا أرغب بكتابة العنوان ، لوجود محاذير تخصنى هاهنا ، وأن السيدة (سارة) تعرف منزلنا ، وأنها سبق وجاءت إلينا من قبل .

أصرّ مرة أخرى قائلاً :

ـ إن الإعلان سوف ينشر فى صحف بعيدة عن مرمى البصر من كل الذين هنا ، لذا لا مبرّر للخوف ، والسبب الثانى أن السيدة (سارة) ربما تكون قد نسيت العنوان لطول المدة ، أو ربما تكون ماتت ، وفى هذه الحالة قد يأتى أحد أقربائها للبحث عنكما ، ألم تقولى إن لتلك الجدة ابنًا ؟

وفكّرت بمعقولية ما يراه ، هذا المحامى البارع ، حقًا لو أن السيدة (سارة) متوفاة ، فإن العنوان سيكون مفيدًا لخال أختى ، فى حالة اطلاعه عليه ورغبته فى استعادة إبنة أخته .

ولم أكن أعلم آنذاك ، بأن هذا الخال هو من سيكون العقبة الكأداء ، فى طريق استرجاع هوية أختى الأصلية .

أعطيت المحامى عنواننا الكامل ، ليذيل به ذلك الإعلان ، وما كنت أعلم أيضًا ، أن حرصه وإصراره على معرفة العنوان ، كان وراءه رغبته فى الاستدلال على منزلنا ، إلا عندما أتى فيما بعد ، مقدمًا قلبه واسمه خاطبًا لى ، بعد أسبوع واحد من تلك المقابلة .

وما كان على أن أرفضه ، وهو على ما هو عليه ، مما يعجب أية فتاة ، لو لم أكن مشغولة البال ، بما هو أهم لدى من فكرة الزواج فى ذلك الوقت .

وشكرته للمرة الثالثة ، وأخذ وهو يناولنى ما كتبه ، من صيغة الإعلان ، يطلب منى فى رجاء ملح ، أن أخبره فى حال إيجاد ما نبحث عنه ، (كى أطمئن عليكما) ، هذا ما قاله فى نهاية حديثه .

فوعدته بذلك ، وكان فى نيتى أن أفى بوعدى ، ولكن بعد زيارته العاطفية تلك ، لم أفكر به ، ولم أعد إليه إطلاقًا ، على الرغم من شعورى بالامتنان له ، نتيجة لنصيحته الغالية .

Looloo
www.looloolibrary.com

أمضينا أنا وأختى طيلة منتصف النهار خارج المنزل فى ذلك اليوم ، وفى اليوم الذى يليه أيضًا ، ونحن فى حميا من البحث عن كل الصحف اليومية ، التى تصدر فى الدولة التى تعيش فيها جدة أختى ، ولم يكن يهمنا أن تكون حديثة التاريخ ، بقدر ما كان يهمنا معرفة عناوينها ، لكى نتمكن من إرسال إعلاننا إليها ، ومعرفة القيمة الإعلانية فيها .

وهكذا عدنا فى اليوم الثالث على التوالى ، فى الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، بعد أن طيرنا بالبريد المسجل والمستعجل ، ستة من نسخ الإعلان ، بعدد الصحف التى تصدر هناك ، مع ستة من الحوالات النقدية ، بقيمة ثمانية عشر إعلانًا ، كى يتوالى صدوره ثلاث مرات ، على مدى ثلاثة أيام فى كافة الصحف التى تصدر هناك .

وحتمًا إعلانات بمثل هذه السعة لابد أن يصل أحدها إلى أحد من ذوى أختى ، حتى وإن كان غير جدتها .

ولأول مرة منذ أكثر من أربعة شهور ، أبيت ليلتى مرتاحة البال ، يساورنى شعور بأنى سرت خطوة أمامية ، فى الاتجاه الصحيح لإنجاز عودة أختى إلى ذويها .

ولأول مرة أيضًا تصمت أختى عن إلحاحها ، وتساؤلاتها الباكية ، عن احتمالات عودتها إلى ذويها ، تلك التى كانت تسومنى بها العذاب كل ليلة .

بيد أنه مضى أكثر من شهرين على إرسال تلك الإعلانات ، ولم نظفر بطائل . وكنت قطعت ما تبقى من أيام قليلة من إجازتى وانتظمت فى عملى ، وقد آليت على نفسى وبكل عزم وإصرار على معاودة الجد والمثابرة فيه ، وقد اطمأنت نفسى وامتلأت غبطة ، إلى أنى لن أعرض نفسى للمساءلة ، بعد أن لم يعد لدى من أسباب أخرى تدعونى إلى الانصراف عن عملى بعد الآن ، وكنت أرى أنه يتعين على ، أن أعوض عن كل ما قمت به من إخلال فى مهامه ، كى أصحح الصورة السيئة التى خلقتها عن نفسى فى خلال بحثى الدءوب عن ذوى أختى ، لقد شعرت بأنى أنجزت كل ما فى وسعى ، بل ما هو فى وسع أى امرئ أكفأ منى لو تولى الأمر نيابة عنى ، وقلت لنفسى وقد شابها ذلك الاطمئنان لما قدمت من إنجاز ، أنه ليس فى الميسور فعل أكثر من ذلك إطلاقًا ، بعد كل تلك التجارب العقيمة التى مررت بها ، يتوجب على الآن التزام الهدوء والسكينة إلى جانب المثابرة على عملى بإخلاص أكثر من أى وقت مضى .

وفى هذه الروح المطمئنة ، جاء كتاب طردى من عملى .

كانت الإجراءات الروتينية هى من أخره ، إلى أيام عودتى إليه ، وانتظامى فيه مجددًا .

وكانت الصدمة عنيفة على أعصابى ، إذ كان الأمر مباغتًا لى ولم يكن فى بالى شىء من ذلك الذى قد حدث ، على الرغم من أنه كان متوقعًا ولكن فيما مضى ، وليس بعد انتظامى

Looloo
www.looloolibrary.com

مجددًا ، خصوصًا ، وأنا أنال مرتبى كل تلك المدة ، والذى عاد على بالخصم ، مما أستحقه من نقود نهاية الخدمة .

حاولت جاهدة إلغاء ذلك الأمر الإدارى بفصلى ، مبدية استعدادى لاستكتاب تعهد بالالتزام إن اقتضى الأمر ، وأنى على أهبة لذلك ، بيد أنه قيل لى ، لقد كتبت عددًا من هذه التعهدات ، ولم تلتزمى بها .

إنه قول صادق ، فلم يكن قرار الطرد تعسفيًا ، كما قدمت فى معرض الاحتجاج على ذلك القرار ، ولكنها مجرد محاولة ، وقد فشلت .

وعدت إلى المنزل فى ذلك اليوم ، الذى لم أر فى حياتى أتعس منه ولا أشد حلكة من ظلامه ، عدت أجر أذيال خيبة أمل تماثله تعاسة ، غير أنه على الرغم مما أنا فيه من غيظ وضيق أكاد لا أجد له متنفسًا يعزينى ، إلا أننى قررت أن لا أخبر أختى لكى أجنبها الألم ، وأيضًا لم أخبر أخى تجنبًا للومه ، بعد أن أخفينا عنه كل شىء ، من مبدأ الأمر .

ولم يكن أمامى من حل سوى أن قررت البحث عن عمل جديد ، مخفية مسعاى عن الاثنين وعدت إلى دوامة البحث من جديد ، ولكن فى هذه المرة عن شىء مختلف ومغاير عن موضوع البحث الأول .

وكما كانت النتيجة الأولى ، باءت الأخرى بغير طائل أيضًا .

ومن سيئات ما أنا فيه ، أنه لم يعد أمامى من مجال للعمل الحكومى ، إذ إن قرار الطرد من عملى الأول ، وقف حجر عثرة دون كل طلب أقدمه ، فى أيما إدارة حكومية أخرى .

ولم يعد ثمة مجال أمامى ، سوى العمل لدى المكاتب أو الشركات التى يمتلكها الأهالى .

وفكّرت فى المحامى إياه ، ولكنى تذكّرت عواطفه الجياشة ، فألقيت الفكرة ، وذهبت إلى مقر عملى القديم قبل أن أصبح مدرسة لعل وعسى أن أسترجع وظيفتى السابقة كمحاسبة ، ولكن وجدت مكانى قد شغل .

وهكذا استطالت بى الحال مدة شهرين طويلين ، رأيتهما بأمد الدهر ، لشدة ضيقى بهما ، وقد انقضيا بما لا يجدى .

لقد انقضت أيام ذينك الشهرين ، وأنا أنتقل خلالهما باحثة منقبة عن وظيفة شاغرة ، من مكتب إلى آخر ، ومن شركة إلى أخرى ، وبما أنه ليس لدى خبرة ، بمثل تلك المواضيع من العمل ، فى تلك الشركات التى غالبًا ما تكون أعمالاً للسكرتارية ، لذا كان يطلب منى أن أكون تحت التجربة ، ولكن ما أدراك ما هى هذه التجربة . فقد كنت أفزع إلى الطريق قبل التردى فى هوتها .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ومرت أيام أخرى ، ومازلت على ذلك البحث المحموم ، فكانت تلك الأيام من العسر بما لا يطاق . وقد بدأت نقود نهاية خدمتى تنضب من يدى ، وضاقت بى السبل ، فلم أعد أحتمل السر وحدى ، خاصة وأن أختى عاودها القلق ، بعد مضى كل هذه المدة ، ولا نأمة تنبئ بأى بادرة بردة فعل من ذويها ، على مضمون تلك الإعلانات ، وباتت تساؤلاتها الباكية كل ليلة تتردد كثيرًا ، فتقض مضجعى ، وتغلق منامى ، فتسومنى العذاب فوق ما أنا فيه . عندئذ قررت الكشف لها عن أمر طردى من عملى ، وحدثتها عن المصاعب التى تعترضنى فى إيجاد عمل جديد ، وعن الهموم التى أرزح تحت نيرها .

كشفت لها ذلك السر ، الذى ترددت طويلاً قبل البوح به ، لكى ألجم لسانها عن الشكوى والتبرم . ولكى أريها مدى ما أعانيه من مصاعب جمة ، تغنيها عن إضافة أعباء أخرى على كاهلى ، خصوصًا ، وأن كل ما حل بى كان نتيجة لبحثنا عن ذويها لعلها تقدر التضحية التى أقدمت عليها .

فعلت ذلك لكى أحظى ببعض من الراحة من إلحاحها ، ويا ليتنى لم أفعل ، لقد كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، كما يقال فى الأمثال القديمة . لقد كان الأمر صعبًا عليها لغايته القصوى فوق ما كنت أقدر . فقد أضفت إلى خوفها أبعادًا جديدة من سوء المصير ، الذى قد يصيبها من فقد مصدر الرزق الوحيد الذى كان يعيلها ، متمثلاً فى الراتب الذى آخذه من عملى ، إذ إنها لم تكن تثق بأخى مطلقًا .

وهكذا ضممت إلى قلقها قلقًا جديدًا ، فبدلاً من أن أحظى بلحظة من الهدوء ، وبدلاً من أن تكون الشكوى ليلية فحسب ، أضحت فى الليل والنهار ، على حد سواء . يا له من هم فادح ذلك الذى كنت أرزح تحت نيره فى تلك الفترة من شبابى الغض .

لقد كانت أختى تبكى وتندب الليل مع النهار ، معددة المآسى التى مرت بها ، كلما رأتنى عائدة إلى المنزل بخفى حنين ، خالية الوفاض محطمة النفس .

ومما زاد فى صعوبة الأمر على نفسى ، أنه لم يعد فى ميسورى مصارحة أخى بحاجتنا إلى النقود ، بعدما أخفينا عليه كل ما قمنا به ، كل هذه المدة الطويلة .

وأيضًا ، ومما زاد الهم على قلبى ، إصابتى بالأرق ليلاً مصحوبًا بنشيج أختى المكتوم الذى يرن فى أذنى فيحول دون النوم ، وهى تتقلب إلى جوارى على الفراش ، كما يتقلب المكوى بأوار اللظى ، لا يهدأ ذلك النشيج ، إلا بغلبة النوم عليها ، وبعد أن يهدها التعب .

كم تمنيت لو أكذب عليها ، مدعية إيجاد عمل ما ، لإشعارها بالراحة والأمان ، بيد أنى خشيت أن أجر نفسى إلى هوة من الأكاذيب ، لا أعرف لها قرارًا .

ومضى شهر آخر ، وأمسيت على مشارف منتصف العام ، وأنا عاطلة عما أعمله ، سوى البحث عن عمل . بيد أنه وكما يقال فى الأمثال (اشتدى أيتها الأزمة ، لكى تنفرجى) .

Looloo
www.looloolibrary.com

إذ إنه حدث الانفراج بغتة ، ونفسى تكاد تطفح باليأس والمرارة .

لقد كان من دأبى السير يوميًا على غير هدى ، فدخلت مكتبًا تجاريًا ، كما كنت أفعل عادة للسؤال عن عمل ، فوجدت سيدة باشة الوجه ، وكانت تفتتح لتوها مكتبها الفخم لتبدأ فيه عملها التجارى . وفورًا ، وبعد حديث قصير بينى وبينها ، عينت لديها بوظيفة محاسبة ، بعدما عرفت أنى أحمل شهادة البكالوريوس فى مادة الرياضيات .

عدت إلى المنزل ظهر ذلك اليوم ، يستخفنى الحبور ، أكاد أحلق طائرة ، على أجنحة من الفرح ، وكان أهم ما فى فرحتى منصبًا على أهم ميزة فى عملى الجديد ، أن التى ستراسنى سيدة بشوش ، وليس رجلاً يرى فى جمالى ، أهم مؤهلٍ لى لكى أنال حظوة العمل لديه .

* * *

ـ ١٦ ـ

لقد اعترانى استغراب مفاجئ ، عندما فتحت لى أختى باب المنزل ظهرًا ، إذ لم يكن الباب مقفلاً بالسلسال ، كما واظبت على فعله منذ أن أحضرت لها ذلك (الترباس) .

بيد أنى لم أبادر بالسؤال ، لقد شغلتنى عنه تلك الابتسامة الواسعة ، التى كانت تملأ وجهها بشرًا وحبورًا ، فتشيع به حمرة قانية ، ملونة خديها بلون الورد .

فقلت فى تعجب :

ـ لم أنت مسرورة هكذا ؟ أعلمت بأنى وجدت عملاً ؟

ضحكت بقرقرة سعيدة ، وردّت :

ـ كلا ، لم أعرف لست ممن يخمنون الغيب ، ولكن وجهك يطفح بشرًا ، أظنك وجدت عملاً ، ولكنى فرحة أيضًا ، إن جدتى فى غرفة الصالون .

توقفت خطواتى ، قبل أن أجتاز المدخل ، متسمرة فى فتحة الباب ، وأنا أصيح جذلة من فرط المباغتة السارة :

ـ ماذا ؟ جدتك ، جدتك هنا ؟ يا له من يوم مبارك .

ودون أن ترد ، وكأن ما بدا على من ذروة السعادة ألجمها عن النطق ، فمدّت يدها وأمسكت بيدى ، ثم قادتنى إلى حيث

Looloo
www.looloolibrary.com

تجلس جدتها ، وهناك استعادت قدرتها على الكلام ، فقالت ، وكأنها تكافئنى على العناية بها :

ـ هذه أختى التى ربتنى ، على الرغم من أنها لا تكبرنى سوى بستة من الأعوام فحسب .

كانت الصور التى تبين مراحل طفولة أختى ، وهى محمولة على ذراع أبى أو أمى ، أو وأنا أسحبها ورائى ممسكة بيدها ، متناثرة على الطاولة الصغيرة ، بالقرب من المقعد الذى تجلس عليه السيدة (سارة) .

وكذلك تناثرت أوراق أخرى ، ميزت بينها شهادة وفاة والدى ووالدتى وغيرها مما لا حاجة إليها .

وكانت السيدة (سارة) تمسك بيدها وثيقة السفر القديمة لوالدتى ، والتى تحوى صورنا نحن الثلاثة ونحن بعد لا نزال أطفالاً ، وكانت مفتوحة على الصفحة التى تبين تاريخ إضافة اسم أختى على تلك الوثيقة حيث أضافها أبى ، وعليها ختم تلك الدولة المتاخمة للدولة التى كان والدى يعمل بها قبل اجتياحها ذلك الاجتياح الغاشم ، بعد عثورنا عليها فى ذلك التيه الرملى كما جاء فى الوصف المفصل لتلك الأحداث على لسان أبى .

* * *

من الواضح فيما بدا لى أن السيدة (سارة) تحدثت إلى أختى عما يثبت شخصيتها الأصلية ، وكانت أختى قد عرفت منذ زمن كيف تبرهن على ذلك إلى جدتها ، من قبل أن تراها .

نهضت السيدة لتحتضننى ، قائلة :

ـ بارك الله فيك يا بنيتى ، ليست هى فقط حفيدة لى ، أنت أيضًا .

وعندما رأت اتجاه نظراتى إلى تلك الأوراق المبعثرة ، تابعت القول :

ـ أردت فقط التأكد مما هو مؤكد لى من قبل ، إنى أعرفك أنت وأخاك ، عندما كان المهندس (نبيل) يعمل معى ، قبل تلك الأحداث الأليمة ، التى ألمت ببلدى من جراء ذلك الغزو الهمجى ، قبل سبعة عشر عامًا تقريبًا .

كان حين ذاك ، لم يكن لدى المهندس (نبيل) سوى طفلين ، ولد وبنت ، وكان رحمه الله دائم الحديث عنهما ، ولم يذكر قط أن له ابنة صغيرة ، أو أن امرأته حامل ، ثم إن وضعية إضافتها إلى وثيقة سفر والدتك فى المركز الحدودى فى تلك الدولة ، التى كانت المنفذ الوحيد للهرب بعد ذلك الغزو ، يقطع بما لا يدعو إلى الشك ، وفيه ما فيه من البرهان ، حتى لو لم تكن لها هذه الصورة الملصقة فى وثيقة سفر والدتك ، هذه الصورة التى أعرفها جيدًا ، فقد كانت ملتصقة بذاكرتى ، إنه وجه حفيدتى ، التى ضاعت منى ، وهى على هذه الشاكلة ، حتى إنها ترتدى نفس الثياب التى كنت ساعدت أمها فى إلباسها إياها ، ونحن فى عجالتنا ، قبل خروجنا من المنزل للهروب فى ذلك اليوم الرهيب ، أجل إنى أذكر الآن كيف كنا نغير ثيابها على عجل ،

Looloo
www.looloolibrary.com

بهذه الثياب ونحن نزمع استعدادنا للفرار من دولتنا ، إلى الدولة المجاورة .

ولكن الذى يحيرنى لماذا والدك غير اسمها ، مطلقًا عليها مسمى (عاتكة) عند إضافتها إلى وثيقة سفر والدتك ، لقد كانت تحمل اسمى ، لقد أطلقت عليها والدتها مسماى اعتزازًا منها به ، فلماذا غيره والدك رحمه اللّه ؟

فقلت :

ـ ربما لأنه لا يعرف اسمها الحقيقى ، هل يعرفه ؟

ـ ربما لايعرفه ، فأنا لا أتحدث عن شئون بيتى ، أنا لا أتحدث عن ذلك إطلاقًا لأى كائن من العاملين معى مهما بلغت درجة ثقتى به .

ثم أردفت مبررة موقفها ذاك :

ـ ليس مفترضًا برب العمل أن يطلع العاملين معه على حياته الخاصة ، فهذا يقلل من احترامهم له .

وانحنت ملتقطة بعضًا من الصور ، من على المنضدة ، وكأنها تبرهن لى أكثر منه لنفسها ، وتابعت :

ـ إن صور صغيرتى (سارة) خاصة الأولى منها تبين بوضوح الشبه الذى كانت عليه حينذاك ، والذى لم يغادر مخيلتى أبدًا ، ثم إن شهادة وفاة أبيك حديثة العهد ، جاءت بعد

وفاة والدتك بالنسبة إلى ذلك اليوم الذى ادعت فيه والدتك وفاته ، قائلة إنه توفى منذ زمن .

وحسب ما قالته ، فإنه يتعين أن يكون تاريخ وفاة أبيك ، قبل تاريخ وفاة والدتك ، بينما العكس هو الصحيح ، فهذا بحد ذاته يبرهن ، بأنها كانت تخفى شيئًا عنى ، إنى أذكر جيدًا أنها قالت : (ها هما ولدى وابنتى ، ليس لدى غيرهما) .

ليتنى عدت إليكم بعد ذلك اليوم ، ولكن ما يدرينى ، لقد وثقت بحديثها ، ولم أكن أعرف أن (سارة) الصغيرة كانت فى القرية مع المهندس (نبيل) .

وأردفت :

ـ كان والداك محقين فى خوفهما على نفسيهما ، وأنا أعذرهما لذلك ، ولكنى أيضًا لى الحق فى رؤية حفيدتى ، التى فقدتها فى ذلك الموقف الرهيب ، أردت أن أقول ، إن كل شىء يؤكد أن هذه الفتاة الجميلة حفيدتى ، وحتى بدون هذه الأوراق ، إنه فى ميسورى أن أتعرف على حفيدتى من بين المئات من الفتيات غيرها ، إنها تشبه والدتها رحمها اللّه ، وتشبهنى أيضًا عندما كنت فى سنها ، هيا يا حبيبتى (سارة) أعدى العدة للسفر معى ، أنت وأختك .. ما اسمها ؟

فأجابت أختى :

ـ (سعاد) .

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ اسم جميل ، وأخوك ما اسمه ؟

ـ (سعيد) .

ـ إن كان أخوك يرغب بالسفر معنا ، فليعد العدّة أيضًا . سوف نرحل جميعًا بمجرّد ما أنتهى من عمل (الإذن) لكما لدخول بلدى ، هيا يا (سارة) .

وأشارت إلى أختى :

ـ تعالى يا حبيبتى قبلى جدتك التى بحثت عنك طويلاً .

كلما ردّدت السيدة (سارة) اسمها ، مطلقته على أختى ، كان وقع اللفظ غريبًا على مسمعى ، كأنها كانت تنادى واحدة أخرى ، غير أختى .

فقلت معترضة :

ـ إن اسمها (عاتكة) .

فقالت السيدة (سارة) :

ـ كانت (عاتكة) ، ولكن قبل ذلك كانت (سارة) ، هذا هو اسمها ، الذى أطلق عليها حين مولدها ، ولذا سوف تستعيد مسماها الحقيقى ، وسوف أعمل كل التدابير اللازمة ، لاستعادة شخصيتها الاعتبارية الضائعة .

* * *

بدت السيدة (سارة) الجدة أكبر من الصورة ، التى كنت أحتفظ بها فى مخيلتى طيلة التسعة أعوام الماضية ، حتى

رقبتها الزرافية التى تشبه رقبة أختى ، أضحت ذات خطوط وتعاريج وجلد لين ، وخديها الأملسين البضين باتت الخطوط تخترقهما ، مما يعطيها سيماء الشيخوخة والكبر ، وعلى الرغم من الأناقة الشديدة ، التى تتسربل بها ، لم تعطها تلك الأبهة التى رأيتها فيها فى المرة الأولى .

أما أختى ، وهى لم ترها من قبل ، فقد بهرها جمال جدتها وأناقتها إلى مدى بعيد ، فأخذت طوال ذلك اليوم ، تلوى على عقبيها ، راقصة جذلة ، بعد انصراف جدتها .

لم أرها منفعلة بالفرح جذلة الحبور ، كما فى هذا اليوم ، فأخذت تثرثر طيلة الوقت ، تحدث نفسها ، أو تصف لى ذلك الجمال المبهر الذى كانت عليه جدتها ، وكأنى لم أشاهدها معها .

أجل لم أر أختى فى أيما يوم من أيام حياتها على مثل ذلك القدر من النشوة المحلقة ، حتى أنى كدت أشعر بالغيرة منها ، وقد بدت فرحتى بإيجاد العمل باهتة ، بالنسبة إلى فرحتها .

ثم جاء دور أخى .

أول ما ظهر على عتبة الباب الخارجى ، وهو فى أول خطواته نحو الداخل ، زفت إليه أختى البشرى وكما حدث معى فقد توقف متسمرًا وسط الصالة يستمع إليها مأخوذًا وهى مستمرة تحدثه دون توقف ، واصفة له كل شىء بدقة متناهية ، ودون أن تصطنع ذلك الحاجز الوهمى ، الذى استحدثته معه منذ ذلك

Looloo
www.looloolibrary.com

اليوم الذى حاول فيه الاعتداء عليها ، ودون أن تكون حذرة كعادتها منذ أكثر من عامين .

سمعتها من غرفتى بمجرّد أن فتحت لـه البـاب الخـارجى ، تصرخ به :

ـ (سعيد) لتكن سعيدًا مثلى ، أتعلم لماذا أنا مسرورة أكـاد أطير من الفرح ، خمن ، خمن .

وسمعته وهو يخطو إلى داخل الصالة ، يرد ضاحكًا :

ـ أنت لا تكادين ، إنى أراك محلقة فعلاً ، لا بد أن أحدًا تقدم لخطبتك من أمك الصغيرة .

أو ربما هى التى خطبت ، بيد أنى لا أظنـك ستكونين فرحـة بهذا القدر لخطبتها ، لأنك عندئذ ستكونين تحت رعايتى .

لم تغضب منه ، أو تنكمش كعادتها ، كلما حاول معهـا فتـح باب لمثل هذه الأحاديث الملغزة ، بل قالت وهى لا تزال محتفظة بجذلها :

ـ أواه ، يا أخى ، إن تفكيرك لا ينحو إلا لمواضيـع الخطبـة والزواج ، أجل لا ينحو إلى منحى آخر إطلاقًا ، أصغ يا سيدى ، لقد جاءت جدتى .

وتسمرت خطوات أخى وسط الصالة ، وكان سائرًا فى اتجاه غرفته ، وكنت أنا حين ذاك أقف على عتبة باب غرفتنا ، لكى لا تفوتنى الفرجة على مظاهر ردود الفعل عنده .

رأيته يستدير إلى قبالتها على عجل ، ثم التفت ناحيتى فاغرًا فاه ، وقال متسائلاً مبهور الأنفاس :

ـ مرة أخرى ؟ بعد كل هذه السنين ، ظهرت مرة أخرى ، أين كانت ؟ وهل عرفت من أنت ، هل أخبرتماها بالحقيقة ، هل تعرفتك أم لا ؟ أين هى الآن ؟ هل ستعود إلى هنا ؟ حتمًا ستعود لأن فرحتك طاغية ، هذا ماينبئنى بأنها عائدة ، لقد تعرفتك ، هه ؟

كانت أسئلته المتلاحقة ، لم تدع لأىّ منا مجـالاً للرد ، وقد ألجمت أختى عن الاسترسال .

وبعد أن سكت محملقًا بنا ، ملتفتًا مرة فى اتجاهى ، وأخرى فى اتجاهها ، تركت أختى تتولى الرد عليه ، فاندفاعها بسبب الفرحة التى تهز أعماقها لا تدع لها مجالاً للاصطبار .

قالت :

ـ أجل ستعود ، بل هى هنا فى أحد الفنادق الفخمة ، رفضت الإقامة معنا ، منزلنا متواضع بالنسبة لها ، سوف نسافر معها ، أنا و (سعاد) ، وأنت أيضًا ، إن كنت ترغب ، هى طلبت ذلـك . ولكن المشكلة أنـه ليس لديك وثيقة سفـر ، يجب أن تعجل بإعدادها ، نحن لا نحتاج إلى ذلك أنا و (سعاد) .

وفى دهشة مبهوتة صرخ أخى :

ـ ماذا ؟ متى أعددتما الوثائق ؟ هل كنتمـا تعلمـان بمجيئهـا من قبل ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

عرفت أختى أنها أخطأت فارتج عليها ، وسكتت دفعة واحدة وقد ألجم لسانها ، عندئذ أسرعت إلى نجدتها .

فقلت :

ـ إن السيدة (سارة) هى التى ستقوم باستخراج وثيقتى السفر لنا ، لأنها متعجلة لسفر حفيدتها معها ، إنها تعرف أناسًا ذوى نفوذ هنا ، يمكنها الاستفادة منهم فى مثل هذا الموضوع ، وبما أنك لم تكن معنا ، فى أثناء بحث هذا الأمر ، وهى لا تعلم برغبتك بالسفر من عدمها ، لذلك تركت لك تدبيره .

فسحب أختى من ذراعها وأجلسها إلى جانبه على المقعد الكبير فى الصالة ، وهى مطواعة وغير مرعوبة مثلما فى السابق ، وكأن وراءها طوابير من العسكر لحمايتها ، فلم تعد تبالى به أو تأبه له .

قال :

ـ حسنًا ، يا (عاتكة) ، إذن فقد أصبحت فتاة غنية ، بين عشية وضحاها ، بل فى ومضة عين ، دون تخطيط أو تدبير منك لكسب الثروة ، يالك من فتاة محظوظة ، حسنًا ، قصى علىَّ كل شىء ، كل شىء عن جدتك ، كيف وجدتها ، وكيف جاءت ؟

وخشيت أن تخطئ أختى ، فيما لا يجب الحديث به .

فقلت له :

ـ دعها تجهز لنا الغداء ، وأنا سوف أقص عليك كل شىء ، إننا لم نطعم شيئًا ، والساعة الآن تزيد على الخامسة مساء ، لقد كنا فى شاغل عن أنفسنا ، مع السيدة (سارة) ، لم يكن فى ميسورنا دعوتها إلى الغداء ، لأننا لم نعد طعامًا يليق بتقديمه لها .

وفهمت (عاتكة) ما دعانى إلى ذلك القول فتملصت من قبضته متجهة إلى المطبخ .

وبما أنى كنت قد أعددت سلفًا كل مبررات الإجابة ، عن كل احتمالات الأسئلة ، التى سوف توجه لى من أخى ، وكان ذلك قبل مجيئه بثوانٍ قليلة ، حتى إنى لم أستطع تلقين تلك الإجابات إلى أختى ، ولذا فقد تابعت القول :

ـ إن السيدة (سارة) جاءت هذه المرة ، كما جاءت فى المرة السابقة ، تبحث عن حفيدتها ، فهى لم تعد تصدق قول والدتى بعد أن قرأت نعى أبى فى إحدى صحفنا القديمة التى وقعت فى يدها مصادفة ، فعرفت أن أبى لم يمت فى التاريخ الذى ذكرته والدتى ، عندما زارتنا السيدة (سارة) فى المرة الأولى ، فساورها الشك فيما ادعته أمى ، عن وفاة والدى فى ذلك الوقت فأتت تستطلع الأمر .

وهكذا عثرت على حفيدتها ، وتعرفتها ، هذا ملخص ما حدث فى هذا اليوم .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقال :

- يا للمصادفة الغريبة كيف وقعت بيدها تلك الصحيفة القديمة ، حسنًا ؛ مهما يكن من أمر ، المهم أنها أتت ، أتت بعد طول انتظار ، لا بأس ، هل فى استطاعتك تكليفها بالسعى لعمل وثيقة سفر لى ، كما هو الحال معكما ؟

فقلت :

- كلا ، كلا ، لن نثقل عليها ، يجب أن تقوم بهذا العمل لنفسك ، إننى خجلة من طلب شىء كهذا .

واستأنفت :

- ربما لأننا فتاتان ، أرادت أن تجنبنا العناء ، ثم إن لديك عملك ، ما أنت صانع به ؟ وكيف تسافر معنا ، قبل أن ترتب أمورك بهذا الخصوص ؟ يتعين عليك أن تتقدم بطلب إجازة منه ، حتى لو كان ذلك بدون مرتب ، أو به ، حسب ما يتيسر لك .

فقال وكأنه تذكّر فجأة :

- وعملك أنت ، ألم تفكرى به ؟

فقلت :

- ليس مهمًا لى ، لقد عزمت على تقديم استقالتى منه ، سألحق بأختى أينما تكون ، إنه يتعين على رعايتها ، ولن أتخلى عنها بوضعها الجديد ، الذى لا أعرف كيف ستعيشه .

يا له من انفراج جاء ليخلصنى من المأزق الذى وضعت نفسى فيه ، كم أنا مسرورة لدرء أمر فصلى من عملى عن الوصول إلى أسماعه .

كنت أقول هذا لنفسى عندما سمعته يرد بنوع من الحسد :

- أواه ، استقالة مرة واحدة ، إذن فأنت واثقة ، بل لا بد أنك مليئة اليد ، لكى تقررى ذلك ، لم أكن أعرف أنك ذات دهاء ، وتخطيط رهيب إلا الآن ، أخذت الفتاة الثرية فى أحضانك ، وتحت رعايتك وحمايتك ، منذ أن كانت صغيرة ، كل هذا فى انتظار هذه اللحظة .

لم أعد خائفة من شىء ، لقد استعدت طاقة القوة فى مجابهته بعد هذه التغطية على ما كنت أخفيه ، فزجرته بعنف :

- أنا لست أنت ، ليست لى طرائقك فى التفكير ، ولم يعن لى فى أيما يوم أن أنظر إلى الأمور بمثل هذه النظرة ، ثم إنى كنت صغيرة السن مثلها ، ولم أكن أعلم من أمرها شيئًا ، عندما بادرت إلى رعايتها ، إلى أن كبرنا معًا . أم أنك تتجاهل عامدًا محبتى الحقيقية لها ؟ ولكن ثق أنى لن أسمح لمثلك ، أن يصطاد فى الماء العكر ، وإياك والعودة إلى مثل هذا المنحى من الحديث معى مرة أخرى .

وأضفت كما لو كان بيدى تقرير الأمر :

- أنا أرى أنه من الأفضل أن تبقى هنا ، أجل يستحسن أن لا ترحل معنا ، كى لا تحدث أية مشكلات بسبب من طمعك ،

Looloo
www.looloolibrary.com

فأحلامك لا تنى تدور حول المدى الذى يكون فى مقدورك استغلال وضع أختك الصغيرة فى عائلتها الجديدة القديمة ، وبما أن ذهابك معنا مرهون بموافقة السيدة (سارة) ، ولذا سوف أحدثها بهذا الأمر ، أجل لا داعى إلى سفرك معنا .

فصرخ متوسلاً :

ـ كلا .. كلا .. أرجوك (سعاد) ، لا تكونى مجنونة ، لاتكونى حجر عثرة فى طريقى ، إنك تضيعين الفرصة على ، إنك تضعين العراقيل أمامى ، لا تنسى أننى أخوك أكثر منها ، أكثر من هذه الـ (عاتكة) ، ثم إنى كنت أمزح ، أمزح فحسب ، لن أنبس بما يغضبك أو يغضبها ، ثقى .. ثقى ، سوف أعمل الثروة بمجهودى الخاص ، ثقى ليس لى مطمع بأحد إطلاقًا .

فقط دعينى أذهب إلى بلاد الذهب الأسود ، مادامت الفرصة مواتية .

وقد بر بوعده ، فلم يتعرض إلى أختى إطلاقًا ، بعد ذلك .

* * *

ـ ١٧ ـ

منذ ما يقارب العام ، والأشياء لا تزال تحتفظ بجدتها فى ناظرى ، ليس الأشياء فحسب التى بقيت محتفظة بجدتها كل هذه المدة ، بل الناس وطبائعهم أيضًا ، لقد كانت من الغرابة فى نفسى على غير ما ألفته من العيش السائد مع بنى موطنى ، الذى بات بعيدًا عن موطئ قدمى الآن .

الأمر الذى حدا بى فى الساعات القلائل التى أفرغ بها إلى نفسى من دوامة العمل التى أخذتنى أخذًا محمومًا دون استعداد منى ، إلى ترديد القول :

إذن هذه هى الدولة الغنية التى نشأت نشأة مستأنفة ، بعد تدفق الذهب الأسود فى أراضيها ، فبات يتكالب على دخولها الناس .

ولى من تجربتى وأختى المزيد من العلم بالمعاناة التى يتعرض لها من رام دخولها . كم هى غير نمطية ومختلفة عما عهدته من أنماط العيش فى بلدى .

هذه المدينة التى عشقها والدى ، وكرهتها والدتى إلى حد المقت .

لقد تأيد لدى ، أن كل ما ذكره مؤلف (مذكرات خادم) ، لم يكن يعدو الحقيقة أبدًا ، ناهيك ، ما تحدث به عن تلك الكبرياء ،

Looloo
www.looloolibrary.com

وذلك الصلف ، تينك الصفتين ، اللتين هما من أبرز ما يميز هذا الشعب المتعجرف ، عن غيره من بقية الشعوب ، إذ لم أر فى حياتى من يتملكه الغرور ، أكثر إفراطًا منهم .

هل هى الوفرة المادية ما يخلق الفظاظة والخشونة فى طبائع الناس ؟ وهل الفقر والحاجة ما يخلق التواضع ؟ أكاد أومن بذلك .

مما لاحظته من مبدأ قدومى إلى هنا ، أن هذه الصفات كانت عامل نعمة وحقد كبيرين ، ينصبان على هامة أهل هذا البلد ، من أولئك الأجانب من الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، وتحت إمرتهم ، مضافًا إليه ذلك الثراء الفاحش الذى يعم الجميع ، مؤديًا إلى إثارة ذلك الحسد فى قلوب من يتعايش معهم ، أولئك الحشد الآتى من مختلف أنحاء الكرة الأرضية ليملأ يده ذهبًا ولو بقدر قبضتها .

كل ذلك كان يستحوذ على انتباهى جل الوقت ، وكان مما يضاف إلى ما يثير عجبى ، أن الوافدين من طالبى الاسترزاق يمثلون ثلاثة أضعاف السكان الأصليين ، يالها من تركيبة سكانية غريبة لم أر مثيلاً لها فى حياتى مطلقًا .

سألت أحد مواطنيهم ، فقال :

ـ إننا لسنا بحاجة إلى هذا الكم الكبير من الوافدين ، غير أنها اتفاقية إنسانية غير مكتوبة تتطلب توزيع جزء من الثروة التى انصبت بين أيدينا على إخواننا العرب وغيرهم أيضًا .

وكان الأغرب من كل هذا ، أن أختى التى تربت محنية الهامة ، تصدع لكل أمر يصدر إليها ، دون قدرة منها على الرفض ، أو حتى المراجعة فيه ، فضلاً عن مناهضته ، طيلة سبعة عشر عامًا مضت من عمرها ، سرعان ما اكتسبت تلك الصفات من أهلها ، قبل مضى وقت طويل على بقائها بينهم ، حتى بزتهم ، بل تفوقت عليهم فيما أرى ، فقد بدا لى وكأن تلك الصفات عامل وراثى لا بد أنها كانت مجبولة عليه ، وأنه كان كامنًا فيها ، لم يكد يجد المناخ الملائم ، حتى برز فى الظهور فبزتهم جميعًا .

وعلى الرغم من أن أختى لم تحصل على ما يؤهلها ، لاستعادة مواطنتها لبلدها الحقيقى .

وهنا يتعين علىّ التوقف للحديث ، عن تلك الأحداث المؤلمة المثبطة ، التى تعرضت لها أختى المسكينة ، والتى لا سبيل إلى وصف وقع أثرها على نفسها ، والذى لم يتوقع أى منا ، أنها سوف تحدث لها ، عندما كنا فى بلدنا القديم ، وقد أضفت عليها ظلالاً قاتمة أثقلت كاهلها وما فتئت مرافقة لها ، ولا أظن إلا أنها ستزرح تحتها طيلة حياتها ، والتى أصابنى منها ما أصابنى ، مما يصعب علىّ تقييمه ، إن كان سلبًا أو إيجابًا ، وربما بقدر متساو من كليهما ، نتيجة لما نالنى من الرخاء المادى ، الذى لم يراود خيالى فى أيما يوم مجرّد مراودة أن فى الإمكان أن أرتع به .

Looloo
www.looloolibrary.com

أو لذلك الألم الذى كان يؤرقنى الليالى ، فأبيت مسهدة تتقاذفنى أمواج عاتية من الندم ، خشية أن أكون قد تسببت فيما تعرضت له أختى من إحباط وضياع الهوية ، بسبب من تلك العوامل الخارجة عن إرادتنا جميعًا ، تلك التى أفضت إلى إنكار انتمائها إلى بلدها الجديد ، بعد أن أسقطت كل حقوق لها فى حق الانتماء إلى بلدها السابق .

كان ما قاد إلى ذلك فرط ذلك الفرح التى انتاب أختى لعثورها على أولئك الأهل ذوى العراقة والثراء ، فكان أن دفعت بها الرغبة العارمة إلى التخلص من كل ما يمت لها بصلة فى حياتها السابقة ، التى ذاقت بها ما ذاقت من المذلة والهوان ، وكان ما نجم عن تلك الرغبة التى تملكتها عنوة ، أن بادرت إلى الذهاب إلى (سفارة) بلدها السابق وأسقطت انتماءها إليها بطلب خطى ، وإعادة كل الوثائق التى تثبت ذلك الانتماء ، فعلت ذلك دون استشارة أىٍّ من كان من أقاربها حتى جدتها .

ثم عادت بعد ذلك إلى جدتها تفاجئها فرحة بما عملت ، قائلة بفجاجة أحرجتنى وإن أنس لا أنساها .

ـ ها ، جدتى ، لقد تخلصت من ذلك الانتماء إلى ذلك الموطن الكريه .

فسارعت الجدة الطيبة إلى الاعتذار عنها ، ملتفتة إلىّ على عجل قائلة :

ـ اعذريها يا بنيتى ، إنها لا تدرى ما تقول ، إنها تريد أن تبرهن لذويها على رغبتها الشديدة فى الانتماء إليهم ، تريد الاندماج والانضواء فى عائلتها التى ضاعت منها طويلاً .

وشعرت بالحرج مرة أخرى عندما التفتت تلك الجدة الطيبة إلى حفيدتها معنفة :

ـ من لم يشعر بالوفاء لبلده السابق لن يشعر به تجاه بلده الجديد ، إياك والتلفظ بما يسىء إلى بلدك الذى رباك .

فقلت معتذرة بدورى عن أختى :

ـ لا عليك .. إنى أفهمها ، ففرحتها لا تدع لها مجالاً للتروى .

فضحكت أختى وأقبلت تقبلنى ، وهى تقول بترضية :

ـ أنت لست منهم ، أنت منا .

ومن ردها هذا علمت أنها لم تلق آذانًا صاغية إلى ما قالته جدتها من نصائح ، وقد صدق ظنى ، فما أقسى ، وما أبشع ما أسمعتنى إياه بعد ذلك ، من الألفاظ المؤلمة المنددة بعائلتها القديمة .

كانت هذه الواقعة أول سبب لبادرة الشماتة التى شعرت بها نحوها فيما بعد ، عندما رفض كل طلب تقدمت به من أجل انتمائها لبلدها الجديد .

أجل .. فبعد أن تخلت أختى المسكينة عن كافة ما لها من حقوق فى بلدها السابق ، الذى نشأت فيه ، ونمت وترعرعت

Looloo
www.looloolibrary.com

داخله ، فأعادت كل الوثائق الرسمية مما يثبت انتماءها إليه ، وأسقطت مواطنتها له بعد أن فعلت ذلك كله ، قامت فى وجهها صعاب جمة لا حصر لها ، ولا يمكن تذليلها فى سبيل الحصول على مواطنتها لبلدها الجديد .

لقد تبين لجدتها حين ذاك مايكتنف جهودها من صعاب تعجز عن تذليلها وتحول دون إثبات مواطنة حفيدتها إلى دولتها .

على الرغم مما بذلته تلك الجدة الطيبة من جهد يفوق طاقة من كان بمثل سنها ، لقد كلّت من السعى فى الدوائر الحكومية ، فى سبيل إثبات ذلك الانتماء لابنة ابنتها دون جدوى .

لقد كانت النصوص الجامدة للقوانين البشرية تحول دون ذلك ، تلك القوانين التى كانت دائمًا تطبق بحرفية تامة ، تطبيقًا خاليًا من الروح الإنسانية ، قامت حجر عثرة ، وحالت دون كل محاولة من هذا النوع .

ولم تكن الجدة الصمود لتكف عن محاولاتها المستميتة ، ولم تكن لتقر بالعجز ، لو لم يكن ما تريده حافلاً بالعناء ، الذى ليس لقدراتنا الشخصية ولا المادية ولا لنفوذها الواسع طاقة على تخطيه .

وعندئذ كفت الجدة فى نهاية المطاف وأقرت بالعجز ، عندما رأت أن ما تبتغيه ، كما لو كان يحول دونه خرط القتاد .

أما أنا ، فعلى الرغم من السهاد الذى ينتابنى قلقًا على مصير أختى فى بلدها الجديد ، وعلى الرغم من مشاعر المودة التى تزخر بها نفسى تجاهها آنذاك ، وعلى الرغم أيضًا من المنى التى كانت تجتاح نفسى الليل مع النهار ، فى سبيل استقرار انتمائها لبلدها الجديد ، مع كل هذا الذى كان يعتمل فى صدرى ، إلا أنى لا أخفى سرًا إذا قلت : إن الشماتة كانت تدب فى نفسى دبيبًا بطيئًا بما لا يكاد يشعر بها ، وأنا أرى ذلك التبدل الذى طرأ على طباع أختى ، وفى علاقتها بى خاصة ، فأضفى عليها طابع الخشونة والقسوة فى تعاملها معى معززًا بفوقية مغرورة ، أجل ، ولا أخفى سرًا ، إذا قلت : إنى شعرت بنفور طفيف تجاهها ، عندما تبدى لى أن لها طباعًا فظة لئيمة ، وأنها ليست تلك التى يعول عليها فى الوفاء بالجميل ، أو أنها ستحقق مايؤمل منها ، عند تعرض الذين يحبونها إلى الملمات ، وقد باتت طبائعها واضحة أول مابانت ، عندما تنكرت إلى البلد الذى احتضنها صغيرة ، والذى ليس له ذنب ، فيما عانته من آلام طفولتها ، فكان أول من أصابه إنكارها .

والأنكأ من ذلك ، أنه على الرغم من عطفى عليها صغيرة ، وحنوى عليها يافعة ، فقد طالنى ماطالنى من عدم وفائها ، فكنت أول من أنزلت به عجرفتها ، وطبقت عليه ذلك الصلف .

إذ لم تلبث سوى القليل بين ظهرانى مواطنيها وفى أحضان ذويها ، حتى تطبعت بطبعهم ، فأخذت تشمخ بأنفها عاليًا فى

Looloo
www.looloolibrary.com

كل تعامل لها معى ، باتت عندما تحدثنى ، أو تستمع لى ، تحاول أن تبدو لى فى هيئة شامخة فى غير مداراة ، وكأنها تتنازل لمن هو أدنى منها منزلة .

وكان ذلك التصرف منها مؤسيًا لى حقًا ، وداعيًا إلى حيرتى ، وقد أحزننى أشد الحزن ، ناهيك ، وأنا لا أعرف له تفسيرًا ، ولا أرى له موجبًا ، مما دعانى إلى التساؤل ، عما سيئول إليه الحال منها ، لو أنها حصلت على مواطنتها لذلك البلد الغنى .

وقد تبادر إلى ظنى ، أنها ربما كانت تنزل عقابًا خاصًا بى ، كانت تضمره متراكمًا ، كل تلك الأعوام الماضية ، وتواريه تحت ذلك الضعف ، الذى يتحتم عليها إبداؤه ، فى أثناء ما كانت ينوء كاهلها ، بتلك المعاناة ، التى تعرضت لها من والدتى .

وها هى ذى الآن ، بعد أن نالت قسطًا من الحرية ، ووجدت متنفسًا ، بدت وبرزت الطباع التى هى عليها ، لقد ظهر معدنها الحقيقى .

هذا ما كنت أسره لنفسى ، وقد أخذتها باللوم ، لئلا أكون قسوت على والدتى عندما لم أظهر لها تصديقًا ، وهى تشكو لى معاناتها من تلك الطباع اللئيمة ، كما كانت تصف طباع أختى .

محصلة القول ، أن أختى بقيت منتمية لبلدها الأصلى رافضة بإصرار شديد ، إعادة الانتماء إلى بلدها القديم ، مبدية

حقدًا هائلاً عليه ، وعلى كل من يمت له بصلة ، لاعنة إياه وأهله لعنة أبدية ، كما كان يرد على لسانها ، مستعملة لذلك أقذع ألفاظ السباب وأقساها وقعًا على الأذن وأكثرها إيلامًا للنفس ، فكنت أفكر أن لو تحول أى من تلك الألفاظ إلى مادة حارقة ، لكانت حرية بأن تصهر أقوى المعادن مقاومة للانصهار .

بيد أنه على الرغم من كل ما صدر منها ما برحت مغرمة بها ، أكن لها كل ما فى نفسى من عاطفة الأمومة ، فقد تمنيت بشدة ، لو أنى جنبتها هذا الوضع ، الذى هى فيه ، وجنبت نفسى نأيها عنى ، الذى أخذت بوادره تظهر هذه الأيام ، وقد يستفحل فى المستقبل .

ولكن لندع ذلك إلى ما تسفر عنه الأيام القادمة ، المسرفة فى التعتيم على قدرتنا على الاستشفاف لما هو مقبل علينا من أحداث ، فلا أحد فى مقدوره العلم بما تخبئه له الأقدار ، ولعله لو عرف ، لربما كان فى ميسوره تدبر أمره ، نحو الأفضل ، ولكن من أين له أن يدرى .

قلت ، إن الجدة (سارة) بذلت قصارى جهدها ، فى محاولة ، تلو المحاولة ، لإثبات نسب أختى إليها ، ولكن عبثًا ، فقد ذهب كل ما كانت تسعى إليه أدراج الرياح ، لقد كان من العسير عليها تقديم أدلة مادية تؤيد ادعاءها نحو انتماء أختى إليها . فلم يكن لدى أختى ما يثبت شخصيتها الجديدة ، سوى أقوال

Looloo
www.looloolibrary.com

مرسلة من جدتها ، لا تجدى نفعًا فى مثل هذه الأمور ، مادام أنه ليس لها ما يؤيدها من مستندات ورقية ، بل على العكس من ذلك ، فشخصيتها الورقية قامت حائلاً ، بين أختى وبين ما تدعيه جدتها من نسبها إليها ، فالأوراق التى كانت فى حوزة أختى تنفى كل حق لها فى انتمائها إلى هذا البلد .

وكان كل ما يعول عليه ، فى مثل هذه الحالة ، شهادة الشهود ، المتمثلة فى شهادة خالها وجدتها ، أما أنا وأخى فقد استبعدت شهادتنا ، لشبهة الاستفادة ، التى تعود على أختى ، لو كانت أختًا حقيقية لنا .

فما كان من الخال ، وقد أنيط الأمر به فبات فى قبضته ، وهو مع هذا يعلم أن شهادة والدته لن تجدى نفعًا ، وهى منفردة ، ناهيك عن كونها لاتعدو نصف شهادة الرجل ـ ما كان منه ، إلا أن رفض بصورة قاطعة ، الإدلاء بأية أقوال لصالح أختى ، وأبدى صلابة شديدة ، تجاه توسلات والدته ، رافضًا بكل إصرار ، الاعتراف بأن أختى ابنة لأخته ، حتى لو كان ذلك من باب الاحتمال أو الظن .

بل لم يقتصر الأمر على مجرّد الرفض لما بدا من رغبة لوالدته ، فقد أثار معركة حامية مع أمه ، مبديًا شكوكًا قاسية ، حول أن تكون هذه الـ (عاتكة) ، كما كان يصر على تسميتها ، ابنة لأخته المتوفاة .

وقال فى معرض دفاعه عن موقفه ذاك ، إنه نتاج لشدّة لهفة والدته الناجمة عن رغبة عارمة لإيجاد الابنة الضائعة ، مما دفعها إلى التشبث بهذه الظنون ، ثم لم تع ، إلا وقد صدقت نفسها .

وفى مرة تالية ، فى مشادة أخرى مع والدته ، سمعته وهو يشكك بأكثر من ذلك ، ناعتًا إيانا أنا وأختى بالمحتالتين الدعيتين ، اللتين استغلتا واقعة فقد الطفلة ، فحضرتا يعرضان نفسيهما ـ يقصد أنا وأختى ـ بادعاء أن الصغرى هى الطفلة المفقودة ، لتقاربها فى السن مع ابنة أخته ، خصوصًا وأن والدته من أبلغته بذلك ، عند أول زيارة لها إلى منزلنا ، ونحن بعد لا نزال طفلتين .

وقال فى تأكيد أكثر صرامة ، مبررًا عدم تصديقه لما ندعيه :

ـ إنه لو كان الأمر حقيقيًا ، لما صبرنا كل هذه المدة ، ولكان المهندس (نبيل) أتى بنفسه ، ليعيد الطفلة وهو على ما هو عليه من أخلاق عالية ، لن يرتضى أبدًا الغش أو التدليس ، ثم ما حاجته لهذه الفتاة الغبية إن لم تكن ابنته حقًا ، أو لأفصحت زوجته عن وجود الطفلة لديها ، ولم تدع وفاتها ، وهى تعلم ما ينتظر ربيبتها من الغنى .

وقال ، إن الأمر لايعدو كونه مجرد عملية احتيال ، من فتاتين دعيتين .

Looloo
www.looloolibrary.com

واستمر مبقيًا على موقفه هذا ، مصرًا عليـه ، لا يريم عنه قيد أنملة ، علـى الرغم مـن توسلات أمـه ، وعلـى الرغم مـن معرفته المسبقة ، بأن والدى عندما كان يعمل لديهم ، لم يكن معه سوى طفلين ، أنا وأخى ، وعلى الرغم ، من كل الملابسات الأخرى ، التى كانت تشهد بصحـة ما تدعيه ، كشـهادة ميلاد أختى ، التى بدا من تاريخها أنها لم تسجل ، إلا فى تلك الدولـة المجاورة أيام الحرب ، ولها من العمر أربعة شـهور ، وكـان ذلك فى يوم الهروب الكبير ، كما يدعوه والدى ، وعلى الرغم ، من شروحات والدته للملابسات ، التى دعت إلى خوف والـدى ، من كشف وجود أختى لديه ، وعلى الرغم ، من صورة أختـى الملصقة بوثيقة السفر ، الخاصة بوالدتى ، وهى فى سنها وثيابها تلك ، عندما خرجت محمولة على ذراع والدتها ، فى أثناء عملية ذلك الهروب فى ذلك اليوم الرهيب ، كل هذا مرفق بالشبه الواضح الذى كانت عليه أختى بأمها وجدتها .

ولكنه على الرغم ، من كل ذلك ما برح لا يأبـه لما تقول ، وقد صم أذنيه ، لا يريد أن يصدّق ، أو أنه يؤثر الادعاء بعدم التصديق ، ويدعو والدته بإصرار إلى جعلها كذلك أيضًا .

* * *

بيد أن الأمر ، بدا واضحًا لافتًا لوالدته ، كما كان واضحًا لافتًا لنـا ، أنا وأختـى ، أن وراء ذلك الإصرار على الرفض وعدم التصديق ، خوفًا مستترًا ، من مشاركة ابنة أخته الإرث

فى ثروة والدته العريضة ، لقد كان مرعوبًا من أن تنال نصيب أمها الشرعى .

أما أنا ، فقد بدت مخاوفى السابقة الناجمة عن خشـيتى من جراء المشاكل والصعاب ، التى قد تحدث لوالـدى ، فى حالـة إعادتها لذويها فى حياته ، بدت باهتة وغير ذات شأن ، بالنسبة لما تتعرض له أختى الآن من مشاعر الضعة التى تحيط بهـا من جـراء إنكارها من أقرب النـاس إليها ، وقد قلت لنفسى ساخطة ونادمة : ليتنى جنبتها مشقة هذه الآلام ، ولكن ما كـان بيدى ، سوى ما فعلت ، وقد بدت لى تلك الأمـور فى وقتها ، وكأنه ليس لى بد من إخبارها عن ذويها .

وهكذا سلمنا نحن الثلاثة ، أنا وهى والجـدة معنا ، أنـه لن نظفر بطائل من أية محاولة بهذا الشأن ، وأنه لم يعد شىء مجديًا من محاولة إعادة الأمور إلى نصابها ، بعد أن استعصى انتزاع شهادة الخال العنيد ، مع عدم وجود الإثبات الورقـى ، لما يؤيد حالتها الذى كان يمكن الاستغناء به عن كل ما عداه .

المهم ، فى الأمر كله ، أنه بعد ذلك الفشل الذريع ، الذى صاحب محاولات الجدة الطيبة ، أصابها اليأس منه ، وأعرضت عن كل محاولة بهذا الصدد ، غير أنها فكّرت بطريقة مغايرة تمامًا ، أرادت بها أن تعوض بها حفيدتها ، عما ألم بها ، مما لم تستطع حياله شيئًا ، فعزمت على أن توفر لها الأمان المادى ، مما يتيح لها حياة رغدة تعوضها عن الفشل ، فى الحصول

Looloo
www.looloolibrary.com

على كنف الرعاية وهى طفلة ، وعن عدم ضمان الانتماء لها وهى شابة ، وأيضًا كتعويض لها عن نصيب أمها ، فيما يجب أن تناله من الإرث ، لو لم تقتل فى ذلك الحادث الأليم .

من أجل ذلك كله ، قررت الجدة ، أن تهب حفيدتها ثلث ثروتها .

ولكن ما كادت السيدة (سارة) تشرع ، فيما أزمعت به ، حتى اكتشفت ، أن حتى هذه المحاولة الجديدة ، لا تجدى نفعًا هى الأخرى ، فقد اصطدمت بنفس العقبة الكأداء السابقة ، وهى عدم وجود المستندات الورقية ، التى تحقق الشخصية لحفيدتها لكى تهب لها ما تشاء .

* * *

فى هذا الوقت بالذات استعر ذلك الحقد الهائل الذى تكنه أختى لذويها الذين كانت بين ظهرانيهم ولبلدها الذى رباها . لقد تبين لى ذلك الحقد الهائل عندما شرعنا أنا والسيدة (سارة) ، تارة مجتمعتين ، وأخرى منفردتين كل من جانبه ، فى محاولة دائبة لإقناعها ، لاستعادة أوراقها القديمة ، التى تحقق لها الانتماء إلى بلدها الذى رباها ، ولكى تهب لها جدتها من الأموال ما تشاء ، فقدمت لها النصيحة المرة تلو الأخرى ، مبصرة إياها بالخير الوفير الذى سوف ينالها ، من جراء تحويل جزء من أموال جدتها إلى ملكيتها ، وما عليها سوى استعادة اسمها القديم ولكنها بكل تهور ، وعدم تبصر ، وبإصرار شديد ، وبعناد

كعناد التيس الحرون ، رفضت الإذعان إلى أى توسل أبديناه ، لقد كان يحدوها نزوع غير عقلانى ، يجعلها ترفض بكل سخط أى مغر مهما جل شأنه ، يجبرها على معاودة الانتماء إلى ذلك البلد ، الذى تنتمى إليه أسرتها القديمة ، وكأنها بذلك الرفض ، تعبر عن انتقامها ، وكانت أحيانًا تبدو لى كما لو كانت تعيش لذة الظفر وهى تتمتع بالقدرة على الرفض والتخلص من كل ما كان يربطها بالسابق ، فكانت كلما ألحفنا أنا وجدتها بالنصح ، أبدت لنا من ضروب العناد ما لا سبيل إلى التغلب عليه ، لقد كانت مشاعرها تتداعى سخطًا وبرمًا بما كانت تعانيه ، من وطأة ذلك النير المسلط عليها من والدتى فى عهد طفولتها ، ولذا لم تأبه بما كنا نبديه لها من حجج لثنيها عن ذلك الرفض الذى لن تظفر منه بطائل أبدًا .

فكنت أرثى لها ، ولكن على الرغم من ذلك كنت أرى بتصرفها ذلك دلالة كبيرة على الغباء الذى تتمتع به ، ولم أستكثر عليها بعد ذلك صفة البله ، تلك التى أطلقتها عليها والدتى .

ولكنى مع ذلك استمررت فى محاولات عدة دائبة لعلى أتيح لها فرصة أخرى لتغيير قناعها ، وبالتالى تغير موقفها ذاك .

بيد أنى توقفت عن محاولاتى بعد وقت قصير ، عندما لاحظت ما أدهشنى من موقف مستجد لجدتها ، لقد لاحظت أنها لم تعد تحفل بموقف حفيدتها الرافض ، ولم أعرف السر حين

Looloo
www.looloolibrary.com

ذاك ، لقد عجبت لأمرها فحسب . فبعد ذلك الحماس الشديد وذلك الإلحاح الأشد الذى كانت الجدة تمارسه على حفيدتها فى سبيل استعادة مواطنتها القديمة ، أراها وكأنها باتت متفهمة لتلك الدوافع التى حدت بها إلى الرفض ، مقدرة لجيشان عواطفها نحو ما نالها من ظلم فى طفولتها ، يحدو بها إلى ذروة الفزع من مجرّد التفكير بالعودة إلى عالم أهم ما يشقيها منه التفكير بالانتماء إليه ثانية ، كانت هذه هى الأسباب التى تذرعت بها الجدة .

فخالجنى ظن بأن الجدة إما أن يكون افرغ ما كان بيدها مما أزمعته من محاولة إسعاد حفيدتها ، أو لعله يتواءم مع ما تعتذر به لنفسها ، وقد ساورها الندم على ما كانت ستشرع فيه ، لذا وجدت الخلاص برفض الحفيدة .

هذا ما أسررت به لنفسى خفية .

أما أنا فلم أعط أختى العذر ولم أفهمها كذلك الفهم الذى أولتها إياه جدتها . فعلى الرغم من معايشتى لها فى معاناتها ، فلم يكن فى ميسورى أن أخلق لها الأعذار فى مناصبة بلدها ذلك العداء . واعتبرت أن ذلك الموقف الذى اتخذته أختى ، يعبر عن غباء شديد لم تقدر عواقبه ، واعتبرت أيضًا ، أن ما مضى من تصرف لوالدتى تجاهها لا يستدعى كل ذلك الحقد الأسود الذى تشعر به تجاه بلدها القديم وتجاه كل من يمت له

بصلة ، حتى كاد غضبى منها ينقلب إلى حقد عليها ، لو لم أكن لها من محبة كبيرة ، مستعصية على الانقلاب .

وربما يكون معها الحق ، فيما تشعر به ، وربما أيضًا كان خليقًا بى أن أتخذ موقفًا مؤازرًا لها فى مشاعرها ، لو لم تكن تلك التى عذبتها هى والدتى ، ومهما كان من أمر ، فقد حزنت على ضياع الفرصة من أختى لامتلاك ثروة هائلة لم تقدرها أبدًا .

ثم حدث ما لم أتوقعه إطلاقًا ، مما قلب الموازين رأسًا على عقب ، فى كل ما يتعلق بأفكارى تلك ، بل وفى حياتى الخاصة ، وحتى فيما يتعلق بعلاقتى مع أختى ، فيما تلا ذلك من أيام .

ولكن لندع ذلك إلى حينه .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ١٨ ـ

كنت ومنذ أن وطئت قدمى هذه الأرض القاحلة من النبت ذات هواء السموم اللافح فى الأيام الصائفة العاصفة ، أو القرّ الشديد فى أيامها الشتوية القصيرة مما يصعب احتماله ، لو لم يسح من ذهب أسود فى أراضيها المنبسطة كراحة اليد ، جالبًا معه ذلك الثراء الفاحش الذى أغرق البلد منذ عقود قليلة ، فجعل العيش على أراضيها محتملاً ، بل تشوبه لذة الترف والحياة الناعمة .

منذ اليوم الأول لقدومى إلى هنا والسيدة (سارة) تحتضننى ، كما لو كنت حفيدة أخرى لها ، لقد كنت أساكنهم (الفيلا) الواسعة ، البالغة الفخامة ، باعتبار أنى أخت للحفيدة المدللة .

ولعل مما يستدعى ذكره بأمانة حقيقية ، أن السيدة (سارة) لم تشعرنى مطلقًا بأية تفرقة فى المعاملة ، بينى وبين أختى ، إلا فيما يخص لمسات الحنان التى تبدر منها خارجة عن طاقتها ، وتلك القبلات التى كانت تمطرها بها فى إغداق كبير وبلا حساب ، وكأن تلك السيدة الطيبة ، كانت تعوض عليهما معًا ، هما الاثنتان كل ما كان فاتهما من قبل .

وكانت تلك القبلات المنهمرة ، كرخات المطر ، من فم الجدة على وجه حفيدتها ، وخديها ، وجبينها ، وذراعيها ورقبتها ،

تعيدنى إلى الوراء إلى أعوام مضت ، مذكرة إياى ، بما كانت تفعله والدتى معى ، عندما كنت طفلة ، عدا فارقًا بسيطًا بينى وبين أختى فى حالة التلقى لتلك القبلات ، لقد كان داخلى يمور بالحبور ، من جراء تلك القبلات ، التى تمنحنى إياها والدتى ، مما يجعلنى أتعلق برقبتها ، لأرد لها الصاع صاعين .

أما أختى ، فقد كنت ألاحظ ما لا أملك له تفسيرًا ، يعلل ما أشاهده على وجهها ، من أمارات التقزز والنفور ، وهى تتلقى تلك القبلات من جدتها ، والتى ما كانت لتبدو على ، لو أننى تلقيتها بدلاً منها ، على الرغم من أن تلك الجدة الطيبة ، لا تمت لى بصلة .

وكنت أحيانًا ، آخذ الأمر على علاته ، وأحيانًا أخرى أحاول تفسيره ، على أنها قاسية الوجدان ، ذات طباع موغلة فى التوحش ، لا تعرف هذا النوع من مظاهر الحنو لما تعرضت له فى طفولتها من جفوة ، ولذا لا تستجيب لتلك العواطف الجياشة لأنها لم تعتد عليها .

وكنت أرتعد فرقًا وخوفًا من أن تلاحظ الجدة ، بعضًا من تلك العلامات . غير أن الجدة المسكينة كانت مشغولة بعواطفها ، لا تبحث عما عداها ، أو ربما لأن أختى كانت تجيد المناورة فى إظهار عواطفها ، فهى لا يبدو عليها ما يبدو ، إلا عندما يكون وجهها بعيدًا ، عن مرمى البصر من جدتها ، أى عندما

Looloo
www.looloolibrary.com

يكون فى وضع التخالف مع وجه الجدة العطوف . أما ما عدا ذلك فقد كانت أختى بارعة فى تمويه عواطفها .

ومع هذا ، فإنه لم يخطر لى على بال قط ، ولم أكن قادرة على التصور إطلاقًا ، أن أختى لا تبادل جدتها تلك العواطف الغامرة الجياشة ، لم أعرف ذلك إلا بعد أعوام عدة .

ولكن لندع ذلك الآن ، ولنعد إلى ما نحن فيه .

لقد ذكرت ، أنى كنت أسكن معهم ، فى تلك (الفيلا) الفخمة ، التى ما كنت لأحلم فى المبيت فيها ولو لليلة واحدة ، وأنا فى دارنا المتواضعة ، بين أمى وأبى ، مما أفضى إلى التيسير فى توطيد علاقة متينة البنيان ، فيما تلا من أيام ، بينى وبين الجدة (سارة) ، لم يحد من قيامها فارق السن الذى كان بيننا ، كما لم تقلها أية جفوة ، حدثت فيما بعد بينى وبين حفيدتها ، تلك الجفوة التى قادتها أختى بمفردها ، والتى أدت إلى خلق تلك المشاكل ، التى لم يرتق لها فتق أبدًا .

وكان من نتيجة تلك العلاقة القوية التى نشأت وتوطدت على مر الأيام ، أن السيدة (سارة) ، كانت كثيرًا ما تسر لى خفية بهمومها ، وبما تحمله من أعباء التفكير فيما يتعلق بأختى .

لقد كانت تشكو لى من القلق ، الذى ينتابها الليل مع النهار على مصير ابنة ابنتها ، وأنها أحيانًا كثيرة تصاب بالأرق ، لما

سوف يصيب الفتاة (سارة) ، فيما لو جرى لها شىء — أى الجدة — .

وكانت تتابع ، وهى غارقة فى بحيرة حيرتها :

— إنها لا تدرى ، كيف تؤمن لحفيدتها حياة رغدة ، مستقلة آمنة ، تخلو من العوز والحاجة ، بعد كل تلك المحاولات العقيمة ، التى حاولتها فى عملية إثبات نسب حفيدتها إليها ، أو حتى فى محاولة إعادتها إلى ما كانت تنتمى إليه سابقًا ، وهى تصر على الرفض — كانت تعنى أختى — .

ثم أردفت قائلة بنفاد صبر :

— إن أشد ما يؤرقنى ، ألا يكون فى ميسورى تأمين مستقبل مادىٍّ مضمون لحفيدتى يغنيها عن الحاجة ، ناهيك وهى لم تتلق تعليمًا يعينها فى الحصول على عمل ما ، فى الوقت الذى ترى نفسها أنها فى حاجة إليه .

ثم استتبعت هامسة كما لو كان ثمة من يسترق السمع إلينا :

— أظن أن بلدها القديم سيرفض إعادتها إليه ، بعد أن أعادت له كافة أوراقها التى تنتسب بها إليه ، ما رأيك ؟

فقلت :

— لا أدرى .. لنجرب ، سأحاول التحدث معها مجددًا .

فقالت العجوز :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ كلا ، مادام أنها ترفض فى كل مرة ، فإنها سترفض مجددًا ، لافائدة من المحاولة ، ثم ألا يحتمل أن الرفض قد يأتى من بلدها القديم أيضًا ، فلا يستبعد أن يرفض إعادة أوراقها القديمة التى تنازلت عنها ، وحينئذ سوف تشعر بأنها منبوذة من الجميع ، كلا لندعها على موقفها من بلدها القديم ، لتظن أنها وحدها من يمتلك الرفض أو القبول .

قولها الأخير عزّز وجهة نظرى السابقة حول عدم رغبتها الصادقة فى منح حفيدتها ما تستحقه من الميراث .

وكنا فى ذلك اليوم ، الذى كنا نتبادل به هذا الحديث ، جالستين على نفس الأريكة ، التى كنت أتخذها مكانًا خاصًا لى ، فى أثناء عملية القراءة ، فى الغرفة المخصصة لى ، وكانت غرفة كبيرة ، بالغة الفخامة ، ملحقًا بها حمام واسع يحتوى على كل وسائل الراحة المنزلية ، ويفتح بابه على غرفة صغيرة لتبديل الثياب ، التى بدورها تفتح بابها على غرفة النوم .

وكانت السيدة (سارة) فى زيارة لى كعادتها التى كانت تتبعها فى تلك الأيام ، إذ كانت تفعل ذلك كلما عن لها ، أو كلما أحست بالحاجة إلى من تشكو إليه ، وتتوقع منه تفهمًا لهمومها ، ولم يكن ثمة من هو أكثر سعة من صدرى لسماع شكواها ، فقد كنت أكن لها معزة شديدة ، واحترامًا أشد .

وقالت مستمرة فى إبداء قلقها :

ـ وأنت لا يخفى عليك موقف خالها منها ، فإنه لن يتورع عن إلقائها فى قارعة الطريق ، حالما تغمض عيناى ، أو قد يعاملها كما يعامل خادمة فى منزله ، وفى الحال الأفضل سوف تكون معيشتها عنده نوعًا من الصدقة التى يتفضل بها عليها .

ولما كنت أتجنب التعليق على موقف الخال من ابنة أخته ، أو أن أبدى رأيًا فيما سوف يتخذه تجاهها ، فى حالة وفاة الجدة ، إذ كنت أخشى التلفظ بأى تعليق ، قد تغضب له السيدة فهو ابنها على أية حال ، ولذا فقد كنت أصغى إليها ملتزمة الصمت وهى تشكو ، دون المساهمة فى مؤازرتها بالحديث عنه بما يسىء إليه ، على الرغم من أنى كنت أشاركها الرأى ، وأنى أيضًا لا أقل عنها قلقًا ، من ذلك المصير المجهول ، الذى لن ينال أختى وحدها ، بل سوف ينعكس علىّ أيضًا .

إلا أننى قلت لنفسى ، يتعين على عدم التفوه ، بما يمس ذلك الخال . ولذا فلم أعرف كيف أقوم بمواساة لهذه العجوز الطيبة ، بهذا المشكل ، الذى أنا أيضًا أراه عويصًا .

وهكذا لزمت الصمت ، ثم لم يلبث حتى شملنا نحن الاثنين ، وقد بدت كل منا ، وكأنها مغرقة فى ملكوت من هواجسها .

وعندما طال بيننا ذلك الصمت ، قطعته السيدة (سارة) بالتنهد مجددًا ، وعادت كرة أخرى ، إلى وصف حيرتها مما تعانيه ، من جراء ما تشعر به من إحباط ينوء به وجدانها ، عندما

Looloo
www.looloolibrary.com

ترى أنها غير قادرة على إنفاذ رغبتها بأن تهب حفيدتها جزء مما تملك .

وعلى الرغم مما كان يساورنى من ظنون بجدية رغبتها تلك ، إلا أنه شملتنى حيرتها أنا الأخرى ، فلم أنبس ، إذ لم يكن لدى أدنى تصور عما تريد السيدة (سارة) سماعه منى ، أو حتى عما تريد قوله لى ، بعد تلك المقدمة .

وفجأة وعلى حين غرة ، فقد بدت الجدة وكأنها وجدت مخرجًا يخرجها مما هى فيه ، وكنت حتى تلك اللحظة لم يخطر لى على بال ، أنها كانت قبل قدومها معدة لكل ما طرحته من مقدمات ، لكى تصل إلى الغرض من ذلك الحديث بذلك التمهيد ، إلا حين شرحت ما تريده ، فقالت :

ـ أظن أن لدى مشروعًا بديلاً .

فأصخت لها السمع ، وقد انقلبت ظنونى بها رأسًا على عقب ، وسريعًا خالجتنى الدهشة الممزوجة بالإعجاب . يا لهذه المرأة الذكية ، التى لا يعرف اليأس إلى قلبها سبيلاً ، والتى لا يعتورها الكلال من المحاولة تلو المحاولة ، لتحقيق هدف ترى هى صحة موقفها فيه .

غير أنى كعادتى ، فى مثل هذه المواقف التزمت الحذر فلم أحاول النبس أيضًا .

وبعد وقفة وجيزة ، قالت بأناة :

ـ بما أنك أخت حنون لـ (سارة) الصغيرة ، وأنا على معرفة وثقة بما تكنينه لها من مشاعر المودة والإعزاز ، وأنا أرى أن محبتك لها لا تحدها حدود ، إنها أشبه بمحبة الأم لابنتها ، إنها تكاد تكون موازية لشدة محبتى لها ، لذا فقد خطر لى أمر ، لا أرى أنى فى بد منه ولا فى غنى عنه ، فهو يفرض نفسه بديلاً بكل قوة ، ولا مناص لى سوى الأخذ به ، هذا بالإضافة إلى ثقتى التامة بك ، وإلى صدق كل ما يصدر عنك ، من تصرف ، سواء الآن ، أو فى المستقبل البعيد ، عندما لا أكون موجودة فى هذا العالم .

دهشت لهذه المقدمة ، التى لا أعلم إلام تهدف ، والتى لم أفقه منها سوى المقطع الأخير .

فأسرعت إلى القول :

ـ اللّه يبقيك لنا سنوات طويلة .

ولكنها استمرت تتحدث ، وكأنها لم تسمعنى ، لانشغال خاطرها فقالت :

ـ لذا ، فإنى أرى أن أفتتح حسابًا ماليًا فى أحد البنوك ، مستخدمة اسمك وأوراقك الشخصية ، أودع به ما أنوى إيداعه لحفيدتى ، لو كان ذلك ممكنًا بموافقتك ، وبذلك يتحقق الضمان المادى لها على الأقل .

Looloo
www.looloolibrary.com

بوغتت مباغتة أجفلت على إثرها ، ولكنها لم تنتبه ، واستتبعت ، وأنا فى حالة من الذهول والدهشة لا مزيد عليهما لما أسمعه .

قالت :

ـ أنا أرى فيك إنسانة حقة ، وحريصة على مصلحة الفتاة .

وقالت أيضًا :

ـ إن نظرتها فى معادن الناس لا تخيب أبدًا ولا يمكن أن تخطئها مطلقًا ، ولذا فهى تثق بى .

فكان أول ما انتابنى من المشاعر بعد زوال الدهشة من أثر ذلك العرض الغريب ، ذلك الندم الذى ساورنى على إساءة الظن بهذه السيدة الطيبة ، لقد بخستها التقدير عندما فكرت أنها كانت مرتاحة النفس لرفض حفيدتها الثروة ، لا أدرى أية فكرة غبية كانت تراودنى حين ذاك .

ثم بعد أن خلصت إلى استيعاب معنى حديثها بحذافيره ووعيت المغزى منه انتابنى ضرب من الفزع لا أعرف كنهه . لعلى خشيت أن أكون فى محك التجربة ، فقلت :

ـ كلا ، كلا ، لتكن الأموال مسجلة باسمها وحدها ، فى مقدورها استعادة أوراقها القديمة ، من موطنها القديم ، ومن ثم يكون فى مقدورك إعطاؤها ما تشائين .

بيد أن السيدة (سارة) حسمت الأمر بعصبية غير متوقعة ، بقولها :

ـ ألم تعرفى أن الفتاة ترفض رفضًا باتًا استعادة اسمها وانتمائها القديم ، وترفض معه كل ما يثبت صحة ذلك الاسم ، وتفضل أن تبقى بدون ورق يثبت شخصيتها فى موطنها الأصلى ، على أن تنتمى إلى أى بلد آخر ، ألم تعرفى هذا معرفة جيدة ؟ ألم نحاول معها ولم نفلح ؟ ألم نتفق قبل قليل أن بلدها القديم ، قد يرفض إعادة انتمائها إليه .

حقًا كنت أعرف كل ذلك ، وكنت أبدى أمامها وأمام الجدة نفسها العجب والاستنكار من موقفها نحو البلد الذى رعاها ورباها ، أما بينى وبين نفسى فقد كنت أتحرّى أن أجد لها ما يبرّر ذلك العقوق مما عانته فى يفاعتها ، وأنه ربما تحمل بلدها القديم كل ما عانته من إذلال والدتى لها فترفض لأجل ذلك إعادة الانتماء إليه . أما أنها لا تأبه للثروة ، على الرغم من كل الإغراءات المادية التى ستحقق لها الرفاهية والعز ، فهذا مما لا يستسيغه عقل موزون ، ربما يكون لها وجهة نظر أخرى ، لا أفهمها ، ثم أعود وأعتبر أن ذلك غباء منها وقصر فى النظر ، وأن التسمية التى أطلقتها عليها والدتى تستحقها بجدارة .

حاولت أن أثنى الجدة عما ابتغته ، فأصررت قائلة :

ـ أجل إنى أعرف ذلك الكره ، الذى تشعر به أختى نحو طفولتها ، ومع ذلك أرجو ألا تثنينا هذه المعرفة عن الرغبة

Looloo
www.looloolibrary.com

فى المحاولة معها من جديد . لابد لنا من إعادة الكّرة معها ، لعلها تتخلى عن عنادها ، إنها لا تقدر كمّ الخسارة التى تتعرض لها من جراء إصرارها على الرفض ، دعينى أحاول معها مرة أخرى .

فقالت السيدة (سارة) محتجة على معارضتى :

ـ عليك بها ، إنى أقر بعجزى ، حاولى مجددًا إقناعها باستعادة أوراقها القديمة ، وسترين ما يكون منها ، وأنا أقول لك مقدمًا ، إن كل جهد تبذلينه فى هذا السبيل سوف يهدر ، حاولى معها مرة أخرى كما تريدين ، ليس لأنها ربما تقتنع بما تقولين ، بل لكى تقتنعى بنفسك أن لا جدوى من المحاولة .

وصمتت للحظة ، وكأنها تقلب أمرًا ما فى ذهنها ، ثم فجأة وبدون مقدمات ، أردفت بصوت خفيض ، وكأنها توصلت إلى تغيير ما فى نفسها سريعًا ، قالت :

ـ ثمة شىء ، لم أرغب بإطلاعك عليه فى مبدأ الأمر ، ليس لعدم ثقتى بك وإنما الباعث عليه أن أجنبك مواطن الألم ، ولكن أرانى الآن مضطرة إلى ذكره كى نختصر الجدل فيما لا يجدى ، إليك يا بنيتى ما عندى حتى تتفهمى الأمور بدون لبس .

وأردفت بعد وقفة قصيرة جرت بها نفسًا عميقًا ، وقالت :

ـ لقد ذهبت فى زيارة إلى (سفارة) بلدكم ، وتحدثت مع المستشار القانونى هناك ، فيما إذا كان فى الإمكان ، استعادة

أوراق حفيدتى ، وإعادة انتمائها إلى بلدها القديم ، فعلت ذلك دون علمها ودون أخذ موافقتها . فقال إنه لا ينصح بذلك ، فكل عذر سوف تبديه حفيدتك سوف يلاقى الرفض القاطع ، فكل الأسباب لا تعطى المبرر للمواطن للتخلى عن مواطنته ، ولذا فإن من يسقط مواطنته بمحض إرادته ، لا يستعيدها إطلاقًا .

وبعد برهة وجيزة أخرى ، تابعت :

ـ ها ، لقد أطلعتك على السر ، الذى كنت أخبئه فى أعماقى ، خشية من أن تسمعه تلك الطفلة المسكينة ، قلته لك ، لكى تعلمى أنى لم أدع بابًا لم أحاول الولوج إليه . كنت سأقسرها على استعادة أوراقها القديمة ، ولكن حتى هذه لم يعد فى الميسور الحصول عليها ، يا لها من فتاة تلاحقها التعاسة أينما حلت .

ثم أردفت بسرعة مكرّرة :

ـ هأنت عرفت السر أخيرًا ، هل ثمة ما يقال بعد ذلك ، من أجل استعادة أوراقها القديمة ؟

فعلاً ، ليس ثمة ما يقال بعد ذلك ، فكففت عن الحديث بهذا الشأن ، غير أنه ليس ثمة ما يقسرنى على قبول اقتراح السيدة (سارة) ، لقد كنت متهيبة من الاضطلاع بهذه المهمة العسيرة ، بحسب ما تراءى لى من ثقل وطأتها التى سينوء بها كاهلى ، وأنا غريبة فى هذا البلد ، وماذا سيكون علىّ من أعباء

Looloo
www.looloolibrary.com

وتبعات وأنا عديمة الخبرة ؟ لقد فكّرت أنه ربما تكبل حريتى ويحد من حركتى فى محاولة لحراسة الثروة التى ستكون معى ، فمن يعطى مثل هذه الثروة لابد له من تشديد الحراسة عليها .

وعندئذ رفضت بإباء . ولكن السيدة (سارة) ما كانت تعدم الحجج القوية التى تخضعنى بها إلى ما تريد .

وبعد أخذ ورد ، وأحاديث مطولة مع السيدة (سارة) .

تساءلت :

ـ مم أنت خائفة ؟

فقلت :

ـ أخاف من حمل الأمانة ، هذا الأمر الأول ، أما الثانى ، فإنى أخشى على حريتى من أى قيد يكبلها .

ضحكت مهونة الأمر ، وقالت برصانة ، وكلها ثقة بما تقول :

ـ كلا ، لا تخافى ، لن تكبل لك حرية ، بمقدورك السفر كما تشائين ، ولن يضايقك أى قيد ، فأنا لست من السذاجة لكى أمنعك من الفرار بالأموال بحراسة مشدّدة على تحركاتك ، سينظم ذلك اتفاقيات بينى وبينك ، كل ما لنا من حقوق مادية لديك سوف يحميها القانون ، سيكون هناك تسجيل موثق يكبل تصرفك بالأموال قبل كل شىء ، لن تستطيعى الهرب بما يودع باسمك ، من العسير عليك أن تفرى بفلس واحد ، حتى وإن

أفعمت نفسك بالرغبة بذلك ، إنى عضو فى مجلس إدارة أى من المصارف التى سأودع بها ما أريد من الأموال باسمك ، هنا أو فى الخارج ، ستكون حساباتك تحت السيطرة التامة ، لاتخشى شيئًا من هذا القبيل لا تخافى ، إن لدى من الخبرة فى هذا المجال ما يفوق تصورك ، ثم إن هناك ثلاثة من المحامين لضبط الموضوع ، كل شىء سوف يسير بحسب الأصول المرعية قانونًا ، إنى لست قلقة بهذا الشأن ، وإنما قلقى ناتج من الخوف على هذه الطفلة من عاديات الزمن ، بعد أن أكون أنا غير موجودة فى هذا الوجود .

على الرغم مما رأيت من مدى بعد نظرها حول ما اعتزمته من أمر بشأن مستقبل أختى ، إلا أنى بقيت متردّدة ، حتى دفعتنى توسلاتها التى كانت تلحف بها فى منتهى الرقة دفعًا إلى قبول الاقتراح فى النهاية ، وأنا أرتعد فرقًا ، أجل لقد وافقت على مضض .

ومن ثم كان الاتفاق على أن تودع الأموال السائلة باسمى ، فى أحد المصارف فى موطن أختى الجديد ، على أن أكون فقط مَعْبرًا لها .

ولكنى فوجئت ، فيما تلا ذلك من أيام ، أن هناك الكثير من العقار المدر للأرباح الوفيرة ، فى أنحاء متفرقة من دول أخرى من العالم ، مسجلاً باسمى ، حيث لا توجد تلك التعقيدات التى تحول دون ذلك كما هو الحال هنا ، حيث لا يمكن أن يتم

Looloo
www.looloolibrary.com

ذلك الإجراء ، بسبب من أن مواطنى غير هذا البلد ، لا يحق لهم تملك العقار .

وكان لخوف الجدة (سارة) من أنه بعد وفاتها تعود تلك الأموال جميعها إلى ابنها ، وتحرم حفيدتها ، مما تعتبره نصيبًا لأمها ، لو لم تقتل ، ولذلك فقد سجلت كل العقار الذى فى الخارج باسمى عوضًا عن ذلك الذى فى الداخل ، بعد إجراء مبايعات احتياطية تعيد إليها العقار فيما لو حاولت استغلاله لنفسى ، حقًا لقد كانت بارعة فى كل شىء .

بيد أن السيدة بعد اتخاذ كل تلك الإجراءات ، وهبتنى قائمة بمبالغ كبيرة ، تزيد على كل ما كان يراودنى من أحلام ، وبعضًا من مستندات العقار مما تملكه فى بلدى ، قائلة :

ـ هذه ملكية خاصة لك ، كنوع من المكافأة ، مقابل جهودك ، لأنك سوف تقومين برعاية مصالح أختك ، فيما يخصها من أموال .

وعندما اعترضت ، قائلة لها بأنى أكتفى براتب بسيط ، قالت :

ـ كلا ، يجب أن ينالك نصيب من الغنى ، الذى لأختك ، وكى لا تكونى مثل حامل إناء الطعام لغيره ، يحمله ولا يتذوقه .

ثم إن هذا ليس فضلاً ولا مِنة لى عليك ، فهذه سياسة متبعة من أرباب الأموال ، للحفاظ على ما يودعونه من أموالهم بأسماء

الغير ، فهم وإن كانوا ثقات ، إلا أنه لابد من تعزيز هذه الثقة ، منعًا للإغراء .

وضحكت ، وضحكت مجاراة لها وكلى شعور بالحرج ، ثم قلت :

ـ أرجو منك أن لاتخافى ، وأرجو من نفسى ، أن أكون عند حسن ظنك بى .

فقالت معترضة :

ـ لا تخافى أنت ، أما أنا فأعرف ما أفعل دون خوف .

وهكذا أمسيت بين ليلة وضحاها ، من ذوات الملايين ، بما أودع لصالحى ، ولصالح أختى أكثر منى . مما قلب بعد فترة قصيرة من الزمن كافة الموازين فى حياتى ، رأسًا على عقب ولم يعتدل بعد ذلك أبدًا .

وكان أسوأ ما جابهنا حيال هذا الموضوع ، قيامة خال أختى التى قامت ولم تقعد حتى كتابة هذه السطور ، لقد اتهم والدته بالتبذير ، وتبديد الثروة والإسراف فى الصرف ، على فتاتين غريبتين محتالتين واهبة لهما جزءًا من الثروة التى هى فى النهاية ملك له .

وقد حزّ هذا الموقف العدائى فى نفس الفتاة المسكينة ، واستنكرت أن يتنكر لها خالها ، كل هذا التنكر فى سبيل حفنة

Looloo
www.looloolibrary.com

من الأموال ، كما تقول ، ويبدو لى أنها لم تقدر قيمة هذا الكم الذى أصابها من هذه الحفنة .

ضحكت فى نفسى من البساطة التى عليها أختى ، إنها تفتقر إلى الرؤية الصائبة التى تقدر الأمور حق قدرها ، التى يبدو أنها لن تتغير ، حتى وإن انقلبت الظروف على أم رأسها .

* * *

- ١٩ -

كان خال أختى فى مبدأ الأمر ، أى قبل أن تهب والدته إلى حفيدتها تلك الهبة من الأموال ، التى تعادل ثلث ثروتها ، التى هى النصيب الشرعى لوالدة أختى فيما لو كانت عائشة ، وقبل أن ينالنى أنا الأخرى جزءٌ يسير من تلك الثروة التى كانت بالنسبة لى أموالاً طائلة .

كان أقل غلوًا فى عدائه لنا ، حقًا أنه كان لا يبادلنا الحديث ، وكان حتى لا يبادر بإلقاء التحية ، بل وأحيانًا لا يبالى حتى بالرد على تحيتنا له ، مالم يكن ذلك بحضور والدته ، التى كان يحترمها بشدة ، ربما كان يرهب جانبها ، لذا فقد كان يفعل ما يراه مناسبًا أمامها ، وإن كان ذلك بطريقة مقطبة فاترة ، أما ما عدا ذلك ، فإنه كان يتجنب مجرد النظر إلى أى منا .

بيد أنه ، بعد تلك الهبة المالية ، أماط اللثام عما يشعر به تجاهنا فتجلت عداوته متعاظمة بصورة فظة مستشرية ، فبات لا يبالى بحضور والدته من عدمه ، وجعل يسمعنا من جارح القول الذى يزخر بما يؤلمنا ، ويحز فى نفسينا ، وكان يستعمل لذلك طرقًا عديدة ، قد لا تدينه مباشرة أمام والدته ، وتجعل من ذلك الامتعاض ، الذى تبديه لا يجدى نفعًا معه ، على الرغم من شدة دلالته ، وفى الوقت ذاته تمنعنا من الرد عليه .

Looloo
www.looloolibrary.com

فكان مثلاً يتحدّث عما قرأه فى صحف اليوم — أى يوم — عن إلقاء القبض على نصابين ابتزوا المال من امرأة ثرية ، أو يتحدّث عن الزمن الحاضر الذى تغيرت به المفاهيم ، وامتلأت النفوس بالجشع ، إلى درجة انتحال شخصيات زائفة للحصول على المال ، وهلم جرًا .

وكان ما يحدث من خال أختى ، فى اتجاه معاكس ، لما يحدث من ابنه الشاب ، المهذب الذى تنطوى نفسه على الكثير من الطيبة المفعمة بالرقة ، لقد كان ذلك الشاب فى سن مقارب إلى سن أختى ، لا يفرق بين مجيئهما إلى هذه الحياة ، سوى أيام قلائل ، كما تردّد جدتهما .

لقد كان ذلك الشاب بشوشًا ، مرحبًا على الدوام ، بل أحيانًا ، عندما يكون على مبعدة من مرمى السمع عن أبيه ، كان ينادى أختى بابنة عمته العزيزة ، لقد كانت ثمة بادرة من عاطفة مودة ، بدأت تلوح منبثقة وليدة بينه وبين ابنة عمته الجميلة ، لولا أن ردعها بقوة وأوقفها عن النمو موقف والده العدائى تجاهنا ، وهيمنته على ولده ، إذ ما يكاد يدهم ابنه لامحًا منه أى ملمح ينبئ عن تعاطفه مع أختى ، حتى يعصف إعصار من ثورة عارمة تنذر بالهلاك ، لكل ما هو طيب بين الأب وابنه ، وتكاد تقلب هدوء المجلس الذى يضمهما رأسًا على عقب ، مما أفضى فى النهاية إلى وأد تلك العاطفة وهى فى مهدها .

أجل أخذ الشاب الظريف بتلك الصرامة التى يشهدها من والده ، فصدته بعنف وجعلته على مبعدة منا .

فبات حائذ يحاول جهده تجنب الحديث معنا فى حضور والده ، وكان واضحًا لنا ، أنه كان يفعل ما يفعل ، إرضاء لأبيه ، وليس لأنه كان على قناعة بما يفعله ذلك الأب القاسى الوجدان ، وكان ما إن يخلو المكان من والده ، حتى يسارع إلى تغيير نمط تصرفه حيالنا مستعيدًا رقته وبشاشته معنا ، ولكن من المؤسف حقًا ، أنه فى نهاية الأمر ، أمسى كل شىء بينه وبين أختى غير ذى جدوى ، فقد كانت قوة شخصية الأب المسيطرة بغطرسة حافلة ، قد وقفت حائلاً بينه وبين ابنة عمته الجميلة .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

- ٢٠ -

ومضت بنا أيام عدة ، تلتها شهور ، واثنتان من السنين ، وأختى عائشة فى بلدها غريبة فيه ، لامنتمية لأهله ، كما فقدت انتماءها إلى أى بلد آخر غيره . ولكن هذا لم ينفذ إلى إدراكها مبكرًا فلم تعِ عمق المأساة التى حلت بها ، لقد أغفلت إغفالاً تامًا وأشاحت بانتباهها عن كل شىء يقرر مصيرها وأى شأن يخص مستقبلها ، فى غمرة فرحتها ، بإيجاد ذويها ، وشعورها المفعم بالغبطة بأنها وجدت جذورها ، والأهم من كل ذلك ، أنها وجدت إجابات ، على كل ما كان يختلج مضطرمًا فى نفسها من تساؤلات محيرة ، كانت تهصر قلبها وتمضها العذاب ، عما دعا والدتى إلى الإيغال فى القسوة عليها ، والتفريق فى المعاملة بينها وبين بقية أبنائها ، اللذين لا يعدو كونهما أنا وأخى .

وكان من جراء ذلك الاكتشاف ، أنه كان لا سبيل إلى وصف الفرحة التى استبدت بها ولم تنأ عنها كل هذه المدة ، وهى ترى نفسها من عائلة ثرية فى بلد غنى ، فكان ذلك مدعاة إلى فخرها فوق ما هى عليه من سرور غامر ، ثم وهى ترى جدتها ، لاتألو الجهد تلو الجهد ، فى محاولة دائبة لأن تدخل عليها كل ما ينسيها العذاب الذى تعرضت له فى بدء حياتها ، خاصة

عندما منحتها تعويضًا إضافيًا ، فوق ما قدمته لها من ثروة مودعة باسمى لها ، وكان ذلك ، بأن أوجدت لها منصبًا عالى الشأن ، فى كبرى مؤسساتها التجارية ، وأعلاها قدرة مالية .

فقد قامت الجدة المهووسة بغرام حفيدتها بتنصيب تلك الحفيدة اليافعة عديمة الخبرة والتعليم ، مديرة لتلك المؤسسة تتصرف بها كما تشاء ، وتنحت لها عن طيب خاطر عن كرسيها الفخم ، ومكتبها العريض ، وأجلستها مكانها ، مكتفية لنفسها بمنصب المستشارة لها ، لكى تدربها على إدارة أموالها بنفسها فيما بعد ، عندما يشتد باعها فى هذا المجال ، كما قالت لى الجدة .

أما أنا ، وإن كنت أرى غير ذلك فى قرارة نفسى ، فإنه مما يبدو لى ، أن كل ما فعلته السيدة (سارة) من إمعان فى تدليل حفيدتها بالإضافة إلى الرغبة فى تدريبها ، كان بسبب مما يحز فى قلب الجدة العطوف ، لما تعرضت له الحفيدة من معاناة فى طفولتها على يد والدتى ، وبسبب ما تتعرض له الآن ، أى فى وقتها الراهن ، نتيجة لحرمانها من مواطنتها لوطنها الأصلى ، وأيضًا ، من جراء موقف خالها الغليظ القلب منها .

ولكن الغريب فى الأمر ، والذى كان باعثًا على منحى الكثير من الغبطة المبهرة ، أنه كان لا بد لكل خير يصيب أختى ، من أن يصيبنى جانب منه ، فإن لم أحصل على نصيب وافر ، على نحو ما أصابنى من ثراء . فإن نثاره لابد أن يغطينى ، على

Looloo
www.looloolibrary.com

الرغم من كل شيء ، حتى لو نال ذلك معارضة من أختى نفسها ، تلك المعارضة التى ما تنفك تبديها أختى بإصرار مطرد خال من الكياسة ، لكل ما ينالنى من جدتها ، حتى لو كان قدرًا ضئيلاً .

غير أن الجدة على الرغم من محبتها العظيمة لحفيدتها واستعدادها لعمل كل ما من شأنه أن يسند ظهرها ـ ظهر أختى ـ ويشد من أزرها فيما هى مقبلة عليه من أيام لاتعرف تقلباتها ، إلا أنها ـ أية الجدة ـ استقلالية فيما يعن لنا من آراء ، فهى لاتتأثر بأى مقولة تأتيها من خارج قناعتها الخاصة ، ولذا فإنها لم تلق أذنًا صاغية إلى ما يأتى من اعتراضات حفيدتها بشأنى ، فقد كانت تصرفاتها تجاهى حيادية خالصة ، نابعة من تقديرها للأمور ، من وجهة نظر غير تابعة لأحد ، وكان الأثر الأكثر انعكاسًا فى تبيان طباع الجدة ، أن الخال نفسه لم يكن فى ميسوره أن يؤثر على قناعتها تجاهنا نحن الاثنتين ، أنا وأختى ، على شدة ما كانت تكنه له من محبة وإعزاز لابد أنهما يفوقان بمراحل ما تكنه لحفيدتها ، ولذا لم يكن فى مقدور أختى التأثير عليها ، عندما حاولت التدخل ، فى تحجيم دورى لدى جدتها .

وكانت أول بادرة لذلك ، يمكن ملاحظتها بوضوح ، عندما قررت الجدة ، أن أعين فى مركز كبير فى تلك المؤسسة ،

كنائبة لأختى ، فعلى الرغم من معارضة أختى لذلك القرار ، إلا أن الجدة نصبتنى فى ذلك المنصب .

لقد كانت أختى تريد أن تستبد بالأمر بمفردها ، قائلة لجدتها فى عصبية ، وعلى مرمى السمع منى :

ـ ألا يكفيها أن كل أموالى مودعة باسمها ، حتى تأتى لكى تشاركنى فى الإدارة أيضًا .

شعرت يومئذ أن أختى تمعن فى إذلالى ، فانبجس العرق يكلل محياى بغزارة ، فلم أر نفسى إلا وقد بادرتها بالرد السريع ، قبل أن تتمكن جدتها من الإجابة ، قلت :

ـ إنى لعلى استعداد إلى تحويل كافة الأموال إليك ، بمجرّد استعادتك لأوراقك القديمة وافتتاح حساب باسمك .

قلت ما قلت بعجالة نافلة ، على الرغم مما هو معروف عنى من الهدوء وعدم التسرع المتهور ، وعلى الرغم من معرفتى المسبقة باستحالة ذلك بناء على ما ذكرته الجدة لى ، ولكنى لم أجد ما يشفى غليلى لتنكرها لدورى فى حمايتها قديمًا وحديثًا ، إلا أن أبصرها بسوء تصرفها تجاه بلدها القديم ، حيث فوتت على نفسها بحمق أن تتملك أى شيء من أموالها .

فوجئت أختى ، وقد باغتها ردى ، إذ لم يكن من عادتى التدخل بينها وبين جدتها فى الحديث ، حتى وإن كان يحمل تعريضًا بى ، ولكن الآن فقد بلغ السيل الزبى ، فلم أعد قادرة على التغاضى عن سوء تصرفها تجاهى .

Looloo
www.looloolibrary.com

فالتفتت إلى ، مصعدة بى نظراتها ، من فوق إلى أسفل ، وبازدراء شديد ، قالت بعجرفة :

ـ ولماذا أوراقى القديمة ، لماذا لا تقولين ، بمجرّد حصولى على أوراقى الجديدة ؟

فقلت مزمجرة بضراوة ، ناسية نفسى أنى فى مواجهة السيدة الجدّة :

ـ أيهما أقرب ، ليس مهمًا .

ولكن أختى استطردت بعصبية :

ـ بل مهم ، ثم إياك ، والعودة إلى ذكر أوراقى القديمة ، إنى أحذرك ، إنك لا تملين التنقيق حول تلك الأوراق ، لماذا لاتحاولين أن تفهمى ، أنى أمقت بلدك ، وأمقت كل ما يمت له بصلة ؟

ساءنى ذلك الرد المؤلم ، إلى درجة أنى لم أر ضيرًا فيما لو فقدت كل شىء فى سبيل الدفاع عن كرامة بلدى ، وكنت أنوى أن أرد عليها ردًا قاسيًا بدون مداراة ، لو لم تلوح السيدة (سارة) بيدها تروم إسكاتنا ، وقد اتضح لها المنحى الذى يوشك أن يؤدى إلى انهيار أية علاقة طيبة بينى وبين أختى ، لذا فقد أسرعت إلى تلافى الشجار الذى كان على وشك أن يتقد بيننا أى ـ بينى وبين أختى ـ وقبل أن تبدر منى بادرة أخرى ، قالت موجهة الحديث إليها ، وهى ما انفكت رافعة يدها تأمرنى بالسكوت ، وكأنها تقول أنا كفيلة بالدفاع عنك ، إذ قالت بعجالة وحزم :

ـ إن أختك فى حاجة إلى التدريب على إدارة أموالها ، كما هو الحال معك تمامًا ، فأنتما الاثنتان تنقصكما الخبرة فى إدارة الأمور التجارية ، وفى حاجة ماسة إلى الممارسة الفعلية .

ثم أردفت مطامنة من لهجتها :

ـ لقد جعلتها نائبة لك ، لالكونها ضليعة فى الأمور التجارية ، ولكن لأن لديها خبرة فى أمور الحياة أكثر منك ، أما ما عدا ذلك فكلتاكما يجب أن تتعلم ، ولذا يتحتم عليكما الممارسة المبكرة للأمور التجارية ، لكى تتزودا بالخبرة ، فيما بعد ، فلا تكونا هدفًا لمافيا المال .

ثم لكى تزيل كل أثر للتوتر ، تضاحكت قائلة :

ـ إنها ـ أى الجدة ـ ستقوم بإرشادنا ، لما يغمض علينا ، بوصفها مستشارة لنا .

فأذعنت إلى السكوت على مضض وابتلعت غضبى ، وقد فرحت بالقشة التى ألقتها السيدة (سارة) كى تنقذ ما تبقى من ماء وجه العلاقة التى بينى وبين أختى .

أما أختى فقد بقيت للحظات مستنفرة فى غضبها ، على أهبة الاستعداد لمواصلة الشجار ، ولكن حديث جدتها على تلك الشاكلة ألجمها ولم يدع لها الفرصة للمزيد .

وهكذا وجدت نفسى فى وقت قصير قياسًا إلى زمن قدومى من بلدى ، وما أنا عليه من حداثة السن ، ونقص فى الخبرة ،

Looloo
www.looloolibrary.com

أمتلك ثروة طائلة ، وأتبوأ ذلك المنصب الرفيع ، فى كبرى المؤسسات التجارية فى تلك الدولة الغنية .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد جاء أخى من موطننا مؤخرًا ، بعد أن رتب أمور عمله هناك ، واستلم مركزًا جيدًا ، تحت إمرة أخته الصغيرة .

وكما لم أتوقع منه ، فقد بر بوعده ، فلم يرفع نظرة واحدة إليها إطلاقًا ، ربما قاده إلى ذلك ، أنه لم يعد يجرؤ ، وقد باتت أخته الصغيرة ذات صولة وجولة .

ولكنه نحى منحى آخر ، كان الأكثر جدوى له ، إذ ما إن استقرت أموره المادية لم يدع الفرصة تفلت من يده فتقدم إلى الإعداد للحصول على درجة الدكتوراه التى طالما كان يحلم بها ونحن لا نزال فى بلدنا .

يالها من سطوة ، تلك التى تمتلكها الثروة ، إنها تلك التى تثلم بها كل سن نابية .

ما أردت قوله ، أن الانقلاب كان تامًا ، فى نمط حياتنا نحن الثلاثة . فقد أمست النقود تجرى بين أناملنا ، جريان الماء فى أنبوب دافق ، حتى إن الحيرة تولتنا ، فى مبدأ الأمر ، فلم نكن نعرف ما نحن فاعلون بكل هذا السيل المنهمر من الأموال ، حقًا لقد كان الأمر صعبًا علينا لغايته القصوى ، ومن ثم مضى وقت ليس بالقصير ، قبل أن نألف ما نحن فيه ، على الرغم

من السعادة التى تجلبها الرفاهية المادية ، والتى كانت تغمرنا من أعلى هاماتنا إلى أخمص أقدامنا .

إلا أنه كان ثمة أمران يتخللان ذلك الفيض من الحبور الغامر ، وذلك التيسير فى الأمور ، وينغصان علينا ما نحن عليه من السعادة .

الأول : كان ذلك الموقف المزرى الذى انتهجه خال أختى منا جميعًا ، كما ذكرت سابقًا ، فهو لايتوانى فى وضع أفدح العراقيل ، فى مواجهة أى منا يتعسه الحظ فتكون فى متناول يديه ، ثم دحض أية حجة تقربه من ابنة أخته .

والثانى : كان من جراء عدم قدرة أختى على استعادة مواطنتها لبلدها الأصلى ، والذى بات يضفى عليها لونًا قاتمًا من العصبية ناجمًا عن عدم الشعور بالاستقرار ، دفع بها إلى الخوف المستديم من عدم الأمان ، فكان مدعاة أبدا إلى المزيد من الخشونة فى الطباع والفظاظة فى القول ، فكانت تبدو كما لو كانت خالية من الكياسة ، بل ومن الحياء أحيانًا ، وكأن تلك الطباع الشرسة كانت سمة فيها منذ أن خلقت ، فهى ما تنفك تجنح فى كل تصرفاتها إلى كل ما هو شاذ وغريب من الأفعال ، وقد نسيت تمامًا ما كنت أراه منها من تصرف يتصف بالدعة والهدوء ، وكان الأغرب مما بدا لى من انقلاب فى طباعها ذلك الاندفاع الذى دفع بها فى النهاية إلى الزواج من رجل طاعن

Looloo
www.looloolibrary.com

فى السن ، بهدف الحصول على مواطنتها من خلاله ، كما هى القوانين المرعية فى هذه الدولة .

ولكن لندع ذلك إلى حينه .

ولنعد إلى سير الأمور ، كما جرت فى أوقاتها .

* * *

كان حرىٌ بى أن لا أتعس من أجل حرمان أختى من مواطنتها ، لأن انتفاء ذلك السبب سيجردنى حتمًا من أقوى مسببات حظوتى لدى السيدة (سارة) ، ويجعل دورى باهتًا فى حماية أختى ؛ إذ لو أنها حصلت على تلك المواطنة ، لباتت فى غنى عنى تمامًا ، مع ما هى عليه من جنوح إلى البعد عن كل ما يمت إلى حياتها القديمة بصلة ، ولانتقل كل ما فى حوزتى من أموال إلى حوزتها ، وحتمًا سيقلل مما نلته ، من كل جزء من الخير ، الذى أصاب أختى ، هذا ما سيئول إليه أمرى طبعًا .

بيد أن كل ذلك ، لم يكن ليغير ما كنت أتمناه لها من كل قلبى ، ربما لما ينطوى عليه طبعى من الطيبة البعيدة الغور ، التى لا تفرق بينها وبين السذاجة إلا بما يدعيان ب لفظًا ، ولا أقول هذا بهدف تضليل أحد ، وإنما هذا ما كنت أضمره لها بكل الصدق فى تلك الأيام ، دون اللجوء إلى المداورة ، لقد كنت حقًا أتمنى لو أنها نالت مواطنتها لبلدها ، عن طريق نسبها إلى ذويها ، وليس عن طريق ذلك الزواج غير المتكافئ ، كما حصل لها فيما بعد .

أجل هذا ما كنت أتمناه لها عندما أرى اشتداد عذابها ، ولو أنيط بى الأمر ما كنت أتردّد لحظة لتحقيق ما تصبو إليه حتى على حساب ما سوف يتقلص من إمكانات الربح لدى ، ولدى أخى ، وحتى لو اقتضى بنا الأمر أنا وأخى إلى العودة إلى بلدنا بخفى حنين .

فما زلت أعجب لتلك الأيام التى مرّت ومحبتها ما زالت متغلغلة فى قلبى ، على الرغم من قسوتها علىّ ، وعلى أخى ، التى باتت أمرًا لامراء فيه ، والتى بدأت تظهر بوادرها مبكرة ، دون محاولة منها لمداراة ما فى خاطرها فى غالب الأحايين .

لقد أغرقتنا همومنا التجارية ، فى تلك الأيام ، فى إدارة المؤسسة ، وألهانا ذلك الوضع الجديد عن التفكير بشكل ملح ، فيما ينغص علينا ، مع أنه وفى الكثير من الأحيان ، كانت تمر علينا أوقات عصيبة ، أخال فيها ، أننا أسوأ تاجرتين فى العالم ، سواء أنا أو أختى ، على الرغم من تعارض نظرتينا إلى الأمور ، فأرى أننا نحن الاثنتان غير مؤهلتين إطلاقًا ، لإدارة مثل هذه الأعمال الكبيرة ، ذات العقود التى تعد بملايين الدنانير ، وأنه من المستحيل علينا ، ونحن على ما نحن عليه من عدم الخبرة ، أن ننتج عملاً مثمرًا فيها ، لو أن الجدة تبتعد قيد خطوات عنا ، لأى سبب من الأسباب ، وهى لن تفعل ذلك قطعًا ، ما لم يكن قسريًا عليها ، وهذا لم يحدث إطلاقًا إلا مرة

Looloo
www.looloolibrary.com

واحدة يتيمة عندما خسرنا تلك الصفقة الكبيرة ، ولكن لنرجئ ذلك الآن .

لقد كانت الجدّة ضيفة الشرف الدائمة ، فى مكتب حفيدتها ، بعد أن سلمت ابنها مسئولية إدارة مؤسساتها الأخرى ، لكى ترضيه ، وكأنها كانت تقول لكليهما : ها قد وزعت تركتى بينكما ، خذا هذا نصيبكما منها ، وهأنذا أدعه لكما حتى من قبل أن أموت .

ولذا لم يتبق لها سوى الإشراف على المؤسسة التى ترأسها حفيدتها .

وقد تفرغت تمامًا لمراقبة العمل عن كثب فى هذه المؤسسة الكبرى ، محاولة قدر إمكانها ، عدم التدخل فى إدارة العمل ، مالم تر الخطر محدقًا بنا ، ومالم نفزع إليها نناشدها المعونة ، ونستشيرها فى أمر استعصى على فهمنا التجارى .

غير أنه لم يكد يمضى عام ونيف ، حتى كدت أحل بعض معميات ألغاز ذلك العمل الذى يكتنفه غموض طبيعته . فقد حاولت جاهدة معرفة أسراره ، وبذلت كل ما فى مقدورى من جهد ، إلى توجيهه الوجهة الصحيحة . ولكن أى أعمال كانت !

لقد أخذت بدراسة الصفقات ، ومن ثم تقييم الأعمال ، وذلك بعمل موازنة بين احتمالات الربح والخسارة ، كناتج للتكلفة الفعلية ، والقيمة الإجمالية ، المدفوعة لنا ، وبعد ذلك أقرر

الإقدام على العملية ، أو الإحجام عنها . ومع هذا ، فقد كنت أتردّد طويلاً فى البت أمام الصفقات الكبيرة ، المكلفة لتلك المبالغ الهائلة ، والتى تدر فيما بعد ، مبالغ أكبر منها ، ما لم أستشر الجدة فيها .

لقد كان ينقصنى الكثير ، حتى أمسك بزمامه بيد من حديد مع كل تلك الصراعات بين التجار وأرباب الأموال ، التى كنت أستشعرها وليس فى مقدورى الخوض فى غمارها ، ولذا فقد التزمت بأن لا أتصرف من تلقاء نفسى ، إلا فى الأعمال الصغيرة ، التى لا يأتى من وراءها خطر كبير لخسارة فادحة ، أما أختى ، فقد كان يصعب عليها استيعاب حتى ما صغر بهذا الشأن ، فاقتصر دورها على الإمضاء ، بخطها المتعرج ، على ما هان من الأمور ، تلك الأمور التى كانت فى غير حاجة إلى إثباب الهوية ، وذات تكلفة مالية صغيرة ، لا تستدعى أية أوراق رسمية لإنجازها ، وقد عجزت تمامًا عن تجاوز هذه المرحلة إطلاقًا .

وكانت فى تلك الآونة ، أشبه بطفلة فى السابعة من عمرها أنيط بها إدارة دفة منزل كبير ، فوق طاقة ما يقتضيه إدراكها وهى غير مؤهلة له ، بسبب من طفولتها ، فأخذت تكوم ما فيه من أدوات ، وتفرغها بعشوائية ، لمجرد إيهام من ينظر إليها ، أنها تديره وترتب فيه .

Looloo
www.looloolibrary.com

وكان ما يسترعى الانتباه إلى ذلك أنه ما إن تغادر جدتها المؤسسة ، حتى تنفض يديها من كافة الأعمال التى تتظاهر بدراستها ، ملقية بعبء كل شىء على كاهلى ، لتتفرغ فقط للفرح بكرسى المديرة دائرة بلولبه فى كل اتجاه ، يتملكها ذلك السرور الذى لم ينفك منها أبدًا ، وبعد أن تشبع رغبتها بذلك ، تنحرف إلى مزاولة لعبة جديدة ، لم أكتشفها فيها من قبل ، ولم أكن إطلاقًا أعرف أنه يمكن أن تخطر لها على بال ، عندما كنا فى موطننا السابق .

لقد قالت لى يومًا على حين بغتة ، وكنا جالستين على أريكتين متقابلتين فى مكتبها الفخم ، بعد مغادرة الجدة للمبنى ، قالت بلهجة رصينة ، تنذر بأهمية ما سوف تطرحه :

ـ لدى مفاجأة لك ، لقد اكتشفت فى نفسى موهبة كانت كامنة فيها ، ولم تجد الفرصة للظهور بسبب قسوة تلك العجوز اللعينة ، أما الآن ...

وعندما تطلعت إليها بنظرة غضبى ، وقد فهمت من تعنى بالعجوز اللعينة ، قاطعتها فى سخرية قبل أن تتم :

ـ لم أتخيل أنه يمكن أن تملك أختى العزيزة أية موهبة فى يوم من الأيام ، وهى عديمة الخبرة وعديمة التعليم .

فردّت ببديهة سريعة لست أدرى كيف واتتها :

ـ بفضل أبيك الجبان لم أتعلم ، لو أنه حمانى من تلك اللعينة لما استطعت أن تعايرينى بقلة تعليمى الآن .

ونظرت لى بتنمر على أهبة الاستعداد للعراك .

كانت تعرف أن أى حديث عن أبى أشد إيلامًا لنفسى من أى كان ، لذا فقد ردت بذلك الرد نكاية بى على الرغم من أنها تعلم تمام العلم لو أن الأمر أنيط به لأوصلها إلى أعلى المراتب التعليمية .

وعندما رأت تجنبى للعراك معها على الرغم من هجومها على أبى ، ربتت على ذراعى القريب منها ، وقالت بلهجة أرق :

ـ آسفة ، لم أرد إيلامك ، ولكن إياك والدفاع عمن عذبتنى ، أنت تعلمين كم أنا أحب أبى مثلك تمامًا .

وعندما تساقطت دموعى قهرًا ، مالت على وقبلتنى ، وهى تمسح بظهر يديها على خدى ، ودون أن تزيد مدت لى أوراقًا بخط ردىء ، فتناولتها وبقيت ممسكة بها دون أن ألقى نظرة عليها ، لقد كان مافى داخلى يمور بغضب ينذر بانفجار وشيك لو لم أمسكه بعنف متزايد .

أرادت بعدئذ أن تلطف الجو الذى بدا متوترًا ومشحونًا .

ففاضت بحديث لاترابط بينه وبين المعنى الذى تحاول جاهدة إيصاله لى ، وحتى أفهم ماترمى إليه ، ألقيت نظرة عجلى على تلك الأوراق ، فعلمت ماتعنيه ، لقد كانت تحوى عبارات ركيكة ، لخواطر ساذجة ، مليئة بالأخطاء الإملائية واللغوية .

Looloo
www.looloolibrary.com

وعلى الرغم من الكمد الذى يكاد يعمينى ، فهمت أنها تحاول تقليد جدتها ، فى نظم الشعر ، ولكن لم يخطر لى أنها تحاول تقليدى أيضًا ، فى كتابة القصة ، إلا عندما أردفت قائلة بتحد مزدهٍ وكأنها نسيت ما تحاوله من ترضيتى قبل لحظات :

ـ ليس أنت فقط من يعرف كتابة القصص ، أتظنين أنك وحدك من يعرف هذا ؟ انظرى .. ومدّت لى أوراقًا أخرى لا تقل رداءة عن الأولى .

بالصعوبة استطعت كبح جماح سخريتى ، فخرجت منى ضحكة هادئة إن صح التعبير ، وقلت :

ـ حسنًا ، إنها محاولات ، ولا بأس فى تعميقها .

عندئذ تحول هدوءها إلى ثورة عاصفة ، فزعقت بى زعقة أجفلتنى ، إذ لم أتوقع منها ذلك الانقلاب المنفعل وللتو كانت تناغينى ، لعلها لم تتوقع أيضًا ذلك الرد منى ، الذى قد ينم عن الاستهانة بشأنها الأدبى ، قالت :

ـ ألا تعجبك ؟

فقلت تفاديًا للاصطدام بها مرة أخرى :

ـ لم أقل إنها لا تعجبنى ، فأنا لم أطلع عليها بعد ، دعى جدتك ترى نظمك أولاً ، وسوف تعرفك بحقيقة مافيه من جودة أو رداءة ، وسوف تصدقك القول بدون شك .

فقالت بعصبية أشد :

ـ أى قول ؟

ـ إن كانت هذه المحاولات جيدة .

فردت بغضب أكبر :

ـ إنها جيدة ، ثم إنها ليست محاولات ، إنها نتاج ناضج ، كل من قرأها قال ذلك ، إلا أنت ، حتى إنك لم تطلعى عليها .

فقلت :

ـ لقد قرأت البعض منها .

فتساءلت :

ـ متى ؟

ـ الآن .

ـ قلبت الأوراق فحسب ، وتقولين إنك قرأتها .

فقلت :

ـ إن قراءة مقاطع منها لا تحتاج إلى عناء كبير .

ـ إذن لم لا تقولين رأيك ؟

فقلت متهربة :

ـ دعيها لجدتك وسوف تصدقك القول .

ـ ستقول إنها نتاج ناضج .

كان من العسير علىّ موافقتها ، فأمتدح ذلك الإسفاف ، كما كانت ترغب . فقلت وأنا أنهض :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ حسنًا ، لنقل ذلك ، ولكن دعى لجدتك الحكم .

ثم تركت الأوراق على المكتب العريض أمامها ، وانصرفت إلى مكتبى لعمل شأن آخر .

وكان من نافل القول ، أن هذا التصرف لم يعجبها منى فزادها غضبًا ، فقد أخذت تدمدم دمدمة ، تدل على ما كانت تعانيه من خيبة أصابتها فى الصميم ، من رأيى فى ذلك الذى تدعوه أدبًا ، ولكن لحسن الحظ لم أفهم من زمجرتها شيئًا وأنا على مبعدة منها ، وسط جلبة ولغط عدد غفير من العاملين الذين كانوا موجودين فى ذلك اليوم ، لقبض رواتبهم ، فابتعدت وفى قلبى رثاء لسذاجتها ، وحقد عليها لكونها لا تريد أن تنسى أو تغفر لوالدتى عذاب طفولتها . يا لأختى المسكينة ، إن مشاعرى مختلطة نحوها لا أدرى إن كنت أحبها ، أم أنى قد بدأت أكرهها .

ولكن فى النهاية تمنيت لها النجاح فيما ترغب به ، فقلت لنفسى على أية حال إنها غيرة إيجابية غير ضارة البتة ، وربما كانت ذات فائدة ، إذا ما حفزت أى موهبة تكون كامنة فيها ، لتحاول ، من يدرى . قد تكون ذات شأن أدبى مثل جدتها .

إلا أن أمنيتى هذه لا تنم عن نفاد إدراك منى لعقلية أختى قطعًا ، ولكنها أمنية فحسب أكبح بها جماح نفسى عن الاسترسال فى مشاعر العداوة لها ، ومن المؤكد أنه لم يكن يغيب عن ذهنى أنها لن تتحقق أبدًا .

لقد كنت قبل هذه الآونة ، قد نشر لى العديد من المؤلفات الروائية ، التى نالت استحسانًا وشهرة كبيرتين ، كما نلت عدة جوائز عليها فى موطنى ، مما منحنى حقًا ، بأن أكون عضوًا أساسيًا ، فى (اتحاد الأدب) فى بلدى الأصلى ، ومن ثم أكون عضوًا شرفيًا فى اتحاد الأدب هاهنا .

ويبدو أن هذا الانتماء الأخير للبلد ، التى تعتبره أختى أصلاً لها ، هو ما أثار غائلة الغيرة لديها ، فى هذا الشأن ، وجعلها ما تنفك تدلى بدلوها ، المرة تلو المرة ، فى محاولة دائبة أن تكون أدبية ، هى الأخرى .

وأيضًا مما بدا لى ، حين ذاك ، بعد اطلاع الجدة على تلك المحاولات ، بدت مقتنعة تمامًا بموهبة حفيدتها التى حصلت عليها بالإرث الجينى كما تقول وبأنها ـ أى الحفيدة ـ ورثت عنها الفطرة فى نظم الشعر ، من ضمن ما ورثته من صفاتها الخاصة .

بيد أنه ، وكما ترى الجدة أيضًا ، أن الحفيدة لم تصقل موهبتها الشعرية بالدراسة والتحصيل ، وكان من ظنها أن تعويض ذلك سوف يأتى بالممارسة والمران . ومن أجل ذلك ، فقد أخذت الجدة تشجع كل ما يحث الحفيدة على مواصلة المضى بممارسة هوايتها الجديدة ، على أساس من ذلك المبدأ ، ولذا فقد أخذت الجدة كل ما ينبغى من مساعدة الحفيدة للإفصاح عن تلك المواهب ، وتنحية كل ما يعرقلها ، فكانت

Looloo
www.looloolibrary.com

تأتيها بالنصوص الأدبية كومات مكومة ، وتحثها بإلحاح شديد على الاطلاع عليها ، ولكنها كما لو كانت تنفخ فى رماد ، إذ ما إن تغادر الجدة ، حتى تزيح أختى كل ما جاءت به إليها ، وتعود إلى ما كانت عليه من لهو ، تخط ما تشاء من كلام ضحل المعانى ، ركيك التراكيب ، كانت تظنه بكل فخر واعتزاز تأليفًا أدبيًا .

وكان هاجس أختى الذى ينغص عليها فرحتها ، بتلك المحاولات ، التى ترى وحدها ، أنها قمة الإبداع ، إنه ليس فى ميسورها الانتماء إلى منتدى الأدب فى موطنها ، ولا فى أى مكان آخر ، بسبب من فقدها للهوية ، حتى وإن باتت شاعرة وقاصة متميزة فى مجالها .

وكانت الجدة متأثرة ومتألمة ، لتأثر حفيدتها بهذا الشأن ، على الرغم من أنها ترى عدم جدارة حفيدتها للانضمام لأى تجمع أدبى فى الوقت الراهن ، قبل أن تنضج موهبتها ، كانت تقول ذلك همسًا ، بعيدًا عن مرمى السمع من أختى ، ثم تعقب مرفقة ذلك بابتسامة مرهفة أنها تأمل أن يحدث لها ذلك فى المستقبل بعد الممارسة والمران .

وتعود إلى القول :

ـ لابد أن يحدث لها ذلك ، مؤكد سوف يحدث ، إنها مجبولة بالشعر وجينة أدبية .

أما من جانبى ، فقد كنت فى موقف المتأمل لهذه الأمور ، التى بدت لى فى حينها ، مضحكة ومؤسية فى آن ، بيد أنى لم أتدخل فى إبداء الرأى ، أو التعليق على أى قول يخص هذا الموضوع ، وتركت الاثنتين تحلمان ما شاءت لهما الأحلام ، وانهمكت فى العمليات المهمة التى تدر أموالاً طائلة ، محاولة فى عظيم من العناء معرفة أسرار العمل وطرائقه السرية .

وماكان من أختى إلا أن خالت نفسها شاعرة بحق ، فاستمرأت محاولة احتراف الأدب ، بعد ما سمعت من تشجيع جدتها ، فتركت لى الشأن التجارى ، ومن جانبى تركتها سادرة فى انغماس فيما تراه من موهبة أصيلة فيها ، وكان أن أعقب ذلك من تطور الأمر معها ، فأخذت تلقى مزدهية بما تنشئه أناملها ، من ركاكة خواطرها ، إلى مسامع كل من يرتاد المؤسسة من المراجعين والعاملين فى شأن الأعمال التجارية ، حتى وإن كانوا ممن لايمتون بصلة إلى الأدب ، ويبدو أنها غير قادرة على التفريق بين بيت الشعر الذى تنشده ، والبيت الذى نشيده ، فقد كان لسذاجتها فى هذا الشأن ، أنها كانت ترى فى نظرها ، أن كل من يقرأ ويكتب ، لابد أن يكون ملمًا بهذا المنحى من الأدب ذواقًا له .

وكان مما يثير الاشمئزاز والخجل أيضًا ، قيامها الدائب بذلك الإلحاح فى طلب الرأى فيما تنشئ مستطلعة لكل من هب ودب ، فقد كانت لا تكتفى بعبارات المجاملة التى يسمعونها

Looloo
www.looloolibrary.com

إياها المرة تلو المرة ، بل كانت تطلب المزيد من القول ، وأحيانًا يأخذها الحماس ، فلا ترى ضيرًا من تعطيل شئون العمل التى جاءوا بها فتقودهم إلى مناقشات أدبية ، معددة بزهو كاذب ما قرأته من آثار الأدب العالمى الذى جلبته لها جدتها ، وقد يتحول الأمر معها إلى ما هو أنكأ عندما تحول اهتمامها إلى إسماع جلسائها ما تسميه أشعارها ، فتأخذ تقرأ تلك الأشعار بطريقة فجة مليئة بالأخطاء ، وقد تستمرئ ذلك فتزيد من عدد مرات القراءة ، لمن يتعسه الحظ فيبقى مصغيًا لها ، وكانت فوق كل ذلك تطلب المزيد من الإيضاح والتقييم أو إبداء الرأى ، فكان أن حدث وأضفى أحدهم المزيد من المديح مما لاتستحقه تلك القصاصات الكتابية ، التى يمكن أن يقال عنها أى شىء ، إلا ما يمت بصلة إلى الأدب ، كانت لاتكتفى بذلك ، بل تطالب بإلحاح شديد أن يقول الرأى الصادق والقسم عليه أيضًا ، فإن حدث وخدع جليسها بما تطلبه منه من قول الصدق ، فقال رأيه بالصراحة التى يرى أن تلك القصاصات تستحقه ، فالويل له عندئذ ، فإنه إذ ذاك قد حكم على نفسه بالطرد شر طردة من مجالستها ، بل ومنع من دخول المكتب حتى وإن كان لعمل غير الأدب ، وغالبًا مايكون كذلك ، لأن غالبية زبائننا لايأتون إلا لغرض الأعمال التجارية .

لقد كان من الواضح لى ، أنها لا تقبل سوى المديح ممن يستمع إليها .

وعندما حاولت التدخل لإيقاف هذه المهزلة اليومية ، معتمدة على ما لدى من دالة سابقة ، وكان غرضى أن أجنبها مثل تلك المواقف الداعية إلى السخرية ، فقمت بنصحها ، بأن لا تحاول طلب الرأى من أحد ، لتدع الآخرين أحرارًا فيما يبدونه .

وقلت لها : إنه ربما دعا ذلك إلى التدليل على الظن إلى عدم الثقة بما تكتب .

وليتنى لم أتفوه بتلك النصحية ، فلأول مرة أراها فى مثل تلك الثورة التى لم تبق ولم تذر ، مخرجة بكل صراحة فجة كل ما كانت تحمله ضدى من مشاعر سلبية ، أجادت إخفاءها عنى طويلاً ، ملصقة بى نقائص لو صدقتها عن نفسى لم يطب لى العيش يومًا واحدًا على هذه الأرض ، فتذكرت عندئذ ولأول مرة تلك الشكوى المرة التى كانت أمى تشكو منها .

لقد قالت معنفة إياى بصلف وكبرياء :

ـ إياك واستعمال النصح معى ، إنى أفهم كل شىء مثلك ، بل ربما أفضل منك .

ثم انحدرت إلى وصفى بالغرور ، لأننى نشرت قبلها ، بل وزادت على ذلك ، بأن ألمحت إلى أنى أغار من نجمها البازغ ، الذى سوف يأتى عليه يوم ويغطى على كل ما لدى من أعمال أظن نفسى اشتهرت بها ، ثم فاضت بأقوال ملؤها الشتائم لأمى ، لأنها سعت إلى تعليمى وحرمتها من ذلك ، مما دعانى إلى الزهو عليها .

Looloo
www.looloolibrary.com

فعرفت منذ تلك اللحظة ، أن أختى قد تغيرت حقًا ، وأنها ما عادت تلك التى أعرفها ، مما حدا بى بعد هذه الواقعة إلى تركها وشأنها ، فلم أنبس أبدًا منذ ذلك اليوم ، بأى شأن أدبى لها وانكببت على العمل التجارى ، الذى تخلت لى عنه عن طيب خاطر ، أغطى به تباعدى عنها ، وأخدم به السيدة (سارة) الطيبة بعمل ما قد يفيد حفيدتها .

بيد أنه وبعد القليل من الوقت ، أى بعد انكشاف ضحالة ماتخطه أنامل أختى من أشعار ، لا تُدعى بهذا المسمى إلا أمامها ، وما تكتبه من أقاصيص لا تملك من معناها سوى الاسم الذى يطلق عليها .

كان ذلك عندما أخرجت إحدى المطابع التى يدفع لها الثمن مقدمًا ، كتابها الأول يحمل عنوان (خفوت الحديث) ، وكانت قد سخرت أحد المعجبين بها من الرسامين لتزيينه برسومات تفضح تكوينات المرأة الداخلية ، وكأنه بذلك يعبّر عن مشاعره تجاه مؤلفة الكتاب ، مما جعلها بحق مدعاة للسخرية من كل الذين قرءوه .

حين ذاك انفض معظم ذلك الجمع ، من أولئك الكتاب الكبار ، ممن كانوا يربئون بالأدب أن يكون بمثل ذلك الغث من القول ، منصرفًا بلا عودة .

ومع ذلك فقد بقى غيرهم ، ممن لا يريد أن يريم من مواجهة حضور شابة بهية الطلعة موفورة الغنى ، والاستمتاع

بمجالستها ، وبعد ذلك لا فرق لديه ، إن كان ما يسمعه منها أدبًا مجيدًا أم لغوًا مجردًا .

أما جدتها ، التى كانت من أهم مشجعيها ، فلم يفتها ما فى ذلك الكتاب من غثاثة مزينة برسوم فاضحة ، فأسمعتها من التقريع على استعجالها بالنشر ما يجعلها تكف نهائيًا عن الإمساك بالقلم ، لو كانت تملك ذرة من الوعى المتزن ، ولكن يبدو أنها لفرط ما سمعت من تقريع فى طفولتها ، أمات ما كان لديها من الإحساس بأى إيلام يمس الكرامة .

وكان من الجدة (سارة) بعد ذلك أن حظرت عليها نشر أى كتاب ما لم تطلع عليه وتجيزه لها أولاً .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

- ٢١ -

ثم لم يمض ردح طويل من الوقت ، حتى تبدت لى رؤية هزت وجدانى هزًّا ، وكادت تصيبنى بالدوار .

بدأت أولاً بملاحظة سرتنى كل السرور ، على الرغم من كل شىء مضى بينى وبين أختى ، لقد رأيت تبلورًا جديدًا فى أفكارها ، يعكس تغييرًا جادًّا متعمقًا على ما تنتجه من خواطر ، لقد بات نظمها موزونًا ملتزمًا قوافى نضيدة ، أجل فقد أخذ يراعها يخط أشعارًا منتظمة القافية معتدلة الميزان ، وبدأت أقاصيصها متبلورة ، وكأنها أخذت مسارًا مختلفًا ، أو كأنها دخلت منعطفًا جديدًا ، لقد اتجهت بأفكارها إلى آفاق أكثر رحابة ، وأخذت تنحو منحى ذا غور ، لقد تعمقت رؤيتها للمواضيع التى تتناولها ، فقد أخذت تنحو ناحية الموضوعية ، بدلاً من أن تكون نثارًا من الخواطر المتناثرة ، التى لايفهم منها ماذا تريد أن تقول من خلالها ، أما الآن فقد أخذت بناصية الحكاية ، مصبوبة بقالب من الفنية ، وإن لم يكن عالى التكنيك ، إلا أنه أفضل من السابق ببون شاسع .

ففرحت لها ، بادئ الأمر ، ظانة أن أختى بات فى مقدورها التوصل إلى حل لغزها الشعرى ، وأنها كذلك توصلت إلى رصد بعض موضوعاتها القصصية .

ومضت بى فترة لا بأس بها ، وأنا على ذلك الظن ، وقد أخذ منى الفخر مأخذه ، وأنا أرى أختى وربيبتى ، تنشر أقاصيصها وأشعارها على الملأ ، بعد أخذ موافقة جدتها ومباركتها على الجيد منها .

وحتى هى فقد طرأ على طباعها بعض التغير ، فقد تخلت عن شراستها معى ، وكأنها وجدت ما يلهيها عنى مما أنسانى ذلك الغضب الذى توليني إياه بعد جفوتها تلك ، ولم أدرك آنذاك أنها كانت فى حاجة ماسة لى .

ثم بدأ لى فجأة ، وعلى حين غرة ، ودون أن يخطر لى مجرد خاطر ، باحتمال أن ما حدث يمكن أن يحدث ، وممن ؟ من أختى الصغيرة البلهاء .

إذ إنه وعلى حين غرة ، كما ذكرت ، نالتنى صدمة كبيرة ، هزت وجدانى هزًّا ، وكادت تطير بصوابى ، وتفقدنى لبى ، فقد فوجئت عندما رأيت ما اقشعر له بدنى وأدار ما فى رأسى من وعى .

لقد شاهدت أختى ، فى خلسة منها ، وهى تدفع مبلغًا من المال إلى بعض محترفى الأدب ، وتتسلم منه أبياتًا شعرية ، لاحت لى فكرة أنها من نظمه ، ولكن لم أكن متأكدة مما ظننت . وكانت بداية ذلك عندما أخذت فى مراقبتها وترصد حركاتها ، بعدما جاءت إلى مكتبى ، أول مرة تريد (شيكًا) ، بمبلغ من المال ، ورجتنى بالطريقة نفسها من الحنان الذى كانت تغدقه

Looloo
www.looloolibrary.com

على فى السابق من أيامنا ، رجتنى أن لا أخبر جدتها ، لأن المبلغ ضئيل ، ويمكن إدخاله فى باب المصروفات .

وعندما بادرتها بالسؤال ، لمن أحرر ذلك الشيك ، رفضت ذكر الاسم ، زاعمة أنها سوف تكتبه ، عندما تتأكد لمن تريد صرفه .

فكتبت لها (شيكًا) بالمبلغ المطلوب بعد أن تركت فراغا فى خانة المدفوع له ، وكان من حسابى الخاص ، لأنى فى الحقيقة لا أريد أن أخفى أى مبلغ ، مهما كان تافهًا ، عند محاسبة السيدة (سارة) ، كى لا أفقد ثقتها ، ولكنى أوجست خوفا من المقصد ، الذى وراء إخفاء أمر هذا المبلغ الضئيل عن الجدة ، لذا فقد حرصت على معرفة الشخص المدفوع له .

ومن نافلة القول ، أنه كان لسذاجة أختى ، دور فى كشف السر ، فهى لم تطلب المبلغ سائلاً ، ومن ثم تدفع بمعرفتها لمن تريد .

كما كان لوضعها فى موطنها دور آخر ، إذ إن ذلك الوضع لا يمكنها من تحرير (شيك) باسمها ، لعدم وجود هوية لديها . فتغلبت على ذلك الإشكال ، بسذاجة عديم الخبرة بتصريف الأمور المالية ، بأن تركت الاسم المدفوع له على بياض .

وكان حسبى لمعرفة اسم المدفوع له ، الاستعلام من البنك الذى أتعامل معه ، وعندئذ عرفت أنه لأحد الشعراء ، ممن

يترددون على مكتبنا التجارى ، دون عمل له معنا ، فى ذات المنحى .

وكدت أرزح بهم ثقيل لو لم يخالجنى شىء من عدم التصديق فى مبدأ الأمر ، بل وكدت أكذب نفسى ، على قدر ضئيل من الأمل ، بأن ما خلته لا يمكن أن يكون حقًا .

وقلت لنفسى : إنه ربما تكون دفعت له لسبب آخر ، غير شرائها أشعارًا من نظمه ، وإن جاء ذلك متزامنا مع نشرها فى الصحف ، بعضًا من الأبيات الشعرية الجيدة .

غير أنه بعد أن توالت طلباتها لتلك (الشيكات) ، غير المسماة ، والتى لم يعد صعبا علىّ كشف أصحابها .

أخذت بترصد همساتها ، فى أثناء جلستها مع الشعراء والكتاب ، ولأناس معينين ، ألحظ شدة اهتمامها بهم ، وهم أنفسهم ، الذين دفعت لهم تلك الشيكات ، بعد ذلك اهتديت بعين اليقين ، إلى ما كنت أخاله ظنًا من الظنون ، وكان مما لا مراء فيه أن لسذاجتها ونفاذ إدراكها عاملاً مساعدًا فى تمكينى من كشفها ، فلم تكن حذرة بما يكفى فى تعاملها معهم ، ففى الكثير من الأحاديث ، يتواتر إلى مسامعى جدلها معهم صاخبًا وعلى نحو موصول ، فى أثناء المساومة ، مشترطة الجودة ، وقولها إنها لن تدفع ، ما لم تستمع إلى آراء شعراء آخرين ، أو ترى رأى النقاد ، فى تلك المنظومات الشعرية ، أو تلك المجاميع القصصية القصيرة .

Looloo
www.looloolibrary.com

وبعد ذلك لم يعد صعبًا أن أراها ، وهى تعرض تلك الوريقات ، التى تحوى تلك الأبيات الشعرية ، أو الأقاصيص القصيرة إلى من له القدرة على التمحيص ، فإن بدا مسرورًا منثالا عليها بالمديح ، سارعت إلى المطالبة بتلك (الشيكات) ، دافعة بها إلى أولئك المرتزقة ، آخذة ما يتبقى لديهم ، ومن ثم يصبحون من مصادرها السرية ، للتزود بكل ، أو بعض من أعمالهم ، لتنسبه بعد ذلك إلى نفسها ، ومن ثم تعرضه على جدتها ، التى تعطيها موافقتها على نشره وهى مليئة بالغبطة والسرور لنضج موهبة حفيدتها .

وقد أساءت لى تلك المعرفة وطاشت بصوابى ، ولكن ماذا كان على أن أفعل ؟

وهكذا ظلت تدفع وتدفع ، آخذة محصلة ما يكتبه الآخرون ، ناسبة إلى نفسها تلك الأعمال ، ومازالت تفعل ذلك ، حتى آخر ما كتبته من سطور هذه الحكاية الغريبة .

كان خليقًا بى أن لا أهتم بما تفعله ، بعد أن غلبت على أمرى معها ، وكان بإمكانى أن أكون صماء وعمياء تجاهها ، وقد فقدت كل رغبة لى بالنبس فى أى شأن يخصها ، بعد ذلك الموقف الذى كان لى معها ، كما أنى لم أشأ أن أصدم السيدة (سارة) الجدة ، بإطلاعها على الحقيقة الأدبية التى تمارسها صغيرتها الشاعرة ، كما أخذت تدعوها مؤخرا ، فأترك الجدة

منتشية بحفيدتها . هذا ما خلته فى تلك الأيام بأنه واجب على تجاه المرأة العجوز .

بيد أن الذى كان يرهقنى ويجعلنى حافلة بالعناء ، ومن ثم أخرجنى من طورى نافدة الصبر ، ذلك السيل المنهمر من طلبات (الشيكات) ، التى كانت من مالى الخاص ، مما وهبتنى إياه السيدة (سارة) ، والذى سوف يستنزف إلى نهايته ، لو استمرت الحال على ما هى عليه ، وسوف أعلن إفلاسى فى القريب العاجل ، فأنا لا أملك فى حوزتى ما تملكه هى من ثروة فى الذرا ، لن تهتز حتى لو أنفقت أضعافًا مضاعفة مما كانت تطلبه منى .

هذا هو السبب الجوهرى الذى دعانى إلى التحرك سريعًا ، وفوق هذا ، كان مما يتعسنى أن أرى الشأن الأدبى يجنح إلى الهبوط وينحدر إلى لا قرار بسبب من مثل هذه الممارسات المزرية .

فرأيت أخيرًا ، أنه للأمانة الأدبية ، وقد أقدم خدمة لأختى أيضًا ، إذا كان فى ميسورى إيقاف تلك المهزلة التى ضلت بها الطريق .

أجل لقد هيئ لى أنى قد أجنبها المنزلق المحفوف بمخاطر الفضيحة فيما لو تحدث أحد بحقيقتها الأدبية ، لو أنى دفعت إليها بمن يصدقها القول ، عن طريق غير مباشر ، ينصحها ، مبينًا لها ما فى عملها ذاك من دناءة أدبية لا تليق بمن يعتبر

Looloo
www.looloolibrary.com

نفسه أديبًا أريبًا ، وأنه فى ميسورها أن تكون من المبدعين باستمرارية المزاولة والمران ، حتى تجد صيغة شعرية خاصة بها .

غير أن ذلك كما قلت ، كان مجرد تهيؤ منى ليس أكثر ، فقد هبت فى وجه الرجل الناصح ، بتلك الغضبة العارمة ، التى أضحت سمة لها ، تجيد ممارستها ، فقد بدت لى وكأنها كانت تقلد بحرفية تامة ، تلك الثورات التى كانت تنصب على هامتها فى أثناء طفولتها ، وكأنها لم تنسها يومًا .

كان هذا ما تفعله أمى بها ، بعد كل ثورة عليها ، لقد كانت تجسد طريقة ثورة والدتى عليها بصورة مذهلة ، وكأنها لاتعرف كيف تغضب إلا بتلك الطريقة ، فكانت كأنها تعيد تمثيل مشهد من مسرحية رسخت مشاهدها بذهنها .

فطار لب الرجل ، وقد داهمه ذعر مباغت ، ثم طردته من أمامها شر طردة ، فولى الرجل أدباره لايلوى على شىء ، إذ لم يكن يتوقع أن يحصل منها ما حصل ، وكذلك أنا ، فمن أين لى أن أعرف ، أن الأمر سيفضى بها إلى هذه المرحلة من درجات الغضب التى لم تبق ولم تذر نحو ذلك الرجل المسكين .

ثم تحولت لى بعد ذلك ، مقتحمة مكتبى كالعاصفة العاتية ، فبدت فى تنمرها أشبه باللبؤة التى فقدت صغارها ، مهتاجة فى سخط لا حدود له . قالت :

- إنها تعلم من دفع بذلك الناصح المغرض ، وأنها تعلم أيضًا من تلك الدنيئة سيئة الطوية ، التى افترت عليها ، وأنها تعلم شدة الغيرة التى تتملك قلوب أعدائها ، كل ذلك لأن شهرتها بدأت تطغى فى الأوساط الأدبية ، على الشهرة الزائفة التى يمتلكها البعض دون وجه حق .

(دون وجه حق !) . يالقدرتها العجيبة على قلب الموازين .

قلت ذلك لنفسى وتركتها ترغى وتزبد دون أن أرد عليها ، لقد رأيت أنه من العار على أن أقدم اعتذارات كاذبة ، بأنى لست وراء الموضوع ، كما أنه لم يعد فى ميسورى أن أقدم لها أى نصح ، وهى على ما هى عليه من هياج يتعذر معه إسكاتها فضلاً عن تقديم النصح لها ، لذا كان أيسر ما فى قدرتى فعله ، أن تناولت حقيبة يدى ، وخرجت مسرعة من المكتب ، دون أن أنطق بحرف واحد ، ودون أن أفطن إلى أنى أولى هاربة من أمامها كما فعل الرجل ، قبل هنيهة . ومع ذلك حتى وإن فطنت فلم يكن فى وسعى سوى ذلك التصرف لإيقاف هجمتها الشرسة .

ولكن عندما عدت فى اليوم التالى إلى مقر عملى ، كانت هادئة ، ولكنها لم تكلمنى طيلة ذلك الصباح .

وكان من غريب الأمر الدّال على قدر ماتملك من ذكاء شرير ، أنها لم تشتك لجدتها ، مما صدر منى ، حول تلك الواقعة - واقعة بعثى بمن ينصحها - لقد كانت أكيدة ، كما هو الحال معى ، فيما

Looloo
www.looloolibrary.com

لو أنها فعلت ، أو لو أن الأمر تنامى إلى أسماع الجدة ، فهى لن تجعله يمر بسهولة ، بل سوف تتحقق من الموضوع ، حتى تتوصل إلى معرفة الحقيقة ، وحين ذاك تخسر ذلك التأييد ، بل ربما أدى الأمر إلى تحريم الكتابة عليها فيما بعد ، وربما تعدى ذلك إلى طرد كل من هو متواطئ معها بذلك الزيف .

* * *

ثم اهتديت إلى ما دعاها إلى ذلك الهدوء النسبى فقد لاحظت فى ما تلا ذلك من أيام ، أن أختى كانت مترقبة فى توتر شديد لكل تحركاتى ، سواء ما كان منها فى المنزل أو فى المكتب ، وكان واضحًا لى أنها تخشى أن أنقل الخبر إلى جدتها ، ولكن حين رأت تلك المعركة التى خاضتها معى ، مرت بسلام ، وأنها لم تفض بى إلى ذكرها إلى السيدة (سارة) ، وبدأ لها أنه ليس فى بالى ما يشير إلى ذلك ، أحست بما يطمئنها من سكوتى ، وربما ظننته خوفًا منها وخنوعًا لها ، إذ لم تلبث حتى استدعتنى إلى مكتبها ، وكانت فى الآونة الأخيرة تفعل ذلك فى علياء متكررة ، كلما احتاجت إلى الحديث معى ، بينما كان الأمر مختلفًا فيما سلف من أيام ، إذ كانت هى من يأتى إلى مكتبى لتطلب ما تريده من شأن لها ، ولكن يبدو أن الأمور تغيرت الآن ، إلى غير رجعة .

ما أن رأتنى على عتبة مكتبها ، حتى قطبت ما بين حاجبيها ، وشمخت بأنفها غطرسة وبادرتنى قبل أن أجلس جاعلة من

أحاديثها المترفعة كمن يلقى بالقول إلى من هو أدنى منه منزلة .

فملكت نفسى قسرًا كى لا أدير ظهرى إليها ، واستمعت إلى نهاية حديثها .

كان حديثًا مباشرًا ، فكانت بدايته نوعًا من العتاب الشامخ ، ثم تصاعد إلى ثورة عارمة ، ومما فهمته من خلال ذلك الخضم من الألفاظ المتزاحمة ، قولها عنى :

إنى غير مسرورة ، لأنها سوف تقوم قريبًا بطبع ديوانها الثانى ، بعد صدور مجموعتها القصصية ، وقالت : إنها سوف تنضم إلى المحافل الأدبية فى كل مكان ، على الرغم منى ، وقالت لتذهبى أنت وكافة اتحادات الأدب إلى الشيطان ، هذه الاتحادات التى تتباهين بالانضمام إليها دونى ، وقالت اصبرى قليلاً ، وسوف ترين كيف تطغى شهرتى على شهرتك ، فموتى كمدًا ، أيتها الحقود المغرورة .

لقد أخذ العرق ينبجس من أنحاء جسمى ، ولكى أكبح جماح غيضى تطلب منى بذل جهود مضنية ، وقد ثقلت وطأة صبرى وباتت منذرة لى بالهلاك إن أنا بقيت منصتة لها دون رد ، ولكن بم أرد عليها ، وعلى التذكر ألا أبادلها الشجار ، وعلى العناية بها ، هذا ما ألزمت نفسى به أمام الجدة ، وهذا ما تعهدت به إليها ، بعد أن كثرت المواقف التى تحثنى وتدفعنى دفعًا إلى المواجهة معها ، ولذا لم أجد أمامى سوى أنى نظرت إليها

Looloo
www.looloolibrary.com

نظرة طويلة ، لا أدرى لعلها كانت تحمل من الغضب المكبوت ما تحمل ، لأن ثورتها ازدادت بعد ذلك ، مما دعانى إلى النهوض ، وأنا أردد :

ـ يؤسفنى أن أخبرك ، أنه ليس بوسعى دفع أية مبالغ من مالى الخاص ، أكثر مما فعلت ، فإذا أردت المزيد من المال فاطلبيه من جدتك .

وأدرت لها ظهرى ، عائدة إلى مكتبى ، وسمعتها تزعق خلفى :

ـ أى مال خاص لك ؟ جلبته معك إرثا من والدك الخنوع ؟ إن كل ما تملكين هو لى .

كل ما تلفظت به تجاهى على الرغم من فداحته ، كان لا يقاس لما ساءنى من عظيم الإساءة وما أفعمت نفسى به من الألم لسخريتها المستمرة من والدى ، ذلك الوالد العطوف ، الذى أول ما نالها من عطف ، كان منه ، ولكنها فيما تبدو لى أنها شديدة التنكر ، وغير ذات عرفان .

ومع كل هذا الذى فعلته بى ، وبعد فترة قصيرة من الزمن لم تتعد أيامًا قلائل حتى جاهدت لكى يزايلنى الغضب ، أو قل إنى حاولت تناسيه ، فقد بحثت عما يلتمس لها العذر فى داخلى ، كما كنت أفعل فى السابق ، متعللة بجهلها الثقافى وبتأثير سوء المعاملة التى تلقتها فى طفولتها ، ولكن كل ما حاولته كان دون

جدوى ، لقد كنت أنحو بالكراهية نحوها ، وإن لم يكن فى ميسورى أن أشعر بالمقت الكامل لها .

وأنا أيضًا فقد أنحيت باللائمة على نفسى لكى أجد لها العذر ، قلت لنفسى ، لعلنى أسأت التصرف عندما بعثت إليها بذلك الناصح ، الذى قد يكون أساء فى الاستدلال على الطريقة المثلى فى النصح .

وعلى الرغم من أن الموقف بيننا لم يتصاعد إلى أكثر من ذلك الذى حدث ، إلا أن أيًا منا لم تتحرك قيد أنملة لإزالة الجفوة الناشبة ، فترك الأمر على ما هو عليه من التوتر ، وإن استمرت العلاقة بيننا فى العمل ، آخذة فى مجراها الطبيعى .

ثم لم يمض وقت طويل على تلك الأحداث ، حتى بات الأمر أكثر انعطافًا ، إذ لم نلبث سوى القليل حتى تكاثر علينا الزوار من هواة الأدب ومحترفيه ، يتقاطرون علينا منثالون من كل مناحى ودروب الثقافة فى البلد ، حتى كاد مكتبنا التجارى يتحول منقلبًا إلى منتدى أدبى .

وكان ذلك بعد أن تواتر إلى الأسماع ما يراود هذه الشابة الجميلة صاحبة تلك المؤسسة الواسعة الثراء من آمال بهذا الخصوص ، فكان مؤدى لكل ما جرى أنه فى وقت قصير يعتبر قياسيًا لمن كان فى مثل وضعها ، أن كثر احتكاكها بالأدباء .

Looloo
www.looloolibrary.com

وبعد فترة وجيزة طلبت من جدتها تحويل سرداب المنزل إلى صالون أدبى مسائى ، الذى بات مزارًا ودار ضيافة لكل أديب يفد من كافة أنحاء العالم .

ثم حدث تطور آخر فيما لاح لى ، لقد اكتشفت لعبة جديدة تنشد بها الشهرة ، وأظن أنها ماكانت لتعرفها لو لم تتلق إرشادًا من أولئك الذين تدفع لهم ، لقد تحولت إلى شراء بعض من صغار العاملين فى الصحف ، الذين لم يعدموا الوسيلة لوضع صورها ملصقة فى صدارة صحفهم فى كل إشراقة صباح جديد ، مرفقة بنشر ماكتبته من غث وسمين كتب لها . ومما زاد الطين بلة ، أنها أخذت تدفع إلى بعض المتعاملين معها فى تلك الدور ، مبالغ إضافية ، لكى يمنعوا نشر نتاج من لاترغب بالنشر لهن من القاصات والشاعرات اللواتى تعج بهن الساحة الأدبية فى بلدها ، بصورة خاصة ، دون الرجال من الأدباء والشعراء ، لقد كانت غيرتها شديدة من بنات جنسها . وبطبيعة الحال ، فأنا أولهن ، وكأنها تقتص منى فيهن جميعًا .

ثم دلها تفكيرها ، أو لعله قام بإرشادها إلى ما يعزز مكانتها الأدبية ، فتحولت إلى شراء أقلام صغار الكتاب لتكتب عن تلك المجموعات القصصية والشعرية بالإشادة ، كما لو كانت قمة لاتضاهى فى الأدب ، محولة ما جاء فيها من تافه القول إلى مصاف الأعمال الراقية بكذب سافر وزيف لايعرف إخفاء نفسه .

ومع ذلك فقد كان ذلك جيدًا على من لم يقرأ تلك الأعمال ، فالكثير كان يصدق ماجاء عنها من نقد إيجابى متسربل بالمديح بأقلام أولئك المرتزقة .

وكان من جراء ذلك أن احتاجت إلى الكثير من المال ، وبما أنى قد امتنعت عن الدفع ، فقد استطاعت بوسيلة ما إقناع جدتها بأنها تريد مالاً يجرى بين يديها ، وقد بدا لى أن العجوز ظنت أن ذلك يفرح حفيدتها ، لما كانت تتعرض له فى سابق أيامها من فقر وحرمان شديد ، ففتحت لها كيسًا لا ينضب .

عند ذلك تحولت إلى منعطف جديد يعزز مكانتها الأدبية ، فأخذت تدفع إلى كل من تتوسم به القدرة على الترجمة ، لترجمة مايدعى بأعمالها ، إلى عدة لغات ، مما أدى إلى بروز اسمها فى عالم الأدب كالطبل الرنان ، ولكنه فارغ أجوف مثله .

فكنت أقول لنفسى إنها قوة الوفرة المادية وصولاتها وجولاتها التى يمكن بها قلب الموازين .

وكان من حسن حظها أنه لم يكن ثمة من يتتبع كتاباتها بالاطلاع والتمحيص مقارنًا بما يقال عنها من ثناء لكى يتعرف الحقيقة الأدبية لها ، مما أفضى بالأمر فى نهايته إلى أن باتت وسائل الإعلام تمعن فى ملاحقتها بطلب الأحاديث وتسجيلها إذاعيًا وتلفزيونيًا ، فدخلت المسكينة فى دوامة أخرى جديدة

Looloo
www.looloolibrary.com

تتطلب منها إثبات جدارتها بالقول المباشر ، وحين ذاك تبين ما تملكه أختى المسكينة من ضحالة فكرية .

بيد أن ثمة أحداثًا أخرى ، كانت تجرى متزامنة مع كل ما يجرى فى تلك الأيام ، لقد أصدرت أختى خلال هذه المدة ديوانًا شعريًّا ، كان ترتيبه الثالث بين دواوينها ، وكان مثل ما سبقه جل ما فيه من أبيات شعرية مدفوعة الثمن ، سواء كان من نظمها ، وأعيدت صياغته بأقلام شعراء بارعين ، أو نظمت أبياتها لتنسب إلى أختى فيما بعد ، وكذلك أصدرت مجموعة قصصية خامسة معنونة (بالعيون الدامسة) ، بعد روايتها المسماة (الغارقة فى البحر) ، وكانت بنفس طريقة القص بمثل ما سبقها ، البعض منها معدل والبعض الآخر مكتوبة بكاملها ، وكلها حكايات غرامية أشبه بقصص المراهقات ، مثلها مثل أى تصرف يصدر منها ، فالذى يبدو لى أنها لن تخرج من طوره ، حتى لو بلغت الخمسين من عمرها ، فكانت تلك المجموعة تضم كل ما فى جعبتها من مواضيع خسيسة عن اللواط والسحاق والخيانة الزوجية التى جلبت لها فيما بعد الكثير من المشاكل القضائية التى عانت منها طويلاً .

وكان أول إجراء حاولت اتخاذه بعد هذا الكم من الأعمال الأدبية المسفة ، أنها دأبت على السعى إلى ضم اسمها كأديبة منتسبة إلى اتحادات الأدب فى كافة الدول العربية .

وكان من الغباء أنها تقدمت بطلبات عديدة إلى هيئات الإدارة فى تلك الاتحادات ، متضمنة مر الشكوى من الإجحاف الذى لحق بها ، لعدم قدرتها على الانضمام إلى اتحاد الأدب فى بلدها ، فما كان منهم جميعًا إلا الرد عليها ، بأنها لن تستطيع الانتساب إليهم ما لم تكن عضوًا فى موطنها الأصلى .

وكان ذلك سببًا مستجدًا لكى تثور ثورة متأججة ، فتنثال على تقريعًا ، محتجة بأن والدى هما السبب فى الواقع الذى هى عليه الآن ، وأن ذينك اللعينين لو كانا أكثر رحمة لأعاداها إلى ذويها وهى بعد لاتزال طفلة ، ولو فعلا لما حدث معها ما حدث .

وكان معلومًا لدى ، أن ما تقوله وتفعله يدل بوضوح ، بأنها تعجلت الانضمام إلى تلك الاتحادات الثقافية بفعل غيرتها الشديدة لكونى منتسبة لها دونها ، حتى فى عقر دارها ، وبان لى أيضًا ، أنها كانت تشعر بالغيرة من كونى عضوًا أصيلاً فى موطنى من قبل أن آتى معها إلى موطننا ، وربما كانت تشعر منذ ذلك الوقت بالغيرة من كل نجاح يصيبنى ، غير أنه لم يكن فى مقدورها آن ذاك إلا التسليم ، إذ ليس أمامها منفذ ولو بخرم إبرة لتغيير الواقع المفروض عليها .

وكان ذاك لم يشكل لى إلا همًّا جزئيًّا ، إنما كان أعظم ما حزَّ فى نفسى ، كيف نسيت حدب أبى وعطفه عليها فأنحت باللائمة عليه ، وكأنها لم تحظ بعطفه ولو لثانية واحدة ، ثم كيف

Looloo
www.looloolibrary.com

تحملنى كل حقدها على والدتى ، وأنا من قام بالتصدى لحمايتها فى حالة عجزها ، لقد نسيت تمامًا ما قدمته لها من عطف وحنان فلم تقدر ذلك مطلقًا ، كيف تكون على مثل هذا النكران ؟ مع كونى لست الملومة ولا أدان بذنبها ، إلا أنها قرعتنى وكأنى من منع عنها ذلك الأمر ، مما حدا بى إلى أن أحاول تجنبها ما وسعتنى المحاولة ، فكنت أهرب من أمامها فى أثناء تلك المعارك التى تشعلها ، كى لا أخوض معها قتالاً لفظيًا لا يقوده أى منطق سليم ، وكنت أعرف مسبقًا بأن النصر المؤزر سوف يكون من نصيبها ، وأنه لن يخفف من غلوائها ضدى حتى لو التجأت إلى أن أجأر بالشكوى لدى جدتها .

فتركتها لشأنها فيكفيها أنها ملكت المال والسند اللذين يدعمانها فبوسعها شراء كل ما ترغب به ، حتى ضمائر أصحاب المواهب الأدبية .

ثم إنه لم يمض سوى وقت وجيز ، حتى وجدت التعويض المناسب عما فقدته من الاعتراف بها كأديبة ، فقد تحول اهتمامها إلى منحى آخر . لقد قررت أن تقيم ملتقى فى اتحاد الأدب تقدم به (شهادة) عن حياتها .

ففزعت ، لقد توقعت ماذا ستقول بها عن والدىّ ، وكنت أرتجف هلعًا وحاولت مرارًا ثنيها عما اعتزمته وكان الخوف من ثورتها يجعلنى مترددة .

وحين بلغ بى السيل الزبى تخليت عن حذرى مرة ، فأقدمت على نصحها لكى تتجنب تلك الطريقة المزرية فى استثارة إعجاب الناس عن طريق الشفقة لمأساة طفولتها ، قائلة لها ، إن هم أبدوا استحسانًا أو تعاطفًا معها ، إلا أنهم فى دخيلة أنفسهم لن يشعروا بغير الاحتقار لتشهيرها بأهلها الذين ربوها .

فما كان منها إلا أن زجرتنى متحفزة للشجار لظنها أنى كنت أحاول الدفاع عن والدتى ، وفى الحقيقة وإن كنت أروم ذلك فقط ، فما كنت لألام وأنا أرى أختى الوديعة التى عكفت على تربيتها ، وهى دائبة على التشهير بوالدىّ لم تدع وسيلة لنشر غسيلها الرث على الملأ ، بل مضيفة إليه الكثير من الخروق التى تجعله أكثر رثاثة من ذى قبل .

ولكن كل ما أبديته من جزع كان غير ذى جدوى فقد كانت تزداد إصرارًا كلما رأت منى جزعًا ، وكأنها كانت تستمتع بعذابى ، ففكّرت أن أطلب من الجدة إيقاف تلك المهزلة ، ولكن قبل أن أتحدث لها بهذا الشأن سمعتها ـ أى الجدة ـ مفاخرة بأن حفيدتها سوف تفرغ الشحنات الغاضبة بتلك (الشهادة) فتصفو نفسها وتتطهر .

واحترت بالأمر فلست أدرى بمن أستنجد ، وأنا الغريبة على البلد وعلى من فيه ، وفى النهاية كان لأختى ما أرادت ، فتحدثت أمام الحشد من المستمعين الذى لا أعرف حتى الآن كيف تأتى

Looloo
www.looloolibrary.com

لها جمعه ، تحدثت بكل ما كانت تريد قوله ، فشتمت ذويها الذين ربوها ، وغمزت من المساعدات التى كانت تتلقاها منى ، ولعنت الدهر الذى رماها فى عائلتها السابقة ، فعلت ذلك دون أن يندى جبينها بنقطة عرق واحدة .

ولكن كان ثمة عزاء لدى سماعى أحدهم وهو يمر من خلفى يسر إلى زميل له على مقربة منه قائلاً فى صوت خفيض :

ـ يبدو أنه ليس لديها القدرة على الأحاديث ، إلا عن أعمق خصوصياتها ، فهى لا تستثنى أحدًا مما تطلقه من حمم حقدها .

فرد الآخر :

ـ تبدو ضحلة الفكر قليلة الثقافة ، لقد أهدرنا الوقت بما لايجدى .

فسرنى أن الجميع من حولها يعرف أنها تشهر بذويها الذين ربوها من أجل رغبة عارمة فى لفت النظر إليها ، وهل ثمة طريقة حادة فى لفت النظر أكثر مما ينشره المرء من فضائح عن أسرته ؟

ولكن مع كل هذه الآلام التى تعرضت لها ، هل تطهرت نفسها كما أملت الجدة ؟ كلا فنفسها المفعمة بنار الغيرة المعتمة بهباب الحقد لم تعطها الفرصة لمراجعتها .

فقد استمرت تقول ، وتقول مردّدة نفس الشكوى التى تسميها (بالشهادة) فى كل محفل أدبى كانت تقيمه لنفسها ،

وعند كل حديث تلفزيونى أو إذاعى يؤخذ لها ، ثم وصل بها الأمر إلى أن باتت تقحمه فى كل ملتقى أدبى تدعى إليه ، حتى وإن كان الموضوع المطروح للمناقشة مختلفًا ، لقد كانت المسكينة تفعل ذلك بشكل مرضى دون أن تشعر بما يجلبه من استهجان المستمع إليها ، فهى تفعل ما بدا لها غير عابئة بكل نصح ، صامة أذنيها عن كل إرشاد .

فجاءت بعد ذلك ، تلك الأحاديث المتواصلة ، التى لا تنقطع تنهش فى لحم ذويها الذين ربوها ، وليت الأمر اقتصر على والدتى ، فإن ما تطلقه بحق والدى من سخرية مرة فى كل جلسة خاصة أو عامة متندرة على جبنه وخنوعه لوالدتى وخوفه على نفسه من العقاب القانونى ، فلم يسلمها إلى ذويها فى الوقت الملائم ، ملحقة كل ذلك بزخم من اللعنات ، تعدت كل حدود التحمل لدىّ ، لقد وصل السيل الزبى فى نفسى فغطى على كل منفذ للرحمة فى قلبى .

لقد تركت أقوالها المتفكهة حول والدى آلامًا ممضة ، كانت ولا تزال تحز فى نفسى ، ذلك الوالد الذى فعل من أجلها بقدر ما تؤهله استطاعته أن يفعل على الرغم من مرضه وتسلط والدتى عليه ، يا لها من ناكرة للجميل تجاه ذلك الأب الذى يكاد ينفطر حنانًا عليها وهو يلاطف وجنتيها ، أو يربت ظهرها وهى تتعلق بعنقه عندما كانت بعد ما تزال فى سنواتها الأولى . يا له من جحود هائل الكم ، ذلك الذى تملكه للذين أحبوها

Looloo
www.looloolibrary.com

ورعوها ، مثلما ما تملك من حقد للذين كرهوها وعملوا على إيذائها ، لقد كانت من الغباء فلم تفرق .

وكنت أتساءل ماذا ستضيف إليها هذه الأحاديث الشاكية ، الحاملة من التشهير ما تحمله مما عانته من طفولتها من ذلك الظلم الذى وقع عليها ، فمنعها من هناءة العيش ومن التعليم ومن كل شىء كانت تصبو إليه ، وهى بعد صغيرة . إنها من الأمور المخزية والمقلة للتقدير ، وأيضًا لتلك الشهرة الزائفة ، وذلك المجد المدفوع الثمن اللذين حصلت عليهما ، وعندئذ ستكون خسارتها مزدوجة .

ومع أنها كانت أحاديث غير موزونة ، تدل بوضوح على قدر ما تملكه من فكر ضئيل مغلف بجهل مستتب ، وقد حمل ما حمل من استهجان المستمع إليها ، وربما بدا للكثيرين ممن يعرفون حقيقتها ، أنها تطلب من وراء ذلك صد الناس عن محاسبتها عن ممارستها الزائفة ، وكأنها تقول اعذرونى ، فأهلى لم يربونى جيدًا ، ولم يدخلونى مدارس لكى أتعلم وأنتج أدبًا حقيقيًا لنفسى .

وهكذا دخلت المسكينة منعطفًا جديدًا حادًا فى حالتها النفسية تلك ، التى لا أدرى كيف أصفها ، فقد بقيت سادرة فى غيها لاترعوى ، فكانت أشواكه تنغرز فى لحمها أكثر من تلك التى تحاول غرزها فى أجساد ، ربما تنشد الرحمة والغفران فى مثواها الأخير .

وكنت أنا فى حال من يكاد يفقد صوابه لاكتشافى تلك الأمور التى ما كنت لأتخيلها إطلاقًا أن تحدث من أختى ونحن فى بلدنا الأصلى ، أين تلك الفتاة الوديعة الخائفة المنقادة ؟ لقد انقلبت ملامح شخصيتها رأسًا على عقب ، لم يعد شىء يؤثر فيها ، لكى يردعها أو يوقف اندفاعها .

وقد تبين لى أن الجدة الطيبة لم تكن توافق دائمًا على كل ما كان يجرى من حفيدتها ، وكان يترامى إلى سمعى ما كانت تدعوها إليه من الغفران لوالدتى ، فإن لم يكن من أجلها فمن أجل أخويك اللذين يعيشان بين ظهرانينا ، هذا ما كانت تقوله الجدة دائمًا ، ولكن لا مجيب لمن تنادى فلم توقفها نصائح جدتها ، بغض النظر عن نصائحى التى لم تعد تثق بها إطلاقًا ، وأظن أنه لولا ثروتها التى مازالت بيدى لطردتنى من حياتها شر طردة .

أما ما جرى من أخى فقد كان همًا آخر رزئت به ، وذلك حين هم المرة تلو الأخرى بمحاولة رفع ادعاء قضائى ضد أختى لتشهيرها بوالدينا مضحيًا بكل ما كان يسعى إليه من طموح جمع الثروة فى هذه البلاد الغنية ، وعلى الرغم من محاولاتى العديدة معه إلا أننى لم أستطع منعه ، لقد كنت أجادله فى كل مرة أراه بها ثائرًا ، قائلة له :

- دعها لشأنها ، وسوف تحترق إعلاميًا عندما يرى الناس ، أن ليس لديها ما تقوله سوى الشكوى من ذويها الذين أول ما فتحت عينيها رأتهم .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولكنه لم يكن ليقتنع على الرغم من أنه رأى بأم عينيه ردود الفعل الاستهجانية التى كانت تتلقاها أختى جزاء نكرانها وعدم وفائها للذين احتضنوها وربوها ، ولم يتراجع عن موقفه فى السعى إلى مقاضاتها ، إلا عندما دفعت أختى له بمن يخبره ، بأنها تزمع بأن تشهر به ، بأن إجازة الدكتوراه فى إدارة الأعمال التى حاز عليها مؤخرًا ، ليست إلا إجازة زائفة ، وأنه لم يكن ليحصل عليها لو لم يدفع الثمن لمن أعدها له ، من ماله الخاص .

عندئذ ارتعب أخى من التشهير به ، وهو يعرف مقدرتها على إشاعة الأكاذيب ، خصوصًا وهو يعرف ما فعلته بى .

فقال فى كمد :

- إن طلقة الرصاصة إن لم تصب فهى تثير ضجة .

وعند ذلك فقط عرف فضيلة السكوت ، وإن كان على مضض .

* * *

- ٢٢ -

ومع كل ما يدعونى إلى عدم القسم ، فإنى أقسم فى حميا ، بأنى كرهتها ، بيد أن تلك الكراهية لم تؤد إلى الإيغال فى مقتها ، حتى وقت هذه العبارة واعتبرت أن كل ممارساتها معى ، وكل ما تفوهت به ضدى من ألفاظ مؤسية ، ليست سوى نتاج لطفولتها الدائمة ، وعدم نضجها الفكرى ، مما يقودها إلى النزق ، وأنه مما يتوجب على الصفح عنها ، والغفران الدائم لها ، وأنه يتعين على عدم محاسبتها ، إلا كما تحاسب طفلة غريرة ، لا تعرف ماذا تفعل بنفسها وبالآخرين .

وقد نجم عن ذلك أنى فرحت عندما اتصلت بى ذات يوم ظانة بنفسى ، أنى ذات حدس صادق بالنسبة لما فسرته عن نفسيتها ، وكان ذلك فى منتصف أيام شهر رمضان الفائت ، وكان ذلك الاتصال بعد قطيعة دامت لأكثر من شهرين ، بعد تلك المعركة التى قادتها بمفردها .

قالت لى بهم رازح وعجالة بادئة حديثها بعبارة أختى الحبيبة ، فخفق قلبى وبادر إلى استعداده للغفران ، لقد خيل لى أنها ندمت على ما تفوهت به فى حقى ، هل عادت إلى أخيرًا .. بالمغبطة التى استشعرتها .

واسترسلت :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ أختى الحبيبة (سعاد) ، لا تنسى أنى أختك الوحيدة ، ليس لى غيرك ، وليس لك غيرى ، أرجوك لا تنسى محبتك لى .

فقلت باقتضاب برغم الفرحة التى ينبض بها وجدانى ، وقبل أن أفهم ما ترمى إليه من هذا التعاطف الذى افتقدته منها منذ مدة طويلة :

ـ ولماذا تنسيها أنت ؟

قالت :

ـ كلا ، أقسم إنى لم أنس يومًا أنك أختى ، وأنك من حمانى فى أيام ضعفى ، وأنك ما زلت على استعداد لحمايتى ، أختى الحبيبة ، إنى فى مأزق ، وليس لدى متسع من الوقت ، لكى أعبر عن محبتى لك ، إنى فى النيابة العامة ، لقد ارتكبت جنحة .

فصرخت بها ، وقد انتابنى فزع شديد :

ـ ماذا ، فى النيابة العامة ، لماذا ، ماذا فعلت ؟

فقالت مسرعة :

ـ أنت تعلمين أنى لا أطيق صبرًا عن تدخين السيجار ، إنه آفة كما تقولين عنه ، أنسيت عندما بدأت أدخنه ، وكيف كنت تنصحيننى بالإقلاع عنه ، ليتنى استمعت إليك ، ولكن لاساعة مندم . لقد أمسك بى البوليس لإفطارى العلنى فى شهر رمضان ، وهذا يعتبر جنحة ، لقد اقتدت إلى النيابة العامة ، لقد ألقى القبض على وأنا أدخن سيجارًا فى مكان عام .

فصرخت بها وقد نسيت نفسى :

ـ كم أنت غبية ، هذا جزاؤك ، ماذا تريدين أن أفعل لك الآن ؟

لو أنى قلت هذه العبارة فى موقف آخر ، لكان لها معنى شأن آخر ولربما تجرأت على ما لا قدرة لى بدفعه ، ولكنها قالت متوسلة وهى تنشج :

ـ أرجوك لا تخبرى جدتى ، تعالى ادفعى لهم قيمة الكفالة ، لكى يدعونى أخرج من هنا ، أرجوك تعالى لا تنسى أنى أختك .

فقلت :

ـ وكم الكفالة المطلوبة ؟

ردّت بتهوين :

ـ ليست كثيرة ، ولكنها ليست معى ، إنها مائة وخمسون دينارًا فقط ، وسوف أعيدها لك بمجرد خروجى من هنا ، أرجوك لا تخبرى جدّتى .

وأقفلت الهاتف ، وبقيت جالسة هنيهة أفكر . الآن فقط تذكّرت أنها أخت لى ، إذن هذا هو سبب التغير ، وليس كما حدست ، يا لها من أخت منافقة ، كم يكون لسانها حلوًا يقطر عسلاً عندما تكون فى حاجة إلى أحد ، وكم يكون سليطًا وحادًا يقطع كالسكين عندما لا تكون .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

وفى مساء اليوم التالى ، بعد خروج أختى من النيابة ، وكنا نحن الثلاثة نتحلق حول مائدة الإفطار الحافلة بكل ما لذ وطاب من المأكولات الرمضانية ، تزيد بكثير على حاجتنا حتى لو أمضينا عشرة أيام متواصلة من الصيام .

كنا فى انتظار سماع انطلاقة المدفع التى لم يتبق عليها سوى ثوان معدودة لينطلق الأذان من الراديو الذى كان مسترسلاً فى بث الأدعية الرمضانية ، وكنا أنا وأختى فى حالة إصغاء وقد أنهكنى الجوع والعطش ، إذ كان اليوم حارًا من أيام الصيف الطويلة ، وكانت الخادمة آتية غادية فى سبيل تجهيز ما تبقى من وجبة الإفطار ، بينما كانت السيدة (سارة) تقلب صحيفة فى يدها إذ لفت نظرها عنوان صغير مكتوب فى زاوية ضيقة من الصحيفة يقول :

ـ إن أدبية مشهورة قد اقتيدت إلى النيابة العامة بسبب الإفطار العلنى فى (رمضان) ، فقرأت الجدة الخبر بصوت مسموع ، ثم علقت باستهجان متسائلة دون أن ترفع بصرها عن الصحيفة :

ـ من تكون هذه الوقحة القليلة الحياء ؟

عند ذلك نظرت إلىّ أختى نظرة منكسرة متوسلة ، فأسرعت إلى القول :

ـ إحداهن ، من يدرى من تكون ؟ الذنب برقبتها على أية حال .

لو كانت الجدة لديها أدنى احتمال من الظن ، بأن حفيدتها كانت المعنية ، أو حتى لو أنها رفعت بصرها من فوق الصحيفة ونظرت إلى وجهها لفهمت ذلك ، من اصفرار لونها واضطراب نظراتها ، ولكن لم يخطر لها على بال أى احتمال بأن صغيرتها المدللة هى المعنية .

ومضت الحادثة دون أثر على أختى ، ولكن الغريب بعد ذلك أنها لم تشعرنى باستمرار تواصلها معى فيما بعد ، والأنكأ من ذلك أنها عندما حدثتنى بعد أيام من هذه الحادثة بالهاتف من غرفتها إلى غرفتى ونحن فى المنزل ، لم تستعمل كلمة رقيقة من تلك التى أسمعتنى إياها عندما كانت فى حاجة ماسة لى ، بل قالت :

ـ اسمعى ، لك خمسون دينارًا زائدة ، احتسبت من قيمة الكفالة ، بعد خصم الغرامة ، اذهبى إلى هناك وخذيها .

فلما سألتها :

ـ والمائة دينار الباقية ؟ ألا تريدين إعادتها كما وعدت ؟

فضحكت بسخرية وهى تقول :

ـ لماذا ؟ أليس مالك هو مالى ؟ ألسنا أختين حبيبتين ؟

فرددت عليها بنفس اللهجة الساخرة ، وقد أفعمت غيظًا لاسبيل إلى وصفه :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ هذا صحيح باعتبارك أختًا لى ، ولكن ألا يجب أن تذهبى لاستعادة ما تبقى من النقود ، لماذا أذهب أنا إلى النيابة ، وأنا لا أعرف الطريق إليهم .

فهتفت فى عجرفة :

ـ هل تعايرينني لأنني دخلت النيابة ؟ أنا أيضًا لا أعرف الطريق إليهم ، لقد اقتدت اقتيادًا إلى هناك ، ثم إنى مشغولة ، ليس لدى الوقت لاسترجاع مثل هذا المبلغ التافه ، إذا كنت فى غنى عنه دعيه لهم .

وأقفلت الهاتف فى وجهى دون أن تحيى .

يا لها من أخت لا ترعى الأخوة .

وكان يمكن أن نستمر حيال بعضنا عند هذا الحد لو لم تبرز لنا بداية جديدة مختلفة جدًا وبعيدة كل البعد عما عهدناه .

هذه البداية الجديدة ، أدخلت أختى لها منعطفًا حادًا ، لم يكن لى معدى عن كرهها بعد ذلك كرها لا محيد لى عنه .

لقد جاءت لنا بداية مستأنفة ، محاذية لصعيد العمل التجارى ، بعد أن ظننا ، أنا وهى ، كل من جانبه ، وحسبما يراه فى نفسه ، أننا بتنا قديرتين بما فيه الكفاية ، لتصريف شئون العمل ، دون اللجوء لطلب المساعدة من السيدة (سارة) ، التى كانت تحاول من جانبها الابتعاد قليلاً ، لإعطائنا الفرصة لتجريب نفسينا .

ـ قلت : خلت نفسى أنى بت على دراية بشئون العمل التجارى ، وكذلك ظنت أختى ، أنها أصبحت كذلك ، مالكة لزمامه ، على الرغم من أن دورها فيه لم يكن يتعدى حدود الإمضاء على الأوراق ، التى ليس لها شأن كبير ، لعزوفها عن أية محاولة جادة لفهم طبيعة العمل التجارى كما مر ذكره ، غير أنه نتيجة لحث متزايد من السيدة (سارة) ، كنت فى محاولة دائبة لشرح ما يغمض عليها بحسب ما أفهم منه ، ولكنها كانت تأنف من الإصغاء لى ، ولا تريد أن تدع لى أى شأن بتعليمها ، وكانت تظهر لى ، أنها تعرف كل شىء ، ولكنها لا تريد الاهتمام بسوى لعبتها الجديدة ، لعبة التأليف .

ولذا فقد استمررنا نحن الاثنتان فيما نحن فيه ، كل من جانبه فيما يستهويه ، إلى حين جاءت تلك البداية ، فقلبت موازين الأمور بينى وبينها ، بما مس شغاف مشاعرى ومشاعرها ، تجاه بعضنا البعض ، فكانت كالقشة التى قصمت ظهر البعير ، كما يقال ، وإن كانت وايم الحق أثقل من أى معدن معروف ، وقد قامت بقصم ظهرينا ، وليس ظهر البعير .

كان ذلك عندما توفر لدى مؤسسة أختى مصدر من أهم مصادر الكبريت فى العالم ، ذلك الخام الذى كانت مؤسسة السيدة (سارة) الجدة تبيع فيه وتشترى منه ، بين الحين والآخر .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولذا فقد شاع وتواتر إلى الأسماع نبأ ذلك الخام ، فتقطار على مكتبنا التجار والسماسرة من كافة أنحاء البلد والبلاد المجاورة ، ممن يتعاطون هذا النوع من التجارة ، والأكثر أهمية من ذلك ، أنه شاع نبأ موهوم مرافق له ، مؤداه بأننا أخذنا توكيلاً خاصًا بنا لتوزيع تلك المادة من مصدرها الأصلى ، ومع أننا لم نحصل على ذلك التوكيل ، إلا أن السيدة (سارة) نصحتنا بعدم نفى مثل هذه الإشاعة ، أو إثباتها ، وأن علينا معرفة كيفية التملص من الأسئلة الموجهة إلينا بهذا الصدد ، بدلاً من إثباتها كى لا نتهم بالكذب التجارى ، كما أنه من الذكاء ألا ننفيها ، كى لا نروج للبحث عن مصدر هذه المادة ، مادام أن مصدرها بات فى أيدينا .

وقد عرفت فيما بعد ، بأن السيدة (سارة) تسعى جاهدة إلى جعل المؤسسة تحصل على ذلك التوكيل ، بوسائلها التى لم يكن فى مقدورى التعرف عليها ، فكان من جراء عدم خبرتى التى أمضتنى العذاب أن أجهضت هذا المسعى باكرًا ، قبل أن تتاح الفرصة للسيدة (سارة) من أخذ ذلك التوكيل .

غير أن هذا ليس مهمًا فى حكايتنا على الرغم من جسامته ، إنما الأهم من كل ما تقدم فى مسار هذه الحكاية ، كان مجىء أولئك السماسرة من كل حدب وصوب فى هذه الدولة الصغيرة سعيًا إلى مكتبنا ، يحدوهم الطمع بالثراء الواسع السريع ، أولئك الذين يتطفلون على المكاتب التجارية لأناس آخرين ، يبيعون

ويشترون بأموال غيرهم ، دون أن يدفعوا شيئًا فى المقابل ، ولكنهم على استعداد دائم لقبض عمولة سمسرتهم .

وكان أن دخل علينا عصر ذات يوم رجلان ينم مظهرهما وطريقة ما يتخذانه فى التعامل مع الغير على البراعة فيما يسعيان إليه من أعمال السمسرة ، وكانا من ضمن من سعى إلينا فى طلب تلك المادة ، وكان أحدهما مواطنًا لى من بلدى ، والآخر من بلد عربى آخر ، وكلاهما فى نظر الناس هنا من الأجانب ، الذين لا يحق لهم التعاطى بالأعمال التجارية ، ما لم يكن منضويًا تحت ما يسمى بكفالة أحد من الأهالى .

وكان أصغرهما شابًا جميلاً فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، ذا طلعة بهية ، وحديث لبق ، وقد ساورنى خوف خفى منه على أختى منذ الوهلة الأولى التى وقع فيها بصرى عليه ، فهى كما أعرفها سريعة التأثر ، لديها الاستعداد لتصديق كل ما يقال لها من رهافة القول ورقته ، سريعة الوقوع فى براثن خيوط العنكبوت حتى دون اللجوء إلى إجادة حبكها ، وقد ازدادت خشيتى ، عندما رأيت نظراتها ما تنفك تتراقص عند تطلعها إلى ذلك الشاب .

أما الرجل الآخر الذى كان مواطنًا لى ، فقد كان كبيرًا فى السن نوعًا ما ، وكان الخبث وسوء الطوية يطلان من ثنايا سحنته الداكنة ويدمغانه بعلامة تميزه ، على الرغم مما يبديه من كياسة فى حديثه وتصرفه .

Looloo
www.looloolibrary.com

المهم ، فى كل ما نحن بصدده ، أنهما أبديا رغبة شديدة وجادة فى شراء تلك الصفقة من الكبريت بكاملها ، وكان ثمنها يتعدى المائة مليون دولارًا .

قالا : فى تبرير رغبتهما تلك : إن لهما مكتبًا فى مدينة أوروبية ، معنيًا بتوزيع تلك المادة على بقية دول العالم ، وأنه أى المكتب مختص فى مثل هذا الشأن ، اختصاصًا لا يجاريه فيه أحد .

وقالا : إن الذى يدير العمل هناك ، هو زوج أخت الكبير منهما ، وفى نفس الوقت خال الشاب .

وأبديا استعدادًا كاملاً فى التعاون مع مؤسستنا ، وتقبلا كافة الشروط التى كنا نضعها لمن يريد الحصول على تلك الكمية الكبيرة من الكبريت ، وحتى الآن ليس فى الأمر ما يفيد الملاحظة بالنقد ، بيد أن ما دعانى إلى العجب فى نفسى وعزز ما كنت أخشاه ، هو ذلك الاندفاع من أختى نحو ذلك الشاب ومن ثم طاش صوابى وأثار فى الفزع توقع الخسارة المرتقبة ، لو أن أختى أصرت على قيادة هذه العملية التجارية الضخمة بنفسها .

فلأول مرة أراها تقحم نفسها فى الأعمال التجارية محاولة بكل ما لديها من جهد الاستبداد بها ، فقد أخذت بمبادرة التفاوض والمساومة معهما ، مردّدة ما قد سمعته من جدتها ، أو منى فى أعمال مشابهة لمقايضات تجارية مرت ، خصوصًا

تلك الصفقات الصغيرة التى كنت أديرها ، تلك التى لم تكن قطعًا بمثل ضخامة هذه الصفقة وقدرتها المالية .

وقد بدا لى فى وضوح أنها كانت تقوم بذلك لما لها من رغبة عارمة فى لفت نظر الشاب الوسيم ، إذ ما أعرفه عنها ، أنها لم تكن من عادتها التدخل فى العمل لعدم رغبتها فيه ، على الرغم من إلحاح جدتها وحثها لها على وجوب تدربها عليه ، لقد كانت زاهدة فى كل ما يشغلها عن لعبة الكتابة والإنشاء ، ولكن فى هذه الصفقة التى كنت أدعوها صفقة العمر ، وأنها لن تتكرّر خلاله مرتين ، فقد بدت أختى وكأنها مستميتة فى التشبث بإدارتها .

لقد كانت تتصنع الرصانة وهى تتحدّث مستفيضة فى العرض والمساومة ، وكأن ما تقوله نابع من خبرتها المحضة ، لو لم أرها تهرع إلى مكتب جدتها ، عددًا من المرات فى أثناء تلك المفاوضات كلما استعصى شىء على فهمها .

وما كان ينبغى منى أن أستاء لمثل هذا التصرف وما كان أيضًا ليغضبنى ، حتى وهى تحتد منفعلة ، مشيرة لى بيدها مرارًا وتكرارًا ، فى محاولة لإسكاتى عن إبداء الرأى أو المشاركة فيه ، وما كان همى سوى مؤازرتها فى أقوالها .

ولكن كنت مرعوبة مما قد تتخذه من قرارات متعجلة ، تظهر بوضوح نقص خبرتها للرجلين ، فقد كانت تبدو شديدة

Looloo
www.looloolibrary.com

اللهفة فى سرعة البت ، وهى تحاول إثبات جدارتها ، فى تصريف أمور تجارتها .

* * *

يتعين على أن أقول قبل أن أستمر فى سرد هذه الواقعة ، إنه ومنذ استلامنا إدارة هذه المؤسسة البالغة الضخامة المملوكة للسيدة (سارة) ، أو الخاصة بأختى ، كما تدعى هذه الجدة الطيبة ، لم نحقق أية مكاسب ، عندما نحاول البت فى الأمور بمفردنا ، بل عرضناها فى بعض الأحايين إلى بعض الخسائر ، التى كنت أراها أموالاً طائلة ، إذا ما قورنت بالنسبة إلى العملة فى بلدى ، وتراها السيدة (سارة) الكبيرة ، أنها خسائر طفيفة ، لا بد أن نتعرض لها ، مادامت تنقصنا الخبرة والدراية فى مثل ذلك الشأن ، فكان أن استمر مركبنا التجارى يمخر عباب العمل ، مرة فى يسر وسهولة ، وأخرى فى عسر بالغ وجهود مضنية ، تتقاذفه الأمواج فى عتوها ، فيتعرض لخطر كبير فى بعض الأحايين فيكاد يغرقنا فى طوفانه ، لولا عناية ومبادرة السيدة (سارة) السريعة ، التى كانت تهرع فى كل مرة إلى نجدتنا فى الوقت المناسب لصد هجمات ذلك الإعصار التجارى .

ولكن فى الفترة الأخيرة ، أى فى الربع الأخير من العام الأول ، ونحن نجالد بإدارته مجالدة حافلة بالعناء ، تمكنا بقدرة قادر ، أو بالأحرى تمكنت أنا بتلك الضآلة من الخبرة ، التى اكتسبتها عنوة ، أن أجعله يراوح فى مكانه ، دون ربح أو

خسارة ، فى كل الأعمال التى تناولتها بمفردى دون معاونة من أحد ، عدا بالطبع ما قامت به السيدة (سارة) من صفقات جلبت لها المال الوفير .

ولكن ها هى ذى أختى تقحم نفسها فجأة ، بزخم كبير من الانفعال المتسرع الذى لا ينضب له معين ، تجاه هذه الصفقة البالغة الأهمية ، التى كنت أعلق عليها آمالاً عراضًا كنت وما برحت أحلم بها منذ أمد لعلى أحقق بها ربحًا وفيرًا للمؤسسة ، أثبت به جدارتى أمام نفسى ، وأمام الجدة (سارة) .

ومع أنى لا أعلم ما حملنى على الاعتقاد بأن الجدة سوف تترك لى إدارة مثل هذه الصفقة ، بل وأعرف مقدمًا ألا فائدة ترجى من ذلك الأمل المستعصى على التحقيق ، فالجدة لم تكن لتتنحى عامدة ، ولم تكن لتفلت مثل هذه الصفقة الكبيرة وتدعها تدار بيد غير يدها ، مع ما يتوقع منها من ربح منقطع النظير ، لو لم تر حماس حفيدتها لإنجازها ، وأنها لن تدعها لإدارتى حتى وإن رغبت أنا بالاستبداد فى إنجازها فلن تدعها بين يدى لسواد عيونى كما يقال ، ولكن مع حفيدتها فالأمر مختلف وله شأن آخر من وجهة نظرها ، ومع هذا كان يتملكنى الغيظ ، وأنا أرى أختى منهمكة فى التفاوض ، وقد علت سيماءها البهية علامات الجد والاهتمام الشديد .

لقد غرها السمسار الشاب بوعوده البراقة وقد تأنق فى ألفاظه ، وهو يعد بما لا يدعو إلى الريبة بوفرة الكسب الذى

Looloo
www.looloolibrary.com

سوف نحصل عليه وبسرعة تحصيله ، لو أنها فقط تعاقدت معه دون غيره ، على مبيع هذه الكمية من الكبريت .

وبدون شك فإنه بغير حاجة إلى بذل تلك الوعود البراقة ، فالذى يشفع له فى طلبه ، طلعته البهية ، ثم ذلك التسلل الثعبانى إلى كل ما يدغدغ مشاعرها الطرية بعبارات إطراء منمقة أحسن انتقاءها ، فهو لم يفوت الفرصة تلو الفرصة لإدخالها فى حديثه ، مبديًا شدة إعجابه بأختى الشابة الجميلة ، واحترامه الأشد لحصافتها ، التى تدل على ما لها من ذكاء موفور ، فى إدارة هذه المؤسسة الغنية .

وأيضًا لم ينس أن يطرى أعمالها الأدبية ، التى لا يوجد لها نظير فى العالم ! على حد قوله ، وقد ادعى أنه لم يترك سطرًا واحدًا ، مما كتبته أختى ولم يقرأه ، وكم كان واضح الزيف ، فهو لم يذكر أى مسمى لأى من أعمالها ، ولكن فى غمرة حماسها له ، فقد أغفلت ذلك إغفالاً تامًا .

وكان بودى لو أنى سألته عما قرأه لها ، كى يفتضح زيف ادعائه ، ولكنى خشيت إن أنا فعلت ، أن يصار إلى ظنها أنى أبخسها قدرها ، أو أنى أغار من نجاحها الأدبى ، كما كانت تردّد عند أى إشارة منى إلى ما تنشئ .

المهم كان من نتيجة هذا التملق ، الذى لم يغمض على أحد ، سوى على أختى ، أن دعاها إلى الإسراع فى أخذ المبادرة بالموافقة على بيع تلك الكمية إلى شركتهما ، مع أن عرضهما

لم يكن أحسن ما قدم لنا من عروض ، وعلى الرغم من أنها لم تستشر جدتها ، التى سافرت فى تلك المدة إلى (الفلبين) ، حيث يوجد المصدر ، لتأتى لنا بالتوكيل ، محققة بذلك تلك الإشاعة ، وكان ذلك قبل يومين من تلك الموافقة الحاسمة ، التى أعطتها أختى للرجلين .

كنت على يقين لو أن الجدة كانت تعلم بالنتيجة الناجمة عن سرعة البت التى توصلت إليها الحفيدة بشأن هذه الصفقة المهمة ماليًا ، ما كانت لتخطو خطوة واحدة خارج موطنها ، ما لم تقم بإبرام الاتفاق مع الشركة التى أتى بها ذانك الرجلان ، أو أى شركة أخرى يأتى بها آخرون ، تحقق أرباحًا أكبر .

أجل ما كانت لتدع مثل هذه الصفقة العالية القيمة لتلاعب الحفيدة الطائشة ، ولكن من أين لها أن تدرى ، لقد كانت ثقتها كبيرة بحفيدتها ، وقد أوصتها وهى تودعها ، بشدة الحرص وأن تلتزم التفاوض فقط ، وبألا تتصرف بالتعاقد ولا حتى إعطاء قيمة نهائية لأحد إلا بعد مجيئها .

أما أنا ، وليس لى من معين بعد سفر الجدة ، فقد أسقط بيدى ، وخرج الأمر من سيطرتى ، فكنت كمن يتابع مشهدًا من مسرحية ليس فى قدرتى تغيير مناظرها المسيئة ، بعد أن تولى غيرى الكتابة والإخراج والتمثيل .

ومن ثم كانت تلك الموافقة الحاسمة التى أعطتها أختى للرجلين ، التى تمت بسرعة مذهلة ، فبعد القليل من المراسلات

Looloo
www.looloolibrary.com

التى لم تستوف حقها فى البحث ، بين مكتبنا ومكتبهما ، واتصالات هاتفية مكلفة إلى مقر الشركة فى ذلك البلد الأوروبى ، الذى يديره قريبهما كما ذكرا .

وكان مما يبعث السخرية أن العملية تقودها أختى ظاهريًا ، ولكن بتوجيه ومساعدة من الشاب الوسيم نفسه ، الذى أخذ على عاتقه عملية التفاوض مع قريبه ، نيابة عنها .

وكانت ترفض رفضًا باتًا منذرًا بالغضب ، أيما تدخل من جانبى ، حتى لو بالنصح والإرشاد فضلاً عن المعارضة أو الرفض لما تقوم به ، وكان الموضوع واضح الهزلية لا يقوده أى منطق تجارى .

بيد أنه فى النهاية وبسرعة قياسية لما يتعين أن تأخذه مثل هذه الصفقة من مسار تفاوضى طويل ، تم الاتفاق على كل شىء ، السعر والكمية ، وموعد التسليم وكيفيته ، ولم يتبق سوى توقيع العقد ، الذى كانت كل بنوده تميل لصالح الشركة فى ذلك البلد الأجنبى ، ولكى يوقع عليه يتوجب على أختى كما قال الرجلان التوجه إلى حيث مقر قريبهما هناك فى بلده الأوروبى .

عندئذ أقحمت نفسى قسرًا عنها ، وقدمت اقتراحًا يقضى بوجوب الانتظار إلى حين حضور قريبهما إلى هنا للتعاقد ، مادام أنهما لا يستطيعان التعاقد مكانه .

وكنت آمل بعودة الجدة بالتوكيل فى هذه الأثناء ، فتقوم بإدارة الصفقة كما ينبغى من واقع خبرتها .

ولكن الشاب الوسيم أبدى إصرارًا على ما قدم من اقتراح بأنه يتوجب عليهما أن يذهبا هما الاثنان - هو وأختى - لإتمام العمل ، مقدمًا اعتذارًا عن قريبه بكثرة مشغولياته التى تمنعه بشدة من ترك مقر شركتهما بما لا تدع له مجالاً للتحرك خارج موطنه ، ولم يدر فى خلدى إطلاقًا فى ذلك الآن ، أن ذلك الرجل القابع بعيدًا ، ليس فى ميسوره دخول أية دولة عربية البتة ، ومحظورًا عليه التعامل معها ، بسبب انتمائه إلى دولة معادية للعرب ، وأن الرجال الثلاثة ، الشاب الوسيم وزميله الكهل وذاك القابع فى بلده الأوروبى ، ما هم إلا جواسيس لتلك الدولة .

بيد أنه لعلمى بتعذر سفر أختى خارج موطنها ، لعدم امتلاكها وثيقة سفر فى ذلك الوقت ، قدمت اقتراحًا آخر ، بأن ننتظر عودة السيدة (سارة) ، مبدية أن أختى غير مخولة للتعاقد ، وأن المؤسسة مازالت فى ملكية الجدة ، ولكن الشاب أصر بفجاجة غريبة بعيدة عن أى مبرر ، حاثًا أختى على ضرورة الإسراع فى إنجاز العملية باذلاً جهدًا إضافيًا لإقناعها بأنه لابد لها من الذهاب معه .

والتفت لى قائلاً فى حنق حازم ، وكأنه الآمر الناهى :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ حتى وإن لم تكن (سارة) تحمل تخويلاً من جدتها بالتعاقد عنها ، فأنا واثق من أن الجدة سوف تحترم كلمة حفيدتها حتمًا ، ولن تنقض الاتفاق .

فكان مما بدا لى ، أنه كان يرمى إلى إحكام القبضة على أختى ، لما رأى من سهولة انقيادها له ، لست أدرى ، ربما أراد إخضاعها لأعماله التجسسية ، التى لم أكن أعرفها بعد ، فكل ما كنت أوجس خيفة منه فى ذلك الوقت ، أنه قد يفكر بمقاضاتها مطالبًا بتعويض كبير ، لإبرامها اتفاقًا ليس لها الحق فيه ، هذا فيما لو رفضت الجدة إتمام الاتفاق معهما .

كانت هذه الأفكار تراود خاطرى ، فأحاول جاهدة عرقلة إتمام العملية ماوسعنى إلى ذلك سبيل ، إلى حين حضور السيدة (سارة) .

غير أن أختى وقد سرت من إصراره ذاك وفسرته بما يتواءم وإرضاء غرورها ، لقد خالت أن رغبته فى السفر معها ما هى إلا نابعة من شدّة إعجابه بها ، وعندئذ حزمت أمرها وعزمت على السفر معه ، وليس مهمًا ما ينجم عن ذلك من غضب جدتها ، ضاربة عرض الحائط بكل ما قدمت لها من توسلات بالتمهل ، والأنكأ أنه عندما قدمت اقتراح مصاحبتى لها ، رفضت نهائيًا ، كى لا يبدو اعتمادها على مشورتى ، وهى فى محاولة دائبة لاستثارة اهتمامه وإعجابه .

ولكن العبرة بالنتائج ، كما يقال ، فما جرى بعد ذلك أحبط مسعاها ، فقد تبين أنه ليس فى ميسورها ، أن تخطو خطوة واحدة خارج موطنها الجديد ، لقد اصطدمت بمعرقلات عدة ، منعتها من استخراج وثيقة السفر المؤقتة ، تلك التى كانت تعطى لمن كان فى مثل الوضع التى هى عليه .

وكان مما لم يخطر لى على بال ، أن أتبين أن خالها كان وراء تلك المحاصرة ، التى فرضت عليها قسرًا ، بما له من نفوذ ، بسبب ماكان يتبوأ من مركز وظيفى مرموق فى الموقع الذى يصدر تلك الوثائق .

كان الخال يهدف من وراء تلك المحاصرة إلى دفعها لاسترجاع وثائقها القديمة ، دون أن يعلم استحالة ذلك .

ولكن على الرغم من اختلاف أهدافنا ، أنا وهو ، تجاه أختى فى هذا الأمر ، إلا أننى كنت مبتهجة وممتنة له فيما اتخذه من موقف تجاه إصدار تلك الوثيقة .

* * *

فى ذلك الوقت فحسب ، تبين لأختى عمق مأساتها ، إلا أنها كابرت وصمدت ، رافضة بشكل قطعى الاعتراف بأنها أخطأت بإعادة أوراقها القديمة .

وكنت أوالى التلميح بإلحاح إلى ذلك الخطأ الذى اقترفته بحق البلد الذى رباها ، على الرغم من علمى بأنى أقوم

Looloo
www.looloolibrary.com

بما لا يجدى نفعًا ، إلا أنه فى سبيل المماطلة على أمل حضور السيدة (سارة) ، قلت لنفسى لتنشغل بهذا الشأن إلى حين عودتها ، وعند ذلك لكل حادث حديث .

فكانت تردّد باحتجاج شديد ، أنها تأبى أن تستعيد ما لفظته بمحض إرادتها ، وأنها تفضل البقاء سجينة فى بلدها ، على أن تنتمى إلى بلد لا تذكر فيه سوى عذابها .

وأسقط بيد الرجلين ، فأخذ الشاب يمارس ضغطًا عليها لبعثى معه للتعاقد بدلاً منها ، بما أنه لدى توكيل من السيدة (سارة) ، يتيح لى إدارة شئون أختى المالية ـ لست أدرى من أنبأه ـ مؤكد أنه ليس أختى من قام بذلك ، وهى تريد رفع شأنها أمام الشاب الجميل والظفر بإعجابه ، ومن ثم التقليل من شأنى ، إذن لابد أن للرجلين سبلاً عدة فى طرائق تحرياتهما ، فلهما وسائلهما الخاصة ، كما هو الحال ممن كان فى مثل وضعهما .

* * *

ونتيجة لإلحاحهما ، عند ذاك قررت أختى الموافقة على بعثى إلى مقابلة ذلك المدير لإبرام الصفقة ، شريطة أن أكون بمفردى وأن لا يصحبنى أى منهما ، وقد شملت بشرطها الرجل الكهل تغطية لرفضها أن يكون الشاب الوسيم بصحبتى ، رافضة بصورة قطعية ، إلى درجة إلغاء العملية برمتها ، لو تقرر غير ذلك .

وكان هو فى ذلك الوقت يبدى لها انقيادًا تامًّا فى الجانب العاطفى الذى أخذ بيديه لها دون مواربة ، فلم يعترض على سفرى بمفردى والبقاء إلى جانبها .

وعند ذاك أصررت من جانبى على ما اقترحت بشأن التريث والانتظار إلى حين مجىء السيدة (سارة) للبت فى الموضوع وإبرام الصفقة ، ورفضت بكل عزم التحرك قيد أنملة خارج البلد ، ما لم تكن موجودة وتكلفنى بمثل هذا المسعى بنفسها .

وهنا ثارت ثائرة أختى بغضبة عارمة كادت تعصف بكل تفاهم يمكن أن يكون بيننا .

وصرخت بى ، قائلة :

ـ إن الجدة أعطتها صلاحية عقد هذه الصفقة ، وأنها تأمرنى أمرًا بصفتى نائبة لها بالذهاب إلى هناك ، وبما أن لدى توكيلاً من السيدة الجدة يجيز لى التعاقد مع الغير ، لذا يتعين على السفر والتعاقد باسمها هى وليس باسم الجدة إن كنت خائفة منها ، وإلا فإنها سوف تفصلنى من عملى لعصيانى .

كنت أعلم أنها تكذب بشأن إعطائها صلاحية عقد الصفقة ، فالجدة الحصيفة لم تترك لها سوى عملية التفاوض المبدئى مع المتوافدين بغرض إثارة اطمئنانهم وإلهائهم إلى حين عودتها بالتوكيل المطلوب ، غير أنه لم يكن بوسعى إبداء هذه المعرفة أمام الرجل الغريب ، ولئلا يتفاقم غضبها منى ، فتقدم على

Looloo
www.looloolibrary.com

أخطاء تهورية أكثر مما هى تفعله الآن ، كأن تبرم معهما اتفاقًا يكبل الجدة فلا تستطيع منه فكاكًا من جراء الخوف على حفيدتها ، لذا فقد قررت المراوغة .

ومع كل ما كان يلجمنى من الرد عليها ، إلا أن الشاب الجميل هو الآخر لم يدع لى مجالاً للرد أو الحوار ، فقد تدخل سريعًا ، خشية من تطور الأمر بفصلى ، وبالتالى سوف تتوقف العملية إلى حين مجىء السيدة (سارة) ، وهذا ليس فى مصلحته البتة ، فسارع إلى القول :

ـ مهلاً ، مهلاً ، ثمة حل وسط ، كى نجنب الآنسة (سعاد) أية مسئولية تجاه السيدة (سارة) ، عليك يا جميلتى كتابة أمر مفوض ، يأمرها باستعمال التوكيل الذى معها وبالسفر والتعاقد لإنجاز الصفقة ، وفى مثل هذه الحالة تكونى متحملة عبء إنجازها وحدك دونها .

ودون أن يعير اهتمامًا لأخذ رأى أختى ، أو حتى ينتظر ردًا منها بادر إلى تناول قلم وورقة وكتب صياغة ذلك الأمر المفوض ، ودون أن يحاول إطلاعها عليه توجه إلى السكرتيرة آمرًا بكتابته على الآلة الكاتبة ، وجلس قربها حتى تنجزه .

فانتهزت فرصة ابتعاده عنا وسألتها :

ـ أنت راضية عما يفعله ؟

وقبل أن أتم قاطعتنى بنبرة حادة ، كى تلجمنى عن الاسترسال فيما لا ترغب بسماعه :

ـ ولم لا ، ألا تريدين التنصل وإخلاء مسئوليتك أمام جدتى بشأن هذه الصفقة ؟ ها هو قد فعل .

ولم أعمد إلى إطالة المناقشة معها ، وهو على القرب منا ، فسكت على مضض .

وعندما جاء بصيغة ذلك التكليف الآمر ، ودون أن تقرأه وقعته وناولتنى إياه ، وهى تقول بحسم :

ـ أعدى نفسك للسفر غدًا .

عندما لم أجد ما أقوله وقد أسقط بيدى ، وافقت ولكن كان فى نيتى ألا أنجز المهمة مهما كان الثمن ، لقد أضمرت فى دخيلتى اختلاق العراقيل هناك لتعطيل الصفقة ، لن أعقدها بأى حال من الأحوال مهما كان حجم الضغط الذى يمارس على ، وسوف أتحمل ذلك حتمًا مادام أختى بعيدة عنى ، وقلت لنفسى لتكن رحلة سياحية مدفوعة الثمن .

استغرقت رحلتى قرابة العشرين يومًا ، فى حين كان من المفترض أن أنجز مهمتى فى يومين اثنين لا ثالث لهما ، كما كان فى التقدير لإنجاز العملية ، إذ كل أوراقنا كانت جاهزة للتوقيع ، ومع هذا لم يكن السبب فى ذلك التأخير عائدًا إلى قرارى كما كان فى نيتى أن أفعل ، وأيضًا لم يكن عائدًا إلى سبب حقيقى دعا إلى ذلك التأخير .

Looloo
www.looloolibrary.com

لقد كان السبب عائدًا إلى ذلك المدير نفسه ، فقد انقلب ذلك الرجل الثعلبى الطباع فجأة ، فأخذ يصول ويجول فى جدل لانهاية له ، مستنهضًا قدرته على المراوغة للنزال معى ، دون استطاعة منى لاستكناه الغرض من وراء احتدام تلك المعارك اللفظية التى قادها بمفرده . ولكن كل الذى فهمته وأنا ألم شتات أفكارى ، أنه يبتغى التراجع عن كل ما تم الاتفاق عليه ، وعن كل ما قدمه من وعود إلى أختى عبر صاحبيه ، رافضًا العقد الذى أتيت به ، على الرغم من أن كل بنوده ، مصاغة لصالحه ، والتى كان قد تم الاتفاق عليها سابقًا عند تبادل المكاتبات بواسطة الفاكس ، والتى ما كانت تتخذ ذلك المنحى لولا غياب السيدة (سارة) .

وكان هذا الأمر الجديد مما يخدم أهدافى ، فكنت رغم حيرتى من وابل اعتراضاته الواهية على صياغة العقد الذى كل بنوده جاءت لخدمته ، فقد كنت مبتهجة لدخوله معى فى مفاوضات جديدة لا تنتهى ، واشتراطه شروطًا لم يذكرها من قبل ، فهذا جل ما كنت أصبو إليه ، فقد طالب بإحضار عينات من المادة ، وكتاب من المنشأ ، وغير ذلك من الطلبات ، التى لم أكن أعرف كيف أنجزها له ، وأنا هناك حتى لو كان فى نيتى ذلك .

وكان معى من أوراق المراسلات التى تشير إلى القبول بكل شروطنا ، وهى خالية مما يطلبه الآن ، ومنها الثمن الذى حدّدناه مسبقًا ، ولكنها باتت كلها غير ذات جدوى .

اغتبطت لذلك التأخير الذى جاء منه دون افتعال منى كما كنت أنوى أن أفعل ، وثلج صدرى سرورًا ، إذن لن يوجه لى أى لوم من أختى بعد ذلك .

ولكن ما كان يهم فى الموضوع ، أنى ما كنت أعلم ، أن كل تلك المماطلات والمماحكات فى الأخذ والرد التى كنت أراها لاتنم إلا عن هراء لا طائل من ورائه ، ما كنت أعلم أنه كان يضمر قصدًا خفيًا لم أتبينه ، وأنا فى خضم ذلك الابتزاز فى المساومة ، إلا بعد أن سرقت كل المعلومات الخاصة بتلك الصفقة من أختى فى غفلة منها .

وكان مستهل ذلك عندما اتصلت بها ، أنبئها بتلك الطلبات الجديدة ، وأنا فرحة بتعطيل إبرام الصفقة ، قلت لها على الهاتف :

- ليس أمامنا إلا انتظار مجىء السيدة (سارة) ، لكى توفر لهم هذه الطلبات .

بيد أن أختى ردّت بثقة شديدة ، إنها تستطيع توفير ما يطلبه ذلك المدير وأنها ليست فى حاجة إلى إهدار المزيد من الوقت مادام أن لديها القدرة على إنجاز العمل . وقالت إنه مما يسرها أن تفاجئ جدتها بقدرة تضارع قدرتها على إنجاز العمل التجارى .

وعندما حاولت الاستفسار عن الطريقة التى تستطيع توفير ما يطلبه المدير هنا .

Looloo
www.looloolibrary.com

ضحكت وقالت :

ـ لا عليك .. اطمئنى فحسب ، وسوف ترين مهارة أختك فى إدارة الأعمال التجارية .

ولكنى لم أطمئن ، لقد انقبض قلبى وصرخت بها :

حذار .

ولكن قبل أن أتم كانت قد أغلقت الهاتف بسرعة ، وكأنها نشوى بالمهمة الجديدة التى اتخذتها على عاتقها ، فلم أعرف ماذا كان فى نيتها فعله ، ولكنى كنت مصممة على التأجيل ، حتى لو وفرت له ما يطلب ، فالأمر ليس سهلاً . وسوف يستغرق وقتًا ، قبل أن تتمكن من توفير ما طلب منها وهى عديمة الخبرة بهذا الشأن ، وكان بعيدًا عن ذهنى تمامًا ، أن البله الذى تتحلى به ، يمكن أن يوصلها إلى الالتجاء إلى ذلك الرجل الوسيم مستعينة به على مراسلة مصدر المادة ، ليطلب منها شهادة المنشأ .

وكان من بداهة الأمور التجارية ، أن يتم الاستغناء عن وساطة مؤسستنا بعد معرفة مصدر تلك المادة .

كل ذلك كان يجرى لى ، وأنا أشبه بربان معتوه يقود سفينة مخروقة ، أجل لم أتورع عن وصم نفسى بالعته ، وأنا أرى الصفقة التى حلمت بها ، لتحقيق مكانة فى عالم التجارة ، تتسرب من بين أصابعى بكل سهولة يسر ، بسبب من عدم

خبرتى بمثل هذه الأمور ، ولما أحمله من حسن الظن بالناس ، وفوق ذلك تلك الثقة التى لم تكن فى محلها التى أوليتها لأختى ، فلو كنت صمت على ما لدى من طلبات ذلك المدير المخادع أطول مدة ممكنة ، دون أن أبادر إلى تبرير تأخير عودتى إلى أختى بذلك الاتصال الهاتفى الغبى ..

كنت أوجه لنفسى ذلك التقريع اللاذع دون أن أعلم فى وقتها أن ذلك الشاب الجميل قد أبلغ أختى بطلبات ذلك المدير ، وأنها استعانت به لإنجاز ما طلبه صاحبه ، قبل اتصالى بها ، إلا بعد عودتى .

ما يدرينى .. لقد كان الندم يأكل قلبى مواجهة اللوم إلى نفسى دون هوادة ، ولو كنت أعلم أن كل ذلك سوف يجرى ، لربما كان فى مقدورى إنقاذ تلك الصفقة من الضياع بعدم السفر ، مهما كان حجم الضغط على .

وعندما لم أجد ما أفعله توجهت إلى المطار ، وأنا شبه مطرودة من مكتب ذلك المدير الثعلبى ، وزخم من خيبة الأمل يعتصر فؤادى ، ووجل أشد منه ، لدى تصور المقابلة التى سوف تكون بينى وبين السيدة (سارة) بعد خسارتى لتلك الصفقة المهمة .

ولم أعرج على المنزل حتى لتغيير ثيابى والتخلص من وعثاء السفر ، لقد خمنت أنه فى مثل هذا الوقت ، وكانت

Looloo
www.looloolibrary.com

الساعة الخامسة مساء ، لابد أن أجد السيدة (سارة) فى مكتب حفيدتها ، إن كانت عائدة من رحلتها ، أى أنى سوف أجد الاثنتين هناك .

وهكذا توجهت من فورى من المطار إلى المكتب ، وأوصالى ترتجف ونفسى مفعمة بالترقب لما سيكون معى من تأثير خيبة الأمل التى سوف تعترى الجدة بى .

* * *

- ٢٣ -

حين دخلت إلى مؤسسة أختى ، أحمل أنباء ذلك الفشل الذريع ، كنت مستعدة لسماع لاذع القول من أختى على وجه الخصوص ، فى عملية نقد مريعة ، كما هى عادتها ، عن كيفية إدارتى لشئون العمل كلما رأت ملمحًا تظنه دالاً على عجز منى يتيح لها مناكفتى ، حتى وإن كانت هى المتسببة فيه ، لقد كانت لها قدرة عجيبة ، أقرب إلى الموهبة فى التخلص من أخطائها وإلباسها الغير ، وكنت أعددت العدة للتسلح بأعصاب فولاذية لتحمل شماتتها بى .

بيد أنه لدهشتى أنه لم يحدث شىء من ذلك إطلاقًا .

أولاً : أنى لم أجد السيدة (سارة) كما قدرت ، فهى لم تعد بعد .

ثانيًا : وجدت أختى منغمسة فى وسط معمعة أكبر من تلك التى جئت بها ، ومسكونة بقلق محنة تثقل كاهلها أعظم مما كنت أظن أنى رزحت به .

وحالما رأتنى ، بادرت المسكينة إلى القول ، وهى تهب محيية باحتفاء شديد ، وكأننى هبطت عليها بمظلة السلام ، فرحة بى كما لم أتوقع إطلاقًا أن تفعله فى يوم من الأيام :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ الحمد للّه على أنك عدت ، كم أنا مبتهجة بعودتك سالمة ، كنت متوقعة شرًا مستطيرًا يحدث لك هناك ، كما كاد يحدث لى هنا ، لقد كدت أقتل ، لقد تعرضت إلى عملية اغتيال فاشلة ، ولولا العناية ، وبعض من الحظ ، اللذان أوقعانى بالسيد (سالم) لكنت الآن فى عداد الأموات .

لم أتوقع إطلاقًا أن أحظى بمثل هذا الاهتمام لمجرّد عودتى ، ولكنى أخفيت دهشتى ، وأنا أتساءل عن ذاك الذى أراد اغتيالها ، وليس لنا أعداء ، ثم من يكون السيد (سالم) ؟

لم تنتبه للشق الأول من السؤال ، وأجابت عن الثانى :

ـ إنه رجل شجاع ، وساحر ، وقدير على كل شىء ، يعمل فى مجال مقاولات البناء .

وضحكت بقرقرة مرحة وكأنها ألقت بما يقلقها إلى الوراء وزايلها ذلك الخوف الذى كان يغلف ملامحها حين دخلت ، حالما جاءت على ذكر ذلك الرجل ، وقد نسيت تمامًا فيما يبدو أن تسأل عن نتيجة الرحلة ، التى كنت لتوى عائدة منها ، وكان ذلك فيما بدا لى من جراء انشغال خاطرها بذلك (السالم) الذى انبثق من المجهول .

فهمت عندئذ أن أختى وقعت فى غرام جديد ، محوره ذلك الرجل الساحر ، على حد تعبيرها .

وقبل أن تسترسل فى إتمام حديثها عنه ، وقبل أن تتاح لى الفرصة لأى سؤال آخر ، عمن حاول اغتيالها ، دخل المكتب

رجل من إحدى البلاد العربية فى حوالى الخامسة والأربعين من العمر ، يميل إلى قصر القامة ، ذو أنف كبير ، وفم يشبه فم الأرنب بدون شق ، له عينان كبيرتان منحرفتان ، وحاجبان وشاربان كثان شديدا السواد .

على العكس من شعر رأسه الغزير الذى يبدو بلون الرصاص ، لكثرة ما خالطه من الشيب .

وكان يرتدى حلة رمادية (سفارى) ، بهت لونها ، لكثرة ما تعرضت للغسيل ، ولكنها كانت مكوية بعناية فائقة ، وحذاءً رخيصًا من نفس اللون ، وكذلك كان جوربه .

نهضت أختى عن كرسيها متعجلة ، وقد اصطبغت وجنتاها وحتى رقبتها بحمرة قانية ، كلون الأرجوان ، واستدارت من خلف المكتب الفخم ، مادة له يدها مصافحة ، وقد بانت نواجذها الناصعة البياض ، فى ابتسامة عريضة ، لم أرها على وجهها من قبل .

وبادرت تقدمه لى ، وتقدمنى له ، وقالت مرتعشة الصوت ، وكأنها ما تزال فى ثمالة السكر :

ـ السيد (سالم) ، أختى (سعاد) ، التى حدثتك عنها .

قال الرجل بصوت أجش ، كما لو كان يتحدّث من بوق :

ـ أهلاً .. أهلاً ، لقد حدثتنى عنك الآنسة (سارة) طويلاً .

Looloo
www.looloolibrary.com

وهمّ بالجلوس على أحد المقاعد ، ولكن أختى أشارت إلى كرسيها خلف المكتب ، وهى تستدير مبتعدة عنه ، لتجلس إلى جوارى ، وبهالة من التقديس ، قالت :

ـ تفضل .. خذ مكانى .. تفضل .

بهت بشدّة ، واعترانى الذهول ، إذن هذا هو الرجل الساحر ، الذى أغرمت به أختى مجددًا ، بعد أن نبذت ذلك الشاب الوسيم ، أو هو نبذها بعد أن توصل إلى غرضه من الصفقة ، لا أدرى .

وسرعان ما انبثقت إلى ذهنى صورة من الماضى ، حول سحنة ذلك الشاب القبيح ، الذى كان يطل من نافذته العالية على أرضية مطبخها .

وقلت لنفسى : يا لها من أخت غريبة الأطوار ، تهوى القبح أكثر من الجمال .

والحقيقة أنه ليس القبح ما يرى فى هذا الرجل فقط ، بل ما يتداعى إلى الذهن من انطباع الشر ، الذى تكاد تنطق به سحنته ، ولو كان ثمة مخرج سينمائى يبحث عن رجل ذى هيئة شريرة ، وعرض عليه هذا الـ (سالم) من بين العديد من الأشرار ، حتمًا لن يتوانى عن اختياره لذلك الدور ، الذى أرى أنه يستحقه بدون منازع بهيئته المنكرة تلك .

ربما بان ما يعتمل فى داخلى ، فقد لاحظت تبادل نظراتهما إلى بعضهما البعض بمغزى ما ، فانتبهت واستعدت رباطة جأشى .

وحتى تبدّد أختى الدهشة التى اعترتنى ، والتى لا بد أنها كست ملامحى قالت توضح :

ـ سوف يتسلم السيد (سالم) إدارة المكتب ، أجل لن نعمل بعد الآن بإدارة الصفقات الكبيرة بين الدول ، إننا غير مؤهلتين ، ولا مهيأتين لمثل تلك الأعمال لكى نضطلع بها ، سوف نقتحم مجال مقاولات البناء ، بقيادة السيد (سالم) ، إن له باعًا طويلاً فى مثل هذا النوع من العمل ، سيقوم بنفسه بتولى هذا الأمر ، وسوف نعمل له توكيلاً بهذا الخصوص ، كما طلب .

وكنت بعد لم أقدم لها تقريرًا عن نتائج رحلتى تلك ، غير أن حديثها عن عدم تأهلنا جاء مطابقًا لما فى نفسى ، فقلت :

ـ أجل ، إننا غير مؤهلتين لتولى وإدارة الصفقات العالمية ، كالسيدة (سارة) ، لقد سرقت منك المعلومات ، دون أن تشعرى ، كان فى مكنتهم بطرق التوائية معرفة كل ملابساتها ، فلم يعد لى دور بعد ذلك ، ولذا أسرعت بالمجىء لأبلغك بما تم بشأن تلك الصفقة .

فردّت بمرح مفرط ، وكأننا ربحنا الصفقة ولم نخسرها :

ـ ألم أقل ذلك ؟ أجل ، لقد لاحظت أن معاملة ذلك السمسار تغيرت ، بمجرّد أن عرف المصدر ، لقد كان يتصف بالخسة ، لقد حاول كسب ثقتى ، ثم هرب حين توصل إلى ما يريد ، فى الحقيقة أننا غير مؤهلتين ، وها قد تبينت ذلك بنفسك .

Looloo
www.looloolibrary.com

ثم استئنت فى دهشة مباغتة :

ـ ولكن من أنبأك أن ذلك المحتال سرق المعلومات منى ، كيف عرفت ؟

فقلت :

ـ لا أحد بصورة مباشرة ، وإنما نمى إلى فهمى من ملابسات الحوار مع ذلك المدير المخادع رفيقهما ، لقد قال ساخرًا وكأنه يطردنى :

ـ عودى أيتها الفتاة الغريرة إلى البلد التى جئت منه ، وأخبرك ناصحًا ربما للمستقبل ، وانصحى بدورك أختك الصغيرة عديمة الخبرة ، أنه ليس هكذا تدار العمليات التجارية المربحة ، عليها أن تحتفظ بالمعلومات لنفسها ، إذا أرادت أن تحقق يومًا ماربحًا ، وأيضًا أخبرى جدتها إذا كانت تعتبر نفسها ماهرة فى العمل التجارى ، فثمة من هو أمهر منها .

ثم أعقب ذلك الحديث بضحكة ساخرة طويلة ، وعندئذ فهمت بأن المعلومات سرقت منك .

فردّت أختى مرحة ، وكأنى رويت لها نكتة طريفة :

ـ أجل ، ومن أجل ذلك سوف نعمل فى مجال مقاولات البناء ، وسوف يحالفنا الحظ حتمًا ، ليتها فقط تتفهم ، إنها نمطية لا ترغب بالتجديد ، أظن أنك أقدر منى على إقناع جدتى بهذا

الأمر ، إنها تثق بك كما تعلمين ، ليس فى قدرتى إقناعها بمفردى ، لقد حدثتها هاتفيًا عن هذا ، ولم تتقبل الفكرة ، إنها فى غاية الغضب ، بعد أن خسرنا صفقة الكبريت ، ولذا لم تستطع هى جلب ذلك التوكيل ، بعد أن تقدم ذلك الرجل المحتال الذى ذهبت إليه بشروط أفضل مما تقدمنا نحن به كما تقول . أخبريها أنت عندما تعود ، كيف أننا خسرنا ، لأننا ليست لدينا الكفاءة لمثل هذا النوع من العمل ، فإذا أرادت لنا أن نكون من أصحاب الأعمال ، فلتترك لنا المجال الذى نحسنه ، وأنه آن الأوان لأن نستبدل بعمليات البيع والشراء بأعمال مقاولات بناء المنازل والعمارات العالية ، وكافة أنواع البناء والتشييد ، فهذا ما نرغب بفهمه ، وليس تلك العمليات التجارية المعقدة ، التى ربما تسرق منك وأنت جالسة على مقعدك دون حراك ، لعلها تقتنع عندما تعود ، حدثيها .

فقلت معترضة :

ـ ونحن لا نعرف فى مقاولات البناء .

فنظرت لى محتجة فى غضب ، وكعادتها دائمًا تخلط بين ما يخالجها من عواطف ، وما تقوم به من عمل ، غير متوخية الحذر والحرص ، ردت :

ـ ليس من الضرورى أن نعرف . إن السيد (سالم) له إلمام كبير فى هذا المجال ، وسوف يساعدنا على تعلم ما يراد تعلمه ، ثم إنه من سيتولى القيام بكافة الأعمال ، حتى لو لم نتعلم ،

Looloo
www.looloolibrary.com

وسوف أعمل له توكيلاً عامًا بذلك ، حتى لو لم توافق جدتى ، ولكن من الأفضل الحصول على موافقتها ، وعليك فعل ذلك .

فأعدت النظر إلى السيد (سالم) ، وهو جالس منتفخ الأوداج فى كبرياء واعتزاز ، مكان أختى ، أمام المكتب العريض يصيخ السمع إلى ما تقوله وهو فاتر الثغر عن ابتسامة خفيفة تنم عن اعتزاز وفخر بقوة سطوته على وجدانها ، فلم أر من سيماء هيئته ما يدل على البراعة ، فى مثل هذه الأعمال ، وليس ثمة سبب مقنع يدعم اندفاع أختى نحوه بهذا الشكل المتسرع ، فهو ليس شابًا ، ولا جميلاً ، ومما يبدو عليه أنه لا يملك فكرًا مميزًا ، كى يخلب لبها بحديثه ، إنه مما يظهر من سيمائه لا يعدو أن يكون رجلاً عاديًا فى كل شىء فى المظهر والمخبر ، بالإضافة إلى ما يبدو من هندامه الدال على أمارات الإفلاس القريب .

كان هذا هو الانطباع الذى أخذته عنه فى الدقائق الأولى من التقائى به فى مكتب أختى على تلك الصورة الآنفة الوصف .

بيد أنى والحق يقال ، لم ألبث سوى دقائق إضافية من مجالستى له وأنا فى عملية تفحص لهيئته ، حتى انقلبت بى الحال رأسًا على عقب ، انقلابًا لم أشعر بمثيل له من قبل ، ولم أجد له تفسيرًا يبرر الحال التى اعترتنى فى ذلك الوقت ، ولا فى أى وقت آخر بعد ذلك مطلقًا ، فقد تسرب إلى نفسى ما يشبه الخرير الخفيف من أمواج سحرية ، مندفعة بهدوء تنفث فى أغوارى البعيدة بذبذبات عذبة لا سبيل إلى وصفها ، لابد أنها

تحيط بكل من يجالسه بأجواء غريبة ضاربة ستارًا من الجاذبية العارمة الآسرة التى لا تقاوم ، تجعله يحس بأن للرجل تأثيرًا محتدمًا لا سبيل إلى مقاومته . ثم بعدها يختفى تدريجيًا ويتوارى بخفة ذلك القبح الذى يرى عليه للوهلة الأولى .

فضلاً عن ذلك فإن حديثه يبدو طليًا وأكثر سحرًا ، على الرغم من أنه لا يقول شيئًا ذا أهمية ، بل تبين لى فيما بعد ، أن كل ما كان يقوله لا يعدو كونه من إسفاف القول المبهرج ، أو من الكذب المفضوح غير المواربة ، بيد أنه يتم تقبله قسرًا عن السامع ، وكأنه الحكمة ذاتها .

فوجدت عندئذ من العذر المقبول لما يبرر اهتمام أختى بهذا الرجل الساحر القبيح ، ولكنى ما برحت أتساءل فى سرّى ، ترى ماذا حدث لإعجابها بذلك الشاب الوسيم ، صاحب صفقة الكبريت ، فهل سبب انسحابه حصوله على المعلومات اللازمة لتلك الصفقة ، أم أن القبح الساحر يطوى فى ثناياه عوامل طرد الجمال الباهر ؟

وضحكت فى نفسى ساخرة ، ما كان مما يخطر لى على بال فى أيما يوم أن ثمة احتمالاً لحدوث مثل هذا ، إلا إذا كان القبح يحمل مثل هذه الجاذبية الآسرة ، وهذا السحر الرجولى .

وعندما التقت نظراتنا ، بعد مضى وقت قصير على هذه الجلسة ، كان يبدو متحديًا ، وكأن فى مقدوره فهم ما كان يدور

Looloo
www.looloolibrary.com

فى خلدى ، ولكنه مع ذلك كشر لى فيما ينم عن ابتسامة ، فبدت أسنانه تحت شفته العليا التى تبدو كالمخيطة فى منتصفها ، بدت أسنانه تحتها عريضة يعلوها اصفرار النيكوتين ، لتبدو لى شراهته فى التدخين ، وفطنت عندئذ إلى أنه كان ممسكًا (سيكارًا) بين أصابعه ، قال :

ـ اطمئنى ، آنسة (سعاد) ، لدى خبرة كبيرة فى أعمال المقاولات ، معظم هذه المنشآت التى ترينها فى هذه المدينة نهضت على كاهلى ، ولى اليد الطولى فى تنفيذها .

بيد أنى لم أطمئن ، فعلى الرغم من فعل جاذبيته الساحرة على وجدانى ، إلا أن حديثه كان واضح الزيف ، ومظهره يشى بوضعه المتردى ، فلاشىء فى هندامه يدل على مخايل رخائه ، وبأنه يجنى أرباحًا من أعمال المقاولات ، فمظهره مظهر الرجل المدقع ، الذى على وشك السقوط فى هاوية الإفلاس .

والتفتّ إلى أختى قائلة :

ـ ربما تظل السيدة (سارة) مصرة على رفض مثل هذا النوع من العمل ، على الرغم من محاولاتى إقناعها ، عندئذ من ذى الذى يعطيه التوكيل لممارسة هذه الأعمال لصالح المؤسسة ؟

فردت بعجالة مقتضبة :

ـ أنا .

فقلت دون مواربة :

ـ ولكن كيف ؟

وفطنت أختى إلى ماوراء جملتى تلك ، وقد فهمت ما ألمح إليه ، أى أنه ليس فى مقدورها إعطاء ذلك التوكيل ، لعدم حملها أوراقًا تثبت شخصيتها ، بالإضافة إلى أن المؤسسة مازالت ملكًا لجدتها .

فقالت مسرعة ، فى محاولة منها لعدم الاستمرار فى هذا المنحى من الحديث :

ـ سوف ترين .. سوف ترين ، لا عليك ، اهتمى بأمرك فقط ، حاولى ترتيب ما يتعين عليك قوله لجدتى حول إقناعها بالعدول عن إصرارها على الرفض ، هذه مهمتك الأساسية ، هذا ما أكلفك به الآن ، أما ما عدا ذلك فدعيه لى .

ماذا أدع لها ؟ إنها تلجأ إلى معميات مغلفة بالغموض ، ولكن عرفت من ردها ، أنها لاتريد كشف وضعها أمام رجلها الساحر ، وأنه يهمها أن تحصل على تقديره كاملاً غير منقوص .

فسكت أنا الأخرى .

بيد أنى رأيت من تعابير وجهه الساخرة ، ما يبين أنه يعرف أكثر مما كانت أختى تظن .

ثم لم يطل به المكوث أكثر من ذلك ، فقد قدر أن لدى ما أود قوله لأختى بعد تلك الرحلة الشاقة ، فانصرف عاجلاً .

Looloo
www.looloolibrary.com

قلت لها بعد أن خلا المكان :

ـ أخبرينى عن كل شىء مر بك فى أثناء غيابى ، كيف نجوت من عملية الاغتيال ، ومن كان يروم اغتيالك ، ولماذا ؟ وكيف ساعد هذا السيد على نجاتك ؟

فأثارت تساؤلاتى حماسها ، وأسرعت إلى القول :

ـ ثالث أيام سفرك ، وبعد اتصالك الهاتفى بى ، حول طلب شهادة المنشأ ، وبعد أن حصلنا عليها بالفاكس أنا والشاب الجميل من مصدرها ، ومن ثم اختفاؤه من أمامى ، دون أن تكون عندى نسخة من تلك الشهادة ، وقد تولتنى الحيرة ، كيف أزودك بها ؟ ومرّ يوم والثانى وإلى اليوم الخامس ، والرجل لايظهر ، وفيما أنا أحادث السكرتير ، نتداول فى هذا الأمر العجيب ، حول اختفاء الرجلين المفاجئ ، وكنت حتى ذلك الوقت ، أحسن الظن بهما ، وإنما قدرت أن غيابهما لسبب مختلف ، كأن يكون حدث لهما حادث قسرهما على عدم المجىء إلى المؤسسة ، إذ بالسكرتير يفاجئنى بحكاية غريبة ، لقد قال :

ـ إنه كان يعتقد أنى أعرف السبب من وراء ذلك الاختفاء ، بعد أن حصلا على معرفة مصدر مادة الكبريت .

ثم قال ربما لاتعرفين أن السمسار الشاب ورفيقه الكهل ، قد نشب بينهما خلاف شديد ، حول عنوان الشركة المصدرة

للمادة ، فالكهل يريد معرفة العنوان ، والشاب يرفض إعطاءه له ، لأنه يريد بيعه للشركة التى هو سمسار لها بمبلغ كبير كأساس للسمسرة ، ويروم حرمان صاحبه من نصيبه ، لأنه هو من حصل على العنوان بمساعدتك ـ أى بمساعدة أختى ـ وكإجراء انتقامى اندفع الرجل الكهل إلى التهديد بفضحه بأنه جاسوس لدولة معادية ، ولذا فقد قرر الشاب سريعًا الإيقاع برفيقه ، مستعينًا بى ـ أى بالسكرتير ـ وذلك بأخذ حديث مسجل على (شريط كاسيت) يكشف به تورط رفيقه الكهل فيما هو متورط به ، وذلك لكى يحمى نفسه ، فيما لو حاول صاحبه الإيقاع به حقًا ، ولذا فقد طلب منى ـ أى من السكرتير ـ أن أساعده على رفيقه .

واستطردت أختى ، وكأن آثار الانبهار المفاجئ لتلك الحكاية الغريبة ما زالت تلفها ، فقالت :

ـ وقال لى السكرتير أيضًا : إنه بدافع من الفضول ، سمح له باستعمال هاتفه المنزلى ، فى عملية تسجيل ذلك الشريط ، وأنه عندما استمع إلى ذلك الحديث المسجل عرف أنهما جاسوسان لدولة معادية .

وقال السكرتير أيضًا :

ـ إنه يعتذر لعدم الإبلاغ عن هذه الواقعة بسرعة ، لأنه فى الحقيقة كان فى حيرة مرعوبة خوفًا ورهبة منهما ، فهما لن

Looloo
www.looloolibrary.com

يتورعا عن قتله حالما يعرفان أنه أفشى سرهما ، ولذا فقد توسل لى بأن لا أورطه بذكر اسمه عند الحديث عن هذه الواقعة .

ثم استأنفت أختى معلقة برأيها :

ـ هل فهمت أن الرجل الكبير هدّد الشاب بفضح أمره ، كما قال السكرتير ، ولذلك فقد قام الشاب بعملية تسجيل لحديثه هاتفيًا ، كان أعده له ، لكى يبين تورطه معه ، وكان ذلك فى منزل السكرتير ، لأنه يخاف استعمال هاتف منزله الشخصى لئلا يفتضح أمره لربما يكون مراقبًا ، هذا التبرير الذى قدمه لى السكرتير عندما سألته لماذا استعمل بيته لذلك التسجيل ، أرأيت ؟ كانا ذانك الرجلان نصابين محتالين ، والأنكأ من ذلك أنهما جاسوسان ، يا للهول الذى كنا سنقع به دون أن نعلم .

وأردفت بعد وقفة قصيرة وكأنها تتذكّر الأحداث :

ـ لقد قال السكرتير أيضًا : إن الشاب حاول جره معه إلى مثل ذلك العمل ـ أعمال الجاسوسية ـ ، وقدم له إغراء ماليًا كبيرًا ، بيد أنه لم يرض بخيانة وطنه العربى ، كما قال .

وقال أيضًا : إنه تظاهر بقبول العرض خوفًا ورهبة ، ولكنه الآن يحمد لى أن ساعدته على التحدث والمصارحة وإخبارى بهذا الأمر الجلل ، وطلب منى مرة أخرى أن لا آتى على ذكر اسمه فيما لو أردت الإبلاغ عنهما ، كم كان ذلك السكرتير جبانًا رعديدًا .

وبعد وقفة قصيرة ازدردت ريقها الذى نشف لفرط انفعالها من تذكر لتلك الأحداث التى مرت بها فى أثناء غيابى وغياب جدتها ، قالت مستأنفة :

ـ لم يكن أحد إلى جانبى يعيننى على ماذا يتوجب علىّ فعله ، لقد كنت شديدة الانبهار باكتشافى لهذا الذى يجرى ، لم أكن أتصور مطلقًا بأن هذا كان ممكنًا أن يحدث لى .

ولكى أفهم ما يجرى طلبت من السكرتير أن يجلب لى نسخة من ذلك (الشريط) ، لأستمع إلى حديث ذينك الجاسوسين ، ويا لغرابة ما سمعت .

وبعد ، وقد تأكد لى أنهما فعلاً جاسوسان ، وأنهما لا يمتان بصلة قرابة ، أو نسب لبعضهما ، ولا لذلك الذى يدعيان أنه قريبهما ـ صاحب الشركة ـ التى سافرت إليها ، وأنهما كذبا على لأمر فى نفسيهما ، أو لتسهيل تعاملهما معى لشراء تلك الصفقة ، التى كان مرتبًا لإيصالها إلى تلك الدولة المعادية ، وأن ذلك المدير الذى سافرت إليه لإتمام الصفقة والذى ادعيا أنه زوج أخت الكبير منهما ، وخال الشاب ، لم يكن سوى رئيس لهما فى عملهما التجسسى ، وبما أنه من رعايا تلك الدواة المعادية للعرب ، لذلك لم يكن فى ميسوره الحضور إلى هنا للتعاقد معنا ، كى لاينكشف أمره ، ولعلها العناية ، هى التى جعلته يسرق المعلومات منا ، كى تجنبك التعاقد معه .

فقلت فرحة بهذا العذر ، الذى يبرر فشلى :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ هو ذاك ، ومع ذلك ، حتى لو لم يسرق المعلومات ، فبمجرد ما يظهر لى من شخصيته الحقيقية ، حتمًا سوف أرفض التعاقد معه ، ولكن ماذا حدث بعد ذلك ، وكيف كانت محاولة اغتيالك ؟

فقالت أختى معترضة :

ـ كيف تظهر لك شخصيته الحقيقية وأنت هناك ، حتمًا سوف تتعاقدين معه دون علمك .

قالت هذا ، وكأنها تريد أن أحمد لها أن سرقة المعلومات منها إنما جاءت لصالحى .

فقلت :

ـ ممكن حقًا أن أتعاقد معه دون علمى ، لو لم تسرق منك المعلومات ، لو كنت أنوى ذلك فعلاً .

ولم تنتبه إلى العبارة الأخيرة فصرخت فى فرح :

ـ أرأيت ؟

ثم استأنفت بحنق من نفسها :

ـ لغبائى ، أجل ، لقد تصرفت بغباء حقيقى ، إذ لم يكن منى إلا البحث عن ذلك الشاب الجميل ، الشاب الجميل ، الذى كنت سأقع فى غرامه ، وكان الداعى إلى ذلك شدة ما شعرت به من ألم لمحاولته خداعى ، وإظهار العطف والمودة لى ، وهو يريد أن يستغلنى لشراء تلك الصفقة ، لتلك الدولة المعادية لبلدى ،

وبعد عناء متواصل ، كان للسكرتير فضل بمساعدتى خفية ، عثرت عليه ، قمت بخداعه ، فحدثته بمرح على الهاتف طالبة منه المجىء إلى مكتبى لإتمام الصفقة ، وكأنى لا أعلم بما جرى منه ، ولعله ظن بى الغباء ، فقد جاء سريعًا ، ربما لمزيد من الخداع ، أو لتبرير غيابه كل تلك المدة ، وعندئذ واجهته بما جاء بشريط التسجيل ، وأقر بأن ذلك كان خطأ فادحًا منى ، بل مميتًا لم أقدر عواقبه ، إلا بعد أن كاد يودى بحياتى .

وتساءلت بعد وقفة وجيزة :

ـ أتدرين ماذا كانت نتيجة تهورى ذاك ؟

فقلت :

ـ كلا ، لا أدرى .

قالت :

ـ فى مبدأ الأمر قام هذان الرجلان بتهديدى ، وذلك بإلقاء ماء النار على وجهى ، كما أسميا ذلك السائل الحارق لتشويه جماله ، كما قالا ، إن لم ألزم الصمت بشأنهما .

ولكن لم يخالجنى أدنى خوف ، ولم أتردّد فى الإيقاع بهما ، وكأنى لم أسمع بهذا التهديد ، وهذا تصرف آخر يدل على الخرق والغباء أيضًا ، لأنى حتى ذلك الحين لم أذعر ، أو أرتعب ، ظانة أنهما لن يستطيعا تنفيذ تهديدهما ، فأنا فى بلدى ، وهما أجنبيان ، ولذا فقد حاولت أن أتصل بالمخابرات

Looloo
www.looloolibrary.com

المركزية ، ولكن يبدو أن هذين الرجلين ، قد أخذا بمراقبتى ، وعرفا أنى مصرة على الإيقاع بهما ، ففرا خارج البلاد .

فقلت متسائلة :

ـ والسكرتير ، ماذا بشأنه ، إنى لا أراه هنا ؟

أجابت وهى تضحك :

ـ لقد فر من البلاد قبلهما ، لقد خاف بطشهما ، بعد أن تكشف لهما ، أنه من أوصل الخبر إلى ، كان مرعوبًا منهما ، إنه كما تعلمين أجنبى مثلهما ومثلك ، أما أنا فلماذا أخاف ، إنى فى بلدى ؟

قالت ، نهاية عبارتها فى اعتزاز شديد ، فقلت فى نفسى ، يا لأختى المسكينة ، إنها مصرة على اعتبار نفسها مواطنة هنا .

وانتهزت فرصة سكوتها لفترة وجيزة ، فقلت :

ـ كان عليك التظاهر بعدم معرفة حقيقتهما ، دون أن يفطنا ، ومن ثم تقومين بالإبلاغ عنهما إلى السلطات ، وبهذا لايستطيعان الفرار بفعلتهما وبنفس الوقت لا تعرضين نفسك إلى الخطر .

فردت باستهجان غاضب :

ـ لقد اعترفت لك بأنى أخطأت ، وإنما عليك أن تسألى ماذا حدث بعد ذلك ؟

فقلت :

ـ ماذا حدث ؟

فغاض المرح من عينيها ، ردت وقد انتفض كتفاها ، كما لو كان بهما مس من القشعريرة :

ـ لقد تلاحقت الأحداث بسرعة مذهلة بعد ذلك ، ففى الأيام التالية لاكتشافى لحقيقتهما ، وقد فهما أنى أنوى الإيقاع بهما ، وقبل فرارهما بيوم واحد ، وكان هو اليوم الثانى عشر لسفرك ، جاءنى فى هذا اليوم رجل كنت أعرفه ، وأنت أيضًا ، إنه زميل للجاسوس الشاب ، ذلك الرجل الذى يدعى (كريم) ، لقد رأيناه معه عددًا من المرات ، قبل اكتشافى للأمر ، ألا تذكرينه ؟

ودون أن تسمع إجابة على تساؤلها ، استطردت فى تحفز :

ـ لا أدرى كيف أفسر ، أحسست آنذاك ، لقد عرفت ، أو بالأحرى خمنت أنه يحمل (مسدسًا) ، كان إحساسى بتلك الواقعة فوق التصور ، أو ربما لأنى كنت منتبهة إثر التهديد الذى تعرضت له ، لقد لفت انتباهى وجود انتفاخ تحت إبط الرجل ، كما فى الأفلام البوليسية ، فتبادر إلى ذهنى أنه مسدس ، ولم يكن معى فى ذلك المساء سوى الخادمة ، التى تصب الشاى للزبائن ، تلك التى عينتها جدتى ـ وضحكت ـ لقد جاءت بتلك الخادمة قبل سفرها بساعات ، لقد طردت الخادم ، بعد أن رأته يطيل النظر لى ، كما تقول ، أنا لم ألحظ ذلك ـــ وضحكت كرة أخرى ـ لعلها خشيت أن أتزوج خادم مكتبى مثلها .

Looloo
www.looloolibrary.com

وأشارت بيدها إلى المطبخ البعيد ، وأردفت :

ـ ها هى ذى تعمل هناك ، أنت لم تريها لانشغالك بالاستعداد للسفر ، سترينها بعد قليل عندما تحضر لك الشاى .

ومدّت يدها وضغطت الجرس ، تستدعى الخادمة ، واستأنفت :

ـ فى ذلك المساء ، وفى ظلام الغسق المقبل ، وقد خيم السكون على المكان ، بعد انصراف كافة العاملين والزوار ، وكأنه ، كان ثمة حساب دقيق مرتب للقيام بتلك الزيارة المفاجئة ، إذ لا يتوقع أن يكون أحد غيرى فى المكتب فى تلك الساعة من المساء ، التى تكاد تكف بها أقدام الناس عن السير .

وعلى حين غرة منى ، دخل ذلك الرجل منتصبًا وسط المكتب ، متلفتًا يمينًا وشمالاً ، جائلاً بعينيه فى أنحاء المكان ، وقال متسائلاً بارتباك وعجالة لم يخفيا على :

ـ ألا يوجد غيرك هنا ؟

مازلت لا أدرى لماذا ، أو كيف شعرت فى ذلك الوقت بخطر داهم لا قبل لى بدفعه ، مما أدى بى إلى ذعر لا سبيل إلى وصفه ، لقد شعرت من هيئة الرجل وتوفزه أنه ينوى شرًا مستطيرًا ، وأن أى مكوث معه ، حتى لو كان لدقائق معدودة سوف يعرضنى لخطر مهول ، ولا أدرى حتى الآن كيف واتتنى سرعة البديهة بأن أرد عليه ، بأن استمهلته قليلاً ، لكى أنظر فى المطبخ ، كى أرى إن كانت الخادمة انصرفت ، وإلا سوف

أدعوها لتقديم الشاى ، ثم أعود إلى مجالسته ، ويبدو أنه سرّ من عملية التأكد من خلو المكان ، فلم يبادر بالهجوم حتى أعود . بيد أنى لم أعد ، فقد هربت خارج المكتب من باب المطبخ الخلفى ، وأوصالى ترتجف كعيدان من الخوص ، لا أعرف كيف نجوت من موت محقق ذلك المساء لا أدرى ، ولماذا لم يطلق علىّ ، وأنا أعطيه ظهرى فى سبيلى إلى المطبخ ، إنها القدرة الخارقة التى جعلته يريد التأكد من خلو المكان .

واستمرت فى ارتعاشتها ، وكأنها تتمثل الحادثة فى خاطرها ، وأتمت :

ـ عندما خرجت راكضة لا ألوى على شىء ، دون أن أرى ما أمامى ، اصطدمت بالسيد (سالم) ، ودون أن أعرف من يكون ، استنجدت به ، وأخبرته بالقصة كاملة .

فهدأ من روعى ، وقادنى إلى مكتب مجاور ، ذلك الملاصق لنا ، والذى يملكه ذلك الرجل العجوز ، اتضح فيما بعد أنه على معرفة بالسيد (سالم) ، وهناك أعطانى جرعة ماء ، ثم ذهب إلى مكتبى يستطلع الأمر ، ولكن الشقى يبدو أنه خمن سبب هروبى من المكتب ، فهرب هو الآخر .

واستطردت بعد أن ابتلعت ريقها الذى بدأ ينشف مرة أخرى لهول الذكرى :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ لقد كنت محقة تمامًا فى ذلك الذعر الذى انتابنى ، ولم يكن ما شعرت به مجرّد ظن أو تخمين أو تهيؤات نابعة من المواقف التى تعرضت لها أخيرًا ، فقد قالت الخادمة ، التى كانت ترتعد فرقًا فى ذلك المساء المعتم من هول ما رأت هى الأخرى ، قالت والرعب يكاد يشلها : إنها عندما دخلت عليه المكتب لتقدم الشاى له ، كعادتها كلما وفد علينا أحد من الزبائن ، بوغتت بأنه كان يحمل مسدسًا موجهًا فوهته ناحية الباب وهى تلجه ، وأنه ارتج عليه ، فأخفى يده التى تحمل المسدس خلف ظهره ، حالما لمحها تظهر على العتبة ، ربما عندما سمع خطواتها المقبلة ظنها أنا .

وقالت : إنها أسقطت الصينية على الأرض لفرط الهلع الذى اعتراها ، وخرت على ركبتيها متسمرة فى فتحة الباب لا تدرى كيف تفر ولا حتى كيف تنهض ، وقد اعتقدت أنه ينوى قتلها ، ولكنه سألها عنى ، وهو لايكاد يتمالك رباطة جأشه ، وعندئذ عاودتها الطمأنينة ، وفهمت أنها ليست المقصودة ، فقالت له وأسناتها تصطك ، بأنى خرجت من المكتب على عجل ، وهكذا خمن الشقى سبب خروجى ، لابد أنه قدر أنى عرفت سبب مجيئه ، فقفز فوق قطع الكوب المكسور وقد سحق إصبع الخادمة بحذائه الغليظ ، وهو يجتاز فتحة الباب ، وولى هاربًا ، ثم غادر البلاد فى نفس الليلة ، مع الرجلين الشاب الجميل وزميله الكهل ، لقد تأكد لدى البوليس مغادرة الثلاثة فى نفس الليلة ، هذا ما سمعته مؤخرًا .

أما فى ذلك المساء فلم أجرؤ على دخول المكتب ، فقد تركت السيد (سالم) والخادمة يقفلانه ، ويأتيا لى بالمفتاح ، ومنذ ذلك اليوم ، والسيد (سالم) ناصبًا من نفسه حارسًا لى ، لايدعنى أدخل المكتب ما لم يكن قبلى ، إنه هو الذى يحرسنى ويحمينى ولولاه لرأيتنى الآن فى عداد الأموات ، إنه منقذى ، وأنا مدينة له بحياتى .

فتساءلت :

ـ هل أخبرت جدتك بالواقعة ؟

فقالت بحنق لا أعرف مبعثه :

ـ كلا ، أحمد اللّه أنها كانت خارج البلاد فى تلك المهمة الفاشلة ، ثم إنها كانت غاضبة جدًا من فقد الصفقة بسببك ، ولا أريدها أن تغضب منى أيضًا .

فقلت باستنكار :

ـ بسببى ! هل أنا من أعطى ذلك السمسار عنوان الشركة لكى يراسلها ، أم أنت ؟ إنى كنت خارجًا ، وكيف أحصل على العنوان وهو هنا ؟

فقالت بغضب أكثر ضراوة ، وكأنها قررت أخيرًا التنصل من مسئولية ما جرى :

ـ يعتبر أنت ، ألم تطلبى منى شهادة المنشأ ، ألايكون عليها العنوان ، ألم تكونى على استعداد لإعطائها إلى ذلك المدير الذى سافرت إليه ، إنه غباء منك أن تطلبى شهادة المنشأ .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت بحدة ، وقد آلمتنى قدرتها على قلب الحقائق :

ـ قطعًا لم أنو ذلك ، من أخبرك أنـى سوف أفعل ، لـم أكن إطلاقًا أنوى إتمام الصفقة قبل مجىء السيدة (سارة) ، كانت مماطلة منى ، كل ما فى الأمر أنى كنت أنفذ أوامرك بوجوب السفر ، إذ إنى لم أستطع ثنيك عما أزمعت من إبرام الصفقة إلا بهذه الوسيلة ، وهى السفر لإيهامك بأنى سوف أنجزها ، وعندما أخبرتك بطلب ذلك المدير المخادع لشهادة المنشأ ، لم أطلب منك إرسالها لنا ، لقد كانت فقط محاولة منى للتملص من إبرام الصفقة ، لقد كان فى ظنى أنك لن تستطيعى إنجاز طلب ذلك المدير ، لم يكن مما يرد لى على بال بأنك سوف تستعينين بذلك الشاب لمراسلة مصدر المادة ، بل ما كنت أظن أنك سوف تستعينين به لفتح الملفات والبحث عن العنوان وإطلاعه على ما نخفى من أمور ، دون أن تعرجى على جدتك بذلك الطلب ، لقد قلت لنفسى حين ذاك إنك حتمًا سوف تفشلين فى الحصول على تلك الشهادة ، كنت آمل إطالة المدة إلى حين عودة السيدة (سارة) ، إنك حتى لم تستمعى لى على الهاتف حتى أنهى حديثى ، وكى أشرح لك ماذا وجدت من طباع ذلك المدير اللئيم ، لقد أغلقت الهاتف فى وجهى ، ألا تذكرين ؟ ثم إن ذلك الشاب أبلغك برغبة ذلك المدير قبل أن أبلغك بها ، ألا تذكرين هذا أيضًا ؟

عندئذ صرخت بى :

ـ يا لك من مخادعة ، إذن كنت تسايرينني ، تحدثينى على قدر عقلى ، كما يقال ، إنك كاذبة ومخادعة كالعهد بك وبذويك .

فقلت :

ـ ليس هذا هو الموضوع الآن .

ردت بعصبية متزايدة :

ـ بل هو الموضوع الآن .

وقبل أن تدع لى مجالاً للرد والمناقشة ، غيرت مسار حديثها ببراعة وخبث ، فقالت :

ـ هذا كلام تقولينه الآن ، بعدما فشلت الصفقة ، لكى تتنصلى من تحمل المسئولية أمام جدتى ، لجعلها تنحى باللائمة علىّ وحدى ، لن يصدق أحد ما فى نيتك فعله ، حتى جدتى ، قد تكونين اخترعت هذا العذر لإعفاء نفسك من تحمل اللوم بسبب من فشلك فى إدارة هذه الصفقة ، هه أليس هذا صحيحًا ، ألا يكون هذا محتملاً على الأقل ؟

فقلت فى تسليم :

ـ معك حق فى هذا الاحتمال ، ولكنه ليس صحيحًا على واقع الحال قطعًا ، ويكفى أن أعرف عن نفسى ذلك ، وأنت أيضًا لا بد أنك تذكرين أنى لم أطلب منك إرسال شهادة المنشأ ، لا بد أن من دفعك إلى تلك العجلة هو ذلك الشاب المراوغ .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقالت هادرة :

ـ ما الفرق ، لقد قلت إن ذلك المدير يطلب شهادة المنشأ ، وهذا يكفى لكى أبحث عنها ، ثم إن جدتى لا تعرف أنك لم تطلبيها منى .

ـ إذن ، فأنت تريدين تقديمى كبش فداء للخطأ الذى ارتكبته ، بجعل ذلك الرجل يبحث معك عن عنوان الشركة المنتجة .

فأعقبت وكأنها وجدت ما يفحمنى :

ـ ألا تعلمين أنى لا أعرف الإنجليزية ، بفضل خبث والدتك وجبن أبيك ، أليس هذا سببًا كافيًا لكى أستعين به ؟ هه لديك عذر لهذا ؟

فقلت :

ـ وما علاقة هذا بالأمر ، وأيضًا ما علاقتى أنا كى تحمليني وزر عدم تعليمك ؟

ردت بضراوة :

ـ بل له كل العلاقة ، لو كنت متعلمة لما اعتمدت عليك ، أو على غيرك من الناس فى تدبر أمور تجارتى ، أما أنت فجرمك أكبر لقد كنت تتلذذين بجهلى وتفوقك على ، وما إبراز عاطفتك الزائفة نحوى ، إلا لكى تحسى بأنك من يمنح وأنا من يأخذ ، أتظنيننى حمقاء لم أفهم منذ ذلك الوقت ، إنك بلهاء مثل أمك .

فقلت :

ـ هكذا إذن !

فردّت بتحد :

ـ هكذا إذن !

كانت متنمرة فى الدفاع عن نفسها ، فرأيت أن لا جدوى من إطالة الجدل معها فيما لايجدى نفعًا ، لقد ضاعت الصفقة وكفى ، فأعقبت ذلك الجدل الذى لا طائل من ورائه بسؤال لعلى أطامن من هياجها وأصرف انتباهها .

ـ هل تظن جدتك أننى المتسببة فى خسرانها لهذه الصفقة ؟

هتفت فى سخرية :

ـ حسنًا ، لا يهمك إلا رأى جدتى ، إذن فاسمعى ، إن جدتى اعتبرتنا نحن الاثنتين غبيتين ، لا نفقه شيئًا فى الأمور التجارية ، وقالت : إنه فى مثل هذه الأحوال تعطى عينة تحلل وتؤخذ مواصفاتها ، ومن ثم يكتب العقد بناء على تلك المواصفات ، فإن جاءت الكمية فيما بعد مخالفة لها سقطت الاتفاقية . أرأيت كم نحن غبيتان كما قالت جدتى ، وأنا أقول ، إنك بالغة الغباء والسذاجة ، لأنك فى كل مرة تدعين أنك الأكثر خبرة أمام جدتى ، بينما أنت من بادر بطلب تلك الشهادة إنى أرثى لك ، الحمد لله على أنى لست بمثل تلك الرعونة فى التفكير .

أحسست بالعجز والكلال من هذا السجال الذى لا طائل من ورائه ، فنظرت إليها طويلاً ، ولم أرد .

Looloo
www.looloolibrary.com

فضحكت باستخفاف ، وهى تقول :

ـ اسمعى ، إياك أن تخبرى جدتى عن واقعة محاولة اغتيالى ، إنى آمرك بهذا .

فاستثرت مرة أخرى وقاطعتها بغضب :

ـ حسبك فليس لديك الحق بأن تأمرينى بأى شىء ، إننى أعمل لدى السيدة (سارة) وليس لديك .

فلانت لهجتها وقالت فى مسايرة :

ـ بصفتك النائبة لى فى الإدارة ، ثم لا داعى للخوف فلن يوجه إليك لوم ، لأنك كنت مسافرة أيضًا فى تلك الأثناء ، وكأنك لا تعلمين بتلك الواقعة ، هل كنت ستعلمين بها ، لو لم أخبرك ؟ هه ؟ أرجوك . لو أخبرتها لن تدعنى أدخل المكتب مرة أخرى ، كان بودى أن أعلمها بأن السيد (سالم) أنقذ حياتى ، إن هذا سيزيد فى مكانته لديها ، وسوف يلين موقفها تجاه أعمال المقاولات ، إن ذلك سوف يساعدنى كثيرًا ، ولكن أخشى ردة فعلها ، أنت تعلمين كم هى مغرمة بى ، ربما أخبرها فيما بعد ، ربما ، أما الآن فإياك أن تفعلى ، دعى الأمر إلى تقديرى أرجوك ، إنى أعرف أكثر منك بهذا الموضوع ، أليس كذلك ؟

فقلت بالية وانقباض لشعورى بالاستياء والبرم :

ـ هو ذاك .

* * *

ـ ٢٤ ـ

مضت أربعة شهور ونيف على عودتى من تلك المهمة الفاشلة ، بعد ضياع تلك الصفقة المهمة ، وما يتوقع منها من أرباح ، وقد عادت بعدى ببضعة أيام قلائل السيدة (سارة) ، تجر أذيال خيبة أمل أشد وقعا من تلك التى تعرضت لها ، فمما يبدو أن عتاة الأموال أولئك ، أو مافيا التجارة كما أسمتهم الجدة ، قد سبقوها إلى السيطرة على منابع تلك المادة الثمينة ، بعد سرقتهم المعلومات منا على الرغم من أن ذهابهم كان بعدها ، ولكن يبدو أنهم أكثر دراية وخبرة ، أو لعلهم قدموا من المغريات ما لم يكن فى قدرتها تقديمه .

المهم ، فى خلفيات هذا الموضوع ، أنها لم توجه لى لومًا أبدًا ، بسبب من تلك الأخطاء التى ارتكبتها ، وأدت إلى فشلنا فى بيع تلك الصفة . لعلها ظنت أن ذلك بسبب من تعثرها فى الحصول على ذلك التوكيل ، أو لعذرها إيانا لعدم خبرتنا ، أو ربما خمنت أن السبب الرئيسى كان بسبب تهور حفيدتها واندفاعها ، فأزيح عن كاهلى هم مواجهتها بذلك الفشل الذريع .

أما أنا ، فمن جانبى فقد أدت خيبتى فى الأعمال التجارية إلى أن أتنحى قليلاً ، تاركة الجدة تحاول لم شعث خيبتنا ، أنا وحفيدتها ، وتفرغت هذه الأيام ، وكأن لا هم لى إلاَّ مراقبة أختى .

Looloo
www.looloolibrary.com

لعله الفراغ ، أو الشعور بالخواء الذى كان يحيط بى ، أو هو الإحساس بالسخط عليها لما سببته لى من إحراج أمام السيدة (سارة) ، فكنت أترصد خطواتها وأراقب بتشف فشلها فى إقناع جدتها فى قبول السيد (سالم) فى إدارة أعمال المقاولات لصالح المؤسسة ، وأنا أراها ملحاحة عجولاً ، تسوق لجدتها الرجاء تلو الرجاء ، الليل موصولاً بالنهار ، وبحماس لا ينقطع باذلة أقصى ما فى جهدها ، لجعل السيدة (سارة) ، توافق على إعطاء السيد (سالم) ذلك التوكيل الذى يخوله سلطة ممارسة أعمال البناء لصالح المؤسسة .

لقد استعملت أختى كل مالديها من طاقة ضاغطة ودالة على جدتها فى سبيل ذلك .

بيد أنها لم تفلح فإن السيدة (سارة) الكبيرة كانت تملك من الحصافة ، وبعد النظر ما جعلها ترفض رفضا قاطعًا كل توسل قامت به حفيدتها من أجل ذلك الأمر ، ولأول مرة ، ومنذ لقائنا بالسيدة الجدة أراها ترفض طلبًا لحفيدتها العزيزة .

وقد قالت لى فى تبرير ذلك الرفض ، وكان ذلك فى معزل عن أختى :

ـ إنى لا أطمئن لهذا الرجل ، فمن الغريب أنه على الرغم من كهولته وشكله القبيح إلاّ أنه يشغل كل تفكيرها ، يبدو لى أنه ذئب دنىء ، فكلما رأيته يذكرنى بـ (راسبوتين) الروسى ، لست

أدرى لماذا ؟ ربما لأن له عينين نفاذتين ، فى مقدوره من خلال تركيز نظراته أن يخضع كل من ينظر إليه إلى سلطانه ، إنه خطر عليها لقلة خبرتها ، وصغر سنها .

وكانت تستتبع :

ـ ما كدنا ننتهى من ذلك الشاب الوسيم ، الذى كاد يودى بحياتها ، حتى جاء هذا المنقذ الخطر ، يالها من فتاة سريعة التأثر ، سريعة الانقياد لمن ينمق لها الكلام .

فهمت من جملتها الأخيرة ، أن أختى أبلغت جدتها بمحاولة اغتيالها ، وأن السيد (سالم) من أنقذها ، لابد أنها فعلت ذلك لكى تؤثر عليها . ولكن يبدو أن لامجيب لمن تنادى .

فالسيدة (سارة) فهمت الرجل من النظرة الأولى التى لاتخيبها ، كما كان من عادتها أن تردد .

كان هذه الأحاديث تدور بيننا ، ونحن عادة متقابلتان ، حول مائدة الغداء ، بعد أن تغادرها أختى .

فكنت أؤمن على بعض ما يجىء على لسان الجدة ، وأحيانًا أعترض ، كى لا أبدو باخسة لقدر أختى . فقلت :

ـ كلا ، لا أظن أن مرد ذلك إلى أنها سريعة التأثر ، وحتى لو سلمنا بهذا ، فإن السبب الأكبر يكمن فى نوعية هذا الرجل ، فهو ليس بالرجل العادى ، على الرغم من البساطة التى هو عليها وعلى الرغم من قلة ثقافته ، بل وحتى محدودية ذكائه ،

Looloo
www.looloolibrary.com

إنه مع ذلك يتمتع بخاصية فريدة ، أظنها تندر بين الرجال ، لقد لاحظت ذلك بنفسى ، إن له سحرًا خاصًا به ، على قدر كبير من المغناطيسية الرجولية ، إن صح التعبير ، يؤثر به على النساء ، فكثيرًا ما أرى أنى غير قادرة على مقاومة نظراته تلك ، ولا أكون مبالغة ، إذا قلت أنى فى الكثير من الأحيان أخشى الركوع أمامه ، على الرغم من قوة مراسى التى يقال لى عنها دائمًا ، وعلى الرغم من اكتشافى أنه ليس بالرجل الذى يؤتمن ، فهو لا يعدو كونه ذئبًا وكذابًا كبيرًا .

ضحكت السيدة الكبيرة وعلقت :

ـ هل أنت الأخرى وقعت فى غرامه ؟ ثم كيف عرفت أنه كاذب ؟

وكنت أجاريها بالضحك ، لقد كنت أشعر بالصداقة نحوها ، وبنوع من التقارب الذهنى بيننا على الرغم من الفارق الكبير فى السن .

فأجبت بصراحة تامة :

ـ أجل ، إن تأثيره يسرى على أيضًا ، كما تسرى النار فى الهشيم ، إنه رجل ساحر بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وعلى الرغم من كل القبح الذى يتحلى به ، ولكن الغريب فى الأمر أنه بمجرد ابتعادى عنه ينحسر ذلك التأثير ، وكأنى تحررت مما يشبه الخيمة الشفافة التى تلفنى وتجذبنى إليه

بشدة كما ذكرت لك ، يبدو أن له تأثيرًا قويًا على النساء ، على الرغم من شكله المنكر ، لعل هذا ما يسمى بسحر الرجل ، أليس له عليك أى تأثير ؟

ما كادت السيدة (سارة) تسمع عبارتى الأخيرة ، حتى كادت تسقط من على كرسيها ، وهى تستلقى من شدة الضحك فى قهقهة عالية ، لم ألحظ من قبل أنها تملك هذا القدر من المرح .

وقالت من خلال شهقاتها :

ـ إذن كيف اكتشفت تلك النظرات النفاذة ، إن لم يكن له على ذلك التأثير ؟ بيد أنى لست بسن يؤهلنى للوقوع فى الغرام .

وكفت عن القهقهة فجأة ، وإن مازال يريم على وجهها آثار من الابتسام ، وتساءلت بجد واهتمام :

ـ ولكن كيف عرفت أنه نذب كذوب ، إن ذلك يجعل الأمر أكثر خطورة من ذى قبل ، إنه متحفظ أمامى ، لا يفصح عن نفسه ، ولذلك لا أكاد أتبين شخصيته إلاَّ بصعوبة .

فقلت :

ـ كما تعلمين ، إنه لا يخفى إعجابه بأختى ، ناشرًا شباكه حولها كالأخطبوط ، موهمًا إياها بأنه غارق حتى أذنيه غرامًا بها ، ومع ذلك لا يألو جهدا فى إيهامى أنا الأخرى بأنه يهيم بى ولا يفكر بسواى ، قائلاً فى همس بعيدًا عن مرمى السمع من

Looloo
www.looloolibrary.com

أختى : إنها هى من تسعى وراءه جاهدة ، وأنها هى التى تحاول بكل قواها السيطرة على تفكيره ، بينما هو فى الحقيقة ، كما يدعى لايهيم بأحد سواى ، حتمًا ولابد أنه أخبر أختى عنى بمثل ما أخبرنى عنها ، أجل إن محاولاته إيهام كل منا بغرامه بها فقط ، وادعائه بأن الأخرى هى من تسعى وراءه ، تدلل على أنه رجل لا يؤتمن جانبه .

هذا من ناحية استغلال ماله من تأثير جاذبيته على النساء ، ولكن ثمة ما يحمل على الاعتقاد بما هو أخطر فى شخصية هذا الرجل الكذوب ، ألا وهو ادعاؤه الخبرة والنجاح بأعمال التشييد والبناء ، التى أتم إنجازها فى مختلف ميادين المقاولات ، بحيث ليس ثمة بناء فخم فى المدينة إلاَّ وله اليد الطولى فى إعماره ، وهو مع ذلك ، كما نراه مفلسًا مهترئ الثياب لا يملك شروى نقير ، فمنذ أن عرفته ، وهو يرتدى حلته الرمادية ، التى تكاد تذوب من توالى الغسيل والكى ، وفوق كل هذا لايكف عن طلب القليل من النقود منى ، أو من أختى ثمنًا لعلبة (سيجار) ، أو ثمنًا لوقود عربته .

وأردفت بعد وقفة قصيرة :

ـ غير أنه من شديد الغرابة كيف أن (سارة) الصغيرة لاتفطن إلى ذلك التناقض بين أقواله وأفعاله .

أصغت لى السيدة (سارة) بتمعن وتفكير ، ثم قالت :

ـ أواه ، إذن هو كذلك ، لقد أجاد تغطية نفسه أمامى ، ومع ذلك فقد كان حدسى يحذرنى منه ، تقولين إنه يدعى الهيام بك ، لِمَ لمْ تخبريها بهذا الأمر ، لعلها تكتشف زيف مبتغاه ، فتبتعد عنه ؟

فقلت باستنكار :

ـ تريدين لها أن تكرهنى ، فوق ما تحس به من جفاء تجاهى ، وقد نما لديها وتبلور أكثر من أى وقت مضى ، من شدة خوفها على هذا الرجل خوفًا مفرطًا ، وشعورها بالغيرة عليه بما لا طاقة لها به ، إنها لن تتورع عن مقاطعتى لو فعلت ما أشرت به ، وهو يعرف عنها ذلك ، ولذا يتجنب إثارتها ، أجل ، حتما سوف تطردنى من حياتها شر طردة ، لو عرفت بما يحصل منه ، وسوف تحمل لى ضغينة لا تنفك منها أبدًا ، بل وستحقد علىّ لا عليه ، على الرغم من معرفتها بأنى غير ملامة ، وأنه من يسعى ورائى لا أنا ، وعندئذ سوف ينفرد بها ، ويسيرها كيفما يريد وحسبما يشاء ، وهذا ما يجبرنى على البقاء معها أطول فترة ممكنة ، مادام هو فى المكتب معها ، مالم تبعث بى إلى مهمة ما كى تتخلص منى .

وأحسست بوخزة من تأنيب الضمير ، إذ لم أقل للسيدة (سارة) الحقيقة كاملة ، لم أقل لها إن بقائى الدائم فى المكتب معهما وحولهما أترصد حركتهما إنما كان بسبب من غيرتى أنا الأخرى عليه ، تلك الغيرة المكبوتة التى ينتفض لها جسدى

Looloo
www.looloolibrary.com

من شدة عنفوانها ، كلما رأيته جالسًا بقربها يتبادل معها الهمس ، والتى محرم على التنفيس عنها ، بسبب أنها أول من رآه وأول من ارتبط به .

أى أنه بات من حقها وليس من حقى .

على الرغم من معرفتى بأن ما أقوم به من عمل لا يمت بصلة إلى علم الأخلاق ، ولكنه الحب الذى لا يعترف بالمبادئ ويتغاضى عن المثل فى غالبية الأحوال ، وخاصة الحال التى أنا عليها .

فقالت السيدة معقبة على حديثى المعلن ، أما لو كانت تعلم بما كان يدور فى داخلى ، لكان لها رأى آخر قطعًا . قالت :

ـ معك حق فى كل ما ذكرته ، للّه درك من فتاة رشيدة ، لولاك لضاعت هذه الفتاة من بدء حياتها ، لقد حميتها من قسوة والدتك ليغفر لها اللّه ، لقد كانت تغار منى من أجل لاشىء ، صدقينى يا بنيتى ، لم يكن بينى وبين أبيك أى شىء غير علاقة العمل ، ولكن والدتك لم تصدق ذلك قط ، وقد أظهرت انتقامها منى بمعاملتها لهذه الفتاة البريئة .

فقلت مسرعة ، كى لا تسترسل فى الحديث عن والدتى :

ـ أعلم ، أعلم ، لقد قرأت (المذكرات) التى كتبها زوجك رحمه اللّه .

وتجنبت ذكر الخادم :

ولكن السيدة (سارة) ، وكأنها تؤكد بأنها لا ترى عارًا فى زواجها من خادمها ، فقد قالت :

ـ أجل (مذكرات خادم) ، إنها أثر أدبى رفيع ، ذلك الذى تركه لنا رحمه اللّه .

وسكتت ، وقد علت سيماءها علامات التفكير ثم عادت إلى موضوع حفيدتها .

ـ ولكن ما العمل ؟ كيف يكون فى مقدورنا خلاصها من براثن هذا (الراسبوتين) الجديد ؟

وعرفت أنها تعنى السيد (سالم) ، فقلت معقبة :

ـ لا أظن أن فى مقدورنا ذلك ، لقد قمت بلفت نظرها إلى ما فى أقواله وواقع حاله من تناقض ، وكيف يكون على تلك المقدرة والبراعة فى إدارة مقاولات البناء كما يدعى ، وهو مع ذلك لا يملك شروى نقير ، لماذا هو مفلس إلى درجة عدم قدرته على تدبر مصروفه اليومى ، أتدرين بماذا ردت على ؟

فتساءلت السيدة (سارة) :

ـ بماذا ؟

ـ لقد ردت ، إن عدم ثرائه لايدلل على عدم قدرته على إدارة أعمال المقاولات ، فقد يكون لإفلاسه سبب آخر ، كأن يكون مفلسًا لتهاونه فى تحصيل ماله من نقود لدى الغير ، أو

Looloo
www.looloolibrary.com

لأنه سخى سخاء شديدًا ، ويبذل كل ما لديه لمساعدة الآخرين ، إنه رجل طيب كما ترين .

والأدعى إلى الدهشة قولها : تأكدى أنه عندما نمد له يد المساعدة سوف نساعد أنفسنا باستعمال خبرته ، وقالت أيضًا : ليس كل من يمتلك نقودًا يمتلك المعرفة معها ، انظرى إنى ثرية ، ولكنى لا أفقه شيئًا من الأعمال التجارية برمتها .

ولكنى لم أذكر للسيدة أن حفيدتها الغالية تساءلت قائلة :

ـ ألم أدع كل ثروتى بين يديك ؟ . نحن ، أنا وهو ، لانتصف بالجشع مثل غيرنا من الناس ، وأنت مع كونك أقل ثراء منى ، بل معدمة ، لولا ما قدمته جدتى لك ، ومع ذلك فأنت أكثر خبرة منى .

سكت عن هذه التتمة لئلا تظن السيدة (سارة) أنى أحقد على حفيدتها من أجل ذلك .

فقالت السيدة (سارة) :

ـ يا له من تفكير ساذج هذا الذى يدور فى ذهن هذه الطفلة .

ثم أردفت :

ـ حقًا ليس كل من لديه المال يمتلك الخبرة ، إذ قد يأتيه المال بالإرث دون عناء منه ، ولكن لابد لمن أراد جلب المال أن تكون له الخبرة فبدونها لن يأتى بشروى نقير ، ليتها تعرف أن جلب الأموال من أعمال المقاولات ، هو البرهان الأكيد على

قدرة المرء ومهارته فى ذلك المجال ، ولكن من أين لها مثل هذه الخبرة بتلك الأمور ، وهى لم تتجاوز بعد مرحلة المتفرج عليها ، إنى أرى أن الأمر قد وصل بينهما إلى مدى جد خطير ، ويبدو لى أنها مخدرة بهذا الرجل الثعلب .

فقلت بهدف أن أؤلب مخاوف السيدة على حفيدتها :

ـ حاولت مرة أن أنبهها إلى أنه وهو بمثل هذه السن لابد أن تكون له حياته الخاصة قبل أن يلتقى بها ، التى ربما تحول دون توطيد علاقتها به .

وفى مرة أخرى تعمدت فى محضرها أن أوجه إليه سؤالاً مباشرًا عن زوجته وأولاده ، فما كان منه إلا أن رد بخبث ، يسألنى عن المغزى من السؤال ، متضاحكًا ، إن كنت أرغب بالزواج منه ، وعند ذاك ثارت ثائرة أختى بغضبة عارمة ، مدعية أنه مما لايليق بى أن أتدخل فى الحياة الخاصة للعاملين بالمؤسسة ، ولم تسكت عن تبكيتى حتى سارع هو إلى نجدتى ، بقوله إن الأمر ليس حساسًا إلى هذا الحد ، خاصة وأنه بات فردًا منا ، وقال إن إجابته على تساؤلى ، أنه مطلق ، وأن له أربعة من الأولاد يعيشون مع أمهم ، ثم عقب هل هناك المزيد مما يود أن يعرف عنه ، وبعد ذلك ضحك ضحكة مازحة .

وحين ذاك فقط هدأت ثائرة أختى ، ومع هذا لم تر فى حياته ما يعيق علاقتها به .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقالت السيدة (سارة) ، وكأنها تخطط لأمر ما :

ـ إذن يا بنيتى يتعين علينا نحن الاثنتين أن نفكر بالأمر مليًا ، واعلمى أن أخشى ما أخشاه أن تقع هذه الطفلة البريئة فى براثن هذا الدعى العجوز ، لو كان الرجل مواطنًا من هنا لهان الأمر ، لقلنا إنها سوف تحصل على انتمائها لبلدها عن طريق الزواج منه ، ولكان ثمة مقايضة متبادلة ، شبابها وجمالها مقابل الحصول على انتمائها ، لكن معه ؟ ليس ثمة ما يرجى منه لا شباب ولا مال ولا انتماء ، إذن تضحى بشبابها من أجل ماذا ؟ لا شىء يستدعى التضحية .

فقلت ضاحكة :

ـ إنه الحب الذى لا يعرف المقاييس ، على حد تعبير مؤلف (مذكرات خادم) .

ولكن يبدو أن الجدة لم تسمعنى ، فقد نهضت على إثر قولها ذاك مغادرة المائدة ، وعلى محياها سيماء تفكير عميق ، جعلنى أبقى بعدها حول المائدة بمفردى للحظات ، أضرب أخماسًا بأسداس ، فيما عسى تلك السيدة تزمع فعله ، لتخلص حفيدتها من براثن الرجل الثعلبى كما تصفه ، أو من براثن الرجل الساحر كما أراه .

وقد شعرت بالغبطة تتراقص فى دخيلتى ، لقد أفلحت فى إثارة مخاوف الجدة على حفيدتها ، من ذلك الرجل الذى تدعوه

(راسبوتين) الجديد ، ومع ذلك شاب ذلك السرور بعض من تبكيت الضمير ، ولكنى تذكرت مقولة أحد الخبثاء (كل شىء جائز فى الحب والحرب) .

وعلى الرغم من أنى كنت أراها حكمة شريرة ، إلا أنى فى ذلك الوقت ، رأيت أن مطلقها ربما يكون على شىء من الحق .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٢٥ ـ

كرت الأيام كرها المعتاد وأختى على العهد بها سادرة فى غرامها المشبوه بالسيد (سالم) ، وهى مازالت تمارس ضغطًا على جدتها من أجل ذلك التوكيل ، وقد بدا لى أنه بدوره يمارس ضغطه على أختى لخلو وفاضه من أى عمل آخر يشغله .

ولكن كل المحاولات التى كانت تبذل ، لم تفلح إطلاقًا فى التأثير على الجدة الحصيفة ، ناهيك عن أن تفعل بعد ذلك الحديث الذى دار بيننا ، منذ أكثر من عشرين يومًا ، والذى لفت انتباهها إلى توخى الحذر من ذلك الراسبوتين الجديد كما كانت تدعوه .

بيد أن كل ما مضى لم يشكل إلا همًّا جزئيًّا لأختى . فقد كان لديها ما هو أهم من ذلك ، الذى كان يحدث لها على صعيد العمل ، ذلك الهم الذى بات هاجسها ، وهو هم إبعادى عن مرمى البصر من السيد (سالم) .

لقد كانت تثور ثائرتها ، وتتناثر نفسها شعاعًا ما إن تلمح منه ولو ملمحًا غير ذى شأن فى تعاطفه معى .

ولذا فقد رأت فى اقتراحه ما يتم به الاستغناء عنى تمامًا ، ولم يكن أحب إليها من ذلك ، ولكن على الرغم من خضم غيرتها عليه ، وعلى الرغم من محاولاتها العديدة لإبعادى عن

المكتب ومن فيه ، إلا أنه لم يكن فى ميسورها زحزحتى عن مكانى قيد أنملة ، فأنا باقية بطلب تحدوه رغبة شديدة من السيدة (سارة) الكبيرة بعد تلك الجلسة التى كانت لى معها .

لقد كنت مكلفة منها بصورة خاصة وبسرية تامة ، بأن لا أدعهما منفردين مع بعضهما لمدة طويلة ، بالإضافة لكونى مكلفة بدراسة كل ما يرد إلى المكتب من أعمال وإبلاغها به ، الأمر الذى كان سببًا آخر يشعل رغبة أختى فى التخلص منى ، لقد كانت تود أن تستبد بالأعمال بمفردها متخذة من السيد (سالم) معلمًا ومرشدًا لها .

فما كان من السيد (سالم) وقد عرف هذا المنحى من تفكيرها ، إلاَّ وقد أخذ بخبث شديد يضرب على الوتر الحساس فى نفسها ، مستغلا غيرتها لمصلحته ، فأخذ لا يألو جهدًا فى سبيل إشعال غيرتها ولفت نظرها بأن يعمد إلى إظهار المزيد من تعاطفه معى عندما يعلم بتواجدها قريبة ، أو وهى فى سبيلها إلى دخول المكتب ، وكأنه يفعل ذلك خلسة .

وعندئذ ينقلب الهدوء الذى كان بيننا إلى ما تذروه الرياح ، فتهب العاصفة التى لا تبقى ولا تذر .

وكان هو فى هذه الفترة مرابطًا معنا فى المكتب لا يريم عنه قيد أنملة من أول يوم تعرفها ، وكأنه أضحى مقرًّا رسميًّا له .

كنت وايم الحق لا آلو جهدًا فى تجنب الاحتكاك به بحضورها أو بدونه ، مادام كان فى ميسورى فعل ذلك ، لا لأنى أروم

Looloo
www.looloolibrary.com

إرضاءها فحسب ، وإنما لأنى لا أرى نفسى إلا مسلوبة الإرادة أمامه ، لا أملك من أمر نفسى شيئًا ، متأثرة به أعنف التأثر ، والإحساس بالضعف ينتابنى فى محضره ، وكان ذلك الإحساس يتزايد فى أعماقى تجاهه يومًا إثر يوم ، وكان أشد ما يخيفنى خشيتى من الركوع أمامه ، الذى حتمًا سيؤدى إلى زيادة شدة التوتر بينى وبين أختى .

وفى الحقيقة لم أكن لأبالى بها ، ناهيك أن الجدة من أوصانى بمحاصرة حفيدتها ، ومنع ذلك السالم من التأثير عليها ما أوسعنى ذلك ، وأيضًا لن أبالى بمشاعرها ، بعد كل تلك الجروح التى خدشت بها قلبى ، لو كان الأمر منوطًا بها وحدها ، ولكن لخوفى أن يفضى ذلك إلى تأثر السيدة (سارة) برأى حفيدتها فى المستقبل من الأيام حتى وإن كانت من طلب منى ذلك .

هذا ما كان يخيفنى ، وهنا الطامة الكبرى ، فهى مهما كانت قريبة منى ، إلا أن حفيدتها الأكثر قربًا إلى قلبها ، وعندئذ أفقد كل شىء بصورة حقيقة ، وحتمًا سيطال الأمر أختى ، الذى لم تغفر له أختى تصرفه القديم معها ، فطردته من العمل لديها بعد قليل من الوقت من قدومه إلى هنا ، فقامت السيدة (سارة) بتعيينه فى وظيفة أخرى فى إحدى مؤسساتها الأخرى ، تلك التى وهبتها إلى ابنها ، ولكن هذا الأخير قام بطرده أيضًا ، لقد كان أشد حقدا علىّ وعلى أخى من أختى نفسها .

وعند ذاك لم تجد السيدة (سارة) ، إلا أن تسعى بوساطتها إلى إلحاقه بالعمل لدى إحدى الشركات ، التى كانت تتعامل معها .

غير أن ما كان يقلقنى ، ماذا سيكون عليه الأمر ، بعد أن أفقد حظوتى لدى السيدة (سارة) ، فقد نعود أنا وأخى إلى بلدنا خالين الوفاض ، بادئين من الصفر من جديد ، فمن يدرى فقد تقوم بمطالبتى بما وهبته لى من أموال .

غير أن كل ما أوجست به مخاوفى ذهب أدراج الرياح ، وذلك عندما أخذت السيدة (سارة) فى ملاحظة ذلك التباعد منى ، فأخذت تحثنى على التواجد بالقرب من حفيدتها ، بعد أن ثارت مخاوفها لكثرة ما انتابها من قلق وهى ترى عمق الانسجام الذى بات ينذر بالخطر بين أختى ، وذلك (الراسبوتين) الجديد .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٢٦ ـ

ثم حدث بعد ذلك ، أمد جديد فى تطور تلك الأحداث ، لم يكن ليخطر لى على بال إطلاقًا .

لقد اتخذت السيدة (سارة) إجراء أكثر جراءة مما تتطلبه علاقتى بها ، كان ذلك فى مساء أحد الأيام ، عندما طلبت منى فى منتهى الرقة وبحرص شديد على الكياسة ، ما أسمته تقديم تضحية أخرى ، فوق ما قدمته من خدمات جليلة تجاه أختى ، التى قالت عنها : إنها طفلة مسكينة لا حول لها ولا قوة ، خصوصًا فى هذا الوقت التى هى فيه مكسورة الجناح ، بسبب من عدم قدرتها على الحصول على انتمائها لبلدها الأصلى ، ولا هى مستطيعة حتى العودة إلى موطنها الذى رباها ، ثم قالت : إن ما ستطلبه منى لايستبعد تقديمه على من كان له قلب حنون مثل قلبى ، وعلى من تملك مشاعر مثل تلك المشاعر النبيلة التى أمتلكها ، والتى هى فوق ما يمتلكه الإنسان العادى .

كانت هذه المقدمة الرقيقة ، هى ما قالته السيدة (سارة) همسًا ذات مساء شتوى قارص البرد ، ونحن نتكئ على حشيتين وثيرتين فى قاعة الجلوس الرحبة ننصت أحيانًا إلى عاصفة ممطرة شديدة الهبوب تضرب زجاج النوافذ الواسعة ، وعاصفة رعدية قاصفة ما إن توشك على الانتهاء حتى تبدأ أخرى أشد

منها كما هى حالة الشتاء فى هذه البلاد ، وأحيانًا أخرى نتجاهل ما يزعجنا من تلك الجلبة فنتابع برنامجًا ثقافيًا يبثه التلفاز .

وكان ذلك بعد مغادرة حفيدتها القاعة إلى مخدعها بعد شعورها بالملل مما نتابع .

وبعد أن تلفتت الجدة يمنة ويسرة ، لكى تتأكد من خلو المكان ، أردفت موالية الهمس :

ـ لدى ما أود قوله لك ، تعالى إلى غرفة نومى ، بعد أن تهجع (سارة) الصغيرة فى مخدعها ، أرجوك .

ولم يكن من داع إلى أن ترجونى ، فإنه لمما يسر خاطرى مجالسة السيدة (سارة) الكبيرة ، وتبادل الحديث معها ، لما لها من ألمعية الفكر والمنطق السليم ، خلافًا لما لحفيدتها النزقة الحقود ، هذا أولاً ، ثانيًا إنها صاحبة الفضل علينا أنا وأخى وحتى أختى ، فلولا طيبتها لم نكن لنرفل بهذا العز ، كما نحن عليه الآن .

المهم ، لقد تسللت إلى غرفة نوم السيدة (سارة) ، بعد أن خلدت أختى إلى مخدعها ، وقدرت أن النوم استغرقها .

فبادرتنى السيدة الجدة بقولها .

ـ تعالى هنا ، اجلسى إلى جانبى .

وأشارت إلى حافة الفراش الذى كانت ترقد عليه نصف مستلقية ، متكئة على عدد من الحشايا الناعمة ، ثم قالت :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ أصغى جيدًا يا فتاتى الجميلة ، أنا أعلم أنك قدمت العديد من التضحيات إلى حفيدتى بوازع من طيب معدنك ، وأظن أنك مازلت على استعداد لتقديم المزيد منها أيضًا ، بوازع من عطفك ومحبتك الأخوية لها ، وما أظنك إلا فاعلة ، حتى وإن شاب ذلك بعض من التضحية ، ولأن من كان يمتلك قلبًا كبيرًا مثل قلبك ، ويمتلك هذا الضرب من نبل المشاعر بالقدر الذى تحمليه ، لن يتردد إطلاقًا فى خدمة من يحبهم ، حتى وأن ضحى بنفسه من أجلهم ، أجل ، ليس لدى أدنى شك بأنك لن تترددى بتقديم كل ما من شأنه مساعدة من تحبينهم كل الحب ، ولكن مع هذا ، فاعلمى أنى لن أقدم على طلب ما يستحيل عليك فعله ، أو قد لا يجد هوى فى نفسك ، لا أريد أن أكون أقل نبلاً منك ، فإذا رأيت أن ما أطلبه يثقل عليك ، فلا تترددى برفضه .

فقلت متعجلة :

ـ بكل تأكيد ، إنها قبل كل شىء أختى ، وأية تضحية ، أو خدمة تطلبينها منى ، وتكون فيها منفعة لها فلن أتردد بتقديمها لها ، أى أنى على استعداد تام لما ينتظر منى ، فاطلبى ما تشائين .

قلت لها ذلك ، وكان ما تبادر إلى ذهنى للوهلة الأولى أن السيدة (سارة) الجدة تروم استرداد ما أودعته باسمى من أموال لحفيدتها ، وليس مما ورد على فكرى أو يخطر لى على بال ، السبب الحقيقى من وراء هذه المقدمة الرقيقة .

استأنفت السيدة :

ـ لا أشك ولو للحظة فيما قلته ، ولكن تخوفى نابع من كون ما أنا بصدد ما سوف أطلبه منك ، خشية أنه قد يثقل عليك ، أو أنه سيؤثر على حياتك فيما بعد .

وأيضا تعجلت بإجابتى ، دون أن أستوعب المعنى المراد من حديثها على تلك الشاكلة ، فقلت مستلهمة أفكارى :

ـ لا مانع لدى من إعادة كافة الأموال التى فى حوزتى إليك ، وفى الوقت الذى ترينه مناسبًا ، حتى لو كان ذلك غدًا ، وحتى لو كان ذلك مما يخصنى من الأموال التى وهبتنى إياها ، وليس تلك التى تخص أختى فحسب .

ضحكت السيدة (سارة) واعتدلت فى جلستها لتربت على كتفى ، وهى تقول بحنان :

ـ يا لطيب معدنك ، إنك على شبه كبير بطبائع والدك ، ولكنى لا أريد استعادة المال ، سواء ما هو لك ، وهذا لا يجوز إطلاقًا ، فالهبة لا تستعاد ، أو ما هو لأختك ، فأنا على ثقة بقدرتك على المحافظة عليه من أجلها ، ولو كانت لدى ذرة من الشك فى أمانتك لما وضعتها فى حيازتك من بداية الأمر ، ثم لا تنسى أن هناك من الاتفاقيات ما يحفظ لأختك حقوقها ، فأنا لا أخشى شيئًا فى هذا الصدد .

فقلت متسائلة :

ـ إذن ماذا ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فتنهَّدت العجوز ، وقالت :

- ربما ما أريد منك يكون تضحية كبيرة ، قد لا يكون فى مقدورك القيام بها ، وعلى أية حال كما أخبرتك إن لم ترغبى فيما سأطلبه فلا تترددى بالرفض ، وسوف أكون متفهمة ومقدرة لدوافعك ، ولن أغضب .

فقلت بإلحاح :

- ولكن ما هى مطالبك يا سيدتى ؟ اذكريها ، وأنا على استعداد للمساعدة ، المهم أن تكون فى مكنتى فعلها حقًا ، وأنا واثقة من أنك لن تطلبى ما لا يستطاع فعله .

فقالت بتأنٍّ وبطء :

- أريد منك أن تتزوجى .

وسكتت دفعت واحدة ، وثبتت نظراتها على ، ولبثت منتظرة الرد .

بوغت ، فى الحقيقة لم أتوقع مثل هذا الطلب مطلقًا ، ناهيك أن يصدر من السيدة (سارة) ، ولم أعرف المغزى منه ، وما شأنها بحياتى الخاصة .

فقلت بدهشة لم أستطع إخفاءها :

- أتزوج ؟ أهذا ما ترينه تضحية منى ، طبعًا سوف أتزوج حتمًا ، عندما يحين الأوان لذلك ، أى عندما أجد الرجل الذى أرتضيه .

وضحكت فى مداعبة ، بيد أن السيدة قالت بتهيب :

- أجل بالطبع ، فهذا مؤكد ، ولكن ما أطلبه هو أن تتزوجى رجلاً بعينه ، وهنا مكمن التضحية التى أتجرأ فأطلبها منك ، ولك الحق فى الرفض كما قلت لك قبل قليل .

فحدقت إليها مبهوتة ، وقد شاب ظنى بعض من الريبة من فهم غامض ، فقلت متقطعة الأنفاس :

- رجلاً بعينه ؟ ومن هو هذا الرجل المحدد ؟

ردت :

- كما ذكرت لك ، هنا مكمن التضحية ، أجل إن ما أطلبه أعتبره تضحية كبيرة منك فى واقع الحال ، ولكن أملى بك كبير ، وآمل أيضا ألا يساء فهمى ، ومع ذلك لا أظن بأنك ستكونين فى حال من التعاسة معه ، خاصة من الناحية العاطفية على الأقل ، لأنه رجل ساحر باعترافك ، وأن له تأثيرًا عليك لا يقاوم ، أما من الناحية المادية فأنت ليست بحاجة إلى زوج غنى ، فأنت غنية بما لك من مال خاص بك .

وقبل أن تتم صرخت بانفعال وقد نسيت نفسى :

- أتعنين السيد (سالم) ؟

- ليس غيره ، أريد منك أن تتزوجيه لإنقاذ هذه الطفلة الطائشة من براثنه ، لم أكن لأضحى بك لو لم تكونى الأقدر

Looloo
www.looloolibrary.com

على مواجهته ، تزوجيه ولو مؤقتًا ، لتكن العصمة بيدك ، إن لم ترغبى الارتباط به طويلاً .

وبعد برهة وجيزة من الصمت وقد لفنى ذهول غريب محلق .

تابعت السيدة (سارة) ، قبل أن تسمع ردى وكأنها على يقين من موافقتى على ما تقترح :

- اعملى ما يعينه على التقرب منك بصورة أكثر إيجابية ، استعملى دهاء المرأة لكى تدفعيه لطلب الزواج منك . وكلى رجاء ألا أكون قد أثقلت عليك بهذا الطلب .

فقلت بعزم وتصميم ، وقلبى يتراقص فى خفقانه :

- سوف أتزوج منه ، لا داعى لأى رجاء منك ، وأيضًا لا داعى لأية مناورات معه ، ولا لاستعمال لأى دهاء للمرأة أو لغيرها ، سوف أضعه على المحك إن كان مغرمًا بى حقًا كما يدعى ، عندئذ سوف يتزوجنى ، أجل سوف أتزوج من ذلك الرجل .

وكان ذلك التعجل فى الموافقة على طلبها ، فاضحًا للفرحة التى كانت تغمر داخلى فى فيض كبير ، وقد حاولت جاهدة إخفاءها عن ملاحظة السيدة (سارة) ، لشدة شعورى بالخجل منها ، ولكن دون جدوى .

وعدًا عن ذلك ، لم أفكر فى تلك اللحظة بأى شىء آخر ، لم أفكر بأختى ، ومدى ما يمكن أن تعانيه من صدمتها بى أو به ،

ولم استشعر الألم الذى سوف تعيشه ، والذى سأكون المتسببة فيه ، لقد استولى علىّ سرور غامر ، مبعثه أنى سوف أحظى بمناصرة الجدة ، لما أنا راغبة فيه تلك الرغبة العارمة التى ظلت حبيسة فى صدرى ، لا أجرؤ على إظهارها خوفًا ورهبة من إغضاب الحفيدة والجدة معًا .

- أجل سوف أتزوجه .

رددت هذه العبارة مرة أخرى ، ونهضت مسرعة ، وفى شبه هرولة ، غادرت الغرفة من خشية أن يفضحنى انفعالى بأكثر مما بدا منه .

بيد أنه وقبل أن أجتاز عتبة الباب ، سمعت السيدة (سارة) تردّد ضاحكة :

- يا له من رجل قبيح وساحر .

فقلت لنفسى ، وأنا فى الطريق إلى مخدعى :

- أجل يا له من قبيح وساحر ، أموت مائة مرة فى سبيل الظفر به ، ويا لها من امرأة عزيزة على نفسى ، تريد منى أن أقدم تضحية من أجل أختى ، يا لها من تضحية ، أموت مليون مرة فى اليوم ، لكى أقدم عليها .

لم تدر تلك الجدة الطيبة أنها تقدم لى فرحة العمر ، وهى ترجونى تقديم تلك التضحية ، فى سبيل إنقاذ حفيدتها ، إنها

Looloo
www.looloolibrary.com

هى التى أنقذتنى من اليأس ، يا للعجوز الطيبة ، يا للعجوز الحبيبة ، لكم أنا ممتنة لها .

وبينما كنت أغير ثيابى تهيؤًا للنوم ، الذى كنت على يقين من أنه لن يزور أجفانى فى هذه الليلة ، أفقت بغتة من نشوة الفرح الطاغى الذى غلف مشاعرى على خاطر جديد طرأ لى ، أكانت الجدة واثقة من مقدرتى على تقديم مثل هذه التضحية ؟ هل لو لم تكن واثقة من مدى استجابتى لهذا الطلب الغريب ، أكانت تجرؤ على طلبه منى ؟

أتفعل ذلك لو كان الرجل غير السيد (سالم) ؟ كلا ، لا أظن أنها ستطلب منى تزوجه ، ولا أنا فى مقدورى تقديم مثل هذه الخدمة لها .

ثم إنها ليست من السذاجة ، لكى تفترض أنى أقدم على مثل هذه التضحية بنفسى فى سبيل أختى ، قد أحميها ، فهذا مؤكد ، ولكن لن أضحى بنفسى مجازفة بسعادتى من أجلها ، فهذا لا يمكن حدوثه من أى إنسان ، مهما بلغت به درجة إيثاره للآخرين ، اللهم إلا إذا كان ذلك صادرًا من أم فى سبيل بنيها .

لا بد إنها قدرت ما أصبو إليه ، أجل لا بد أنها وازنت الأمر جيدًا ، وعرفت أنه لا يمكن أن تستخف بمشاعرى ، عندما تريد إنقاذ حفيدتها ، لقد عرفت كيف تنقذها وترضينى فى الآن نفسه ، وما تسميتها للأمر بالتضحية إلا لكى تشعرنى بأهمية ما أفعل من أجلها ، يا لها من سيدة ماكرة وحبيبة .

بت ليلتى هانئة ، أراوح بين اليقظة والنعاس ، غير مستغرقة فى نوم عميق كالعادة ، وغير متيقظة أو مدركة لما حولى ، لقد كانت سعادتى لا تدع لى مجالاً للركون إلى الوسادة ، فقد كنت أجلس وسط الفراش يلفنى الظلام ، ويهوم بى النعاس ، وعندما يهدنى الإرهاق أطرح برأسى على الوسادة الناعمة الباردة لأهوم بين اليقظة والمنام ، ثم أهب جالسة وناعسة من جديد ، تعتصرنى الفرحة ويستخفنى الطرب ، ليعود النعاس يغيبنى مرة أخرى ، فأراوح ما بين جلستى تلك وبين الاضطجاع ، حتى انبلاج الفجر ، فصحوت تمامًا ، وكنت أتعجل الضحى كى أذهب إلى مقر المؤسسة لمقابلة السيد (سالم) ، ولم يخطر لى على بال فى تلك اللحظات المليئة بالسرور ، أى احتمال لرفضه إياى ، أو تفضيله لأختى على ، وكأنى فى يقينى ذاك قابضة عليه قبضًا .

لقد كنت فيما أرى فى ذلك الفجر اللؤلئى وقد كف المطر عن الهطول ، وصفت السماء وكأنها مرافقة لصفاء روحى ، أن كل العقبات الكأداء زالت من أمامى ، بعد أن نلت رضا السيدة (سارة) عن ذلك الزواج ، وعدا عن ذلك لن يهمنى ولن آبه لشىء .

وها هى ذى قد منحتنى رضاها ، بل وسافتنى حثيثًا إلى الرجل ، ولم تتورع عن إرشادى إلى الوسائل المؤدية إلى اصطياده ، وكأنى لا أعرفها ، أو كأنها لم تخطر لى على بال فى أيما يوم

Looloo
www.looloolibrary.com

وحل الضحى مشرقًا بدا فى عينيىّ كلون الفضة المصقولة ، تزينه مرايا زئبقية من أشعة الشمس .

ولكن لا أدرى ولا أذكر كيف استعددت إلى الذهاب ولا كيف قدت عربتى واجتزت الطريق إلى المؤسسة ، ولكن أذكر أنى دخلت باحتفال شديد ، وبخطوات يحدوها الحبور ، وكنت نزعت من نفسى كافة أنواع الحذر للتعامل مع السيد (سالم) .

بيد أنه ما إن اجتزت عتبة الباب الخارجى وتوسطت الصالة المستطيلة ، حتى انتزع منى بقسوة مقتدرة ، كل ذلك الفرح الغامر انتزاعًا قسريًا ، فأعتمت تلك الإشراقة التى طفح بها وجدانى ، ورددت بدون رحمة إلى واقع مرّ غير مموه .

حدث ذلك حين رأيت ما طاش صوابى من فتحة الباب الموارب لمكتب أختى الفخم ، كانت جالسة والسيد إياه على أريكة واحدة متقاربى الرأسين ، يتهامسان فى حميمة واضحة ، وأختى فى حال من فقد نفسه ، أو كأنها فى غيبوبة تامة لاتدرى من أمرها شيئًا .

وكمن أفاق لتوه من حلم عذب ، ليصطدم بواقع مر ، حط علىّ هذا الشعور فجأة ، محملاً بالكمد والكآبة من خيبة الرجاء البالغة الألم ، كما لو كنت أراهما لأول مرة ، ومع أنه كثيرًا ما رأيتهما على مثلها ، إلا أنى لا أدرى لماذا نسيت كل ذلك فى نشوة غبطتى ، عندما حصلت على موافقة السيدة (سارة) ، بالزواج من السيد (سالم) .

اجتزت الردهة أخطو كالسائر فى نومه ، دون أن أرد على تحية السكرتيرة التى توقفت عن الطباعة لتنهض .

وتوقفت على عتبة المكتب الذى يضمهما ، وأصدرت صوتًا من حنجرتى للتنبيه إلى حضورى ، ولكن أختى لم تعبأ بى ، وكأنها لم تشعر بوجودى ، أو لاتأبه له ، أما هو فقد حرك رأسه ببطء فى التفاتة قصيرة نحوى محييًا ، ثم عاد إلى ما هو عليه سعها من تهامس .

لم أر جدوى من وقوفى أمامهما كالنادب حظه ، وهم على مثل تلك الحالة من الانسجام ، فانسحبت إلى مكتبى ، شاعرة برأسى يكاد يتصدع ، وألمًا رهيبًا فى صدرى ، مبعثه شدة خفقان قلبى ، وقد ضاق بى النفس .

لم أستعد رباطة جأشى سريعًا ، ولكنى قدرت فى بالغ من الألم واليأس يعتصرنى أنه لا يمكن للسعادة أن تدخل قلبى ، مادام أنه على هذه الصلة الوثيقة بأختى ، فضلاً عن ذلك فقد تبادر إلى ذهنى كنوع من ابتداع العزاء كى لا أنهار ، أنه لايبرر لى شدة غرامى به انتزاعه منها انتزاعًا قسريًا ، بعد ما رأيت من شدة تعلقها به .

وفى عفة اللص الذى لم يجد ما يسرقه ، قلت لنفسى معزية ، لأدعه لها ، فقد تقضى عليها الصدمة ، كما هى الحالة معى الآن ، وبذلك أكون نكبة شبابها بعد أن كانت والدتى نكبة طفولتها .

Looloo
www.looloolibrary.com

كلا ، إنى أوثر أن أموت غرامًا على أن أسبب لها صدمة أخرى ، لا أريد نكبتها مجددًا ، فوق ما تعرضت له من نكبات لن أبدأ مجددًا .

وعلى الرغم من محاولة فلسفة أحزانى ، ومع هذا فقد كان ذلك القرار عسيرًا علىّ ، ولكنى مرغمة على أية حال ، فصممت على قسر نفسى ، تلك النفس التى اعتادت على القسر فى الكثير من الأمور التى تتطلبها مرارة الحياة .

وكان بعد ذلك أن جالدت مجالدة عنيفة ، طيلة ذلك اليوم مع ليلة طويلة لا تريد أن تنقضى ، تخللها الأرق ، ثم فى صبيحة اليوم التالى ، كل ذلك لكى أثبت على قرارى ذاك ، إذ إنى شعرت حينذاك بأنى أوجست عدم القدرة على التخلى عنه ، وربما جرنى ذلك إلى القتال مع أختى ، لو لم أبذل ما بذلت من ذلك الجهد .

* * *

وفى ضحى اليوم التالى ، خطر فى بالى لأول مرة ما دار بينى وبين السيدة (سارة) ، فحز فى نفسى عدم قدرتى على إنفاذ ما وعدتها به ، ثم خيبة أملها بى ، ثم قلت لنفسى ، لتذهب إلى الشيطان هى وحفيدتها ، لتبحث عن وسيلة أخرى تنقذها مما هى فيه ، فلست كبش فداء لأحد ، هل أنا كبش فداء حقًا ؟ ألم تكن هذه رغبتى التى استمت فى سبيل الحصول عليها ؟

غير أنه فى النهاية تغلبت على الصراع الذى استبد بى ، وأقنعت نفسى أن هذا الرجل ليس من نصيبى حتمًا ، ثم إنى لست فى مركز قوة يتفوق على ما لأختى ، يجعلنى أنتزعه منها انتزاعًا ، ومن الأفضل لى أن أحترس من الصراع الذى لا أدرى إلى أين ينتهى بى ولا إلى ماذا يقودنى . لأدعه لها ولتهنأ به .

وبعد ذلك شعرت بالخواء يملؤنى ، وكأن فراغًا كبيرًا يحيط بى من كل جانب ، ولولا قوة مراسى لفكرت بالانتحار لكى أخلص نفسى مما أعانيه من العذاب ، ولكى يخلو لها الجو فتتزوج منه .

ولذلك عندما التقيت بالسيدة (سارة) على مائدة الغداء فى هذا اليوم ، وفطنت إلى ما يعلو سيمائى من غم ، تبادر إلى ذهنها أنى فشلت فى استمالة الرجل ، فتريثت عن المغادرة ، ملهية نفسها بالتقاط قطع ورق الخس ، من صحن السلطة تقضمها ببطء ، وفهمت أنا مرامها ، فبقيت على المائدة إلى أن غادرت حفيدتها ، وما كادت ، حتى قالت هامسة :

ـ هه ، ما خطبك ؟ ألم تفلحى ؟

فقلت بأسى :

ـ ليس فى مقدورى الزواج من ذلك الرجل ، أقدم اعتذارى وأسفى ، كان بودى ، ولكن لا أستطيع .

بوغتت ، وكأنها صدمت بى ، ثم قالت :

Looloo
www.looloolibrary.com

– لماذا ؟ ألم تقولى إنك مغرمة به ؟ أم هو الذى لا يريد ؟

فأجبت :

– وما زلت مغرمة به ، ولكن أختى أيضًا ، لا أريد أن أكون النكبة الجديدة لحياتها .

فضحكت ، وكأنه هون عليها ، وقالت :

– هذا هو العائق الوحيد الذى يمنعك ؟

قلت :

– أجل ، وهل ثمة ما هو أفدح من نكبتها بمن تحب ، ثم إنى لا أطيق للألم أن يقترب منها قيد أنملة ، ناهيك إذا كنت أنا المتسببة فيه . إنى أحبها فوق ما أحب لنفسى .

ربتت على ذراعى القريب منها فى لطف متناه ، وقالت :

– ولكنك تنقذينها مما هى سائرة فيه ، فلماذا تفكرين وكأن الأمر نكبة لها ؟

فقلت بإصرار :

– إنى أعرف عمق مشاعرها نحوه ، وقد لا تغفر لى إن أنا انتزعته منها قسرًا ، ومن ثم سأفقدها بصورة نهائية ، فلا تعود أختًا لى ، وأنا أؤثر أن أخسر قلبى وكل ما يحمله من حب لهذا الرجل على أن أخسرها .

فقالت السيدة (سارة) :

– يا لك من فتاة مرهفة الحس نبيلة المشاعر ، إنى أعرف كيف يقعن المراهقات بالحب ، وكيف يشفين منه ، سآخذها معى فى جولة إلى أوروبا تنسيها إياه وعندما نعود تكونين قد تزوجت منه .

فقلت بإصرار أكثر :

– كلا ، لن تنساه إطلاقًا ، فمن واقع الأمر معى ، أنه رجل لا ينسى .

ففكرت العجوز برهة ، ثم قالت :

– وإن جلبت لك موافقتها ومباركتها ، هل تتزوجينه ؟

فقلت :

– مستحيل أن نحصل على موافقتها ، وإن وافقت فليس ثمة خطر عليها منه ، فهذا يبين أنها ليست مغرمة به ، إلى الدرجة التى لا تستطيع بها التخلى عنه ، وهذا مستحيل .

فقالت بإلحاف :

– وإن جعلتها تفعل ، هل يرضيك هذا ؟ ثم إن الخطر يزول عنها بمجرد موافقتها على زواجه من غيرها ، فدعى تقدير هذا لى ، إلا إذا كان لا يرضيك الزواج منه لسبب آخر .

وكان مما يؤلمنى أنى أكيدة من استحالة أخذ موافقة أختى على زواجى منه ، فأنا أعرف عنادها وتشبثها بما تريد ،

Looloo
www.looloolibrary.com

خاصة فى الوقت الراهن ، بعد ما رأت من دلال جدتها لها ، قلت :

ـ بالتأكيد أنها لن توافق ، وليس ثمة سبب آخر يمنعنى من الزواج منه غير رضا وموافقة أختى على ذلك ، فليس أحب إلى قلبى من الظفر بهذا الرجل ، وذلك ليس إرضاء لك ، أو إنقاذًا لها فحسب ، ولكن لأنى مغرمة حقًا بالسيد (سالم) غرامًا لا مثيل له .

عندئذ قالت بثقة تامة :

ـ إذن اطمئنى ، سوف تتزوجينه ، وبرضاها .

لم أكن أعلم ماذا كان يدور فى خلد الجدة ، أو يراود خيالها ، وهى تقول ذلك القول .

وأيضًا لم أدر فيما بعد ، ما دار بينها وبين حفيدتها طوال أسبوع كامل ، ولكن كان ثمة من علامات الصراع كانت بادية على وجه كلتيهما .

فالسيدة (سارة) مقطبة دائمًا ، لاتكاد تنطق إلا لمامًا ، وأختى تلبستها حالة من التنمر تجاهى فهى فى حالة سخط دائم ، تكاد تقلب المقاعد فى وجهى عندما نلتقى فى ردهات المنزل ، أو إحدى غرفه ، وقد يحسبها الرائى لبؤة تطارد فريسة لها .

وكنت طوال ذينك الأسبوعين اللذين كان الصراع قائمًا فيهما بين الجدة وحفيدتها ، كنت أقبع فى غرفتى داخل المنزل لا أكاد

أبرحها إلا للضرورة القصوى ، وكذلك أفعل عند تواجدى فى المؤسسة ، لا أكاد أبرح مكتبى ، متحاشية قدر استطاعتى الالتقاء بأختى ، أو بالسيد (سالم) على حد سواء .

وبهذا التصرف بت لا أرى أختى إلا على مائدة الغداء ، حيث تضمنا نحن الثلاثة جلسة كئيبة ، يلفنا صمت رهيب ، والجدة والحفيدة مقطبتا الحاجبين فى حالة تجهم وعبوس ، وكأننا فى مأتم .

ثم فى نهاية ذلك الأسبوع المأتمى تبدت لى أساليب متباينة عن تلك التى كانت سائدة بين أختى والسيد (سالم) ، فقد رأيته وكأنه يتباعد عن أختى بمحض إرادته ، وقد تداعى إلى ظنى أن ثمة اتفاقًا قد عقد بينه وبين السيدة (سارة) على تدبر أمر ذلك التباعد ، ولكن ليس لدى ما يبرهن ذلك الظن سوى استقراء واقع الحال ، بالإضافة إلى ذلك فقد زاد من مساحة تودده لى ، ولكن بعيدًا عن مرمى البصر من أختى ، كان لايعدم الفرصة ليتسلل إلى مكتبى فى غفلة منها ، لقد كان ثعلبًا حقًا يعرف متى وكيف يثب ، ثم بعد أسبوع آخر لاحظت لدهشتى أن بعضًا من الهدوء أخذ يساور أختى ، فطبع تصرفها ببعض الانفراج ، فكانت ترد التحية عندما ألقى بها عليها هى وجدتها ، وهما جلوس على مائدة الغداء ، ولكن كانت تفعل ذلك بجمود متحفظ .

Looloo
www.looloolibrary.com

ثم حدث بعد تطورى أكثر ، عندما أخذت تبادرنى ببعض الجمل ، كأن تسألنى أن أناولها شيئًا أمامى على المائدة ، ولكنها على أية حال لا تفعل ذلك إلا قليلاً .

ثم فيما تلا من أيام قلائل حدث تغيير آخر من جانبها أيضًا ، فقد لانت ملامحها ، وغادرها ذلك العبوس المتجهم فانفرجت أساريرها .

وكان واضحًا لى أن مبعث ذلك من تأثير جدتها عليها ، ولكن كيف توصلت إلى صنع ذلك التأثير فهذا ما لا أعلمه .

وفى مساء اليوم السادس عشر أو السابع عشر لا أذكر ، دخلت أختى غرفة نومى ، وكانت نادرًا ما تفعل ذلك ، منذ انقلاب الحال بها .

اقتعدت نفس المقعد الذى كانت تجلس عليه جدتها عندما تأتى إلى زيارتى ، وبابتسامة باهتة صفراء ، أحسست على الرغم منى بمقدار زيفها ، قالت :

ـ إذن ، فأنت مغرمة به ، لماذا لم تخبرينى بذلك ؟

قالت ذلك دون أن تذكر اسمه ، ولكنى عرفت من تعنى ، فاعترتنى غصة فى حلقى ، وكأنى أمام كرسى للاعتراف ، وأنه مطلوب منى الإقرار بذنب فادح اقترفته .

فقلت مدافعة وكأنى أدينها بذنب مماثل :

ـ وأنت أيضًا مغرمة به .

ثم أردفت :

ـ فلماذا أنغص عليك حياتك ؟

فقالت شامخة :

ـ أنت لماذا ؟ لن يكون فى مقدور أحد التنغيص علىّ إطلاقًا ، إنى بين أهلى وذوى ليس كما فى السابق ، فى الحقيقة كنت أسلى نفسى به ، أما الآن فقد مللته ، حسنًا ، إنى أمنحك موافقتى ، تزوجيه .

فقلت وقد ثارت كبريائى :

ـ لا أريد موافقة من أحد ، ولن أتزوجه .

فقالت بغطرسة مواطنيها :

ـ لن يهمنى ما تفعلينه ، على أية حال إنه معدم ، وليس فى المستوى الأسرى الذى يليق بى ، ثم إنه أجنبى مثلك ، وسوف أتزوج من الدكتور (منصور) ، إنه رجل ثرى ومواطن أيضًا مثلى ، وسوف ننتقل بين معظم بلاد العالم فى شهر العسل ، والأهم من ذلك سوف أحصل على الانتماء إلى بلدى بسبب زواجى منه ، ذلك الانتماء الذى حرمت منه طويلاً ، بسبب من ذلك الحقد الأعمى من والدتك ، وبسبب ضعف أبيك وجبنه ، أما أنت فلا شأن لى بك ، وسوف أستعيد كل أموالى منك ، عندما أحصل على انتمائى لبلدى وتكون لدى الأوراق التى تثبت هويتى ، ولن تهمينى بعد ذلك لا فى القليل ولا فى

Looloo
www.looloolibrary.com

الكثير ، ولن تكون لى أية صلة بك ، ولكن خذيها نصيحة خالصة ، خليق بك ألا تتزوجيه ، أنا لا أقول ذلك لكى تتركيه لى ، لأنى سوف أتزوج من الدكتور (منصور) كما قلت لك ، على أية حال إذا كنت مغرمة به فلم لا ، إنه فى مستواك الأسرى والاجتماعى ، ثم إنه أجنبى مثلك ، أما إذا كانت العقبة هى أنا كما تدعين أمام جدتى ، فأنا أمنحك موافقتى فلتهنئى به ، على أية حال هذا شأنك ، ولن أحفل بك بعد الآن إطلاقًا .

ورفعت رأسها بكبرياء وضحكت باشمئزاز ، وغادرت الغرفة كالملدوغة من عقرب .

عرفت فيما بعد أن جدتها من قسرها على هذه الزيارة ، لكى تمنحنى موافقتها كما وعدت .

وكان يكفينى من الأمر كله أن تتخلى أختى عنه لى ، أما لماذا تخاف السيدة (سارة) من ارتباط حفيدتها به ، خوفها من الموت ، فذلك ليس بذى شأن لدى .

وعلى أية حال ، لم يكن فى مقدورى تبين تلك الأسباب التى حدت بالسيدة (سارة) إلى كل ذلك الخوف إلا فيما بعد ، وقد أعمانى ولهى به ولهفتى عليه .

إذن فقد حصلت الجدة على ما تريد ، وأفلحت فى النهاية فى إبعاد الحفيدة عن موطن الخطر الذى لم يراه أحد غيرها .

ولكن ما حكاية زواجها من ذلك الـ (منصور) ، وكيف عثرت عليه جدتها هكذا سريعًا ، وكيف أقنعتها به ، يبدو أن أختى رضيت بالزواج من ذلك الرجل الذى لا تحبه ، لكى تحظى بذلك الانتماء ، فهذا هو الإغراء الوحيد الذى يجعلها ترضخ لمخططات جدتها ، وأظن أنه السبب أيضًا الذى مكنها من مقاومة سحر السيد (سالم) عليها .

ثم تأكد لى هذا الظن بعد أن عرفت أنه عجوز تخطى السابعة والستين من العمر ، وأن جدتها كانت تخطط لزواج حفيدتها منه ، لكى تحصل الأخيرة على انتمائها إلى بلدها ، حسب القوانين المرعية قبل أن تفاتحنى بأمر زواجى من السيد (سالم) .

وحتى إتمام تلك الخطة ، قررت إبعاد حفيدتها عنه .

أجل ، هذا ما عرفته بعد مدة طويلة .

أما فى تلك الليلة الليلاء وبعد انصراف أختى بعجرفتها ، ألقيت برأسى على الوسادة ، وساحت دموعى غزيرة حتى بللتها ، كنت فى حيرة من أمرى ، تملؤنى الرغبة العنيفة وتدفعنى إلى الزواج من ذلك الرجل ، الذى أكاد أذوب فى هواه ، وتصدنى أمواج عاتية لمحاذير شتى تتقاذفنى ، فتغدو رغباتى متضاربة تعطينى القرار ونقيضه .

أولاً : الخشية من إحداث جرح جديد لأختى ، وكان هذا من السهولة دحضه ، وعدم الاعتراف به ، بعد أن دفعتنى دفعًا إلى

Looloo
www.looloolibrary.com

الحقد عليها ، ثم هناك كبريائى الجريحة وهو تعلن لى تنازلها عنه ، وكأنه ليس فى مقدورى نيل ما أريد إلا ما هو فضلة منها ، ولكنى أقنعت نفسى بأن ذلك لن يكون فى اعتبارى ولن يقع فى نفسى ، إلا إذا اعتبرتها إنسانة سوية ، وبما أنها ليست فى نظرى إلا دون ذلك ، إذن لم يتبق غير الخوف من أن أتزوجه ، فلا تتزوج هى من ذلك الكهل ، وبما أنى غير عارفة ماذا سيكون من ردود الأفعال التى سوف تصدر منها حين ذاك ، وهل ستعاود الاتصال بزوجى عندئذ ، وما إذا كنا سندخل مرحلة جديدة من التنافس على الرجل ، وما هى طبيعة المرحلة العدائية التى سوف تلفنا فى دواماتها ، والأهم من كل ذلك ما هو التأثير الذى سيخلقه ذلك الصراع على جدتها تجاهى وتجاه أختى ؟

ففكرت أنه يتعين على إيجاد معادلة لحل يرضينى وأجد به روابط الأمان للحفاظ على العلاقة الجيدة التى تربطنى بالجدة (سارة) ، ولا تبعدنى عنها .

وعندئذ قررت ألا أتزوج من حبيب أختى ، إلا بعد أن تتزوج هى قبلى .

وعلى الرغم من أن هذا القرار أراحنى ، إلا أنى لم أهجع إلا لمامًا فى تلك الليلة .

فى الصباح الباكر ، التقيت بالسيدة (سارة) ، ونحن الاثنتان فى طريقنا إلى مائدة الإفطار ، التى لا تحضرها أختى فى غالب

الأيام ، لعدم يقظتها باكرًا ، آه من أيام العز ، وكيف تنقلب بها العادات ، فبعد أن كانت أختى تستيقظ فى الخامسة صباحًا لتعد لنا الإفطار الذى لا تأكل منه إلا فضلات المائدة ، وهى تتجول حافية مشققة القدمين على أرضية المطبخ الباردة أيام الشتاء ، وذات اللسعة الحارقة فى أيام الصيف القائظ ، باتت الآن من نيام الضحى ، تقدم لها الخدمة فى الفراش ما إن تكاد تفتح عينيها المطبقتين بالنعاس .

المهم لندع أختى فى رقدتها فى نعيم مخدعها تتقلب فى الحرير والدقمس يأتى إليها عصير الفاكهة والحليب بالبيض المخفوق على صينية من الفضة ، وهى متكئة على حشايا من الحرير ، ولنعد إلى الجدة .

فعندما استقر بنا الجلوس أمام مائدة الإفطار ، بادرت إلى إخبارها عما جرى ليلة أمس ، وما قالته أختى عن موافقتها من زواجى من السيد (سالم) ، وعن مشروع زواجها من ذلك الـ (منصور) .

وكنت حتى هذا الصباح لم أكن أعرف أنه عجوز تخطى الستين ، والسيدة (سارة) لم تبين ذلك لى ، وكأنها لا ترى نشوزًا فيما أختى مقدمة عليه .

وأخيرًا أضفت قائلة :

– إنى لن أتزوج من السيد (سالم) ، إلا بعد زواج أختى من السيد (منصور) ، كى لا أعرضها إلى ساعة ألم .

Looloo
www.looloolibrary.com

فقالت السيدة ممتنة :

ـ حسنًا تفعلين ، سيتم ذلك قريبًا .

وهكذا تزوجت أختى بعد مضى خمسة عشر يومًا من ذلك الحديث ، وقد فوجئت عندما رأيت زوجها لأول مرة ، فقد كان عجوزًا شاحبًا كابيًا ، جاف اللحم كعود قصب ممصوص ، لقد كان فى مثل حال أبى وسنه لو كان حيًا ، وكان طبيب أسنان لايمارس المهنة لشدة ثرائه .

آه يا لأختى المسكينة ، لقد رضيت بهذا الهيكل العظمى ، لكى يمنحها فقط ذلك الانتماء الذى طالما تاقت إليه نفسها .

* * *

ـ ٢٧ ـ

لا أظن أن فى ميسورى وصف مشاعر الغبطة والحبور التى يمر بها وجدانى ، منذ أن تزوجت من السيد (سالم) ، فقد كانت تلك الأيام الوضيئة من أسعد الأيام التى مرت فى حياتى .

بيد أنه فى نفس الآن ، وبنفس القدر من زخم المشاعر السارة التى لاسبيل إلى وصفها ، كانت تعمل فى داخلى أحاسيس أخرى ملازمة لها من مشاعر الألم والإحباط ، وكأنى فيما أنا فيه ، مشدودة إلى أطراف من أسلاك مكهربة ، تؤرجحنى تارة متهادية فاتحة أمامى أفاقًا لا متناهية من الفرحة الغامرة ، وأخرى تكاد تقذفنى فى أوار من نار ، وسوف أتحدث عن كل منهما على حدة .

أولاً لغرامى العنيف بزوجى ، الذى بات ممضًا لى يعذبنى لشدته وعنفوانه ، ذلك الزوج القبيح والساحر ، كما كانت تقول عنه السيدة (سارة) فى يوم مضى ، والذى ما كنت أرى من قبحه إلا شدة جاذبيته وإبهاره لى فى كل حركة وسكنه منه ، وقد آمنت حقًا بكونه ساحرًا سحرًا طبيعيًا خلق معه ، لقد كان كل ما يحيط بى فى منزلنا معا ، تلك الدارة الصغيرة الأنيقة التى أهدتها لى السيدة (سارة) الجدة بمناسبة زواجنا ، كان كل ما يحيط بى فيها يبدو لى فوق مألوف الأشياء ، لقد كنت

Looloo
www.looloolibrary.com

أرى ، وأنا بها معه ، أن كل ما فيها براق مشع ، يزدان بمغناطيسية لذيذة مخدرة ، ومن غريب الأمر معى ، أنه ما إن يغادر الدار ، حتى تبدو لى دارًا عادية كغيرها من المنازل الصغيرة لا يميزها شىء ، وما إن يعود إليها حتى أعود إلى ما أنا فيه من دوامة ذلك البريق الأخاذ فى كل ما يحيط بى .

وكنت أناقش نفسى طيلة تلك الفترة من حياتى ، التى كنت أحظى بها فى قربه ، هل أنا فى حلم لا أفيق منه ؟ أم أنى أعيش الواقع الملموس ؟

لقد كنت أكاد أفقد عقلى وحصافتى المعروفتين عنى ، بمجرد أن تقع عينى عليه .

ماذا يشدنى إلى هذا الرجل ويخدرنى به ؟

هذا ما استعصى على فهمه حتى يومى هذا إذ لم أجد إطلاقًا الإجابة الشافية على تلك التساؤلات ، ولم أعرف إلا أنى كنت أعيش مع رجل ساحر تتعدى طبيعته مألوف الناس ، فعشت ما عشت بذلك الغرام المشبوب ، وتلك العاطفة الملتهبة ، التى لا يخمد لها أوار ، فكانت تعذبنى وتمتعنى فى آن واحد .

وعلى الرغم مما أنا فيه من انجذاب خلب لى .

أما الطرف الثانى الذى يقذفنى إلى منحى آخر ملىء بالأشواك التى تغرز فى جسدى ، وليس لى قبل بانتزاعها فتمزقنى شر ممزق ، إذ كنت أعلم كل العلم ، بأنى مخدوعة بمن أغرمت

وتزوجت ، وأنه لم يتزوجنى إلا طمعًا بما فى يدى بما أملك وبما تملك أختى ، وكانت علامة ذلك قد ظهرت سريعًا ، لقد انتهز فرصة رحيل أختى لتمضية شهر العسل مع زوجها الشيخ حتى أخذ يؤلبنى عليها متضرعًا مرة وملحًا فى خشونة وتهديد مرات أخرى ، حاثًا على الغدر بها وتحويل كل ما لدى من أموال سائلة إلى حساب مشترك بينى وبينه ، وأيضًا بيع كل ما يخصها من عقار وتحويله إلى سيولة من الأموال المادية وإيداعها فى ذلك الحساب المشترك .

وكان يقول لى فى عملية تحريض : إنها لا تستحق ذرة من الوفاء ، وأن سلب أموالها ما هو إلا جزء يسير من العقاب الذى تستحقه لعدم وفائها ونكرانها الجميل لتلك الرعاية التى أغدقتها عليها .

ثم جاءت ثالثة الأثافى كما يقال ، عندما اكتشفت أنه زواج مدفوع الثمن .

لقد علمت أنه تسلم من السيدة (سارة) مبلغًا كبيرا من المال ، لكى يترك أختى ويتزوج منى .

كل هذا ونحن لانزال فى أيامنا الأولى من الزواج .

وما زاد على ذلك مما يمضنى الآلام دون هوادة ، ويجعلنى أشعر وكأنى أمشى على حافة هاوية شديدة الانحدار ، إن لم أتذرع بالانتباه ، وإلا أصابنى الدوار ، فأسقط إلى لا قرار ،

Looloo
www.looloolibrary.com

أنه كان أشد ما يبهرنى من نفسى ويعذبنى بها ، أن ذلك كما لو كان ما يجرى معى يتم برضاى ومعرفتى ، وكأنه كان يحدث معى عن تعمد وسابق إصرار ، ولكن فى حقيقة الأمر ما كنت لأقوى على الانفكاك حتى بعد معرفتى بما أنا فيه . وقد حاولت ذلك جهدى ، وقد عجزت عن ذلك تمام العجز .

أما الطامة الكبرى ، فقد تمثلت لى فى تلك الحالة التى أصابت أختى من أثر زواجها من ذلك الشيخ ، وزواجى أنا من حبيبها ، ذلك التأثير الذى تعدى كل توقع لنا أنا وجدتها التى كانت تجأر بمر الشكوى من ردة فعل حفيدتها ، وكانت الجدة المسكينة لا تألو بذل الجهد فى محاولة تلو المحاولة لعمل كل ما يسعد الحفيدة ويعيد الحيوية لها ، تلك الحيوية التى كادت تنضب منها وكأنها زرع قطع عنه الرى .

لقد أصيبت أختى بكآبة شديدة ، حال عودتها من شهر العسل مع زوجها الشيخ .

فأخذت فترة طويلة لاتغادر المنزل ، وقد امتنعت عن الذهاب إلى المؤسسة ، أو أى مكان أخر معتكفة فى غرفتها تنتحب الليل مع النهار ، دون أن تبدى سببًا لذلك ، كما قالت جدتها . التى قالت أيضًا إن زوجها احتار ، فهو لا ينى يحاول بشتى الطرق أن يرضيها دون جدوى ، فهى لا تجد عزاء بكل ما كان بيذله لإسعادها ، ثم أخذ يظن أن زوجته الشابة قد خاب أملها فيه ، فكان هو الآخر حزينًا لذلك ، هذا ما كان يظنه الرجل المسكين ، وهو لم يبتعد عن الحقيقة كثيرًا .

وكان ما يذكى حزنها بإفراط كبير ، ويجعلها تتلوى ألمًا وتكاد تنفجر غيظًا عندما ترانى مع (سالم) متأبطة ذراعه داخلة وخارجة معه عندما نكون فى زيارة الجدة ، وكان هو يتعمد أن يظهر أمامها شدة عنايته بى ، ولا أخفى أن ذلك كان يسعدنى على الرغم من معرفتى بسوء نواياه ، فأفضى بها الأمر إلى تجنب رؤيتى عندما أذهب إلى هناك .

وليتها مع كل تلك التضحية التى أقدمت عليها أختى بتخليها عمن تحب ، وزواجها من ذلك العجوز ، نالت ما ترغب به سريعًا . إنها لم تحصل على انتمائها إلى بلدها إلا بعد مضى عام كامل على ذلك الزواج من ذلك الرجل ، غير أنه استطاع بما له من نفوذ استخراج وثيقة سفر مؤقتة لزوجته الشابة بمجرد أن تم عقده عليها ، وذلك لكى يمكنها من السفر معه فجال معها فى أوربا ثلاثة شهور متتالية ، ولم يدع مكانًا بها إلاَّ وأخذها إليه ، لكى يفرحها ولكنها لم تفرح معه قط .

ومضى عام وهى على ما هى عليه ، وبعد لأى تحقق ما تاقت له طويلاً ، وكان ذلك أيضًا بقوة ما لذلك الزوج من نفوذ ، بفعل ثروته الطائلة ، التى تغلب بها على القوانين المرعية لمن كان فى مثل حالتها ، التى لاتمكنها من الحصول على ما يؤهلها لذلك الانتماء ، إلا بعد مضى خمسة أعوام كاملة من زواجها من رجل مواطن كما يقال هنا .

Looloo
www.looloolibrary.com

وعندما ملكت أختى بطاقتها الائتمانية ، عندئذ حدث الانقلاب الأكبر فى حياتها ، وفى علاقتى بها رأسا على عقب فنفضت أحزانها وتأهبت لمحاربتى ، جزاء لكل ما تعرضت له فى السابق من أيامها ، وكأن دورها فى الانتقام قد حان ، وأضحى فى أنسب وقت ملائم لظهوره ، فأشرعت لالتهامى أنيابًا حادة كما لم تشرع من قبل ، وقد اتخذت لذلك محورين الأول على الصعيد الشخصى الذى كان جرحه الأكثر عمقًا فى هذا المنحى ، والثانى على صعيد الأدب والثقافة التى لم تستطع أن ترقى إلى النيل منى فيه ، إلا الجزء اليسير .

ولعل أمر كراهيتها لى ، وانتقامها منى ، الأقل شأنًا فى تأثيره على مشاعرى ، لما فى قلبى الذى كان ينحو نحو الجفاء تجاهها وقد ضرب شوطًا بعيدًا فى ابتعاده عنها ، لما لاقيت من قسوتها وتنكرها لدورى فى حمايتها ، عندما كانت فى حاجة إلى ذلك ، ولا أدرى إلى أى مدى سيصل بنا الأمر .

ولا أظن أنى بحاجة إلى ذكر أن كل ما جرى بعد ذلك ، كان نتاجًا قائمًا على فقد كل علاقة طيبة لى بأختى ، بدأت منذ بداية مجيئنا إلى هنا .

ولكنها الآن فقد ناصبتنى العداء السافر بأكثر من أى وقت مضى ، لا تخفيه عن أحد سوى جدتها ، وكنت أنا أيضًا أحاول تجنب لقياها ، غير أنى كنت مضطرة فى بعض الأحيان على

التعامل معها ، تنفيذًا لذلك التعهد الذى قطعته على نفسى لجدتها برعاية شئونها .

ومع أن جزءًا من أموالها التى كانت مقيدة باسمى حولت إليها ، بعد حصولها على ذلك الانتماء ، كإجراء اختبارى من جدتها لها ، لكى ترى مدى قدرتها على إحساسها بالمسئولية المالية ، إلا أن الجزء الأكبر والأكثر إدرارًا للربح مازال معى ، بسبب من أن الجدة برهافة حسها التجارى اكتشفت نقائص حفيدتها التى تنم عن اندفاعها وتهورها وعدم قدرتها على تصريف الأمور ، مما يدفعها إلى التردى والوقوع فى هاوية الإفلاس ، ولذا فقد خشيت أن تسلمها الجزء الأكبر من أموالها قبل أن يتم اختبارها بهذا الشأن .

وقد قالت لى ذلك مرارًا ، وكنت البادئة بالحديث عن مايتوجب على من إعادة ما فى حوزتى من أموال لأختى بعد حصولها على ما يؤهلها إلى امتلاك المال والعقار فى موطنها ، فكانت ترد برفض قاطع قائلة :

ـ كلا ، لن أحول لها المال الذى بين يديك ، إنها سوف تبدده سريعًا ، وسوف تعيش بعد ذلك على بساط الفقر ، وليس لها من معين غيرك بعد ذهابى عن هذه الدنيا ، فأنت كما ترين زوجها طاعن فى السن ولن يقف إلى جانبها طويلاً ، وتنكر لحالها لها ، فدعى الحال على ما هى عليه ، لماذا أنت متخوفة ؟ ألم نكلف محاميًا استكتبك وصية أخذت شكل المبايعة منك لها

Looloo
www.looloolibrary.com

بما فى حوزتك مما يخصها ، تجيز أخذ ما لها من أموال بعد وفاتك ، لعلها حين ذاك تكون قد اكتسبت من الخبرة بالدنيا والناس ما يؤهلها لإدارة شئون أموالها دون سفه ، أو أنها تكون قد هدأت بفعل تقدمها بالسن ، أما فى حال وفاتها قبلك فسوف يأخذه من يرثها ، فهذا أفضل إجراء يصون ما تملك من التبديد .

وكانت تقول مستطردة :

ـ ثقى أن لدى ما يعزز الثقة بك إلى الدرجة التى آمنك على أنفاسها لو كان ذلك ممكنًا ، فليس لدى أدنى هاجس مما يهز الثقة بك إطلاقًا .

وكم كان ذلك القول مؤثرًا وهو يصدر عن تلك العجوز الطيبة ، فآليت على نفسى أن أستميت فى سبيل الحفاظ على الأموال التى استؤمنت عليها إكرامًا لتلك السيدة العزيزة حتى لو علقت لى أختى المشانق ، ولم يتغير موقفى منها حتى بعد أن ألبتها أختى ضدى وسعت إلى إثارة الشكوك الظالمة لديها ، مما سوف آتى على ذكره فيما بعد ، أجل لم تتغير منزلتها فى نفسى أبدًا .

وسرعان ما تبدى لتلك الجدة الطيبة ، أن نظرتها البعيدة كانت صائبة وفى محلها ، إذ إن أختى بددت سريعًا ما كان

بيدها ، على الرغم من ضخامته مستنزفة إياه فى فترة قصيرة تعتبر قياسية لمن يمتلك مثلها .

وهكذا كنت مضطرة إلى مداومة التعامل مع أختى ، فكنت أذهب إليها فى مؤسستها دون أن أصطحب زوجى معى بطبيعة الحال ، فقد كنت أخشى عليه منها ، كما لو كنت أخشى صاعقة ستضربنى فى مقتل .

هذا ما كان من أمر علاقتنا فى تلك الأيام ثم تطور الأمر منها ، إلى أن وصل بها إلى رفض مقابلتى .

ففى بادئ الأمر كانت تعتصم داخل مكتبها الفخم ، لاتخرج منه حتى أغادر تاركة السكرتيرة تقوم بمهمة التعامل معى . ثم تدرج إلى أن منعتها من ذلك ، طالبة منها عدم إطلاعى على أى شأن من شئون أعمالها ، قاصرة دورها على قبض المبالغ منى . ومن ثم اقتصر دورى أنا الأخرى ، على المرور مر الكرام ، بغرض دفع مصاريف مؤسستها ، وذلك بإعطاء الشيك إلى سكرتيرتها . ثم لم ألبث ، حتى أخذت بإرسال تلك الشيكات عن طريق مراسل خاص ، بعد أن حدث تطور أكثر من أمر تدهور العلاقة بيننا ، بأن منعتنى من دخول المؤسسة منعًا باتًا ، فضلاً عن معرفتى بما يجرى داخلها من أعمال ، وذلك حين بعثت لى بمن يخبرنى بذلك المنع وانقطعت بعد ذلك كل علاقة مباشرة لى معها .

Looloo
www.looloolibrary.com

هذا ما كان يجرى بيننا فى تلك الأيام ، والجدة لم تكن تعلم بتجذر واشتداد الخلاف بيننا إلى هذه الدرجة ، التى لا يرجى معها إصلاح ، وقد حرصت كل منا ودون اتفاق مسبق على تكتم ما فى داخل صدرها ، وحاولنا جهدنا كل من جانبنا ، أن لا تعلم الجدة بذلك الخلاف المتأزم ، لقد كان لكل منا على حدة أسبابها الخاصة ، التى ترى أن علم الجدة بأمر ذلك الخلاف يتعارض مع مصالحها .

وكان مما يسر ذلك الإغلاق على فهم السيدة (سارة) ، استقلالى فى منزل خاص بى بعد زواجى من السيد (سالم) ، فلست مضطرة إلى التعايش معها ، ومن ثم مواجهة أختى التى كانت تتعايش مع جدتها يومًا بيوم ، حتى بعد زواجها من الدكتور (منصور) ، وكان هذا شرط الجدة الوحيد عند إعطاء موافقتها على زواج حفيدتها من ذلك الشيخ ، كى لا تتعرض لمفارقتها للحظة واحدة بعد حرمانها منها ذلك الحرمان الطويل .

* * *

وكانت الطريقة التى انتهجتها أختى فى إدارة مقر المؤسسة قد أعطت مبررًا آخر لتباعدى عنها أمام الجدة ، إذ لم تلبث أختى بعد فترة قصيرة من حصولها على انتمائها لبلدها ، حتى حولت مؤسستها إلى شبه منتدى أدبى ، مما اضطر السيدة (سارة) إلى التنحى عنه أيضًا ، ومما بدا لى فى تلك الأيام أن السيدة (سارة) باتت لا تبالى بدفع أجور العاملين الذين

لا يعملون شيئًا ، مادام أن ذلك يسعد حفيدتها ويلهيها عن التفكير بزواجها التعس ، أما أكثر الأسباب أهمية فى نظرى ، فهو أن الجدة قد أصابها الكبر ، وقلت حيويتها ، فلم تعد تبالى بكسب الأموال ، وعندها منها تلال ، مما يكفى للصرف الباذخ على عشرة أجيال من أحفادها .

كل هذه الملابسات ساعدت فى إقصاء أمر خلافنا عن عالم الجدة .

بيد أنه مما تواتر إلى سمعى من أنباء خارج محيط الأسرة ، أن علمت أن أول ما فعلته أختى بعد انتمائها إلى بلدها ، أنها دخلت كعضو معترف به فى (اتحاد الأدب) فى موطنها كعضو أصيل ، وليس انتسابًا كما هو الحال معى .

ثم لكى تستقطب كل من فى ذلك الاتحاد ، فكان أول ما فعلته باستماتة كبيرة ، أن قامت باستمالة كل من يملك زمام الأمور فى ذلك الاتحاد كل بحسب ما يستهويه ، فمن كان تستهويه أعياد الميلاد احتفلت واحتفت به ، فأشعلت له الشموع ، ومدت له الموائد التى كانت تحوى كل ما لذ وطاب ، ومن كان يستهويه شرب الخمور سكبتها تحت قدميه أنهارًا ، ومن كان يستهويه شذا الزهور أهدته سلالاً منها ، حيث كانت تصحبها كل يوم معها وهى ذاهبة إلى هناك ، وكنت عندما أراها مصادفة ، وهى تأمر أحد الخدم بإنزال تلك السلال المليئة بالورود أقول لنفسى ساخرة (قد يكون أحدهم فى حاجة إلى هدية فى هذا اليوم) .

Looloo
www.looloolibrary.com

أو عندما أراها فى إحدى جلساتها فى مقر الاتحاد جالسة بين رجلين يعتبران من أقطاب الأدب فى موطنهما ، تمسك يد أحدهم باليد اليمنى ويد الآخر باليد اليسرى تفاضل بين نعومة اليدين مخاطبة أحدهما :

ـ إن يدك أكثر خشونة .

أقول لنفسى (ترى أيهما يعتبر قولها مديحًا له) .

أو عندما تلتقط الرداء القومى لبلدها (البشت) من على كتف آخر فى أحد أيام الشتاء القارسة وهى تقول بغنج أكثر مما يتحمله الموقف :

ـ أريد أن أتدفأ بسخونتك .

وعندئذ أعرف أنها تريد أن تمرر مطلبا جديدًا فى جلسة مجلس الإدارة القادم فى ذلك الاتحاد يعزز مكانتها فيه .

وكانت تفعل كل ذلك فى مناسبة تطرأ أو لا تطرأ ، إلى أن طوعت النفوس العصية ، وأسرت من لا يؤسر ، تارة بتذللها وأخرى بمجاملتها .

وعندما استتب لها الأمر حدث الانقلاب الأكثر تأثيرا فى تعزيز مكانتها الأدبية ، لقد قامت عندئذ وبكل ثقة بترشيح نفسها كعضو لمجلس الإدارة ، ففازت بغالبية الأصوات ، وكيف لا تفوز والكل عليه أفضال لها لا تحصى .

ثم أعقبت ذلك بخطوة أخرى ، أكثر جراءة لمن كان فى مثل منزلتها الأدبية ، عندما انتخبت كرئيسة لمجلس الإدارة فى ذلك الاتحاد ، أى أنها فى المحصلة النهائية ، نجحت فى وضع معظم من كان فى ذلك الاتحاد فى سلة زهورها .

ثم لم تكتف بالجلسات التى تنعقد بذلك الاتحاد ولا بتلك التى بمكتبها التجارى حيث يقتصر دورهما على مقابلات النهار لأولئك الذين كانوا يصغون إلى ما تقوله من تافه القول ، وما تردده من أشعار وأقاصيص كتبت لها من مرتزقة الأدب والثقافة ، من أصحاب الأقلام المباعة ، بل حولت منزل جدتها إلى دار ضيافة تستقطب به كل من يفد إلى البلاد من أعلام الثقافة ، وحولت سرداب منزل جدتها إلى صالون للسهرات المسائية الماجنة ترفه به عن ضيوفها ، دون علم الجدة المسكينة التى كانت تظن أن اجتماعات حفيدتها لمناقشة شئون الفكر ، فركنت إلى كبر سنها وقلة حركتها .

أما زوجها الشيخ فهو مثل جدتها ينام مبكرًا غير شاعر ماذا يجرى تحت غرفته من عالم مسحور ، ومع ذلك ما كانت له القدرة على رفع إصبع واحد فى وجهها ، وكل ما كان يطلبه هو رضاؤها هذا ما كان يجرى فى الجلسات الخاصة ، أما فى الجلسات العامة .

فقد كانت أغرب من كل ما مضى ، إذ إنها اكتسبت طباعًا جديدة فريدة فى نوعها ، لقد زادت من طقوس تملقها ، فكان

Looloo
www.looloolibrary.com

من دأبها التظاهر بالحميمة مع كل من الأعضاء التى ترغب باستمالتهم ، وذلك بإدخالهم فى دائرة التهامس معها ، حتى وإن لم يكن لجليسها رغبة فى مجاراتها ، وذلك إذا ما أتعسه الحظ وجاء مجلسه إلى جوارها ، لقد كانت تميل إلى أذنه مغطية زاوية فمها بإحدى يديها ، منطلقة فى تهامس حميم ، وكانت تلك الحركة لا تنطلى على أحد ، لقد كان واضحًا للجميع أنها تغتاب أحد الأدبيات الجالسات فى ذلك المحفل الأدبى ، مما يتعسهن الحظ فتشملهن غيرتها بسبب ما حققن من مجد أدبى تعجز عن نيل مثله .

ما أردت قوله ، أنه من موقعها فى ذلك المنصب ذى الحساسية الذى تبوأته عن غير جدارة ، فى تلك العين الثقافية المهمة ، أنها هيمنت هيمنة كاملة على مقدرات الثقافة المتواصلة معه ، تلك الصادرة منه أو تلك الآتية إليه ، وقد أعانها وضعها المتميز فيه على توثيق ما عقدته من صلات أدبية متشعبة مع مرتزقة الأدب بأكثر مما مضى ، وإذا بها وقد استشرى استقطابها إلى بعض الأقلام الشابة العاملة فى دور الصحف للكتابة عنها ، مستعملة لذلك الترغيب بضمهم إلى زمرتها وإدخالهم جنتها ، وأخرى الترهيب ، وذلك بالشكوى لدن من كان يترأسهم ، فكان من طرائف ما حدث بهذا الشأن ، أن قدم إلى مكتبى شاب مندفعا فى طلب وساطة بينه وبين صحيفته التى فصل منها

للتو وكان من أولئك الذين تقدمت أختى بالشكوى منهم لمن يترأسهم . قال لى :

– إن أختك طلبت منى إعادة صياغة قصة مأخوذة من فيلم فرنسى كنت شاهدته قريبًا بمحض الصدفة ، فلما أبصرتها محاولاً ثنيها عن هذه القصة التى ربما يعرفها الجميع ، غضبت منى لأنى عرفت من أين سرقت تلك القصة ، ومن ثم طردتنى من مجالسها أو الاستعانة بى لتحسين كتابتها ، ولم تكتف بذلك فقد اشتكتنى فى الصحيفة التى أعمل بها مدعية أنى من عرض عليها المساعدة لتلك السرقة ، مما تسبب فى فصلى من عملى الصحفى .

ثم أردف :

– لقد صدق ادعاؤها لأنها تترأس اتحاد الأدب ، وبما أن غالبية العلاقات تعطى أهمية للمظهر لسهولة تبينه أكثر من المخبر لإغفال الدراسة والتحليل ، لذا فقد كانت شكواها مسموعة لدى من يترأس الشأن الثقافى فى بعض من تلك الصحف ، فكان من جراء ذلك أن كانت صورها تملأ الصحف اليومية دون انقطاع وكلمتها مسموعة ، فكان عاملاً مؤثرًا فى فصلى .

فقلت سادة عليه الطريق لأى مطلب ، قد يكلفنى به فلست بحاجة إلى مزيد من الصراع مع أختى ، قلت :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ لماذا أنت غاضب مادام أنك تعرف أنك أحد مصادرها للكتابة بيدك ، ثم إنه ليس بيدى إعادتك إلى عملك .

فقال فى كبرياء :

ـ ليس هذا هو السبب الداعى إلى مجيئى إليك فقط ، لقد أتيت لأقول لك إنك محقة فى نعتك لها بالبلهاء فى روايتك الأخيرة .

كنت نشرت مؤخرًا رواية أصف بها حياة أختى ، ولم أكن أعرف أنه سوف يستدل على من كنت أعنى بمثل هذا الوضوح .

وإنما تجاهلت ما يرمى إليه ورددت :

ـ على أية حال لن أتدخل بصورة العلاقة التى تربطك بأختى ، فأرجو أن تتدبر شأنك معها بعيدًا عنى .

فقال الرجل :

ـ لقد قلت لك إنى لا أرمى إلى ذلك فقط ، أهم من كل ما أردته أن أقدم لك البرهان الحى على زيفها ، إنه أنا .

إذن فقد جاء بغرض الانتقام ، ومع هذا فإنه لا يقل عنها زيفًا .

فقال بإصرار على الرغم من صدى له :

ـ إن بعضًا من النقاد ، ممن كانوا وما زالوا يجهلون الحقيقة إلا أن يصدقوا ما تراه أعينهم منشورًا أمامهم ، فباتوا مأخوذين بذلك التواجد على صدر الصفحات اليومية ، فطبّلوا

وزمّروا مع المطبّلين ، وساروا مع السائرين ، وقد تأثروا بأبواق الدعاية ، دون أن يدروا حقيقة الأمر .

أما أولئك البعض ممن كان عارفًا ، ولكنه غاض البصر غير عابئ أو غير مبال ، فقد بدا مغمض العينين ، حتى وهو نفسه من يخط ببراعة ما ينشر من أدب تدعيه لنفسها ، بسبب ما يتمتع به من رضاها وأولهم أنا ، ولذا أطلب مساعدتك فى القضاء عليها ، وفى إمكانى أن أجمع لك حشدًا لشرح ما هى عليه من زيف .

فقلت :

ـ آسفة .. ليس من مهامى أن أساعدك فى الانتقام منها ، تستطيع تدبر أمره بمفردك .

فقال مصرًا :

ـ إنه التقاء المصالح .

ـ ليس من مصلحتى تدمير أختى .

فنظر لى طويلاً ، وكأنه يقول تظنين نفسك تخدعيننى ، ولكنه فى النهاية انصرف من أمامى ، فقلت لنفسى : إنه ينال جزاءه على ما اقترفت يداه .

ولنعد إلى أختى ، فبعد بضعة شهور من تبوئها مركز الصدارة فى تلك المؤسسة الثقافية ، حتى استطاعت الحصول

Looloo
www.looloolibrary.com

على ما لا يستطاع الحصول عليه ، لمن كان بمثل قدرتها الأدبية وضحالة فكرها المشوش .

فكان أن أدى هذا الزخم المطروح بادعاء قلمها المزور إلى أن أمست علمًا من أعلام الأدب فى موطنها ، يشار إليها بالبنان ، وباتت الصحافة لا تكاد تخلو من صورها متصدرة صفحاتها كل صباح جديد .

أما أنا فقد حل بى الذهول ، مما لا يجعلنى أصدق عنها ولها ، ما كانت تراه عيناى ، أو ما تسمعه أذناى ، يا له من زيف هذا الذى تخلقه المادة فى شأننا الأدبى .

* * *

هذا ما كان يجرى فى تلك الأيام ، غير أنه كان مسقط بيدى ، وذلك لأنى غريبة عن البلاد ، فلم يكن فى ميسورى ، بل حتى لم أحاول أن أضع الأمور فى نصابها ، بسبب من تلك الغربة ، لقد كان زخم التأييد لها أكبر من طاقة المحاولة لدى ، فضلاً عن ذلك ، فإن العلاقة الجيدة التى كانت تربطنى مع الجدة (سارة) ، كانت حائلاً بينى وبين أية محاولة تكدرها وتثير شكها بقلم حفيدتها ، فلم أكن أريد أن أصدمها بهذا الصدد ، وأنا أراها تتصيد أخبار كل ما كانت تظنه من أخبار قلم صغيرتها (سارة) ، كما كانت تدعوها ، وهى فرحة بها ومصدقة لها بكل اليقين الذى تملكه .

كان هذا ما منعنى من صفعها بالحقيقة العارية ، والأنكأ من كل ذلك أن الجدة الطيبة تظن أن الألم الذى تشعر به حفيدتها على فراق من تحب - زوجى - ، ثم زواجها من ذلك العجوز هو ما حفز مواهبها وأطلق لها العنان .

هذان الأمران على الرغم من خطبهما فى نظرى ، جعلانى ألقم فمى حجرًا فلم أنبس .

وشىء آخر ساعد على التعتيم على تلك العلاقة البائسة بينى وبين أختى ، هى محاولاتى المستميتة تحاشى الالتقاء بها فى أى مكان يحتمل أن تكون به جدتها .

بيد أن علاقتى بالسيدة (سارة) الكبيرة كانت على حالها من المودة والإعزاز إلا أن تزاورى كان لها نادرًا .

وكنت عندما أنوى الذهاب إلى الجدة أتيقن من خلو الدار من أختى ، قبل القيام بتلك الزيارة ، بيد أنه عندما تحدث المصادفة على الرغم منى ، فأخطئ التكتيك فألتقى بأختى عندئذ تبيت الأمور تنذر بالخطر ، بسبب ما كان يثار من المشاكل عند ذلك اللقاء ، حتى إنها تكاد تفقد أعصابها عندما ترانى ، فكانت تقذف بكل ما تطاله يدها على الأرض ، وكانت تشتم دون أن تسمى أحدًا ، وترفس كل شىء بقدمها ، وتصرخ فى وجوه الخدم ، وتكاد بما تفعله تفضح تأزم الأمر بيننا ، على الرغم من أنها كانت تبتسم فى وجهى مصافحة ، عندما تكون جدتها فى المواجهة ، ثم تكشر عن أنيابها وتصد مشمئزة ، وكأنها

Looloo
www.looloolibrary.com

امتصت ليمونًا شديد الحموضة ، عندما تأمن نظرات جدتها فتكون بعيدة عن مرمى البصر من السيدة .

ولكنها لا تستطيع طردى خارج المنزل ، كما فعلت معى فى المؤسسة لوجود الجدة ، وإلا لاكتشفت سوء العلاقة التى بينى وبينها ، وهى شديدة الحرص مثلى تمامًا ، على أن لا يبدو شىء من ذلك أمام الجدة الطيبة ، ربما لعلمها أن الجدة لن توافقها الرأى بشأنى ، أو لأسباب أخرى لم أتبينها بعد .

وأخيرًا ، ارتأيت أن أقلل من الذهاب إلى المنزل أيضًا ، كى لا تكتشف عورة تلك العلاقة مع أختى ، واكتفيت معظم الوقت بالاتصال الهاتفى مع الجدة لمواصلة الود وعدم قطعه .

ومن خلال تلك الاتصالات المطولة ، عرفت مقدار اعتزازها بقلم حفيدتها . فقلت لنفسى حينذاك ، يكفى ما حصلت عليه أختى المسكينة من ألم ، وقد انتزع منها الرجل الذى تحب ، وربما كان ذلك أحد الأسباب التى حدت بى إلى الإحجام عن إخبار الجدة عن الموقف الأدبى لحفيدتها .

غير أن ما حدث بعد ذلك ، جعلنى أندم على كل ذرة عطف منحتها لها ، وعلى كل فترة بقيت معها مهادنة مستسلمة ، بل تمنيت لو لم أرأف بها إطلاقًا ، لافى طفولتها المعذبة ، ولافى ما تلا ذلك من أيام شبابها الغض ، بل وقد غفرت لوالدتى كل ما فعلته بها ، وقد آمنت ، أن لوالدتى من نفاذ البصيرة ما يعينها

على استشفاف معادن الآخرين ، ولا بد أنها رأت فى معدن أختى ، هذه الطفلة التى ربتها من السوء ما لم أره أنا .

أخذت تراودنى هذه الأفكار ، عندما أنزلت بى طامتها الكبرى ، فألحقت بى من الأذى ما لم أتوقعه منها ، بعد تلك الرعاية ، وذلك الحدب والحنان اللذين كنت أغدقهما عليها بلا حساب .

أجل ، لقد تمكنت لكى تفعل ما بوسعها لإيذائى ، بيد أنه لكى يتم فهم ما جرى فى تلك الأيام ، لابد من البداية لهذه الأمور .

لقد بدأت حربها الجادة والمنظمة ضدى ، أول ما بدأت حينما تزوجت من ذلك الرجل ، الذى يكبرها سنًا ، وحصولها على ذلك الانتماء إلى موطنها ، ملحقة بزوجها فى مدى قصير ، متخطية القوانين المرعية الخاصة بذلك الشأن ، كما ذكرت آنفًا . ثم تم لها تحقيق حلمها الكبير ، الذى طالما صبت إليه ، والذى استعصى عليها طويلاً ، ألا وهو أن تكون عضوًا فى اتحاد الأدب ، كما مر ذكره أيضًا ، ذلك الانضمام الذى بدونه لم تكن لها مقدرة على التحرك .

وبعد أن استتب لها الأمر على تلك الصورة ، بدأت حربها الشعواء ضدى ، فأخذت تبذل الكثير من الجهد والمال لإسقاطى من الشأن الأدبى ، وتحجيم أى أثر لى بهذا المجال ، فكان أول ما فعلته بى ، أن تم حظر غير مكتوب يمنعنى من أى نشاط فى تلك العين الثقافية ، التى كنت منتسبة لها قبلها بصورة شرفية ،

Looloo
www.looloolibrary.com

فكان أن منعت عنى إلقاء المحاضرات ، أو إقامة الندوات ، وكأنها كانت تخشى المقارنة بى .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد أخذت بإخفاء إنتاجى الأدبى عن أى عرض يتم فى أى مكان ، ويكون للاتحاد الذى ترأسه دور المشاركة فيه ، ثم تعدى الأمر إلى عدم السماح لى بالظهور ، فى أى تجمع تقيمه تلك العين ، وذلك بإغفال اسمى من الدعوات التى توجه إلى الأعضاء ، بل الأكثر من ذلك ، أنها أخذت تخفى عنا أسماء الوفود الزائرة إلى ذلك الاتحاد ، بهدف التعتيم علينا أنا وزميلاتى من الأديبات ، وكأن الأمر منوط بها وحدها ، فكان من جراء ذلك أنى مع الكثير منهن لانعرف بحضورهم إلا بمحض الصدفة ، ثم جاء التطور الآخر فى توسعة نطاق الدعاية لها ، فأخذت تختص نفسها بتلبية الدعوات إلى الاتحادات الأدبية فى الخارج دون جميع الأعضاء الآخرين ، بغض النظر عنى .

وكنت عندما أحضر هذه اللقاءات بمحض المصادفة البحتة ، وبالتالى أحاول التعرف على من كان فيهم من الأدباء ، وتعريفهم بى ، وقد يحدث أن أقوم بإهداء البعض منهم نسخًا من رواياتى ، عندئذ تقوم قائمتها ولا تقعد ، فيستشرى تهامسها مع من يتعسه الحظ فيكون إلى جانبها ، فيصغى محرجًا إلى عملية نقد لاذعة ، عن البعض الذى يبادر إلى فرض كتبه على من

لايود قراءتها ، وكانت تتعمد إيصال ما تقوله إلى مسامعى ، لعلى أخجل فلا أقدم إنتاجى إلى أحد ، لقد كانت تمتلك ذكاء شريرًا . كما قالت لى إحدى الأديبات ذات يوم .

وأذكر أنه فى بدء رئاستها لمجلس إدارة ذلك الاتحاد أن نظمت ملتقى أدبيًا لمناقشة القصة القصيرة والرواية للأدباء هنا ، ووجهت دعوات إلى العديد من النقاد فى معظم الدول العربية للحضور .

وكان هذا هو الغرض المعلن ، أما الخفى فهو تسليط الضوء على ما كانت تكتبه من أقاصيص خالية الوفاض إلا ما تتضمنه من ساذج القول وداعره .

وحدث أن طلب منى السكرتير أن أزوده بعدد من رواياتى ، فى غفلة غير متعمدة منه عن ملاحظة رغباتها ، لأنه كان مستجدًا فى وظيفته ، ولو كان يعلم لم يفعل ذلك قطعًا ، وهى الآمرة الناهية فى ذلك الاتحاد .

فأعطيته ما طلبه منى . ثم سافرت بغرض متابعة بعض أعمالها المالية فى الخارج ، بطلب من السيدة (سارة) على أن أعود قبل افتتاح ذلك الملتقى .

فكان أن صدمت عندما عدت ووجدت أن رواياتى مركونة فى إحدى الزوايا ولم يرسل أى منها إلى أى ناقد . عندئذ عرفت كم هى لئيمة ، حقودة ، غيورة فكرهتها كراهية لا عودة بها .

Looloo
www.looloolibrary.com

بيد أنه ، على الرغم من محاولاتها العديدة طمس شهرتى عن الذيوع والانتشار ، وعلى الرغم من كل وسائلها العديدة لجعل قلمى يكسر ، وعملها جاهدة على كسائى ثوب الإحباط ، إلا أنها فى الحقيقة قد فشلت فشلاً ذريعًا ، فلم يؤثر ذلك على مكانتى الأدبية ، فقد نلت من التقدير الجاد ، من أولئك النقاد الجادين ، الذين لهم تلك النظرة الممحصة والقدرة على التمييز ، ما لم تنله هى .

فكانت هذه المؤازرة منهم ، فيها التعويض عما نالنى منها ، بل الأكثر من ذلك ، لقد كنت أحظى بالاحترام دونها ، إذ كانت نظرتهم إليها لا تتعدى النظرة إلى شخصية أرجوازية مسلية .

وكان فى هذا ما يكفينى .

ولكن هل ما كانت تفعله بى يكفيها ؟

كلا ، لقد كانت تروم صب كل ما كانت تحمله من عبء أحقادها ، طيلة سنى حياتها على كاهلى وحدى ، بعد أن فرغت يداها ممن تصبها عليه ، وبما أنها لم تجد أحدًا غيرى من أسرتها القديمة يقف فى مواجهتها ، فأمى قد ماتت ، وكذا أبى ، وأخى على مبعدة منها بعد أن طردته من حياتها ، فلم يعد لها من سلطان عليه ، إذن لم يتبق لها أحد غيرى تمارس عليه ساديتها .

* * *

-٢٨-

ومضت بنا ستة من الأعوام ، ونحن على ذلك المنوال ، وكان يمكن أن يمضى المزيد من الزمن ، ونحن على تلك الحال ، لو لم يفاجئنى القدر بهم رازح ، مفاجأة لم أحسب لها حسابًا ، إذ لم يطل الأمر بزوج أختى العجوز ، وبعد أن أنجبت منه أربعة من الأبناء ، خلال تلك الفترة ، ثم لم يلبث أكثر من ذلك حتى تركها وحيدة مع أطفالها متوفى ، تأثرًا بكبر سنه .

وكأن ذلك الزوج كان حصنًا واقيًا لزواجى ، ودرعًا أتقى به شرها عن زوجى ، ولكن ها هو الحصن قد تهدم ، والدرع قد ثقب ، فزادت المنغصات فى حياتى بعد تلك الفترة بما لا قبل لى باحتماله ، لو لم يرأف بى القدر ، فمد لى بخيط من الأمل .

عندما اعترض مسار حياتها رجل مرموق فى عالم الأدب والثقافة ليس من أبناء وطنها ، فتزوجت منه بعد أشهر قليلة من وفاة زوجها .

لقد تواتر إلى سمعى من أنبائها حين ذاك ، أن مالفت نظرها إليه ما كان يكتبه فى الصحف من مقالات تدل بوضوح على عمق ما يتمتع به الرجل من فكر ، وقد بدا أن له باعًا لايحد وقلمًا لا يكسر فى الكتابة الأدبية .

Looloo
www.looloolibrary.com

فما كان منها وهى المتصيدة لمثل هذه المواهب إلا أن زارته فى مكتبه فى الصحيفة التى يعمل بها ، بعد أن يئست من مجيئه إلى سهراتها التى دعته إليها فلم يستجب .

ونمى إلى علمى ، أنه فى تلك الزيارة ، التى كانت فاتحة لعلاقة وطيدة بينهما ، أنها قدمت له بعضًا من نتاجها ، وأظنها من تلك التى يخطها يراعها قبل إجراء التحسينات عليها ، ولعلها أملت أيضًا أنها سوف تحصل على عرض لإعادة الكتابة كما كان يفعل غيره من مرتزقة الأدب ، إلا أن الرجل طوح بتلك القصاصات إلى الأرض قائلاً لها فى سخرية غير موارية :

ـ اذهبى أيتها الحسناء إلى العناية بأولادك ، فأنت لا تملكين أية موهبة فى الكتابة الأدبية ، ولن أغشك أو أقوم بتملقك ، ولن تظفرى منى أو من غيرى بالثناء الحقيقى . فانس أنك تحاولين مزاولة الأدب ، فأنت ليست أهلاً لذلك .

فانصرفت من لدنه تتعثر من شدة خجلها ، الذى سرعان ما نسيته فى اليوم التالى عندما أمسكت بسماعة الهاتف تخطب وده ، (لعلها فعلت ما فعلت لكونه ناجمًا عن رغبتها فى الارتواء من الكتابة بقلمه) ، تمامًا كما جاء ذلك التعليق على لسان أصدقائها وأعدائها ، وهم على مبعدة منها .

ونسى ذلك الأديب موقفه من الأدبية الفاشلة وأغرم مدنفًا بالمرأة الجميلة .

وبعد أن أظهرت له ما أظهرت من الغرام المشبوب تزوجها الرجل سريعًا دون تمحيص لطباعها ، وقد خدع بما ظهر منها .

وكما تناهى إلى سمعى أيضًا أنها لم تغرم به يومًا ، كما كانت تصرح فيما بعد عندما كانت تغتابه فى جلساتها الخاصة وقد كالت له من القدح بالقدر الذى كالت منه لزوجها العجوز ولذويها السابقين .

بيد أنها لم تعترف أبدًا ، بأنها كانت تغترف منه أدبًا ، فقد كثر إنتاجها القصصى فى تلك الفترة وقد وصل عدد مجموعاتها الثمانية ، وظهر لها أفضل ما نشر فكان منها مجموعتها (الذباب الأحمر) و (السيدة فى الجرة) اللتان تحملان بوضوح طابع زوجها الأدبى والأسلوب عينه .

وكان البعض من الوسط الأدبى يعرف هذه الواقعة ويتندر بها سرًا ، ولكن لحسن حظها أن النقد الأدبى ليس من مهامه ترصد قلم الكاتب ، لذا فإنه عندما يتطرق إلى التحدث عن هاتين المجموعتين علانية لا يشار إلى مصدرهما .

أما من كان على صلة وثيقة بها ، أولئك الذين هم الأكثر اطلاعًا على شأنها الأدبى ، فقد كانوا مكبلين بحسناتها العديدة لما يتمتعون به من سحر جمالها ، ولما كان لسهراتها الحمراء من سحر عليهم ، وكل ما عدا ذلك يهون ، وكان لسان حالهم يقول ، لما نحاول إثارة الأقاويل حولها ، وكسب عدائها ، يكفينا أن الكل يعلم ولا أحد فينا مخدوع سوى هى .

Looloo
www.looloolibrary.com

كم كانت تلك الأمور التى كانت تجرى فى تلك الأيام مزرية . لعلنى الوحيدة التى كنت أشعر بذلك الخجل منها ولها . أما هى وما كنت أراه من حالها ، إلا سدورًا بما تعتقده من أن الناس لايعرفون حقيقة مقدرتها الأدبية ، فكأنها الزوج الذى يقال عنه إنه آخر من يعلم .

ويبدو أن الرجل المسكين تبين فيما بعد أن زواجه منها لم يأت عليه بطائل سوى الكدر ، فكان ذلك الهم الأكبر الذى رزح به زواجهما بعد القليل من السنوات ، تلك الخيبة من الأمل التى ناء بها كاهله . فبعد القليل من الوقت ، عرف أنه خدع بالبريق الزائف لشخصية زوجته ، لقد بانت على حقيقتها كنبت شيطانى غير مهذب بالرعاية والتربية ، فجاءت تصرفاتها غير مقيدة بأى قانون أخلاقى يربطها بمجتمعها المحافظ ، الذى بدت له بكل سوءاتها ، فلم يرحمها ذلك المجتمع الذكورى .

فكان من تطور الحال معها ، أن من كان لديه زوجة ربأ بها عن مخالطتها ، ومن كان لديه ابنة أو أخت حرم عليها حتى إبداء إعجابها بها .

ومع ذلك وعلى الرغم من كل سوءاتها ، فقد حاول ذلك الزوج أن يصمد على أمل التغيير ، بيد أن ماجاء بعد ذلك هدم تلك المحاولة سريعًا .

جاءت البداية متمثلة بتلك الدعوة الرسمية إلى (اتحاد الأدب) من إحدى البلاد الآسيوية ، تطلب المشاركة فى مؤتمر

للمرأة ، فما كان منها إلا أن اصطفت تلك الدعوة لنفسها كالعادتها . عندئذ قرر الزوج مرافقتها إلى هناك خوفًا عليها من نفسها .

حين ذاك حدثت المهزلة التى لم يكن الزوج يتوقعها ، لقد نامت الزوجة المدللة الجميلة على المقعد المقابل للمنصة ، وهى فى انتظار دورها لإلقاء ورقتها المشاركة ، (لقد كانت تعبة لفرط ما تناولته من الخمر فى الليلة الفائتة) .

هذا ما تردّد من بعض الساخرين ، ولكنى كنت أعلم أن أى أمر من الأمور الثقافية التى تجرى أمامها ما كانت لتثير اهتمامها .

يكفيها أنها دعيت ، وسافرت ، وحضرت إلى المؤتمر ، ونشرت الصحف أخبارها ، وهذا فوق ما ترغب به ، وهو كل ما يهمها ، لذا فقد استسلمت للنعاس غير عابئة بشىء .

وعندما حان دورها حاول زوجها تنبيهها إلى ذلك .

قيل إنه كلمها ثم هز كتفها ، ولكن لاستغراقها فى النوم نفضت يده بهزة عنيفة من كتفها ، وأدارت له ظهرها وعادت إلى الاستغراق تغط فى نوم عميق .

لعلها رأت بذلك فرصة لها للتخلص من إلقاء النص تلافيًا للأخطاء التى حتمًا ستتعثر بها كالعادة عندما تقرأ ، ناصية

Looloo
www.looloolibrary.com

الفاعل رافعة المفعول ، وغير ذلك مما لا تعرفه من قواعد اللغة .

وإنقاذًا للموقف قام الزوج المغلوب على أمره بإلقاء كلمتها عوضًا عنها ، على الرغم من أنه غير مدعو ، ولا يحق له أخذ مكان زوجته .

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، فعندما عاد الزوج المغبون من فوق المنصة وجد زوجته المصون بين ذراعى رجل آخر تبدو فى حالة من الرعب الشديد .

قالت معتذرة لزوجها عن الوضع التى كانت عليه :

ـ آه ياعزيزى كنت أحلم ، بأن حربًا كانت قائمة على مقربة منى ، فصرخت مرعوبة دون وعى ، ممادعا هذا الصديق الجالس بقربى إلى ضمى وطمأنتى .

وقيل إنه أمام ذلك الجمع الحاشد ، لم يرد الزوج أن يثير فضيحة فقبل العذر من زوجته مقهورًا ، وحاول بالقسر على نفسه أن يتظاهر بتصديقها .

بيد أن الضربة القاضية التى قصمت ظهره ، جاءت فى الدعوة التالية ، عندما كانا فى أحد المحافل الأدبية المقامة فى إحدى دول المغرب العربى ، تلبية لدعوة أخرى مدعوّ بها من يمثل اتحاد الأدب ، فاصطفتها لنفسها ، أيضًا بصفتها رئيسة للاتحاد فى موطنها ، وقامت بتمثيله .

وهناك حدث كما كان يحدث فى كل مرة ، إذ ما كان منها إلا أن عبت الخمر عبًّا إلى أن تعتعت ، فلم تعد تدرى ما تقول ، أو تفعل ، وعندئذ اضطر زوجها المسكين إلى أن يحملها حملاً بين ذراعيه لإدخالها غرفتها ، وكم كان شعوره بالخزى والعار ، لتعرض اسمع اللامع فى عالم الأدب إلى التشويه ، بسبب من اقترانه بها .

ولم يطل بهما الأمر بعد ذلك إذ سرعان ما تخلى عنها ناجيًا بجلده .

وشاع عنها ، أنه فوق مالها من سوء طباع فقد ملها الرجل لسلاطة لسانها أيضًا ، فطلقها بعد تلك الحادثة المزرية ، غير نادم على شىء ، على الرغم من وجود ابنتين رائعتين له فى أحضانها .

وكان لأختى من البله الحقيقى ، بأن برهنت على ذلك دون لبس ، فقد كان الأنكأ من كل ما تقدم أنه على الرغم من وجود تينك الابنتين ، إلا أنها لم تأخذ مشاعرهما بعين الاعتبار عندما أخذت تنشر الأقاويل فى حقه ، مما لا يستحقه أديب أريب مثله .

فكان مما تقوله عنه بالقرب من مسمعهما ، إنه رجل انتهازىّ ، لم يغرم بها يومًا ، وأنه تزوج منها طمعًا بما تملك من مال ، وأشاعت أنه سرق منها مبلغًا كبيرًا من المال قدره عشرون ألف دينارًا قبل أن يفر إلى بلاده ، فكانت لا تدع جلسة أو مناسبة دون أن تنشر عنه هذه التقولات .

Looloo
www.looloolibrary.com

ولكن ما كان من أثر ذلك الفراق عليها ، أنه جف قلمها فجأة فتوقف إنتاجها بعد طلاقها ، وانفضاض أصدقائها السابقين بعد زواجها عندما كانت لم تعد بحاجة إليهم فتخلت عنهم .

وكان الوسط الأدبى فى حالة ترقب لما هى ستفعله بعد ذلك ، ماذا بعد أن نضب معينها الأدبى وأسقط بيدها ، وكان الهمس يدور بينهم ما إن تغادر مجلسها ، وربما سمعت بذلك الهمس أو لم تسمع به ، إلا أنه ما كان منها عندئذ إلا أن اختارت بعضًا من القصص المنشورة سابقًا وكونت منها مجموعة جديدة ، مطلقة عليها عنوان إحدى الأقاصيص القصيرة التى بداخلها .

فعلت ذلك لكى توهم الناس ، بأنها ما زالت على الساحة الأدبية ، فكان ذلك مدعاة إلى التندر عليها من أخلص المقربين إليها .

ثم لكى تستعيد بريقها الإعلامى سعت مرة أخرى إلى تنظيم ندوة حشدت بها جمعًا كبيرًا للاستماع إليها لتلقى بها ما أسمتها (شهادتها) ، بعد أن أضافت إلى ما كتبته فى المرة الأولى المزيد من الشتائم بحق من لم تنله فى شهادتها حين ذاك ، فشتمت أول ما شتمت زوجها الأول ، ثم عرجت على الثانى ، وكلاهما له عليها أفضال لا تنسى ، فقد أعطاها الأول حرية الانتماء ومنحها الثانى صفة الأدب ، ثم عرجت ففاخرت بعذاب طفولتها بأكثر مما فعلت فى المرة الأولى ، فمما يبدو أنها تشعر باللذة القصوى وهى تشهر بكل من له صلة بها .

يا لعدم وفائها كعادتها دائمًا .

هذا ما كان يترامى إلى أسماعى وأنا بعيدة عنها أو ما أشاهده منها عندما أكون فى مقر ذلك الاتحاد الذى تديره .

أما عن خصوص علاقتى بها فقد رزئت بها حقًا فى تلك الفترة ، فإنها لم تكتف بما جرى منها سابقًا ، فكان ثانى إجراء انتقامى أرادت تنفيذه هو طردى من اتحاد الأدب ، وكانت أول بادرة تدل على ما اعتزمته من ذلك التخطيط ، أن قامت بافتعال ذلك الحادث المخزى ، عندما دفعت بأحد العاملين فى ذلك الاتحاد إلى الشجار معى .

وعلى الرغم من أن كل شىء قد انتهى الآن ولم أعد أذكره إلا كتذكر الحلم المزعج ، إلا أننى أقسم ، إننى لم أكن سببًا فيه ولا أدرى حتى بعد مضى هذه المدة الطويلة ما الداعى إليه ، إلا بما يستدل من ملابساته .

ثم انتهزت الفرصة فأقحمت نفسها فيه ، حتى يتاح لها المبرر لكى تطردنى من الاتحاد ، على أساس المساس بكرامتها ، وهى تمثل ما تمثل فيه رئيسة له .

وبعد ذلك لم تعدم الوسيلة ، أجل لقد جاءت بقرار فصل تعسفى عند أول اجتماع لمجلس الإدارة أعقب ذلك الشجار ، ولم تكتف بذلك ، فقد لفقت لى مبررات أخرى لكى تقيم ضدى ادعاء قضائيًا .

Looloo
www.looloolibrary.com

وعلى الرغم من أنى كسبت ذلك الادعاء على الرغم منها ، وعدت إلى الانتساب إلى ذلك الاتحاد ، إلا أن معاناتى منه أخذت شوطًا بعيدًا من حياتى ، مسببة لى جرحًا لا يبرأ .

غير أنه كما تدين تدان ، لقد حدث لها مالم أتوقعه أن يحدث سريعًا .

لقد بدا نجمها فى الأفول فجأة ، عندما جاءت اللحظة الحاسمة ، فمثلما فعلت بى ، دارت الأيام ، فما هى إلا أشهر قليلة . حتى كان ما كان من أمر استقالتها بعملية أشبه بالطرد من رئاسة مجلس إدارة الاتحاد .

كان ذلك عندما أراد أحد الشباب إقامة ندوة لمناقشة عمل لإحدى القاصات المبرزات . فما كان من أختى كعادتها وقد استعرت الغيرة فى قلبها إلا أن منعت ذلك الشاب مما هو مزمع بشأنه ، وقامت على الفور باستبدال ندوة أخرى بتلك الندوة مستغلة صفتها كرئيسة ، كما فعلت معى تمامًا .

إلى هنا وقد وصل السيل الزبى بمجلس إدارة ذلك الاتحاد ، لقد أحدث تصرفها ذاك هزة عنيفة فيه ، لم تكن تتوقعها ، فهوجمت بعنف من الذين لم يكونوا يرضون بتصرفاتها الماضية ، وعندئذ ثارت ثائرتها وقدمت استقالتها من منصب الرئاسة .

وما كانت ترضى التضحية بمكانتها فى ذلك الاتحاد لو لم تكن تظن بأنها سوف تسترضى من زملائها أعضاء مجلس

الإدارة ، وتوقعها منهم الرفض لتلك الاستقالة ، ولكن خاب أملها ، فهم عند رؤيتهم كثرة مشاكلها مع الأدبيات ، قبلوا استقالتها على الفور ، وكأنهم لم يصدقوا بالخلاص منها ، أجل لقد فرحوا بتلك الاستقالة التى كانت تمثل فرصة ذهبية لإبعادها ، ليعم الهدوء .

ولكن هل حدث ذلك فعلاً ، لقد انقلبت على أعضاء مجلس الإدارة فلم تدع وسيلة من وسائل الهجوم إلا وقد صبتها على رءوسهم ، عن طريق ما كتبته فى الصحف ، وعن طريق الملاسنة بالألفاظ التى لا يمكن أن تصدر عن من أحسنت تربيته إلا لمن كان فى مثل طباعها من السوء ، ولكن لا فائدة ترجى ، فقد حجم دورها وانتهت أهميته .

وهكذا تنفس معظم من كن فى ذلك الاتحاد الصعداء لانزياح ذلك الكابوس المسلط على رءوسهن .

بيد أنها استمرت رافضة التسليم بذلك ، فكانت فى أى تجمع ثقافى ترى فيه ، عندما تسأل عن صفتها فى اتحاد الأدب لا تتورع عن الكذب ، مبادرة إلى القول بأنها رئيسة اتحاد الأدب فى موطنها دونى أدنى شعور بالخجل ، حتى وإن كان بالقرب منها من يعرف بأنها عزلت منه بما يشبه عملية الطرد .

حتى وقعت الواقعة فى نهاية الأمر ، عندما انتحلت هذه الصفة أمام القضاء ، فى أثناء إحدى القضايا المتداولة بينها وبين خالها ، فادعت بأنها رئيسة لاتحاد الأدب .

Looloo
www.looloolibrary.com

وكان ذلك ردًا على السؤال الذى وجهه القاضى عن صفتها العملية .

وهنا أمسك عليها خالها هذه الغلطة المميتة ، وهو الذى يبحث مستميتًا عن كل ما يدينها .

فاقتيدت إلى النيابة العامة مرة أخرى بادعاء التزوير فى محرر رسمى ، قال خالها :

ـ إن امرأة كهذه لايستبعد عنها انتحال شخصية ليست لها ، وهذا يؤكد بأنها ليست ابنة أختى ، فمن كذب دون حياء فى محرر رسمى لا يتورع عن الكذب آلاف المرات .

ولكن لندع ذلك إلى حينه ، ولنعد إلى ما نحن فيه .

أجل ، جلبت المسكينة بجهلها معاناتها ، التى استمرت معها طويلاً .

ولكن هل كان ذلك خاتمة المطاف بالنسبة لها ؟ إطلاقًا ، لقد تفرغت لى ولزوجى بعد أن خلا وفاضها مما يشغلها .

إذ لم يمض سوى بضعة أشهر قلائل بعد طلاقها من زوجها الثانى ، وفصلها من رئاسة الاتحاد حتى حدث ما كنت أخشاه .

كان ذلك فى ذات يوم منحوس ، ملىء بالتعاسة والألم ، عندما أحسست بدافع من الشك يقوى فى نفسى .

كان ذلك الشك يراودنى منذ فترة ، بأن ما أتوجس منه خيفة قد يحدث فى أية لحظة ، أما فى هذا اليوم فقد كان إحساسًا غامضًا أشبه بالهاجس ، ولكنه ملح لايدع لى الركون إلى الراحة والهدوء ، كان ذلك الإحساس ينبئ ، أن ثمة علاقة تربط بين زوجى وأختى ، ولم يكن لدى من دليل سوى تلك الاتصالات الهاتفية التى لا تقول شيئًا ، والتى تغلق بمجرّد سماع صوتى .

ولا أدرى حتى الآن لماذا فى هذا اليوم بالذات ، دفعنى ذلك الهاجس ، إلى الاتصال بمكتب أختى ، على الرغم من أنى لم أتلق اتصالاً غير طبيعى ، كما لم تكن لدى أية أعذار أحتج بها لتبرير ذلك الاتصال ، بعد أن باتت كل العلاقات شبه مقطوعة بيننا ، ولم تعد فى حاجة لى بعد أن توقفت الأعمال التجارية .

غير أننى اتخذت من السؤال عن بعض الشئون المالية التى يتوجب على دفعها ، عذرًا ومبررًا لذلك .

وكان فى نيتى توجيه سؤال غير مباشر إلى سكرتيرتها ، عما إذا كان زوجى يمر عليهم فى بعض الأحايين ، ولكنى لم أحتج إلى ذلك البتة ، إذ فى أثناء ما كنت أحدثها ، ترامى إلى أذنى من بعيد صوت زوجى الأجش ، الذى لايمكن أن يخطئه سمعى من بين الملايين من الأصوات ، كان يأتى من مكان ما فى المكتب الواسع ، فقلت للفتاة ببراءة تامة :

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ هل السيد (سالم) هنا ؟

ـ أجل ، هل أستدعيه لك ؟

فقلت متعجلة :

ـ كلا ، أرجوك ، لا تقولى له إنى المتكلمة ، كى لا يعتب علىّ ، لست بحاجة إليه الآن ، لدى ما يشغلنى .

لم أفكر فى تلك اللحظة عما يمكن أن تظنه السكرتيرة بى ، ولماذا يرمى إليه تحذيرى هذا فى ظنها ، فقد كنت فى انشداه داهم ، إذ لم أتوقع إطلاقًا ، أن أعرف بتردده على مكتبها بمثل تلك السهولة المباشرة .

ثم لم أدر بعد ذلك ماذا أفعل بالسماعة ، فقد أمسكت بها فترة ، وصوت السكرتيرة يأتى عبرها مناديًا ، عما أريد التحدث عنه ، فقد نسيت ما أنا بصدده من تبرير لذلك الاتصال ، ثم أغلقت الهاتف ، بعد أن يئست من ردى ، عندئذ أعدت أنا السماعة إلى موقعها بشبه فعل الآلة الصماء ، كانت فى حلقى غصة منعتنى من الحديث ، ثم هببت واقفة ، أدور فى المكتب لا أعرف الطريق إلى الباب ، وكان يتردد فى عقلى أن الذى حدث فيه تفسير لكل شكوكى .

إذن عندما منعتنى من دخول مكتبها ، كانت تريد أن تحظى بتواجده معها بعيدًا عنى ، ترى من أى توقيت كان على اتصال بها .

وكانت صرخة فى داخلى تتردد بعنف ، إذن لم يفدنى حرصى الشديد عليه ، ولم تحمه غيرتى المقيدة له .

فها هو ذا زوجى الساحر الشرير ، قد ازداد حشد النساء اللواتى يلتففن حوله واحدة .

أواه ، ويا للهول ، أنها أختى ، ليتها كانت غيرها ، ليتها .

وتوقفت أسفل درجات الطابق الأول الذى يوجد به مكتبى ، أخاطب نفسى : لماذا عاد إليها ؟ ما هو الدافع لذلك ، هل شراهته إلى امتلاك المزيد من المال ، الذى كلما اغترف منه لا يرتوى ؟

إنه لم ينس ما يطمح إليه من أموالها ، أو لعل ما دفعه إليها ما رآه من سهولة قيادتها ، وعلم أنه يستطيع أن يحقق عن طريقها ما لم يستطع تحقيقه معى .

أهى رغبته بما فى يديها ؟ ليت هذا ما دعاه إلى التواجد عندها الآن ، ليته كذلك ، لا لذلك الغرام الذى كان يجمعهما فى تلك الأيام الماضية ، والذى ظننت أنه انطفأ ، أواه قد يكون عاد إلى الاشتعال مجددًا ، ولكن الخائنة كيف سمحت لها نفسها ، سلب زوج لأختها ، ما دعاها إلى ذلك ؟ أهى رغبة ناجمة عن الانتقام ؟ هل تريد أن ترد الصاع ، لأنى من سلب حبيبها منها ، وهل أنا فعلت ذلك حقًا ؟ أليست هذا ما تريده جدتها ، ثم ألم تمنحنى موافقتها ؟ أواه لكم أشعر بالتعاسة ، ليتنى مت قبل التعرض لهذا الكم من الألم .

Looloo
www.looloolibrary.com

قفزت إلى عربتى ، وأنا ما أزال فى دوامة غبش الرؤية ، التى تكاد تجعلنى لا أستطيع تبين معالم الطريق ، كانت دموعى تنسكب مدرارًا كشلال منهمر لفرط ما انتابنى من انفعال هائج ، طيلة تلك المسافة البعيدة ، التى إلى الآن لا أدرى كيف تمكنت من السير فيها مع كل ما كان يعترينى من تلك الحالة من فقدى لنصف الوعى بكيانى ، وفى حالة تقترب جدًا من حالة الجنون ، وأظن أنه لولا ما قمت به من حث لذهنى لفهم الموقف الناتج ، ولولا عزمى على مواصلة السير لكى أظفر بهما متلبسين ، لربما سقطت فى فوضى ذهنية .

ولكن الذى لا أدريه كيف تأتى لى الاستدلال على معالم الطريق ، من ثم الوصول إلى مكتب أختى ، ناجية من أى حادث يعترضنى وأنا فى حالتى تلك ، لعل ذلك كان بفعل التعود على اتجاه السير ، فلم أجد نفسى إلا وأنا وسط مكتبها .

لم تعترضنى السكرتيرة وأنا أتوجه ناحية الباب المغلق ، كما تفعل مع الآخرين ، عندما يحاولون الدخول عليها بدون إذن ، لعلمها بأنى من يدفع المصاريف ، ومنها راتبها ، وطبعًا فهى لاتعرف الموقف المالى لأختى ، لعلها ظنت أن ما أفعله كرمًا منى .

وقفت خلسة وراء الباب ، الذى تجلس وراءه أختى مع زوجى ، أروم الاستماع إلى ما يدور داخل مكتبها الفخم ، وقد اتخذت وضع الانحناء ، متظاهرة بشد جوربى ، كى لا تنتبه السكرتيرة إلى تصرفى الشاذ فأنكشف أمامها بأنى أروم التنصت .

بيد أنى لم أسمع شيئًا ، فقد سدت أذناى ، بفعل ضجيج الدم الذى كان يضخه قلبى بسرعة تكاد تفجر شرايينه لشدة وجيبه ، لقد كان يخفق كجناح طائر ضل طريقه فوق المحيط ، أى خطأ فى ضرباته يسقطه فى اليم .

عندما اقتحمت الغرفة عليهما ، كالعاصفة الهوجاء ، دافعة الباب بعنف ، رأيت ما هالنى أشد الهول .

كانت أختى تجلس فى أحضان زوجى ، وهو يحيط خصرها بذراعه ، ويده الأخرى تربت على ذقنها بمظهر ناجم عن حنو بالغ .

حالما دُفع الباب ، دفعت بيده قافزة قفزة سريعة كمن لدغتها عقرب ، لعلها ظنت أحد العاملين يقتحم خلوتهما ، فقد كانت ترتسم على محياها علامات الغضب ، وحين رأتنى أقف على عتبة الباب مبهوتة مما رأيت ، انقلبت ملامحها إلى ضرب آخر من الحنق ، وصرخت بصلف ووقاحة :

ـ لا تظنى شيئًا ، إنه زوجى .

وعند ذاك هجمت عليها غير واعية بما أفعله ، وكنت أروم ضربها وتمزيقها شر ممزق ، غير آبهة أن أفعل ما لايصح فعله ، على مرآى من السكرتيرة التى كنت أتحفظ منها قبل لحظات ، ولم يهمنى كل العاملين ، الذين هبوا متجمعين قرب المكتب ملتزمين المكان وقوفًا فى وجوم حائر ، لايدرون من ينا صرون .

Looloo
www.looloolibrary.com

بت فاقدة لكل سيطرة لى على نفسى فى هذه الأثناء ، ولكن زوجى بادر إلى الوقوف حائلاً بينى وبين أختى ، بأن طوقنى ، وقادنى بجرنى جرًا ، وهو يدفعنى قسرًا خارج الغرفة ، وكان فى أثناء ذلك يشير إلى العاملين بيده من على كتفى بأن يعودوا إلى أماكنهم ، زاعقًا بهم بصوته الأجش ، وكأنه صاحب المكان الآمر الناهى فيه .

ثم انثنى مبديًا رقة متناهية فى القول ، لم أسمعها منه إلا فى بداية زواجنا ، ردّد :

ـ تعالى يا حبيبتى ، تعالى ، سوف أشرح لك الأمر ، كل شىء سيكون بخير ، وحسبما تريدين .

وكانت هى تصرخ وراءه :

ـ لا تذهب مع هذه اللعينة ، إنك زوجى كما أنت زوجها .

وكنت أنا أحاول التملص من قبضته لأعاود الهجوم عليها ، فلا يكون ذلك فى مقدورى .

وكان من جراء أوار ذلك الصراع الرهيب ، أنه نحن لاثنان لم يكن فى وسعنا قيادة أى من عربتينا للوصول إلى المنزل ، فنادى زوجى على سائق عربة أختى ، وهو مازال قابضًا على رسغى من خلاف ، ودفعنى دفعًا إلى داخل العربة ، وهو يقول :

ـ سوف أوضح لك الأمر ، أنه بغاية السهولة ، لا تخافى ، فقط لتطمئنى ، إنى لم أغرم بسواك .

فدفعنى حديثه إلى بعض الأمل ، لقد كنت كالغريق الذى يحاول التمسك بقشة ، أملت بأنها قد تكون كاذبة ، ولعله لم يكن زوجًا لها ، وأن مارأيته لايعدو كونه نزوة من نزوات الرجال ، وقد انتابنى شعور بالاستهانة وغض النظر عن أية علاقة غرامية بها ، فى سبيل أن تكون كاذبة ، فلا يكون زوجًا لها .

وعلى الرغم من بذلك الأمل الواهى ، إلا أن ذهنى كان مركزًا حول ذلك الشك ، الذى كان يعترينى بوجود علاقة ما بينهما ، وكيف أنه تحقق بصورة مطلقة ، لقد ظل ذلك الحدس الغامض يقلقنى لأمد ، حتى من قبل أن أفاجئهما ، وكنت أخشى إعلانه حتى لنفسى ، خوفًا من أن يصبح حقيقة فيكون حائلاً بينى وبينه ، وكنت أظن أن ذلك الخوف الذى كان معششًا داخلى لكونه نابعًا من شدّة خشيتى من عودتها إليه ، بعد وفاة زوجها الشيخ وطلاقها من الآخر ، ولكن ها قد تحققت كل مخاوفى ولم يكن ما يعترينى ظنًا من الظنون .

وعندما أرخى يدىّ ونحن فى العربة أخذت بخناقه ، مصرة على أن يقر لى بالحقيقة كاملة .

وعلى الرغم من أن الأمل بداخلى كان ضعيفًا ، إلا أن رغبتى كانت شديدة بنكران ما تدعيه أختى من واقعة زواجه منها .

وقد أفرخ أملى ألمًا ممضًا ، لما حدث بعد ذلك ، لقد اعترف زوجى بغير احتفال ، وكان يحاول التهوين من الأمر والاستخفاف

Looloo
www.looloolibrary.com

به ، قال بأنه تزوج من أختى سرًا ، زواجًا عرفيًا ، وعقّب ، أن ما دعاه إلى إخفاء ذلك الأمر عنى ، شدة محبته لى ، خوفًا وخشية من أن يتعرض زواجنا إلى زلزال يهده .

وأردف فى مواساة ، ما أشد وطأة خداعها على نفسى ، أنه ما كان ليفعل ذلك ، لو لم يكن مقسورًا على فعله ، ثم قال :

ـ إن أختى كانت تمارس عليه ضغوطًا وتهديدات ، تكاد تودى به ، لو لم يسارع إلى الانصياع لها ، ثم إن ليس ثمة ما يمنع من زواجه منا نحن الاثنتين ، خاصة ونحن لسنا أختين فى الدم .

وقال مبررًا :

ـ ألم يكن أخوك يروم الزواج منها فى يوم ما ليس ببعيد ، لو لم تقفى حجر عثرة بينهما ، لقد أخبرتنى أختك عن محاولته معها ، ثم أردف بشماتة :

ـ فعلى الأقل أنا لس بأخيها .

قال كل ذلك ، فى استهانة من يروم التظاهر بأن لا داعى لكل ما يدفعنى إلى هذه الغضبة الجائحة ، وكأن ما ذكره من أسباب ومبررات هى ما يمثل لى القضية الكبرى التى كانت تؤرقنى ، وليست لأن الغيرة تضطرم مشعلة نيرانها فى صدرى ، تكاد تحرق كل أخضر ويابس فى نبضى ، يا لقدرته على المغالطة وابتداع المواقف ، إنه يدأب على التغاضى متعاميًا عن أنى

لا أريد أن يشاركنى أحد فيه ، ثم ما هذه المبررات الواضحة الزيف التى يبديها ؟

وثارت ثائرتى ، وقد تفجرت براكين الغضب المكبوت التى تعج به حنايا ، تلك التى طال اعتصارها فى داخلى ، والتى لم أجد مبررًا لإشعالها قبل هذا الوقت ، على الرغم من أطياف الشكوك التى كانت تحوم حوله وأختى ، أما الآن وبعد اتضاح خديعته النكراء بمثل وضوح الشمس ، لم أر نفسى إلا مدفوعة كالعاصفة الهوجاء ، فى هجوم شرس أروم تمزيق وجهه بأظفارى شر ممزق ، وهو عبثًا يحاول الانفلات مبتعدًا بوجهه عنى .

وتشابكت أيدينا فى كر وصد ، مما أربك سائق العربة ، الذى اضطره هذا العراك إلى التوقف على جانب الطريق حتى نهدأ .

ولم أهدأ ، ولكن زوجى استطاع بقوته العضلية السيطرة علىّ ، والتغلب على هجومى بتقييد حركتى ، فقد أدار معصم يدىّ إلى ظهرى مرة أخرى ، وكبل رسغى بقبضته الحديدية .

فأسرنى حتى وصولنا المنزل ، وكنت أقاوم بكل ما أوتيت من قوة ، وأشتم بكل ما أعرفه من ألفاظ السباب ، ولكن للأسف لم أكن أعرف سوى القليل منها .

وهناك ، فى منزلنا ، وفى حميا غيظى وغضبى وفى فورانى ، والأنكأ من ذلك غيرتى المستعرة ، ودون أن أقدر ما ينجم من نتائج أو ردود الأفعال فيما بعد ، هددته بانتقام السيدة (سارة) ،

Looloo
www.looloolibrary.com

لأنها لن ترضى عن هذا الوضع الذى أوجد حفيدتها فيه . ثم أعلمته بفظاظة بأنى لم أتزوج منه ، إلا لأن السيدة (سارة) الجدة طلبت منى ذلك ، لأنها لم تر به كفئًا لحفيدتها .

ما كان ينبغى أن يقودنى الحنق إلى ارتكاب مثل هذا الخطأ الجسيم ، الذى نزع إلى زعزعة ثقته ، وهو الفخور بنفسه وبتأثير وقوة هيمنته على النساء ، لقد صدمته فى لحظة تلك المصارحة وأيما صدمة ، فلم يغفر لى بعد ذلك أبدًا .

وعندئذ اعتقدت طويلاً أن ما جاء به بعد ذلك من تصرف ، كان نتيجة لما صارحته به فى تلك الليلة الليلاء ، لقد بدا لى أن صدمته بى كانت شديدة على نفسه ، وهو يظن أن قبولى به زوجًا ، جاء نتيجة لخضوعى لسلطان رجولته وليس لذلك التآمر الذى كان بينى وبين السيدة (سارة) .

ومع ذلك فأنا أول من يعرف ، أن الحقيقة لم تكن إلا ما قدرها فى مبدأ الأمر ، ولكن ما يدريه ، وقد صفعته بتلك الصفعة الموجعة ، والتى كان وقعها فى نفسه مقاربًا لوقع فعلته الدنيئة فى نفسى .

بعد تلك الصراحة الفجة ، رد علىّ بضحكة صفراء متعجرفة :

ـ مهلاً ، مهلاً ، فهل كانت السيدة (سارة) كفئًا لخادمها عندما تزوجت منه ؟ على الأقل أنا لست بخادم لغير نفسى . أما أنت فلا أظن أنك تضحين بنفسك من أجل أخت زائفة ،

تنكرت لك عند أول تحرر لها من قبضتك ، بل واختطفت منك زوجك ، حالما سنحت لها الفرصة ، وأنت ما تنفكين تحلمين بمبادئك الأفلاطونية ، متعففة عن إهدار فلس واحد مما فى حوزتك لها .

وضحك ساخرًا ، وأردف :

ـ أنتما الاثنتان مغرمتان بى ، بيد أنى لم أغرم بأية واحدة منكما ، فلتفلقا الحجر .

على الرغم من أنه قد أصاب كبد الحقيقة ، إلا أننى كابرت ، معلنة له فى إصرار ، أنه لم يكن يعنى لى شيئًا ، وأنى سأقوم بفصم عرى هذا الزواج القائم على الخداع .

فبدا متحديًا ، وكأنه يقرر عجزى عن تنفيذ ما أهدد به ، أو كأن الأمر لا يهمه ، فقد قال بقسوة :

ـ افعلى ما بدا لك ، فالعصمة بيدك على أية حال ، أم أنك نسيت ذلك ؟

فصرخت وهو يدير لى ظهره خارجًا ، لعله ذاهب إليها ، من يدرى :

ـ سأفعل ، سأفعل ، سأفعل .

وظللت أصرخ بهستيرية قريبة من الجنون ، مرددة هذه الجملة ، حتى بعد مغادرته المنزل صافقًا خلفه باب غرفة النوم ،

Looloo
www.looloolibrary.com

ثم الباب الخارجى ، وإلى أن هدنى التعب ، وكان ذلك كأنى أحث نفسى على تنفيذ ما أهدّد به .

إلا أن كل ما كان فى وسعى اتخاذه من إجراء فيما تلا ذلك ، أن امتنعت عن دخول غرفة النوم معه لمدة ثلاث ليال ، وكان ذلك لأول مرة منذ زواجنا ، ولكنه لم يبال أيضًا ، فقد كان يقول لى بثقة تامة فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث :

ـ حسنًا .. عندما ترين نفسك هادئة تعالى ، فأنا فى انتظارك .

وكأنه كان على ثقة مما سوف يحدث ، إذ إنى لم أصمد سوى تلك الثلاث الليالى النكراء ، ثم انهارت مقاومتى ، ففى أحد الأصبحة ، عندما جاء يسترضينى عما فعله بى ، محاولاً ذلك بأعذار ملفقة ، مقسمًا أغلظ الأيمان ، ومرددًا ما كان قاله لى من قبل ، أنه لم يكن يريد الزواج منها ، لو لم تقم بقسره على ذلك ، لقد قال بكذب لا يخفى نفسه :

أقسم لك بكل مقدس وعزيز لدىّ ، إنى حاولت الإفلات منها ، مستعملاً كل ما لدىّ من قوة على الصدود ، ولكن لم أستطع الافلات .

وقال أيضًا إنه كان يخشى الضجة التى قد تثيرها ، مما يؤدى إلى انهيار زواجنا .

وقال أنت لا يخفى عليك جنونها ، وشدّة تعلقها بى ، وأيضًا شدة عنادها ، فيما تريد الحصول عليه .

يا لغبائه ، هل يظن بى الحمق لكى أصدق حججه الواهية ، إنه حتى لا يعرف كيف يلفق الأعذار .

ثارت غيرتى مجددًا ، وأنا أصرخ به :

ـ أعذار مكشوفة لا يسترها غطاء ، إنك تستهين بعقلى ، أتظننى بلهاء مثلها ، إنى لا أصدق هذه المررات الواضحة الزيف ، إنك السبب فيما نحن فيه ، لقد كان فى مقدورك صدها ، لو أردت .

ولكنه كرّر فى خنوع الثعلب ، دون أن تكون لديه القدرة على ابتكار الحيل مثله :

ـ صدقينى يا حبيبتى لم أستطع التخلص منها ، صدقينى .

ولم أصدقه بطبيعة الحال . بيد أنى كنت متلهفة على المصالحة معه والبقاء إلى جواره ، لقد خشيت إن أنا بدوت أكثر عنفًا قد يؤدى الأمر إلى فقده إلى الأبد ، وربما أتيح لأختى الفرصة للاستيلاء عليه دون منافس حين ذاك ، ولذا فلم أعبأ بكذبه ، وكان من الكفاية لى فى تلك اللحظة ، وقد أوشكت على إضاعته ، أن جاء يسترضينى .

وهكذا أخذت بتلك الأعذار الواهية ، فأسلمت نفسى فى نهاية الأمر إلى الواقع على علاته ، على الرغم من وضوح الزيف فى كل كلمة نطق بها ، وعلى الرغم من كل ما فى من عقل ، كان يرفض ما يبديه من مبررات ، وعلى الرغم أيضًا من حجم المشكلة التى أوقعنا بها ، أنا وأختى .

Looloo
www.looloolibrary.com

يا له من رجل سافل ، كل ما فيه يدل على ما يملك من نذالة ومكر وثعلبية فى الطباع ، ولكن ليس فى اليد حيلة مادمت أنا مصفدة بغرامه لا أستطيع منه فكاكًا .

وهكذا لم يكن فى ميسورى سوى التسليم ، وقد كان ، وكل خشيتى المرعبة من أن أفقده .

* * *

- ٢٩ -

انفرج شقائى بزوجى سريعًا ، بأكثر مما كنت أتخيله مطلبًا ، لقد كان ذلك متمثلاً فى غضب السيدة (سارة) ، لتعرض حفيدتها للخديعة من زوجى ، ولذا فقد جاء غضبها منه مناصرًا لى فى اختصار أمد معاناتى .

فبعد أقل من عشرين يومًا من ذلك الاكتشاف المؤلم ، أى تلك المعرفة التى زلزلت كيانى ، وهدت ما تبقى من قوة الاحتمال لدى ، بعد معرفتى بزواج زوجى من أختى .

جاءت بارقة الأمل فى موقف السيدة (سارة) العنيف ، لقد قامت قائمتها ولم تقعد ، لتعرض حفيدتها لخداع زوجى ، وكان ما بدا عليها من العزم والإصرار على قسر زوجى ، ودفعه دفعًا إلى تطليق أختى ، إما بالتهديد والوعيد ، أو حتى لو اضطرت إلى استعمال المزيد من القسوة معه ، كان ذلك ما أمدنى بالأمل والارتياح العظيم .

لقد قالت له بمحضر منى ، وهى تقف بالقرب من عتبة الباب الخارجى ، هامة بمغادرة منزلى الزوجى ، الذى لأول مرة تأتى إلى زيارتى فيه . قالت إنها سوف تستعمل كل ما أوتيت من قوة نافذة ، لكى تعمل على طرده من البلاد ، أو أنها سوف تسجنه لنقضه التعهد الذى أخذ عليه عند زواجه منى - ولم

Looloo
www.looloolibrary.com

أكن أعلم أنه تعهد لها بشىء ـ فهذه معرفة جديدة أحصل عليها عن زوجى الخائن .

وقالت : إن تقربه إلى أختى بعد طلاقها من زوجها الثانى مستغلاً ظروفها الخاصة ، يعتبر خيانة لذلك الاتفاق .

وقالت أيضًا : إن فى مقدورها سجنه لمخالفته أحكام الشريعة ، وجمعه بين الأختين ، فهى أى (سارة) الصغيرة ، أختى بقوة القانون ، وأنه لا يستطيع إثبات غير ذلك .

وهدّدت بأنها سوف تطارده أينما حل ، إن لم يطلقها حالاً .

ثم شفعت ذلك بتهديد أكثر قسوة ، حين قالت : إنه ربما قادها الأمر إلى أنها قد تعمد إلى فعل مالا تحمد عقباه ، فهو قد يعرض حياته للخطر إن لم يطلّق حفيدتها ، ثم أردفت فى نهاية حديثها قائلة بأنها على استعداد لفعل أى شىء فى سبيل إنقاذ حفيدتها من براثنه .

كان كل ما تفوهت به الجدة العزيزة يتناغم به الفرح داخل حنايا ، ولكنى بقيت ملتزمة الصمت دون أن تبدر منى نأمة تأييد إلى ما تقول ، خشية من إثارته فيركبه العناد الذى ربما يدفعه إلى ما لا تحمد عقباه ، فيطلقنى بدلاً من أن يطلق أختى .

وكان زوجى فى أثناء ذلك السيل من الوعيد يستمع مطبقًا شفتيه فى زومة هازئة ، ينظر إليها مضيقًا ما بين جفنيه فى نظرة تجمع بين التحدى والسخرية ، وكأنه يستمتع بانفعال

المرأة العجوز وتهديدها ، ثم مد لها يده يروم المصافحة ببرود تام ، وكأنه يحثها على المغادرة ، ولكن السيدة لم تعبأ بيده الممدودة ، وبكبريائها الخاصة رفعت رأسها بازدراء واتجهت إلى الباب ، وما كادت المرأة تضع قدمها الأخرى خارج منزلنا حتى سارع إلى صفق الباب خلفها بعنف ، لابد أنه أجفلها بغرة هذه الفعلة .

ثم عاد إلىّ مبتسمًا ونظر إلى فى تأمل عميق ، ولكنه لم يتفوه معلقًا بشىء .

فأسرعت إلى الفراش أجر الأغطية فوق رأسى وكأن لم يحدث ما حدث أمامى ، وكانت الساعة تقارب الحادية عشر ليلاً .

وذهب هو إلى مشاهدة التلفاز فى البهو ، وعندما أفقت صباحًا ، كان هو مازال نائمًا فوق الأريكة ، والتلفاز يصدر (وشًا) مضيئًا بعد انتهاء البث .

من الواضح أنه أراد معاقبتى على كل ماجاء على لسان السيدة (سارة) من وعيد .

هذا ما جرى وقيل أمامى ، أما ما تم الاتفاق عليه بينهما ، دون علم منى ، فقد جاء لاحقًا ، وقد عرفته فيما بعد .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

على الرغم من أن الموقف المتشدد الذى اتخذته السيدة (سارة) كان يرضينى فيما يتعلق بحياتى الزوجية، إلا أنه حز فى نفسى أن تدرأ الخطر عن حفيدتها بى، إن كان ثمة خطر من زواجها من (سالم).

لقد تبين لى فى تلك اللحظة، كم كانت تنظر لى كلقمة سائغة تدفع بها غائلة الوحش، لقد قدمتنى فداء لإنقاذ ابنة ابنتها من براثنه، على حد تعبيرها، لقد عاملت موضوع زواج حفيدتها، كما تعامل مواضيعها التجارية، بحساب الربح والخسارة.

كانت المرأة العجوز تقول لى مكررة: إنها تعلم متانة الأصفاد التى تكبل حفيدتها بزوجى والتى لا تستطيع لها فكاكًا، وتعلم أن حفيدتها لن تتوانى عن تلبية أى مطلب له حين تكون تحت رحمته، ولذا لن يصعب عليه سلب كل مليم فى حوزتها، وبعد استنفاذ مرامه منها، وعندئذ سوف يرميها رمية الكلاب المسعورة، فهو رجل لا يؤتمن على أى حال فأنت الأقدر على مواجهته.

ومع ذلك فلم أحقد عليها، لقد دفعت لى كثيرًا، فى مقابل إنقاذ أختى، دون أن تذكر أو تصرح، بأنه كان مقابلاً لزواجى من (سالم)، ثم إنى كنت أستمتع بتلك البراثن، وما كنت لأتردد فى أى حين عن الزواج منه، حتى لو لم يكن الأمر متعلقًا بأختى، وأنا حتى الآن لست نادمة على الارتباط به،

وقد شكرت للجدة كثيرًا فى نفسى، عنف ذلك الخوف، وذلك الهلع على حفيدتها العزيزة منه.

وأعذب ما فى الموضوع جاء لاحقًا، أى بعد ذلك الاتفاق السرى، الذى عقد بينهما خفية، والذى لم أعرف به إلا لاحقًا، والذى من أجله، اختار زوجى آمن الطرق، وأكثرها ربحًا له، فقد رضى بالترضية المالية، بحسب ما تم الاتفاق عليه بينه وبين السيدة (سارة)، فسعى إلى تطليق أختى.

ولعدم فهمى للأمر من بدايته، فقد صدقته عندما قال لى فى إحدى الليالى: إن تهديد السيدة (سارة) أخافه، ولذا فهو عازم على المسارعة إلى فسخ ذلك الزواج العرفى.

وعاد لى بعد ظهر اليوم التالى معلنًا لى أنه طلق أختى غير آسف عليها، وكان لعدم فهمى بوضوح لملابسات كل الذى حدث أن تبادر إلى ذهنى ما دعانى إلى الظن، بأن زوجى جبان رعديد لا يصمد طويلاً أمام المواقف.

فكان زواجه من أختى أقصر زواج عرفته، إذ لم يستمر سوى أقل من شهر واحد، ثم كان ذلك الطلاق البائن بغير رجعة، ولكن مع ذلك، فقد كانت السيدة (سارة) من الحصافة والحذر، بأن اتخذت إجراء احتياطيًا، خشية من عودته محومًا حول حفيدتها فيما بعد، مكررة قولها: إن له جانبًا لا يؤتمن، فمن قام بالخداع مرة، فلن يتورع عن القيام به عشرات المرات.

Looloo
www.looloolibrary.com

هذا ما أسرت لى به ، بعد أن تكشفت الحقائق أمامى فيما تلا ذلك من أيام .

وكان الاتفاق السرى المعقود بينه وبين الجدة مكتوبًا ، عكس ما كان اتفاقها معه بشأنى ، عندما طلبت منه الزواج منى ، وكان يتضمن دفع مبلغ ضخم ، فى مقابل تطليق أختى ، وتعهدًا منه يقضى بعدم الاقتراب منها ، وقطع أية علاقة له بها ، أو بأعمالها ، وأن لا يدخل مكتبها ، أو يحاول الالتقاء بها إطلاقًا ، وإن حدث ذلك مصادفة ، فإن عليه بالانسحاب من مكان تواجدها فورًا .

وكان أن أمضى ذلك الاتفاق مبتهجًا بالمال ، الذى حصل عليه .

وكانت كل تلك الإجراءات الاحترازية ، التى فعلتها السيدة (سارة) للمحافظة على حفيدتها ، قد تمت بدون علمى ، أو اطلاعى ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى ، لم لم تبح لى بذلك من بداية الأمر ؟ لعلها أرادت أن تجنبنى اكتشاف ما عليه زوجى من دناءة ، لا أدرى ، أو لعلها لا ترغب فى وضعى موضع المقارنة مع ابنة ابنتها فى منزلتها لديها ، وكأنى لا أعرف ذلك أيضًا ، ولذا كان كل ما كانت تخاطبه أمامى حول طلاق حفيدتها ، كان ينطوى على التهديد والوعيد فقط ، وكان كل ما كان يهمها هو المحافظة على بيتى من أى اعتداء ، حتى لو كان ذلك من أختى ، بل على وجه الخصوص من أختى .

وصدقت كل ما رأيت وسمعت فى مبدأ الأمر ، لو لم تتكشف الحقائق فيما بعد .

وكان زوجى من جانبه ، يبدى ندمه على خيانته لى ، مؤكدًا إخلاصه ومحبته لى ، وعلى الرغم من أنى لم أصدق حرفًا مما قاله ، إلا أن ذلك كان حسبى إلى مدعاة شعورى بالاطمئنان ، بأن أحدًا لم يعد يشاركنى فيه ، فكنت فى غاية السعادة التى لا تضاهى .

وفى مقابل ذلك ، كان امتنانى للسيدة (سارة) كبيرًا ، فقد زاد اقتراب شعورى منها أكثر من أى وقت مضى .

ونتيجة لذلك التقارب العاطفى على الأقل من جانبى ، وجهت إليها ذات يوم السؤال عما كانت تعنيه بذلك الاتفاق مع زوجى ، قبل زواجه منى ، والذى نقضه بزواجه من أختى ، والذى أشارت إليه فى حديثها معه عندما جاءت إلى منزلى فى ذلك اليوم العصيب ، ولكنها استطاعت بطريقة لبقة التخلص من الإجابة ، فلم أتمكن من معرفة ، هل هى أيضًا قامت بدفع مبلغ من المال لكى يتزوج منى ؟

إن ذلك غير مستبعد على طباع زوجى الدنيئة .

المهم ، هكذا انتهت محنتى ، فبات (سالم) لى وحدى غير منازعة عليه ، ولكن هل الحقيقة ما ساورنى فيها من ظن ؟ كلاً فبعد تكشف كل تلك الأمور ، علمت أنى تزوجت من رجل طماع

Looloo
www.looloolibrary.com

جشع ، فأمسى ذلك اليقين يعذبنى بأكثر من كل ما مضى ، كلما خطر لى خاطر أنه لم يتزوج منى أنا ، أو أختى تالية على ، إلا لما فى حوزتنا من أموال .

على أية حال فإن ما جرى فى هذا الوقت اعتبرته نهاية لمحنتى بزوجى .

ولكنها كانت البداية لمحنة أختى ، إذ إنها لم تلبث سوى سويعات قليلة ، بعد عملية الطلاق تلك ، وحال علمها بها ، حتى تبدى لنا ما أصابها من أثر تعدى حدود كل تصور لنا ، أنا وجدتها ، فقد سقطت المسكينة مغشيًا عليها ، وعندما أفاقت أصيبت بانهيار عصبى حاد ، فأخذت تصرخ بهستيريا شديدة :

ـ أقل من شهر ، أقل من شهر أحظى به ، لكم أنا سيئة الحظ لم أهنأ بحياتى يومًا واحدًا منذ بدئها ، بعد تلك الأم التى عذبتنى ، والأخت التى رزئت بها ، جاءت جدتى ناصبة من نفسها حامية لى ومسئولة عن سعادتى ، فجلبت لى الشقاء ، بمحبتها لى ، أواه يا للتعاسة ، يا للألم .

كانت تردد هذه العبارات وهى تضرب وجهها ورأسها ، لقد كانت المسكينة منهارة تمامًا ، وعندما أحست بقربى من سريرها ، بعد أن نقلت إلى المستشفى ، وكنت فى رفقة الجدة (سارة) لمساعدتها ، ما كان منها إلا أن أخذت تضرب نفسها ، أين ما كان من جسدها ، ضربًا مبرحًا يكاد يفلقها .

لقد كان تواجدى بالقرب منها يكاد يخنقها غيظًا .

وهكذا اضطررت إلى المغادرة إلى منزلى ، أحاول جهدى تناسيها ، بيد أنها لم تترك لى مجالاً يسمح بذلك النسيان إطلاقًا .

فأول ما أفاقت إلى نفسها ، مستعيدة لبعض من توازنها ، بعد أثر تلك الصدمة التى كادت تفضى إلى موتها ، والتى ما كانت توجس خيفة أن تصدر من شخص ، هو أكثر من أحبته فى حياتها حبًا ليس له قرار ولا ينضب له معين ، كما قالت فيما بعد عن زوجى وزوجها ، للمقربين منها ، حتى تفرغت تمامًا إلى شحذ كل أسلحتها لمحاربتى ، بأقوى مما كانت تفعل على الرغم من أنها لم تدخر وسعًا فى الماضى ، ولكن فى هذه المرة كان يحدوها حقد هائل يسدد خطواتها إلى الشر ، فلم تعد تخطئ الهدف .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

ـ ٣٠ ـ

ذلك ما كان يخص أختى ، أما ما يخص علاقتى بزوجى الساحر ، فى تلك الفترة العصيبة من حياتى معه ، فقد أبدى فرحة كبيرة بالخلاف الناشب بيننا ، والمشاكل المترتبة على ذلك ، فكان أشبه بالقط الذى يسر بعمى أهله ، لكى يلتهم كل ما أمامهم من الطعام ، فقد عاد إلى نمط أسلوبه القديم ، بعدما رأى ما نحن عليه ، أنا وأختى ، وقد سدت كل أبواب التفاهم بيننا ، فعاد إلى العزف على الوتر القديم ، محاولاً دفعى إلى التفريط بأموالها ، مستنبطًا إلى ذلك شتى الأساليب ، للتملص من الاتفاق الذى بينى وبين السيدة (سارة) ، للحفاظ على ما لأختى من أموال .

كان موقفه ذاك ، قد أبهرنى أشد الإبهار ، فكل هذه السنين التى عشتها معه ، لم أتبين أنه على مثل ذلك القدر من الدهاء الشرير ، إلا الآن ، غير أنه لم يجد أمامه إلا حائطًا أملس شاهق الارتفاع ، حجارته قدت من ضميرى ، لذا لم يجد فى ميسوره القفز فوقه أو تسلقه .

وعندئذ وعندما أصابه اليأس ، تحول إلى مطالبتى ببعض مما أملك ، وكأن مالدى مما يخصنى أرخص مما لدى مما يخص تلك البلهاء .

يا اللّه ، لو لم أكن مصفدة بغرامه لم أدعه فى حياتى ولو لليلة واحدة ، ياله من رجل عجيب ، كم أكرهه وأحبه فى آن واحد .

علىّ أن أذكر أن ذلك الإلحاح منه ، كان بسبب من أن السيدة (سارة) ، كانت قد منحتنى مبلغًا خاصًا بى تركته وديعة ، تدر علىّ ربحًا ثابتًا ، عندما تزوجت منه بالإضافة إلى المسكن الذى نعيش فيه معًا ، وبعضًا من العقار فى بلدى ، الذى كان يدر علىّ ربحًا ضئيلاً نظرًا لهبوط مستوى المعيشة هناك ، ولذا فقد كان أهم مالدى هى تلك الوديعة التى باتت من أهم أسباب مشاحناتى معه ، فعلى الرغم من محبتى الشديدة له ، وغرامى الوله به ، إلا أننى كنت أحس ببالغ الألم ، لمجرد أن يحاول الاقتراب مما أملك ، أو مما تملك أختى ، أجل ، لقد كنت أشعر بزخم كبير من الإهانة يصهر كبريائى ، وأنه ما كان يجرؤ على ذلك الطلب لو لم يحمل ما يحمل من الاستهانة بمشاعرى ، بل كانت نفسى تتطاير شعاعًا ، لمجرّد الظن بأنه لم يتزوج منا نحن الاثنتين ، إلا لأنه طامع بنا مستهدف لأموالنا .

* * *

ثم جاءت الضربة القاضية ، متمثلة فى المرحلة الثانية من مراحل تنفيذ ذلك الانتقام الرهيب المتملك لمشاعر أختى ضدى ، متمادية فى إشباع ذلك الحقد الأسود ، الذى أعمى بصيرتها عن رؤية أى شىء عداه .

Looloo
www.looloolibrary.com

كنت فى هذا الوقت ألحظ تباعدًا من زوجى بما يشبه تسرب الماء من بين أصابع حامله ، يحاول القبض عليه ، فلا يقبض له إلا ريحًا خالية مما يعلق بها .

وكان مما يحز فى نفسى ، أنى لم أفطن إلى السبب الحقيقى فى نأى زوجى عنى فى تلك الأثناء ، لقد كنت أخال أن كل ما جاء به من تصرف بهذا الشأن ، نتاجًا لذلك الغباء والرعونة ، التى كنت عليهما ، عندما صارحته بالسبب الذى دعانى إلى الزواج منه ، حتى اكتشفت بغتة ما هو أكثر سوءًا من ذلك .

لقد اكتشفت أن أختى ضالعة بمؤامرة كبرى ، تستهدف إنهاء زواجى من السيد (سالم) ، فقد اتفقت معه ، على أن تدفع له مبلغًا جزيلاً من المال ، إن هو هجرنى ، وعاد إلى بلاده يطالب بالطلاق .

طبعًا عرفت ذلك فيما تلا من أيام ، عندما اعترفت لى بنفسها ، أما ما قبل ذلك فقد كنت أقطع وجدانى تقطيعًا من جراء ذلك اللوم الذى كنت أوجهه إلى نفسى بسبب من رعونتها .

أجل ، لم أكن أعرف أن كل ما كنت أرزح به فى تلك الأيام من جفاء وصدود ومساومة على مقايضة بقائه معى بما أملك ، أو بما تملك هى ، إنما كان ناجمًا عن ذلك الاتفاق معها .

والجدير بذكره ، أنه على الرغم من أنه لم تجد معى أية محاولة للابتزاز ، إلا أن ذلك لم يدفع تحقق ما كنت أخشاه ، فبطريقة

من طرائقه الجهنمية ، والتى فيما يبدو معتادًا عليها فى تعامله مع الناس ، استولى فى غفلة منى على بعض ما لدىّ من مال ، بالإضافة إلى ما أخذه منها كثمن حيال تنفيذ رغبتها ، وفر هاربًا إلى بلاده .

ولم يكتف بذلك ، بل أرسل لى رسالة مهينة ناشدًا الطلاق ، قائلاً بها :

– ابحثى عن خطة جديدة مع السيدة (سارة) لعلها تساعدك فى استعادتى ، فإن لم تجدى ، فمن المهين لك أن تحتفظى برجل لا يحبك ، لذا كل ما أرجوه أن تسدى لى معروفًا ، بأن تبادرى إلى طلاقى ، فالعصمة بيدك كما تعلمين ، ولو أنيطت بى لم يطل الأمر معك كل هذه المدة ، ولعلك لا تدهشين إذا قلت لك إنى أحببتك حقًا قبل الزواج ، وكرهتك حقًا بعده ، ولعل هذه المعلومة تزيد من عذاباتك كما عذبتنى بغيرتك المجنونة .

وكان التوقيع الزوج المغبون ضحية تآمرك (سالم) .

وفعلاً فقد زاد من عذابى ، فكم كان يمضنى ذلك الظن بأنه لم يغفر صراحتى معه ، كم كنت غبية حين ذاك .

وطلقته منتصرة لكرامتى ، ولكن كان ذلك بقلب دام ، ومشاعر جريحة لا تعرف الالتئام .

Looloo
www.looloolibrary.com

وقد بقيت بعده فى منزلى لا أغادره يغشانى شعور عميق بالخواء ، وقد غدا كل ما حولى أجوف ، وباتت الحياة مجدبة ، لقد أفل منها كل ما يجلب الفرح والسرور .

ثم فى حميا أحزانى التى لا تنقشع ، جاءت المرحلة الثالثة من مراحل ذلك الانتقام الرهيب .

كان ذلك متمثلاً فى اتصال هاتفى من أختى ، خلت للوهلة الأولى لدى سماعى لصوتها ، أنها تريد مالاً أو خدمة ما تعجز عن تدبرها بنفسها ، فهى لا تلين إلا من أجل ما يفيد ذلك كالعهد بها دائمًا ، وكنت لفرط أحزانى أنوى المهادنة ، فليس لدى الآن ما يدفعنى إلى المزيد من المشاحنات معها .

ولكن ما إن تبادر إلى ذهنى هذا الظن ، حتى تبدد بسرعة البرق ، فقد رفعته عنى بقسوة مقتدرة ، حين تضاحكت قائلة :

ـ أتدرين من جعلك تطلقين زوجك ؟

فقلت متسائلة ، وشكة دامية توخز صدرى :

ـ من إن لم يكن هو ؟ لقد طلب منى ذلك ، فنفذته له .

فضحكت بسخرية :

ـ ترددين عنى قول أمك بأنى بلهاء ، انظرى من تكون ، أن لم تكونى أنت ؟

فقلت ، وقد زاد قلبى انقباضا لهاجس بدأ يضرب نطاقه حولى :

ـ لن يهمنى من يكون أوعز له بذلك ، ثم لا تنسى بأنى أختك الكبرى ، ويتوجب عليك الاحترام على الرغم من كل ما حدث بيننا ، ثم إنه لم يرد على لسانى مثل هذا القول عنك إطلاقًا .

وكنت صادقة ، فأنا لا أذكر بأنى نعتها بالبلهاء ، إلا فى هذه الحكاية المؤلمة .

فقالت بتحد :

ـ بل إنك قلت لزوجك الذى طلقك بأنى بلهاء وكتبت ذلك فى روايتك الأخيرة التى قصصت بها حياتى دون حياء ، إذن فاعلمى أن التى سعت إلى تطليقك منه ، هى أنا ، لقد دفعت له مبلغًا من المال لكى أجعله يطالبك بالطلاق ، وقد أحسن فعلاً عندما أضاف إلى ما دفعت له ، ما سرقه منك .

بهت وبهرت ، فأنا لم أخبر أحدًا بأمر ما سرقه منى ، فقلت :

ـ آه . فأنت إذن من حرضه على طلب الطلاق ، لقد سعيت للوقيعة بيننا ، على أية حال شكرًا على ما نالنى من عرفانك بالجميل يا أختى .

فضحكت ساخرة وردت :

ـ أى جميل قدمته لى أنت ، أو أمك التى ترقد فى جهنم ، أو أبوك ذلك الجبان الرعديد ، الذى يرتجف فزعًا لمجرد سماعه لصوتها الراعد ، ماذا فعلتم لى غير أنكم جعلتمونى أعيش الذل

Looloo
www.looloolibrary.com

كاملاً تحت نيركم ، دعك من ترديد أفضالكم علىّ ، ثم إنك لست بأخت لى ، فلا ترددى هذا القول .

ثم أردفت بهزء :

ـ لو كان يحبك حقًا كما تدعين ، لما قبل النقود منى .

ثم أغلقت سماعة الهاتف قبل أن أتمكن من الرد .

حط علىّ شعور بالغبن لامزيد عليه ، فمادت الأرض تحت قدمى ، لقد كنت حتى هذا الوقت أفتقده بصورة رهيبة ، فمازال حضوره بهيئته لايغادر مخيلتى أينما حللت فى بيتى ، وصوته الأجش مافتك يرن فى أذنى مطالبًا بشىء ، أو آمرًا بآخر . يالله للوعتى ، وأنا أستمع إلى ذلك الحديث منها ، الذى ضاعف عذابى ، وأنا أتخيل ماذا كان يمكن أن يتهيأ لى من نعيم العيش معه ، لو لم تتدخل هذه البلهاء هذا التدخل المزرى الذى حطم حياتى العاطفية ، والتى أظن أنها لن تقوم لها قائمة فيما بعد .

وأحسست عندئذ بضراوة من المقت يعتورنى نحوها ، ومع أنى كنت أكرهها فى مامضى ، ألا أنه كلما نالتنى إساءة منها ، أحس أن ما كنت أشعر به من مقت لم يعد يكفى فأتمادى إلى مالامزيد عليه .

وبناء على ما أنا فيه الآن ، أنه لم يعد يكفى إسقاطها من حسابى شكليًا ، كما كنت أفعل من قبل ، بل بت عندما ألتقيها فى أى مكان أصد عنها عازفة عن النظر إلى وجهها ، وعندما

أضطر إلى النظر إليها ، أفعل كما لو كنت أنظر إلى حشرة مؤذية تحمل فى مجساتها ماتحمل من سم زعاف ، وأحيانًا أغادر متخلية لها عن المكان . وكان المكان الوحيد الذى تكون فيه احتمالية لقائنا هو مقر (الاتحاد) فحسب ، الذى كنت أحضر به بعض الندوات .

فكان ذلك الصدود الذى يتسم بالاحتقار لشأنها يثيرها ويغضبها ، ويزيد من حدة طباعها ، فتستشرى ألفاظها الملغزة ويزداد تهامسها مع من يكون بقربها ، يا لغبائها ويا لغلظة مداركها ، لعلها كانت تتوقع منى الركوع .

* * *

ومرت بى بعد ذلك أيام عصيبة حالكة السواد أكثر مما كانت عليه عند بدء الطلاق ، لقد عانيت فيها آلامًا مضنية لزمن طويل ، قد يعز علىّ التصديق لما فيها من معانات ممضة ، نتاجًا لذلك الذى حدث ، لم أجد خلالها انفراجًا ، إلابعد مرور أيام تالية أطول منها ، عندما آلت الأمور إلى مالم أتوقعه ، فأدخل إلى قلبى راحة اليأس .

بيد أنه كان يأسًا ممزوجًا بالشماتة ، إزاء ماصارت إليه الحال بعد ذلك .

وعلى الرغم مما فى قولى هذا مما يتنافى وأدنى شعور بالإنسانية ، فأنا لاأخفى سرًا ، أن حالة الشماتة تلك هيمنت

www.looloolibrary.com

على هيمنة كاملة ، فقد أصبح وجدانى مليئًا ، بفرحة سوداء ، إذا ما كان للفرح لون .

لقد فرحت لذلك الحدث ، الذى ما كان متوقعًا ، أن يأتى هكذا سريعًا وبمثل هذه العجالة ، وكأنه جاء فقط ليقتص لى ، فيقضى على كل ما كان يخيفنى ، مدخلا اليأس يهصر قلبى بتلك الراحة المتسقة ، بأسرع مما كنت أصبو إليه ، وذلك بإبعاد (سالم) عن كل امرأة أخرى ناهيك عن أختى .

تلك الراحة التى ما كنت أجدها فى كل ما يحيط بى ، لو لم أفقده وتفقده هى ويفقده كل الذين أحبوه أو كرهوه .

إذ إن الموت لم يمهل (سالم) ، سوى أشهر قليلة بعد طلاقه منى ، لكى يهنأ بحياته بعيدًا عنى .

وقد لا أخفى سرًا أيضا ، إذا قلت إن أكثر ما عاد علىّ بالراحة من موته انتفاء ذلك الارتياع الذى كان مستبدًا بى يمضنى العذاب ويكاد يفقدنى صوابى ، خوفًا من أن تستعيده أختى ، بعد ما تكشف لى من أمر اتصالهما ببعضهما ، بعد اعتراف أختى بذلك التحريض على طلاقى منه ، ثم معرفتها بحادث السرقة وهذا بحد ذاته يدلل على عمق الروابط التى باتت تربطهما معًا ، فضلاً عما تناثر إلى سمعى من أنه دائم الاتصال بها هاتفيًا فى مكتبها أو فى صالونها الأدبى كما تحب أن يسمى سرداب جدتها ، دون علم الجدة الطيبة التى بات تعهده لها بعدم الاقتراب من حفيدتها غير ذى جدوى ، بعد أن غادر البلاد

بمحض إرادته ، وليس مطرودًا منها كما كانت تهدد به فيما مضى .

وكنت مرعوبة لعدم قدرتى على استكناه المرحلة التى سوف تلى ذلك ، لقد كان أخشى ما أخشاه أن تفر أختى هاربة إلى حيث هو ، فهى قادرة على كل ما لا يتوقع من فعل ، غير عابئة بشىء على الإطلاق .

لم يكن فى ميسورى أبدًا استقصاء ما تضمره فى طواياها ، فهى مفتونة به ، لم تنس غرامها يومًا واحدًا ، ثم إنه ليس بالرجل الذى ينسى .

ثم جاء ذلك اليأس ليجلب معه تلك الراحة ، إلا أنها راحة أضرمت سعيرًا من نوع آخر من الأحزان ، أكابدها فى أحشائى ولا يخمد له أوار .

* * *

Looloo
www.looloolibrary.com

-٣١-

ولكن بمضى الأيام حاولت أن أنفض عن كاهلى ما كان يثقله من هموم ، وحاولت أكثر من ذلك تناسى ما مر بى وأختى من نزاع على الرجل الذى أحبته كل منا حبًّا يقارب الجنون ، وجاهدت على أن أخفف من عبء الضغينة التى كنت أحملها لها ، وفعلاً بدا يخف وجدها وتزايلها حدتها ، فلم تعد تحتدم فى داخلى كما فى السابق ، ولست أدرى إن كانت هى الأخرى حاولت تناسى آلامها وأحقادها ، فقد كانت العلاقات مقطوعة بيننا ، وبقينا على ما نحن عليه من تباعد وجفاء .

وبعد عام ونيف على تلك الأحداث ، وقد أشرفت على السادسة والثلاثين فى خلال هذه المدة وتزوجت للمرة الثانية من مواطن من هذا البلد وكان رجلاً رائعًا موزون الفكر وإن لم يكن ساحرًا مثل الذى قبله ، وقد أنجبت منه طفلة جميلة وعشت معه حياة الدعة والطمأنينة ، على الرغم من أنى لم أغرم به يومًا .

ولعل من تصاريف القدر العجيبة ، أنه وأنا الأجنبية كما يدعوننى فى هذا البلد ، اكتسبت الانتماء إليها ملحقة بزوجى مثل أختى تمامًا .

وعندئذ انتميت بصورة أصيلة إلى اتحاد الأدب فى عقر دارها .

* * *

وحالما عرفت أختى بهذا الأمر . علمت أنا أنها لم تنس ما مر بنا كما قد توهمت ، وأنها لم تغفر لى مطلقًا اعتقادها بأنى المسئولة الأولى عن كل محنها ، سواء ما كان منها فى السابق أيام طفولتها المعذبة ، أو ما جاء لاحقًا مما كان ثمارا لحرص جدتها عليها ، ومن ثم اضطلعت بكل وسيلة للتنغيص علىَّ ، فدأبت علىَّ مناوشتى من خلال الصحف تصول وتجول منفثة سمومها فى ضراوة لا مزيد عليها .

فكانت تلك الأحاديث غير الموزونة التى كانت تجرى على لسانها بمناسبة أو بدونها ، وعلى الرغم من كونها أزيحت من رئاسة الاتحاد فإن آخر ما جاء على لسانها ادعاؤها بأننى لولاها ما ضممت إليه ، فاستنهضت غيظى مرة أخرى بما لا يقبل المزيد .

فما كان منى وأنا فى خضم ذلك الغضب المكبوت الذى طال اعتصاره فى حناياى ، إلا وقد قررت أن أخرج من صمتى مجازفة بأن السيدة (سارة) لن ترى ما سوف أرد به عليها وقد داهمتها الشيخوخة ، منشغلة بمشاكلها الصحية عن كل ما عداها ، فبعثت بالمقال التالى إلى إحدى الصحف قلت فيه :

على الرغم من تنحى المدعوة (عاتكة نبيل) من رئاسة الاتحاد إلا أنها دأبت فى لقاءاتها الخاصة والعامة على القول بأنها من ضمنى إلى عضوية اتحاد الأدب ، وكأنها لم تتنح بما يشبه عملية الطرد ، وحتى لو لم تزل جدلاً ، فثمة أعضاء

Looloo
www.looloolibrary.com

آخرون فى مجلس الإدارة ، لعلها لا تعلم أن صوتها ليس إلا واحدًا من تسعة فى كل عملية اقتراع ، وأن رأيها بمفردها لن يقدم أو يؤخر .

ثم إنى لم أسمع مطلقًا أيًا من أعضاء الاتحاد من فاخر بأنه من ضم هذا أو ذاك إلى عضوية اتحاد الأدب ، لأنه يعلم أن ما يشفع للأديب فى عملية انضمامه لأى تجمع أدبى ما يقدمه من تلك الأعمال .

بيد أن المدعوة أعلاه بجهلها أصول العمل بذلك الاتحاد ، دأبت على الفخار على نسب كل أعماله إلى نفسها ، وبأنها ذلك الاتحاد بمجمله .

مع أن وجوده ممتد على مدى خمسين عامًا مضت ، كلها انقضت فى وئام قبل انضمامها إليه ، ولم يسمع منه أو عنه ما سمع فى هذا العهد ، وأنه لم ينقلب الشأن به ويحدث ما حدث بين أعضائه من شقاق إلا منذ خمسة أعوام ، وصل بهم فى نهاية الأمر إلى المقاضاة ، وعلى أية حال فإن كانت ترى فى ضمها لى شرفًا لمكانتها الأدبية ، فأنا أعلن أنى لا أرى ما تراه ، أى لا يرفع مكانتى الأدبية ترشيحها لى .

أما عن تفاخرها الثانى بأنها حضرت كثيرًا من الملتقيات العالمية لكونها اتحاد الأدب بذاته ساعيًا إليها على قدميه ، وأنه مستغنٍ بها عمن عداها ، فذلك لأنها تسعى جاهدة إلى لقاء المسئولين عن تلك الملتقيات ، وتركع باذلة توسلات بأكثر مما

تعف عنها الكرامة الأدبية ، تفعل كل ذلك لكى تدعى إليها ، وأن غيرها لا يقوم بما تقوم به ، ثم هل كان حضورها فاعلاً ومشرفًا للبلد الذى تمثله .

فليس ببعيد عن الذاكرة ، ذلك المؤتمر الذى أقيم فى تلك الدولة الأسيوية لتمثيل المرأة الأدبية . فصعدت إلى المنصة ونزلت ولم تقل شيئًا ، حتى قراءة الورقة ، فضلاً عن مناقشتها ، بل نامت وحلمت ، وضمها أحدهم عندما أفاقت فزعه من حلمها المرعب .

هذا بشهادتها عن نفسها فى إحدى الصحف بعد عودتها من ذلك المؤتمر مبرزة صورتها فيما هى ممسكة بالسيكار ، ومن أراد القياس على بقية المؤتمرات فليفعل .

إذن ليست الدعوات إلى حضور المؤتمرات ما كانت تستميت فى الحصول عليه ، إن كل ما كان يهمها أن تدعى وأن تتحدث الصحف عن ذلك ، وكانت تستأثر لنفسها بضيوف الاتحاد ليس بغرض الاستمتاع بحديث الأدباء ، فالكل يعلم ما يحدث عندما يحل أحد الأدباء العرب ضيفًا على ذلك الاتحاد يتحرى عن وضع الأدب هنا ، إلا وكانت هى الوحيدة التى تستقبلهم إلى أن تودعهم ، دون أن تدع لأحد فرصة التواصل معهم ، مع أنه يوجد سكرتير يمكنه استدعاء الأدبيات عن طريق الهاتف وحشدهم ، لكى يتلقى الزائر فكرة مشرفة عن الأدب هنا ، ولكنهم يأتون ويرحلون دون علم أى من الأدبيات ، فلا يلتقون

Looloo
www.looloolibrary.com

إلا بها ولا يحاورون سواها ولا يكتب إلا عنها ، فهى ممثلة الأدب هنا ، والأدب لا يتمثل إلا بها .

أما عن تحديها الذى ذكرت به ، أنها لم تمنع أحدًا من الوقوف على المنصة على حد تعبيرها لإلقاء محاضرة أو إقامة ندوة ، فأنا أقبل التحدى ، وأقول أنًا أول من منع .

لقد كان محددًا لى من قبل رئيس اللجنة الثقافية موعدا لمحاضرة بعنوان ـ الفكر المزدهر ـ فتعدت على اختصاص رئيس اللجنة الثقافية وبصفتها رئيسة لذلك الاتحاد ألقت محاضرتى ، واتصلت متعجلة بالدكتورة (نورة) قائلة إنه ليس لديها من يحاضر ، وأن هناك جمعًا آتيًا للاستماع كالعادة ، ولذا فهى تطلب منها النجدة .

فجاءت الدكتورة معتذرة عن تبعثر أوراقها ، لأنها دعيت على عجل ، وهى لا تعلم أنها استبدلت بى إلا بعد الانتهاء ، فقدمت لى اعتذارها ، فقبلته بطبيعة الحال ، لأنه ليس لها صلة بالمهازل التى كانت تحدث .

والأكأ من ذلك ، أنه عندما قدمت شكوى بهذا الخصوص ، تنصلت من مسئولية ما عملت ، محتجة بأنها ليست رئيسة اللجنة الثقافية ، وكأننا لا نعلم بما يجرى بعيدًا عن المسميات .

* * *

وما مرَّ بى مرَّ بالعديد من الأدبيات ، ولكن لن أتحدث بلسان أحد ، ويكفى ما تناقلته الصحف فى هذه الأيام ، وكانت الصحف

قد نقلت خبر رفضها لمحاضرة تناقش مجموعة قصصية لإحدى الأديبات .

ولم تكتف المذكورة أعلاه بما أوردته سابقًا ، بل أتت على ذكر اسمى كرة أخرى فى نفس الصحيفة ، وهى تتحدث عن صدامها مع منتقدى كتاباتها الداعرة ، وكأنها تدافع عنى ، ولكن لرغبتها فى المقارنة بى ، مع أنى لا أكتب فى ذات المنحى الذى تكتب فيه ، وثمة بون شاسع فيما تطرحه من إسفاف وما أطرحه من أفكار ، ولا أرتضى مطلقًا أن يقرن ما أنتجه بما تنتجه هى .

وأقول فى النهاية محذرة إن فى جعبتى الكثير ، فإن لم يعجبها الرد بقلمى ، فلتكف عن ذكر اسمى ، خاصة وأنا لا أتحدث إليها إطلاقًا ، وأتجاهلها فى كل مكان أراها فيه ، وكأنى لا أرى شيئًا .

كان ذلك المقال الذى تلقفته الصحيفة وأبرزت له مكانًا فى صدارتها ، كان خطأ كبيرًا صدر منِّى فى حق ما أريده من وئام بينى وبين السيدة (سارة) ، إذ لم يمض على نشره سوى سويعات قلائل ، حتى رن الهاتف فى منزلى فكانت الجدة تدعونى إليها على عجل ، فتوجهت منقبضة القلب وقد أوجست خيفة من أن تكون قد اطلعت عليه .

وكم ساورنى الندم طيلة الطريق ، على أنى من بادر إلى فضح سوء العلاقة بينى وبين تلك البلهاء .

Looloo
www.looloolibrary.com

كانت السيدة (سارة) وحدها فى المنزل ، وهى متوعكة ، ملازمة للفراش من مدة ، ولكنها ما إن رأتنى حتى دعتنى إلى الجلوس على جانب فراشها كما فى السابق عندما كانت فى أوج صحتها وحيويتها ، غير أنها لم تكن باشة مثلها حين ذاك ، وقبل أن يسخن المقعد تحتى ، بادرت إلى القول المباشر ، وهى تحاول مداراة غضبها المكبوت :

ـ ما الخطب بينك وبين أختك ؟

لم أدهش لهذا السؤال فقد كان متوقعًا منذ أن دعتنى إليها على عجل ، وقبل أن أجيب مدت يدها المعروقة إلى مجموعة من الصحف مركونة على مقعد إلى جوار سريرها واستتبعت :

ـ لماذا فضحت أختك بهذه المقالة ، ولماذا تنعتينها بالمدعوة ، وكأنها مجهولة النسب ؟ وعندما استعملت اسمها اخترت لها اسمها القديم (عاتكة نبيل) وكأن ليس لها اسم غيره ؟

فقلت على عجل :

ـ لأنه الاسم الرسمى المعترف به لها .

ولكنها لم تأخذ بعذرى فقد أردفت بغضب أكثر :

ـ ثم لماذا تبخسينها إنسانيتها فى آخر المقال بنعتك إياها بالشىء ؟

فلم أقدر على الدفاع إلا بقولى :

ـ كيف هذا ؟

فردت :

ـ ألم تقولى (أتجاهلها فى كل مكان أراها فيه ، وكأنى لا أرى شيئًا) ، هل أختك باتت فى نظرك شيئًا ؟

فقلت ، وقد بدأ العرق ينبجس من ظهرى :

ـ ربما كانت خطأً فى التعبير .

فقالت بغضب أكثر :

ـ لم أعهد بك التنصل مما تفعلينه ، كلاً إنها ليست غلطة ، فأنت دائمًا تعرفين ما تقولين ، إنما أنت حاقدة عليها حقدًا كبيرا ، لا أدرى لماذا لم أفطن إلى ذلك ؟

منذ مدة ، وأنا أشعر بأنكما متباعدتان ، ولكنى كنت أثق بمحبتك لها ، كنت أظن أنها هى من تفعل ذلك بسبب من تلك المشاكل القديمة ، لعلنى بت عجوزًا بما يكفى لعدم انتباهى .

احترت بماذا أرد على هذه العجوز الطيبة ، لقد شعرت بأنى خذلتها .

ثم مدت يدها إلى روايتى الجديدة ذات المغزى التى كانت تقص مراحل حياة أختى ، ولم أكن أهديتها نسخة ، ويبدو أنها فهمت من أعنى فى تلك الرواية ، ولكن الذى لم أفهمه فى بادئ الأمر ، كيف عرفت ذلك ، وكنت أحسبها أنها باتت مشغولة بالعناية بصحتها بعد تدهورها فى الآونة الأخيرة ، عن متابعة

Looloo
www.looloolibrary.com

شئون الأدب ، ولم يدر فى خلدى أن أختى من لفت نظرها ، لما كنت أراه من حرصها فى السابق على إبعاد جدتها عن معرفة أى موطن لأى خلاف ينشب بيننا ، وقد عزز هذا الظن فى نفسى ، وأنا أرى أن السيدة تدبرت لهذا اللقاء بينى وبينها فى الوقت الذى لا تكون أختى موجودة فى المنزل .

قالت مرة أخرى :

ـ لماذا أنت حاقدة على أختك إلى هذه الدرجة ؟ هذا يبدو واضحًا فيما قلته فى هذا النثر .

فوجئت مرة أخرى ، فهذا لم أتوقعه ، إذ لم يخطر لى على بال أن السيدة (سارة) ستقرأ هذه الرواية ، وهى على ما هى عليه من مشاكل صحية وبعد أن كل بصرها .

وعندما تساءلت عمًا دعاها إلى مثل هذا الظن ، مدت لى يدها حاملة الرواية مفتوحة على الصفحة التى تحمل ذلك النثر الموسوق الذى أصف به أختى ، وما هى عليه من لؤم وخبث تعدى حدود ما تملكه أكثر الحاقدات طرًا .

وكان ذلك للتنفيس عن غيظى الذى لم يكن فى ميسورى إبداؤه ، بصورة علنية فى ذلك الوقت ، إرضاء للجدة ، ومحافظة على سير الأمور بيننا .

وقالت آمرة :

ـ اقرئى .

وبصوت مرتعش خجلاً منها أكثر منه رهبة ، قرأت :

(من جبل من طينة اللؤم ، فلا غرابة أن نراه . فى طبعه لا بريم .

فالخبث فى طويته منذ مولده ، ولا يزال معه طيلة حياته مستقيم .

باق معه لا يبرحه ، حتى موت اللئيم مقيم .

فلا تورق شجرة فوق قبره ، إن الثرى بالعدوى سقيم .

ولا نهر يجرى فى أرضه ، ولا طير مغردًا فى تنغيم .

وحتى الهواء من بقايا أنفاسه ملوث ، أنه عدو للحياة ذميم) .

وحالما انتهيت من القراءة ، وقد جف سقف حلقى ، عادت إلى تساؤلها :

ـ لماذا أنت حاقدة على أختك إلى هذه الدرجة ؟

لم أر بدًا من الكذب ، على الرغم من كراهيتى الشديدة له فقلت بحرج شديد :

ـ لم أكن أعنيها .

فقالت بتأكيد :

ـ إن قلم الكاتب مرآة نفسه ، فإن لم تعنيها ، فمن تعنين إذن ؟

Looloo
www.looloolibrary.com

فقلت :

ـ ألا يكون زوجى السابق مثلاً ؟

فردت بسخرية مخيفة :

ـ مثلاً ! ولما لا تكون هى ، لما لا تكون أختك ، وقد تسببت فى طلاقك منه ؟

فقلت فى دهشة ناسية نفسى :

ـ هل عرفت ؟ من أخبرك بأنها كانت السبب فى طلاقى منه ؟

ـ هى ، لقد أخبرتنى بكل ما فعلته بك ، لقد أجدتما إخفاء أمر خلافكما طويلاً ، ولكنها أخبرتنى أخيرًا ، لكى تطلعنى على مدى كراهيتك لها .

وبعد فترة صمت وجيزة ، مررنا بها نحن الاثنتان ، فأنا حائرة لم يعد فى جعبتى ما أرد به معتذرة ، وهى ربما كانت تعد فى ذهنها ما تريد قوله دون أن تجرحنى أو تشعرنى بالحرج ، ثم قالت فى عتاب :

ـ لقد وثقت بك ، وكان من الواجب أن تطلعينى على ذلك الخلاف من بدايته ، ربما تلافيت الأمر قبل استفحاله ، أنا لا أقرها على ما فعلته بك فأنا أعرف أن لديها القليل من الاندفاع ، ولكن كان من الواجب إخبارى عن خلافكما .

ونظرت لى منتظرة ردى ولكنى كنت أردد قولها فى نفسى ـ القليل من الاندفاع ـ يا للجدة الطيبة ، ورفعت صوتى ، فقلت بتسليم من ليس له بد :

ـ لم أرد إيلامك ، ثم إنه لو كان يحبنى حقًا ـ كنت أقصد زوجى السابق ـ لما أغرته بتركى أموال العالم أجمع ، ثم إنه توفى ، وتزوجت رجلاً آخر ، وليس ثمة سبب وجيه لاستمرار الخلاف بيننا .

فقالت السيدة :

ـ إنك تحبين زوجك السابق بعمق ، برغم سوء طباعه وخياناته ، ومثل هذا الحب يكون غافرًا لكل أخطاء المحبوب ، وأظن أن هذا الحب قائم حتى بعد موته ، وزواجك من آخر ، والدليل على ذلك هذا النثر ، الذى يدل على ما تكنين لأختك من حقد دفين ، أجدت التنفيس عنه .

فقلت :

ـ إطلاقًا :

فتساءلت بإلحاح :

ـ وهذه الرواية ؟

فرددت بتساؤل آخر :

ـ ما بها هذه الرواية ؟

فنظرت لى طويلاً ، ثم عقبت :

ـ إن سطورها تقص مراحل عمر أختك ، ومامرت به بوضوح تام ، فأنت حتى لم تنسى الإشارة إلى ذلك الحادث ، الذى حدث

Looloo
www.looloolibrary.com

لأختك فى أحد أشهر رمضان ، عندما اقتيدت إلى مركز البوليس لإعلانها الإفطار بتدخينها سيجارًا فى أثناء النهار ، وهى ذاهبة لشراء سجادة للسرداب الذى ستقيم به صالونها الأدبى ، حتى هذا لم يفتك الإشارة إليه .

فقلت مبهورة من المفاجأة :

ـ هل علمت ، من أخبرك أنها اقتيدت إلى مركز البوليس ؟

فردت العجوز ساخرة لأول مرة فى أحاديثها معى :

ـ أختك ، لم تدع شيئًا مما مر بها معك ، إلا وأخبرتنى به .

فقلت :

ـ إذن ، فقد أرادت إثارة الفتنة بيننا .

فقالت العجوز بحزم :

ـ لا توجهى اللوم إليها ، لقد نالها ما يكفى من العذاب فى طفولتها وشبابها المبكر ، وزدت أنت العبء عليها بلجوئك إلى كشف سوءتها بهذه الرواية المجحفة ، التى لن يخفى مغزاها على أحد ، إنها ستكون نادرة الأدباء حول أختك المسكينة ، ثم إن كانت هى أذنبت بحق ذويها الذين ربوها ، بسبب مما أصابها من تدهور ذكاؤها لما تعرضت له من معاناة فى طفولتها ، فما عذرك أنت ، وقد كلت لها الصاع صاعين بفضحها فى هذه الرواية ؟ لقد كان الجدير بك ، عرفان الجميل كما تطالبين تقديمه لك منها ، فلم لم تقدميه أنت من أجلى أنا على الأقل ، لماذا لم تغفرى الإساءة منها ، إن كانت حصلت كما تدعين ؟

لفتت انتباهى جملتها الأخيرة ـ كما تدعين ـ إذن هى لم تر فى تهجم حفيدتها على والدى ما تدان به ، ومع هذا لم أرد ، كما لم أبادر إلى أى اعتذار ، لقد خشيت إن أنا حاججت هذه الجدة الولهانة بحفيدتها ، مبدية أن لا ذنب لى فيما حصل لأختى فى طفولتها ، أن يتشعب بنا العتاب إلى مالا تحمد عقباه ، وعندئذ أخسر الجدة ، بعدما خسرت الحفيدة ، فينتهى كل شىء بيننا ، ولذا فقد قسرت نفسى على التزام الصمت ، واكتفيت بالاستماع إليها وهى تقرعنى ، وأنا منكسة الرأس .

* * *

عدت إلى منزلى ذلك المساء مقرعة وإحساس بالمهانة يلفنى ، وأصداء من أحاديث الجدة تتردد فى ذهنى .

إذن فقد فهمت السيدة (سارة) ما قصصته فى الرواية عن حياة أختى ، على الرغم مما حاولته من تورية ، ومع ذلك ما كان لها أن تعرف ، لو لم تنبهها إلى ذلك تلك البلهاء ، لقد كشفت ما بيننا من سوءة ذلك الخلاف ، لكى تقنع جدتها ، بأنى بت خطرًا على ما أودع لدى من أموال تخصها ، إن هدفها واضح ، إنها تريد أن يحول كل ما فى حوزتى إليها .

لقد كانت تلح على جدتها بأن تدير كل أموالها بنفسها ، بعد أن بات فى مقدورها أن تتملك ما تشاء ، منذ أن حصلت على مواطنتها منذ زواجها الأول .

Looloo
www.looloolibrary.com

أجل ، ما كانت لتجازف بإطلاعها على حقيقة خلافنا على هذه الصورة المكشوفة تمامًا ، لو لم تكن تهدف إلى الإسراع فى استرجاع ما فى يدى من أموال تخصها .

ولكن هل تفعل الجدة ما ترغب به حفيدتها ، هل تستعيد كل ما لدى منه ؟ لا أدرى .

أما الآن وقد عرفت السيدة (سارة) ، فلم يعد فى وسعى ما أفعله تجاه هذا الأمر ، فلزمت بيتى بعيدًا عنهما .

ولكنى عرفت منذ تلك اللحظة بأنى فقدت جل عطف السيدة ، بعد كل هذه المدة الطويلة من الصداقة الوطيدة ، لقد استطاعت حفيدتها أخيرًا أن تؤلبها على ، وها هى بوادر الجفاء قد ظهرت .

وكما لم أتوقع فى ذلك المساء ، بعد عودتى من آخر زيارة لها فى منزلها ، إذ لم تمض سوى أيام قلائل ، ثم اتصل بى محامى الجدة (سارة) يدعونى إلى مكتبه ، لأمور تتعلق بالأموال التى فى حوزتى ، وتخص أختى ، فخمنت أن الساعة أتت ، هذه بادرة السعى إلى استرجاع أموال أختى من يدى ، ولم يطل بى التساؤل ، إذ ما كاد يغلق الهاتف ، حتى عاود الاتصال ليوضح أكثر ، طالبًا منى جلب كل ما لدىّ من أوراق المستندات ، وكشوف الحسابات ، لكى أنزل عنها إلى أختى .

فما كان منى سوى الموافقة .

وحدد للقائنا ظهر يوم الخميس ، أى بعد يومين من ذلك الاتصال ، لقد استمهلته تلك المهلة القصيرة ، لكى أستطيع جمع كافة الأوراق .

بيد أن ما نرتب له شىء ، وما يخطه القدر ، غير عابئ بنا ، شىء آخر ، لقد توقف كل ما كانت السيدة (سارة) تنوى فعله انتصارًا لحفيدتها . توقف نتيجة لوفاتها المفاجأة متأثرة بأزمة قلبية حادة ، فى ظهر يوم الأربعاء ، قبل اليوم المحدد للموعد .

مسكينة تلك المرأة العطوف ، إنى لا أحمل لها سوى التقدير ، على الرغم مما راودها من شك فى أمانتى فى الفترة الأخيرة ، بفعل تلك الوشاية من أختى ، لعل هذه البلهاء أعطت صورة للعلاقة التى كانت بيننا أسوأ مما هى عليه ، لكى تثير حفيظة جدتها على . ومع ذلك لا أعفى نفسى من الملامة ، فقد مكنتها من البرهان بتلك الرواية ، التى تقص مراحل حياة أختى .

ومع هذا ما كان للسيدة أن تطلع عليها ، بعد أن تقدم بها السن وهمدت حيويتها ، فى متابعة الشأن الأدبى ، لو لم تقم تلك البلهاء بلفت انتباهها إلى ذلك .

مسكينة تلك السيدة الطيبة ، كم حزنت وأصابنى الأسى ، ليس لموتها فقط ، وإنما لأنها ماتت قبل أن تعرف أنه ليس ثمة أدنى احتمال إلى أنى قد أفرط فى أموال أختى ، وما كان لى أن أفعل ، حتى لو جرعتنى السم الزعاف ، لعل لى من المبادئ أكثر مما تملك تلك الجدة العزيزة نفسها .

Looloo
www.looloolibrary.com

بيد أن كل شىء توقف بفعل وفاتها . لقد انشغلنا عن إثارة الموضوع مبكرًا ، وكنت أنوى أن أحول إلى أختى كل ما أملك مما يخصها ، بعد أن أبلغنى المحامى عن رغبة السيدة (سارة) ، تلك السيدة الطيبة ، التى تركت فراغًا كبيرًا فى حياتنا .

ولكن ما حدث بعد ذلك لم يدع لى الفرصة لتحقيق رغبة الجدة المتوفاة ، فقد كان خال أختى الأسرع إلى المبادرة ، إذ لم يمض على وفاة أمه سوى القليل من الأيام ، حتى سارع إلى المطالبة باسترداد كل ما يخص ابنة أخته ، مما تركته والدته لها .

كانت البداية معه ، عندما طرد أختى من منزل والدته مع أولادها الستة من زوجيها الأول والثانى ، وكذلك من مقر المؤسسة ، والتى ما زالت ملكًا لجدتها ، التى عاجلتها المنية ، قبل اتخاذ أى إجراء بشأنها .

لقد جاءت وفاة السيدة (سارة) المفاجئة ، ليتوقف كل ما كانت السيدة (سارة) تنتويه ، من استعادة الأموال التى فى حوزتى بعد أن استطاعت أختى هز ثقتها بى .

أجل ، جاءت وفاتها لتحرم أختى من كل شىء ، حتى من البقاء فى المنزل الذى عاشت فيه طيلة هذه المدة ، منذ عثورها على جدتها ، وتم حرمانها من المؤسسة التى تديرها كمنتدى لها ، ذلك الحرمان الذى أفقد أختى توازنها أكثر من أى شىء آخر .

لقد قام خالها بطردها من المقرين ، بعد أيام قليلة من وفاة والدته .

والشىء بالشىء يذكر ، فإن عملية ذلك أن الطرد لم يكن قصرًا على ، فكما طردتنى أختى منه يومًا ، طردت منه هى الأخرى بعد مرور تلك الأيام القليلة من انتهاء العزاء .

ولكن ماذا كان من أمر علاقتى بها فى تلك الأيام العصيبة بعد وفاة جدتها مباشرة ، لقد كنت أتوجس منها إرسال مراسل ، تطلب منى شيئًا من المال أكثر مما يقدم لها كل شهر عادة ، لكى تغطى ما استجد من مصاريف لها بعد طردها من المنزل ، ولكنى فوجئت على الرغم من القطيعة الطويلة التى استمرت بيننا ، أنها تكلمنى مباشرة بلهجتها الآمرة وكأن لها نفس مركز القوة بوجود جدتها ، طالبة شراء منزل جديد ومقرٍ لمؤسستها ، بعد أن استولى خالها على ما هو لها ، هكذا قالت ، ثم لم تتورع فى حديثها معى فى تلك اللهجة المتعالية ، أن تحاول الإيعاز إلى ذهنى موهمة إياى ، بأنه يتوجب عليها الحيطة والحذر فيما يتعلق بالإنفاق من مال فى حوزتها ، ولذا فهى لن تشترى مما تبقى لديها من أموال زوجها الأسبق ، وكأنى لا أدرى عن ذلك السفه الذى كانت تتحلى به ، وأنها استنزفت كل ما لديها من مال ورثته من زوجها الأول .

غير أن ذلك لم يثننى عن مد يد المساعدة لها ، فقد برهنت لها على ما لدى من حسن النية تجاهها ، بأن قمت بدفع ثمن المنزل

Looloo
www.looloolibrary.com

الذى اختارته ، وكذلك مقر المؤسسة الجديدة ، التى افتتحتها باسمها ، لكى تستمر فى ممارسة نشاطها الأدبى كما قالت ، فعلت ذلك حالما طلبته منى بعد أيام قلائل لاتزيد على الأسبوعين من قيام خالها بطردها من المقرين ، بعد وفاة والدته .

وكان من غريب الأمر أن مافعلته ، ليس به مايجدى معها ، وإنما دلل بما لايقطع بالشك ، على ماتتمتع به أختى من حمق . إذ إنها بمجرّد أن حصلت على المقرّين ، حتى عادت إلى ماكانت عليه من سوء الطباع معى ، فعادت إلى طريقتها فى التباعد ، وكأن ليس لدى مما يخصها ، ماقد تفقده جزاء كراهيتى لها ، على الرغم من كل الإجراءات الاحترازية التى اتخذتها الجدة لحفظ الثروة لحفيدتها ، والتى لم تفهمها أختى حتمًا ، ومع هذا لم تدع وسيلة إلا واستخدمتها لإثارة حفيظتى عليها .

وليت الأمر اقتصر علىّ فحسب ، فهذه الجاحدة لم تدع مناسبة تمر أو حتى بدونها ، ما لم تقم بلعن سالف تلك الجدة الطيبة وتكيل لها من الشتائم وإثارة الأقاويل الشنيعة حولها ، بأعنف مما كانت تفعل عند الحديث عن والدتى ، بسبب من عدم ثقة الجدة بها ، فلم تعطها الأموال التى تخصها ، وقد أمنتها عند الغرباء فباتت تلك الأموال فى خطر أكثر مما كانت عليه فى السابق ، ولم تنس أن تكيل لها الشتم أيضًا لأنها حرمتها من الرجل الذى تحب ، كانت تقول ذلك على الرغم من أنه مما لايستدعى قوله ، وقد ذهب الرجل لملاقاة ربه ،

بالإضافة إلى أنها غير خجلى من أنه كان زوجًا لأختها فى يوم مضى .

وكان تفكيرها بتلك الصورة مدعاة إلى تدنى حالتها النفسية فى تلك الأيام بسبب من تلك المشاكل التى كانت تثيرها وحدها فطبيعتها العدائية لم تدع لها مجالاً للركون إلى الهدوء .

وقد عادت عليها سلاطة لسانها بأوخم العواقب ، فقد حدت بخالها ، وبعد سماعه لتلك الشتائم المنصبة على هامة والدته المتوفاة ، إلا أن يسارع إلى رفع دعوى قضائية فى المحاكم ، مطالبًا بلجم لسانها عن التشهير بوالدته ، مستفيدًا بكم من الأشرطة التسجيلية ، لا أدرى من أين أو كيف حصل عليها . كانت تلك الأشرطة تتضمن أحاديث مطولة لأختى ملؤها سباب لوالدته ، معرية جدتها من كل حسنة فيها .

وقد تكشف لى من خلال سماعى إلى تلك الأشرطة ، أنها لم تحب جدتها فى أيما يوم مضى ، على الرغم مما أبدته من فرحة غامرة ، فى اليوم الأول للقياها .

فقلت لنفسى ، ربما لأنها لم تحظ بتربيتها ، وهى بعد طفلة ، وأن ماكانت تظهره لجدتها ماكان إلا خدمة لمصالحها ، ولكن هأنذا وقد ربيتها ، فلم أر منها سوى العقوق ، إذن لعل من الأرجح أن تلك الأخت لم تحب أحدًا قط سوى نفسها .

عرفت بتلك الأحداث ، عندما جاء خال أختى إلى مقر المؤسسة الخاصة بى ، التى ليس لأختى أى نصيب بها .

Looloo
www.looloolibrary.com

جاءنى بعد ثلاثين يومًا من وفاة والدته ، وكانت الأيام الثلاثة الأولى منها ، هى الأيام الأخيرة ، التى دخلت بها منزل السيدة (سارة) الكبيرة ، بعد وفاتها ، لقد قسرت نفسى على دخول ذلك المنزل الذى طردت منه ، لتلقى العزاء بتلك المرأة الطيبة ، ولكن لم أدخله بعد ذلك أبدًا .

لقد جاء خال أختى ، بعد هذه المدة القصيرة من وفاة والدته ، ليطالبنى برد المال الذى فى حوزتى مما يخص أختى ، وبعد القليل من عبارات المجاملة التى لم أعتدها منه ، ربما قالها لوجوده فى مكتبى ولاضطراره إلى التعامل معى ، قال :

ـ أعلم أنك سيدة ذات ضمير حى ، يشهد لك بذلك حرصك الشديد على ما أودع لديك من مال ليس لك ، وعلى الرغم مما نالك من الأذى ، ومما عانيت من تلك البلهاء ـ يعنى أختى ـ كما نعتها فى روايتك الأخيرة ، ومع هذا ما زلت تحافظين على الأموال المودعة باسمك من أجلها دون مساس ، واعذرينى لقصر المدة على وفاة والدتى ، ثم مجيئى ، فقد ترامى إلى سمعى ، أنك ابتعت لها منزلاً ومقرًا آخر تتخذه منتدى أدبيًا ، بما فى حوزتك من أموال والدتى ، فخشيت أن تهبيها أموالاً أخرى ، هى فى الحقيقة ليس لها بها أى حق .

ومد يده التى كانت ممسكة (بشيك) يحوى مبلغًا من المال ، واستتبع :

ـ خذى هذا المبلغ وأعطيه إلى أختك ، فأنا أعرف أنها على وشك الإفلاس ، لتبدأ به حياة جديدة ، وادعيها إلى العودة إلى بلدها ، فليس لها مكان بيننا ، ولتعد لى كل ما أخذته من والدتى ، دون وجه حق .

أما أنت فأعيدى كل ما لديك من أموال ، أو عقار أمنتها لديك والدتى من أجل أختك ، فأنا أكيد أن والدتى لم تكن جدة لها ، وإنما خيل لها ذلك لشدة حزنها على ابنتها القتيل ، ويمكن لأى امرئ أن يتأكد أيضًا بمجرد أن يستمع إلى شتائم تلك البلهاء ، إنها بأى حال لا يمكن أن تصدر من حفيدة حقيقية إلى جدتها ، التى تجمعهما رابطة دم واحدة .

ومادام أن الهيئات الحكومية لم تعترف بتلك القرابة ، فلماذا يتوجب علينا نحن الاعتراف بها ؟

رددت يده القابضة على (الشيك) ، وقلت له :

ـ على الرغم من الخلاف الذى بينى وبين أختى ، إلا أننى لا أوافقك الرأى ، إذ ليس فى مقدورى نكران أنها حفيدة لوالدتك وأنها ترتبط معها برابطة الدم مثلك تمامًا ، أجل إن معرفتى بصورة مؤكدة بأن والدتك هى جدتها لأمها لا تمكننى من نكرانها ، لقد عرفت بذلك من أبى نفسه ، ولا يمكن من أى كان أن يؤثر على قناعتى بهذا الأمر .

ثم ، وحتى لو لم تكن كذلك جدلاً ، فإنك لا تستطيع طردها من بلدها ، ونزع ما تملكه من إثبات يحقق لها الانتماء ، لأن

Looloo
www.looloolibrary.com

انتماءها لهذا البلد لم يأت عن طريق الانتساب إليكم . فظل محتفظًا بما ترغب إهداءه إليها من مال بهدف التعويض عليها، أو قدمه إليها بنفسك إن أصررت ، ولكن اعلم أن ما لدى من مال يخص ابنة أختك ، ما هو إلا هبة من جدة حقيقية إلى حفيدتها ، وليس لك فيه أى حق ، وسوف أكون قيمة عليه طيلة ما أنا حية ، أصرف لها منه كلما أرادت ذلك ، وبالقدر الذى ترغب فيه ، إلى حين وفاتها ، أو وفاتى قبلها ، وعند ذلك سوف تجد وصية على شكل وثيقة بيع منى إليها ، تسهل لها الحصول على مالها ، من مال مودع لدى ، كما كانت الجدة ترغب ، فأرجو أن تتفهم دوافعى ، وتتجنب إحراجى برفض طلبك .

فقال :

ـ لو لم أر من آيات إخلاصك ، لظننت بأنك طامعة بتلك الأموال الطائلة . بيد أنى فى أشد العجب من عمق هذا الإخلاص الذى أنت عليه ، فعلى الرغم مما عانيته وتعانيه منها ، وعلى الرغم من سرقتها لزوجك السابق من أحضانك ، وقد سمعت بأنها كانت السبب فى طلاقك منه ، إلا أنك ما زلت حريصة على مصلحتها .

رددت بصدق :

ـ كلا ، ليس كما قد تبادر إلى ذهنك ، فأختى لم تدع نبضًا فى قلبى يحن إليها ، ولم يكن غرضى من متابعة مصالحها

حرصًا منى على خدمتها ، وما فعلت ذلك إلا لأداء أمانة عهد لى بها ، ولن أخذل السيدة (سارة) وهى فى رقدتها الأخيرة ، بعد أن أكرمتنى ، وهى قائمة تسعى .

فقال ضاحكًا ومقدرًا :

ـ يؤسفنى أن مبادئك ستكلفنى كثيرًا .

فرددت له الابتسام ، وأنا أقول :

ـ لو لم تكن لى مبادئ ، فأنت أيضًا لن تحصل على شىء مما فى حوزتى ، إذ ربما أغتصب ما أودع لدىّ لنفسى . وهأنت ترى أنه فى كلتا الحالتين أنت الخاسر ، إذا كان ما وهبته والدتك إلى حفيدتها يعتبر خسارة لك .

فقال وهو ينهض :

ـ على أية حال سوف نرى ، ولكن عليك ألا تفاجئى ، ربما أحصل على حكم قضائى يقضى باسترجاع أموال والدتى منكما أنتما الاثنتين .

أجبته :

ـ افعل ما بدا لك ، أى ما تراه مناسبًا ، وسوف أنفذ الأمر القضائى فور صدوره ، ولكن لا أظن أن ذلك سيكون لصالحك ، فإن ما يهبه الإنسان فى حياته لايستعاد بعد مماته ، هذا بالنسبة إلى ما وهبتنى إياه الجدة ، أما ما يخص أختى فإن والدتك كانت حريصة فى أخذ الاحتياط لكل شىء ، لأن لديها الكثير من

Looloo
www.looloolibrary.com

الفهم للأمور القانونية والمالية ، ولذا فقد سجلت ما وهبته لحفيدتها بيعًا منها وشراء منى ، وكذلك أخذت منى ما يلزم لإثبات حق حفيدتها ، وبذلك لا أظن أنك ستكسب أى دعوى قضائية بهذا الشأن ، ومن رأيى أن توفر جهدك ، وتكتفى بطردك لها من المنزل الذى عاشت فيه هذه الفترة من عمرها ، تحظى برعاية جدتها ، وطردك لها من المؤسسة والاستيلاء بمفردك على كل ما لتلك المؤسسة من أموال مودعة فى البنوك ، وأظن هذا يكفى ، فابنة أختك لم يتبق لها ما تعتمد عليه من موارد سوى ما لدى مما يخصها .

فقال :

ـ ليست ابنة أخت لى ، أرجوك لا تدعى عواطفك لأختك تملى عليك أقوالاً ليس لك الحق فى إطلاقها ، ثم إن لديها أموال زوجها الأول ، لقد كان ثريًا .

فقلت :

ـ أنت تعلم أنه لم يصبها من ذلك الثراء سوى الثمن ، مما يملكه ذلك الزوج ، والباقى لأولاده منها وأولاده من زوجته الأولى . وقد بذّرت فى سفه ، معظم ما نالها من تلك التركة ، على تلك المجموعة من الطامعين ، الذين يحيطون بها ، وينمقون لها الكلام ، ويأخذون مكانه نقودًا ، تتسرب من بين يديها ، كما يتسرب الماء الزلال من نبع صاف .

فقال بغضب :

ـ هذا ليس من شأننا ، لتذهب إلى الجحيم بسوء تصرفها ، ولماذا أهبها مالاً ، ألكى تبدده أيضًا على أولئك المرتزقة ؟

فقلت :

ـ ولكنه من شأنى ، إنها أختى على أية حال ، ثم إكرامًا للسيدة (سارة) ، التى أكرمتنى .

فردّ بعصبية :

ـ كونها أختك ، فهذه حقيقة ، وليتها قدرت هذه الأخوة التى تشعرين بها نحوها ، أما والدتى فليست بجدتها ، لقد كانت منساقة مع عواطفها دون أن تدرى .

ـ كلا ، إن والدتك على حق ، وهى ليست بالمرأة التى تقودها العاطفة .

فقال بعناد التيس الحرون :

ـ سوف أثبت نسب هذه (العاتكة) إلى أبيك ، وسوف نرى .

عندئذ فهمت من أين اكتسبت أختى صفاتها الوراثية فى ذلك الغباء العنيد الذى هى عليه ، فقلت له :

ـ ليس لهذا دخل بالأموال التى فى حوزتى ، ثم إن نسبها مثبت فى الأوراق الزائفة التى استخرجها والدى لها ، وهذه الأوراق على الرغم من زيفها إلا أنها معترف بها على الصعيد القانونى ، وكان من جرائها أن أختى لم تحصل على انتمائها

Looloo
www.looloolibrary.com

لبلدها الأصلى عن طريق الانتساب إليكم ، وهكذا ترى أن الحقيقة الورقية هى المنتصرة على الحقيقة الواقعية ، كما يحدث غالبًا ، ومع هذا افعل ما فى ميسورك ، مع العلم مسبقًا ، أن كل ما سوف تقوم به ، سيعود بغير طائل ، فالأموال ، أنا التى أمتلكها ، وأنا حرة التصرف بها ، أهبها لمن أشاء .

وانصرف خال أختى ، يتلبسه الغضب ، ولا يريد أن يثنيه شىء عما اعتزمه من اقتتال قانونى ، بشأن انتزاع الثروة من يد ابنة أخته .

وبعد قلة من الأيام من تلك الزيارة ، أتانى إشعار بإقامة ادعاء قضائى يطالب باستعادة ما لدى من عقار مشترى منى ومباع من السيدة (سارة) ، ببينة أنى لم أدفع ما يقابله ثمنًا له ، وأنى أتيت من موطنى إلى هنا فقيرة معدمة لا أملك شروى نقير ، وأن عملية الشراء لكل ذلك العقار صورية لا يعتد بها لعدم دفع ما يقابلها ، وهى فى الحقيقة هبة لا أستحقها من المالكة الأصلية السيدة (سارة) ، التى لا أمت بأية صلة قرابة لها ، مما يضر بمصالح الوارث الحقيقى .

فكان من جراء ذلك ، أن تم الحجر على كافة الأموال التى فى حوزتى مما يخص أختى إلى إنهاء عملية التقاضى .

ومما أثار دهشتى أن ذلك الخال لم يطالب بما لدى من أموال وهبتها الجدة لى ، إما بسبب تفاهة ما أملكه فى نظره ،

مع أنى أرى أن ما لدى يعتبر أموالاً طائلة ، أو أنه لم يرد فتح جبهتين فى آن واحد .

المهم أنى ابتهجت لهذا الأمر ، فليتصارع مع ابنة أخته ما شاء لهما الصراع ، فهذا ليس من شأنى ، وسأقف موقف المتفرج إلى أن ينتهى أمر النزاع بينهما ، وبعدها سأنفذ الأمر القضائى لصالح أى منهما .

ثم تواتر إلى سمعى كما ذكرت ، أن إشعارًا آخر ذهب إلى أختى ، مطالبًا لجم لسانها عن مطاولة والدته بالسب والتجريح ، ومطالبًا بالتعويض الأدبى والمادى عما صدر منها من تشويه لحق بوالدته .

وعندئذ بادرت بالاتصال الهاتفى مع أختى ، وكان ذلك أول حديث يبدر منى مباشر منذ جفوتها لى ، بعد وفاة جدتها وشراء المنزل لها ، أخبرتها بأمر الحجز على أموالها التى لدى ، وقلت لها إنى سوف أتخذ إجراءات الوصية التى سوف أتركها بعد وفاتى مع محامى جدتها ، كما كانت الجدة ترغب به قبل وفاتها ، (رحمها الله) .

وكانت أختى تستمع ولا ترد ، إلى حين رجوتها ناصحة ، بأن تكف عن شتم جدتها الطيبة ، كى لا تؤلب الرأى العام ضدها ، خصوصًا وأن خالها أقام ضدها ادعاء قضائيًا بهذا الشأن ، وأن لديه تسجيلاً بصوتها تشتم فيه جدتها ، وأن ذلك بدأ يتسرب إلى الناس ، ورجوتها أن لا تزيد الطين بلة ، وأنه

Looloo
www.looloolibrary.com

ليس بمستبعد عن تناول الصحف ما تشيعه عن جدتها ، فقد يتخذ ذلك دليلاً على عدم انتمائها إلى عائلتها ، وبذلك تكون خسارتها مؤكدة فى مواجهة خالها ، وقلت أيضًا ، وعندئذ سوف تفقدين كل أمل لك بكسب القضية ضد خالك .

عندئذ قالت بصلف وغطرسة :

ـ إن ذلك من الأمور العائلية التى تخصها وذويها ـ تعنى جدتها وخالها ـ وقالت :

ـ بما أنك غريبة عنا ، فليس من حقك التدخل فى شئوننا الخاصة حتى لو كان بالنصح والإرشاد ، فأنت لست أعلم منى بشئونى على أى حال .

ثم قالت آمرة :

ـ عليك أن تدفعى كل ما أحتاجه من مصاريف ، حتى مع وقوع الحجز على البعض من الأموال ، فلديك ما هو موهوب لك من الجدة .

انتابنى الغيظ بعد سماع ردها على نصائحى ، فوق ما تتحمله أعصابى ، عندئذ رددت عليها :

ـ آسفة ، ليس بوسعى دفع أية مبالغ من مالى الخاص .

فقالت هازئة :

ـ أى مال خاص لك ؟ جلبته معك إرثًا من والدك المدقع ؟ إن كل ما تملكينه هو لى ، حتى وإن كان موهوبًا لك من جدتى ، نتاجًا لتملقك إياها .

ثم أردفت قائلة بغضب متزايد :

ـ أنا لا أريد وصية ، تلك التى يوصى بما هو حق مشروع لى .

ثم قالت :

ـ إنها تأمرنى أمرًا ، بإعادة ما لدى من أموال ، حال رفع الحجز عنها .

أحسست دماء حارة تتدفق إلى رأسى ، ولأول مرة أستعمل معها الحدة فى الكلام المباشر حول ما لدى من مال ، فأعلمتها رفضى لكل ما جاء بحديثها ، وأضفت بقولى :

ـ كلا ، لن أعيد إليك أية عقار حتى ذلك الذى هو خاص بك ، وكذلك أية أموال سائلة لك ، حتى ولو كانت مقدار فلس واحد ، أو أرضًا طولها شبر واحد ، ولن يحول لك إلا ما ينتجه ذلك العقار من مال ، وما تدره لك الودائع من أرباح ، ثم أنى لست خاضعة إلى سلطانك ، لكى أتلقى أوامرك كما قد تظنين .

وكان قرارى ذاك ، وليد اللحظة ولم يكن ناتجًا من حرصى على مصالحها ، كما كان فى السابق ، فقد بلغ بى السيل الزبى ، وأردت أن أفعل كل ما هو مؤلم لها .

وعندئذ صرخت بى :

ـ لِمَ لا تقولين إنك طامعة بأموالى ، مثل خالى ؟

فلم أرد عليها ، وأغلقت الهاتف ، وعندما طلبتنى فى اللحظة نفسها ، نبهت على السكرتيرة أن ترد بالقول ، بأنى غادرت

www.looloolibrary.com

المكتب لشأن لى ، ومنعتها من تحويل أية مكالمة منها لى ، لا اليوم ولا فى أى يوم آخر .

وعندئذ شتمت سكرتيرتى ، وهددت بأنها سوف تقلب الكون فوق رأسى ، وأنها سوف تتعاون مع خالها ضدى .

مسكينة تلك البلهاء ، إنها حتى لا تعرف ما تهدد به ، لتفلق الحجر ، ولتفعل ما تشاء ، بل ليصبها ما يصيبها فلم أعد أعبأ بها .

وأظن أنها هى الأخرى ، لن تعبأ بالقضايا المقامة ضدها ، ومنها قضية التزوير بمحرر رسمى ، عندما انتحلت صفة غير صفتها ، التى انتهز خالها الفرصة ، عندما ذكرت صفتها الكاذبة فى أثناء نظر القضية بينها وبين خالها ، وقد مهدت لخالها كسب القضية ، وفوق ذلك ، لم تقدر حجم المعاناة المادية التى سوف تتعرض لها فى حياتها المقبلة ، وقد صدر الحكم لغير صالحها ، ربما لأنها فى هذا الوقت لديها القليل مما يفى باحتياجاتها ، ولا أظن إلا أنها ستكون مفلسة فى القريب العاجل .

وفى آخر مرحلة من مراحل العلاقة بينى وبين أختى ، والتى لم أعد بعدها إلى رؤيتها أو الحديث معها إطلاقًا ، قمت بزيارة لها فى منزلها الجديد ، لكى أبلغها بالخسارة التى لحقت بها فى أمر التقاضى بينها وبين خالها ، ويا لهول ما رأيت من حالها فى سردابها الجديد ، فعلى الرغم من اقتراب وقوعها فى دائرة الإفلاس المغلقة ، إلا أنها لم ترعو ، فما انفكت ترقص

فى حلقة من رواد سهراتها ، أولئك المرتزقة من أصحاب الأقلام المباعة الذين ما زالوا يستقطبونها إلى الصرف الباذخ ، يحيطون بها مصفقين مع عزف الموسيقى طربًا لتمايل خصرها ، ففكرت وأنا أولى هاربة مما رأيت ، لا بد أنهم غدًا سيقدمون لها صحفهم الثقافية كمكافأة لها على ما يتمتعون به من كرم ضيافتها ، مرصعة بصورها فى أكثر من حيز ، ملقبة بأقلامهم بالأديبة المرموقة ، كما جرى العهد دائمًا .

فلم أملك وأنا أصعد درجات السلم عائدة إلى منزلى ، إلا أن أعجب وأسخر فى آن واحد من غرابة المسخ والتشويه فى تصريف أمور واقعنا الثقافى ، فى عالمنا الثالثى .

* * *

[تمت بحمد الله]

Looloo
www.looloolibrary.com

أدبيات
تبع الآداب والثقافة المعاصرة

البلهاء

طيبة أحمد الإبراهيم

رواية البلهاء ، هى الرواية العاشرة من روايات المؤلفة ، وتنفرد بانها تختلف عما كتبته المؤلفة من روايات فى الخيال العلمى أو فى المنحى الاجتماعى التى سبقتها ، بكونها ذات وقائع تاريخية قريبة جدًا من الحقيقة للسيرة الذاتية للبطلة ، وغالبية معلوماتها مستقاة من البطلة ذاتها ، فى أثناء ثرثرتها عن نفسها ، فى المحافل الخاصة والعامة ، ولكن للمحاذير جرى تبطنها بمغاز متعددة الجوانب ، قد تكون مغلفة بمسميات لأمور لا تمت بصلة لما سميت به ، مثلا الرمز المتحدث عن مطلب الانضمام إلى اتحاد الأدب ، يرمى إلى إقحام نفسها فى مجال لاتملك فيه اية موهبة حقيقية ، وكذلك مطلب الانتماء إلى الدولة التى تعتبرها أصلا لها ، ماهو إلا رمز لمطلب الحرية التى تنشدها البطلة وتسعى إليها جاهدة للانعتاق من القيود الأسرية المكبلة والضاغطة ، التى جاءت من تراكمات العادات والتقاليد التى تضيق بها البطلة ، مما دعاها إلى الزواج من شيخ طاعن فى السن لكى تحصل عليها ، وعندما اتيح لها نيل ماتطلب ، خرجت بنشوز ناتج من قلة التعقل ، مصحوب بما تملكه من ضحالة الفكر المطبوع فيها ، والجهل لعدم تعلمها ، فخرجت من إطار الحرية الملتزمة إلى الفوضى الضارة .

هيا نخض فى أعماق الشخصية ونتعرفها ، فقد نفاجأ بما لاتتوقعه ، فنرى أصدقاء المؤلفة وأعداءها يتصارعون ، أو نرى تركيبة من جميع من تعرف كعادة الأدباء عندما يؤلفون .

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة